أَسْرار كاسْترُو

وكالة الاستخبارات المركزية CIA
وجهاز المخابرات الكوبي DGI

برايان لاتل

ترجمة
وليد شحادة

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

أسرار كاسترو

وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) وجهاز المخابرات الكوبي (DGI)

ISBN: 978-9953-27-975-6

Authorized Translation from the English Language Edition:

Castro's Secrets

الناشر

دار الكتاب العربي

قردان، شارع رشيد كرامي
بناية بنك بيبلوس، الطابق الثامن
ص. ب. 11-5769
بيروت 1107 2200 لبنان

DAR AL KITAB AL ARABI

Verdun Rachid Karame St.,
Byblos Bank Bldg. 8th floor
P.O. Box 11-5769
Beirut 1107 2200 Lebanon

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف
Fax (+961 1) 805478 فاكس

بريد إلكتروني **daralkitab@idm.net.lb**
academia@dm.net.lb

www.kitabalarabi.com
www.academiainternational.com

الإهداء

وأهدي هذا الكتاب

أيضًا إلى جيل

وإلى

ابنينا

جيروم سيمون "جيري" لاتل

و

جون راي لاتل

"أعترف أنني فكرت كثيرًا في قصة جون ف. كينيدي المؤلمة.

كان قَدَري أن أعيش في حقبة هو فيها عدو الثورة الأعظم والأكثر خطرًا".

فيدل كاسترو

24 نيسان/أبريل 2009

المحتويات

جميع العبارات الواردة في هذا الكتاب في دلالاتها على واقعة أو رأي أو تحليل هي للمؤلف وحده ولا تعكس مواقف أو آراء رسمية لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) أو اي جهة حكومية أخرى في الولايات المتحدة. ولا ينبغي تأويل قول يرد في محتويات هذا الكتاب على أنه يؤكد، أو يتضمن، مصادقة حكومة الولايات المتحدة على المعلومات، أو مصادقة الوكالة على آراء المؤلف. خضعت مادة هذا الكتاب لمراجعة وكالة الاستخبارات المركزية لغرض التأكد من عدم الكشف عن معلومات تصنَّف بالسرية.

شكر وتقدير

لم يتسن لهذا الكتاب أن يرى النور لولا تعاون فلورنتينو اسبلاغا لومبارد Florentino Aspillaga Lombard، المنشق الأكثر أهمية والأغلى ثمنًا من كل من هرب من الأجهزة السرية التابعة للأخوين كاسترو. ومع ذلك لا بد لي من الإشارة إلى أن ثمة آخرين ممن أباحوا لي بأسرار مذهلة كانوا في السابق ضباط أمن واستخبارات كوبيين، أذكر منهم خوسيه ماراغون وفرنشيسكو كومبوستيلا لازارو بيتانكورت، وميغل مير، وروبرتو هيرنانديز ديل لانو، وخوان سانشيز كريسبو، وهم جميعًا أدين لهم بالشكر الخاص.

وأدين بالشكر والعرفان أيضًا للكثيرين من ضباط العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه CIA) – وكلهم تقريبًا أغفلت أسماءهم – الذين حدثوني عن ذكرياتهم وتحليلاتهم القيّمة. وممن قدم لي أيضًا مساعدة قيّمة المسؤولون عن الأرشفة وأمناء المكتبات في "دائرة الأرشيف الوطني" National Archives في كوليج بارك بولاية ماريلاند و"مجموعة التراث الكوبي" في جامعة ميامي و"أرشيف هوفر" Hoover Archives في جامعة ستانفورد. وأخص بالشكر خورغي ملشادو وبيل راتليف بجامعة ستانفورد، ستيف تيلي وماري كي شميدت وآمي دي لونغ في الأرشيف الوطني، وإسبرانزا دي فارونا في جامعة ميامي.

قدم لي زملائي جميعًا في معهد الدراسات الكوبية والأمريكية الكوبية في جامعة ميامي مساعدتهم بوسائل بالغة الأهمية وبخاصة جيمي سشليكي وبدرو رويغ، وهذا الأخير عندما كان مديرًا لإذاعة وتلفزيون مارتي Marti. ولا أنسى مساعدة كل من كلاريسا لرغويللو في مكتبة ريشتر Richter بجامعة ميامي

وكارينا غوتييريز اللتين إليهما يرجع الفضل في العثور على أعمال مجهولة غير منشورة.

كان المؤرخان الشهيران في الاستخبارات كيث ملتون وهايدن بيك جاهزين دومًا كلما احتجت إلى مشورتهما. ولم يتوان أي من دون بوهننغ ودان فلوريس وألبرت هيرنانديز وهوارد جونز وديفيد لوكس وأوكتافيو راموس وآي. سي. سميث وسالي سوينسون كاشيو وخوان تامايو وجو أوربان عن مد يد العون لي كلما احتجت إليهم. أما زميلاي القديمان بات ماهر ومارتي روبر فقد قدما لي رأيهما حول أسلوب المسودة الأولى ما شكل لي فائدة كبرى. ولن أنسى المساعدة التي قدمها لي كل من أكسل غيلدن وجان دانييل في باريس بكل مودة وصداقة كان لها شأنها في صوغ وتوجيه بعض أجزاء هذه القصة. كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى آخرين قبلوا أن أحاورهم فعاونوني كثيرًا وهم يعرفون مدى تقديري لهم ولمساعدتهم واحترامي لرغباتهم بأن تبقى أسماؤهم مغفلة.

محرر الكتاب، لويا أوستاشفسكي، قدم لي الكثير من التشجيع والنصح اللذين كنت بحاجة لهما. أما مدير أعمالي ستيرلنغ لورد، مؤسس ورئيس مؤسسة Sterling Lord Literistics، وهو أفضل من عمل بهذه الأعمال لعقود من الزمن، فقد كان الحليف الأقوى والأشد جرأة. حسن، إلى جانب هؤلاء جميعًا أعرب عن خالص شكري لزوجتي جيل التي بكل صبر وأناة قرأت كل جملة وردت في جميع النسخ من بداية العمل إلى نهايته. وكما كانت دومًا فهي حصني المنيع الذي لا أغادره.

ملحوظة المؤلف

تجدون على صفحات هذا الكتاب كلام أشخاص يفوق عددهم العشرة من المنشقين الفارين عن أجهزة كوبا الأمنية والاستخبارية النخبوية. عملوا إبان مراحل مختلفة لصالح الأخوين كاسترو بإخلاص وتفان قل نظيرهما، يقارعون وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه CIA) منذ فجر ثورة كوبا وحتى أواخر التسعينيات، وذلك حتى اتخذ كل واحد منهم قراره للهروب واللجوء إلى المسؤولين الأمريكيين الذين رحبوا بهم. وقد تعيّن على قلة من هؤلاء الشجعان أن يعيشوا مجهولين وبهويات جديدة قدمتها لهم السلطات الفدرالية بسبب صدور أحكام بالإعدام بحقهم من قبل الحكومة الكوبية.

لكن فلورنتينو أسبلاغا لومبارد، المنشق الكوبي الأكثر علمًا ومعرفة من كل الذين بدّلوا مواقعهم يظهر على صفحات هذا الكتاب باسمه الحقيقي، علمًا أنه عاش باسم جديد منذ عام 1987 بعد أن نجا من محاولتي اغتيال نفذهما عملاء كوبيون. وافق أسبلاغا على أن يشاطرني حكمته الشخصية في نحو خمس عشرة ساعة من مقابلات مسجلة. وأعطاني أيضًا نسخة من مذكراته الشخصية والمهنية التي تبوح بالكثير من الأسرار التي كتبها عقب قدومه إلى الولايات المتحدة مباشرة. لم يظهر شيء تقريبًا من مذكراته هذه إلى العلن. ولم يطلب مني شيئًا مقابل قصته هذه، ولم يضع خطوطًا حول طريقة روايتي لها، وليس له أي مصلحة تنتج عن طباعة هذا الكتاب ونشره.

أجريت مقابلات وحوارات كثيرة مع منشقين من ذوي الرتب العالية كانوا يعملون في الجهات الاستخبارية والاستخبارات المضادة لدى الأخوين كاسترو وفي فرق الكوماندوس. بعض هؤلاء يتحدثون بأسمائهم الحقيقية وأما غيرهم فقد

رأيت أن من الأفضل أن أغفل أسماءهم لحمايتهم. (عندما تتغير الأسماء، أبلغ القارئ بذلك.) هؤلاء المنشقون جميعًا كانوا على علم أكيد بأن الغاية من حواري معهم هي كتابة هذا الكتاب وإماطة اللثام عن أسرار وجرائم الاستخبارات الكوبية على مدى نصف القرن المنصرم. وهم أيضًا لم يطلبوا شيئًا مني أكثر من مجرد تذكيري بين وقت وآخر بضرورة توخي الدقة عند سرد قصصهم.

وهم جميعًا يعرفون عملي الاستخباري الخارجي على مدى ثلاثة عقود ونصف العقد من السنين لدى وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه CIA) ومجلس الاستخبارات القومي. ومعظمهم قرأ كتابي السابق *After Fidel* وكانوا مطمئنين عند اجتماعهم بي، أو لعل معظمهم كذلك في مناسبات عدة. لم ألتق أحدًا منهم إبان عملي في الحكومة، مع أنني كنت ملمًا بقسم كبير من تجاربهم أو مما كانوا يذكرونه أمامي. وكنت أعلم، وفي كل مناسبة تقريبًا، على سبيل المثال، مدى تقدير السلطات الاستخبارية الأمريكية لهم، ومدى دقة تحقق هذه السلطات من صدقهم.

ومع ذلك، كنت أطبق أثناء لقاءاتنا معظم الأساليب الصارمة المتبعة لدى ضباط الاستخبارات وضباط تطبيق النظام عند الاستجواب واستخلاص المعلومات. وفي بعض الأمثلة كان باستطاعتي التثبت مما يقوله منشق من خلال طرح أسئلة على منشق آخر لم يكن يعمل قريبًا منه في كوبا. وقد أتاحت لي معرفتي من موقعي مؤرخًا للأخوين كاسترو وثورتهما – إذ كنت محللًا في مكتب كوبا لدى السي آي إيه، وموظف استخبارات قومي لأمريكا اللاتينية، ومحاضرًا جامعيًا على مدى ثلاثين عامًا في جامعتي واشنطن وميامي – أن أطرح أسئلة عليهم تدل على خبرة وثقة. وعندما أعاد أحدهم سرد قصة مثيرة للاهتمام بشكل خاص ردًا على أحد أسئلتي قال لي: "لم يسألني أحد هذا السؤال من قبل".

كنت أيضًا أدقق ما يروونه من ذاكرتهم مقابل ما يذكره كثيرون من موظفي السي آي إيه السابقين من الذين أجريت مقابلات معهم. معظمهم تقريبًا طلبوا إغفال هوياتهم، ومع ذلك تحدثوا معي بصراحة في لقاءات عدة أو في

أحاديث على الهاتف أو بالمراسلة. وكان من حسن طالعي أنني عرفت عددًا لا بأس به من كبار موظفي السي آي إيه ممن غابوا عن الحياة الآن والذين كانت لهم أدوار تثير الجدل والفضول في الحروب الكوبية في أوائل الستينيات وقد وردت أسماؤهم بهذا الكتاب. أجريت معهم حوارات قبل وفاتهم. ومن حسن حظ المؤرخين أن قصصهم ليست دومًا على ذات القدر من الثبات والتناغم.

قادني بحثي بحكم الضرورة لأن أطلع على مئات الآلاف من الصفحات لوثائق السي آي إيه التي رُفعت عنها السرية والمحفوظة في دائرة الأرشيف الوطني. لا توجد مجموعة نفيسة أخرى في تاريخ العمل الاستخباري الأمريكي تميط اللثام بمثل هذه الدقة المؤلمة عن أسرار عملياتية كانت عالية الحساسية مثل تلك السجلات ذات الصلة باغتيال الرئيس جون كينيدي. فالتشريع الذي تبناه الكونغرس ووقّع قانونه الرئيس بيل كلنتون عام 1992 استحدث "مجلس مراجعة سجلات الاغتيال Assassination Records Review Board". وكان لدى أعضاء هذا المجلس السلطة لطلب رفع السرية عن جميع وثائق الحكومة الأمريكية التي يعدونها ذات صلة بعملية الاغتيال الواقعة في مدينة دالاس. في منصبي الأخير في السي آي إيه عندما كنت مديرًا لمركز دراسة الاستخبارات في الفترة 1994 – 1998 كان الضباط في مجموعة المراجعة التاريخية في المركز – ومعظمهم من المتقاعدين العاملين بعقود – مسؤولين عن رفع السرية عن وثائق السي آي إيه. وكان موظفو قسم التاريخ في السي آي إيه أيضًا جزءًا من المركز الذي كنت مديره.

قرأت الآلاف من تلك السجلات التاريخية منذ إحالتي إلى التقاعد – فهي تتضمن تقييمات المقر العام ويقوم بها المحللون ورجال المباحث وبرقيات ميدانية واستجوابات وتقارير كشف الكذب، وتقييمات الجواسيس العاملين لصالح السي آي إيه وقصص تاريخية لهذه الوكالة – وقد رفعت السرية عن جزء كبير منها وأرسلت إلى دائرة الأرشيف الوطني على مضض وخوف كبيرين. سوف يتعرف القراء لأول مرة على هويات عملاء السي آي إيه السريين وعمليات الخداع التي نفذت بنجاح ضد فيدل كاسترو ورؤساء الاستخبارات لديه وعن آلية العمل داخل

الاستخبارات الكوبية وتفاصيل غير معروفة سابقًا عن محاولة اغتيال فيدل كاسترو التي جرت بتدبير من السي آي إيه في عهد الرئيس كينيدي.

كان ذلك كشفًا للوقائع غير عادي قدمه أسبلاغا في أول لقاء لي معه، وهذا ما قادني لسلوك الدرب المتعرج الذي سلكته هذه الرواية. أخبرني بالأمر الذي تلقاه في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم الذي فيه أطلقت النار على كينيدي، وهذا ما يؤشر بقوة إلى معرفة الحكومة الكوبية المسبقة لما كان لي هارفي أوزوالد Lee Harvey Oswald يعتزم فعله. كنت متشككًا في بادئ الأمر، ذلك أن بحوثي على مدى الأعوام القليلة المنصرمة قادتني إلى تقارير رفعت عنها السرية وردت من مصدرين موثوقين ينتميان إلى أسرة الاستخبارات الأمريكية - وقد توفيا - كان من شأن روايتيهما حول أوزوالد وضباط الاستخبارات الكوبية أن أيدتا ما قاله لي أسبلاغا.

غير أن هذا الكتاب ليس كتابًا يقتصر موضوعه على جريمة هي الأكثر توثيقًا والأسوأ سمعة في القرن العشرين. بل هو أول كتاب ينفذ إلى أعماق عمل واحدة من أفضل الأجهزة الاستخبارية في العالم وأكثرها عدائية، تعرف الآن بأنها كانت بقيادة فيدل كاسترو شخصيًا لما يقرب من خمسين عامًا حيث يعمل بصفة قائد الجاسوسية الأعلى في كوبا. كان المنشقون جميعًا على رأي واحد بأنه يكاد لا يكون ثمة شيء له أهميته في العمليات الاستخبارية الكوبية ضد الولايات المتحدة إلا ويكون بتدخل مباشر من كاسترو. لهذا، فإن هذا الكتاب يروي قصة عنه متعددة الطبقات: عن شخصيته وعن مواهبه التآمرية، وعن جرأته ووقاحته، وعن نكائه المنحرف والمراوغ وكراهيته للولايات المتحدة. لهذا فإن أسراره العديدة التي ينكشف الغطاء عنها هنا لأول مرة تميط اللثام عن فيدل كاسترو من نواحي عدة لم يقدّرها أحد من قبل حق قدرها.

الفصل الأول

أفضل كفاءة منّا

جلسنا إلى طاولة نتحدث بهمس في ركن من أركان مطعم يبعد بضعة أميال عن مقر السي آي إيه في قرية لانغلي Langley الصغيرة بشمال فرجينيا. كان صديقي قد تقاعد من عمله قبل سنوات، لكنني ما زلت أراه الخبير الذي لا يدانيه أحد في هذه الوكالة في الأجهزة الاستخبارية الاستثنائية التي يقودها فيدل كاسترو. فقد كنت أسعى للحصول على تحليلات وحكايات، عن قصص نجاح وفشل حول مقارعة السي آي إيه لعقود من الزمن مع الجواسيس الكوبيين. لكن زميلي المسن، وهو ضابط عمليات كلاسيكي الثقافة لم يكن يتحدث بارتياح عن عمله. لذلك، فوجئت عندما قال طوعًا، وبشيء من الارتباك بالتأكيد: "أعتقد أن لدى الكوبيين أفضل جهاز استخبارات في العالم".

ومنذ تلك اللحظة سمعت روايات عدة ومختلفة لا أنكر عددها لهذا الحكم من مخضرمين آخرين ذوي كفاءات عالية في الاستخبارات. كثيرون هم المسؤولون المتقاعدون من السي آي إيه الذين قد يقفون إجلالاً أمام الطريقة التي بها استطاعت كوبا، تلك الدولة الصغيرة القائمة على جزيرة في البحر الكاريبي، أن تبني قدرات سرية استثنائية وتدير عمليات ناجحة عدة ضد أهداف أمريكية. وقد قال لي مسؤول آخر في السي آي إيه: "تبًا لهم، لقد تفوقوا علينا!"

وقد وافقه الرأي ضباط حاليون وسابقون في مكتب التحقيقات الفدرالي FBI. وهم جميعًا لديهم هذا الإعجاب الحاقد بالمخابرات الكوبية وبالسهولة التي بها ينقبون عن جواسيس وعملاء سريين وعملاء لهم نفوذ في المؤسسات الأمريكية الهامة. أخبرني ضابط سابق في المكتب الفدرالي عمل على متابعة المخابرات الكوبية "لقد تفوقوا علينا بالأداء بكل مقياس موضوعي". وحقيقة الأمر أنهم ولسنوات عدة قد حركوا دوائر لهم حول كل من الوكالة والمكتب الفدرالي.

كان الكوبيون لما يزيد عن ربع قرن يقدَّرون بأقل مما يستحقون. وكانوا بنظر الكثيرين منذ اليوم الأول لعام 1959 حين تولى فيدل كاسترو السلطة وحتى صيف عام 1987 مجرد هواة بوزن خفيف من عصبة الأدغال، أو أشخاصًا لاتينيين ليسوا بذي أهمية في رهانات تآمرية لأعمال القوى العظمى التجسسية. وهذه هي الطريقة عينها التي بها أراد الكوبيون الدهاة أن يكونوا بنظر الآخرين. فهي تتيح لهم العمل بسرية وفي الظل وبعيدًا عن الأنظار وحتى عن معرفة خصومهم الأمريكيين.

من جهة ثانية سمعت من مسؤول استخباري أمريكي آخر عمل ضد الكوبيين في السبعينيات والثمانينيات ما أكد لي ذلك حين قال: "نحن لم نفكر بأننا يجب أن نكون بتلك القوة ضدهم، ومع ذلك هكذا كان تفكيرنا. كانوا أكثر كفاءة منا. والحق أقول لقد خسرنا أمام الكوبيين في معظم سني الحرب الباردة".

على هذا النحو هم ببساطة لم يؤخذوا على محمل الجد. كان التفكير الشائع داخل السي آي إيه كيف يستطيع بلد فقير من العالم الثالث – في الكاريبي وفي قبضة ثورة هيولية – أن ينافس أفضل جهاز استخبارات في العالم؟ فالكوبيون المحبون للمرح لن يكونوا جواسيس مهرة أو جواسيس قادة. ليس لديهم أي خبرة في العمل الجاسوسي أو المكائد الدولية، ناهيك عن أن كوبا، وقبل أن يتسلم كاسترو السلطة، لم يكن لديها جهاز استخبارات خارجي. وكان على جواسيسه المبتدئين أن يتعلموا من الصفر أسرار مهنة الاستخبارات

في عالم يقتصر على القلة القليلة. ولهذا هم بحاجة لأعوام عدة كي يكتسبوا كفاءة فعلية، أو هكذا كان يظن الأمريكيون.

لكن الواقع كان مختلفًا. مديرية المخابرات العامة (DGI) وغيرها من أجهزة الاستخبارات والأمن الكوبية نشأت وعملت في وقت قياسي. عمل كاسترو وثورته الشيوعية، مثل إسرائيل المحاصرة غداة تأسيسها عام 1948 – تحت تهديد مميت من الولايات المتحدة في مطلع الستينيات – على تطوير جهاز استخبارات خارجي سرعان ما صعد إلى مصاف أفضل ستة أجهزة في العالم. وفي بعض تخصصات العمل في الخفاء، وبخاصة في إدارة العملاء المزدوجين والاستخبارات المضادة، فقد كان صديقي على حق: كانت منجزات كوبا على مدى عقود من الزمن لا تضاهى. هناك، كما في إسرائيل، كانت الحكومة تعرف أن تحسين وإتقان القدرات الخفية لأغراض هجومية ودفاعية أمر ضروري وجوهري للبقاء.

ومع ذلك، وعلى مدى ثلاثة عقود ظلت واشنطن على جهلها التام لقدرات كوبا. أُعدت وثيقة في السي آي إيه في الستينيات ورفعت عنها السرية مؤخرًا توضح بجلاء المواقف الراعية بغباء لهذا الضابط في الوكالة الذي كان على صلة بعمليات داخل كوبا. يستنتج كاتب الوثيقة المجهول الاسم فيقول: "الكوبيون عمومًا يشكلون مادة عملاء رديئة جدًا. هم لا يعرفون معنى الأمن. ولا ينفذون الأوامر بشكل جيد، والشجاعة الوحيدة المطلوبة في العمل التجسسي ليست جزءًا من تكوينهم. هم محاربون ممتازون لكنهم جواسيس سيئون"[1].

لم تشعر هذه الوكالة بالندم أخيرًا على ذلك الهراء الانهزامي حتى حزيران/يونيو من عام 1987. ففي أول يوم سبت من هذا الشهر جاء وألقى بنفسه بين أيدي السي آي إيه عبر السفارة الأمريكية في فيينا فلورنتينو أسبلاغا لومبارد Florentino Aspillaga Lombard الضابط الأكثر علمًا ومعرفة وحامل أرفع الأوسمة من كل الذين انشقوا عن المخابرات الكوبية.

في عام 1985 كرمته القيادة الكوبية بلقب "رجل العام من ضباط

المخابرات". وكان جيدًا في عمله على الدوام حتى إنه بعد عام واحد كان مرشحًا أيضًا لهذه الجائزة. وقد تلقى ذات مرة ثناء من فيدل كاسترو كتبه بخط يده، وهذا تكريم لم يحظ به إلا قلة قليلة. وقد اضطر لأن يحفظه داخل خزانة حديدية، لأن هذه الوثيقة صنفت بـ "سري للغاية". وقد اختير شخصيًا لها بسبب دوره الحاسم الذي قام به في تموز/يوليو عام 1979 في المساعدة على تأمين نجاح مقاتلي الساندينيستا Sandinista الماركسيين في نيكاراغوا. ولم يرد فيدل أن يعرف أحد بدور كوبا في هذا التدخل خارج الأوساط العسكرية والاستخبارية.

أمضى أسبلاغا الجزء الأكبر من حياته المهنية الأولى في جهاز شقيق لمديرية المخابرات العامة في وزارة الداخلية هو المديرية العامة للاستخبارات المضادة الذي يكتنفه الغموض، ومعروف في هذه الجزيرة باسم Contra Inteligencia. وكانت آخر مهمة له في موقع الضابط الآمر لمديرية المخابرات العامة – أي رئيس مركز – في مدينة براتسلافا فيما كان يعرف آنذاك تشيكوسلوفاكيا الشيوعية. التحق بهذا المركز في أواخر عام 1986 متخفيًا بصفة مسؤول شركة تجارية كوبية لكنه عمليًا ضابط مخابرات عامة مسؤول عن الاستخبارات والاستخبارات المضادة. وكان ضابط المخابرات العامة الوحيد في تلك المنطقة المعروفة الآن بدولة سلوفاكيا، مشرفًا على أعمال جميع العملاء الكوبيين العاملين من هناك ويقومون بعمليات استخبارات مضادة عبر الحدود داخل النمسا. وكان يتولى أيضًا مسؤولية المراقبة على نحو أربعة آلاف عامل كوبي يعملون في المعامل المحلية كتعويض عن المساعدات الاقتصادية التي تتلقاها كوبا من تشيكوسلوفاكيا.

ومع أن أحدًا في المخابرات العامة لم يشكك بإخلاصه، إلا أنه فكر جديًا وعلى فترات متقطعة بالانشقاق والهروب منذ أواخر الستينيات. لا يعرف على وجه الدقة متى راودته هذه الأفكار أول مرة وما الذي حركها بداخله. ولكن كما يقول جيمس أنغلتون James Angleton الذي ترأس هيئة موظفي الاستخبارات المضادة المعروف بمعاناته من جنون الارتياب لبضعة عقود من الستين والخبير

بشؤون المنشقين والعملاء السريين، وقبل أن يسمع أحد بفايروس الكمبيوتر، إذ قال: "لا يدري أحد متى تدخل الجرثومة إلى رأس شخص ما"[2].

لم يظهر في حالة أسبلاغا أي من الدوافع التي تدفع المنشقين عادة إلى الفرار من بلادهم. كان في قمة عمله يحترمه الجميع ويكرمه رؤساؤه. كان في الأربعين من عمره عندما بدل ولاءه وضابطًا برتبة رائد – قومندان comandante – وارتقاؤه في الرتب والمناصب مضمون، فهو عضو في الحزب الشيوعي والتنظيمات الماركسية التي وجدت قبل الحزب منذ أن كان في العشرين من عمره. ولم يتعرض لأي مذلة أو إهانة، ليس مدمنًا على الخمور ولا يسعى للشهرة أو الثروة. لم يسرق أثناء خدمته ولم يعان من أي مشكلات مالية. لا يتحدث عن إدراك مفاجئ جعله في لحظة معينة ضد كاسترو والشيوعية. أحب وعشق مارتا بلازنشيا Marta Plasencia الكوبية التي كانت في مقتبل العمر وتعمل في أحد المصانع السلوفاكية، وقد أخذها معه حين هرب، ولم تكن هي السبب في اتخاذه هذا القرار. كان بمقدوره أن يطلق زوجته – وهي أيضًا ضابط في المخابرات العامة – ويتزوج مارتا في براتسلافا.

ولكن كان ثمة أحداث عجلت حصول هذا القرار، هي عوامل "دفع" و"شد" حضته على ارتكاب فعل الخيانة. قبيل بضعة أسابيع من عبور أسبلاغا الحدود النمساوية فر رفائيل ديل بينو Rafael del Pino، وهو جنرال بنجمتين وواحد من ضباط الجيش الكوبي الذين تقلدوا الكثير من الأوسمة، عندما أقلع بطائرته الحربية طراز Cessna وحط بها في قاعدة Key West. وكان الضابط الأعلى مرتبة في المؤسسة العسكرية الكوبية الذي يطلب اللجوء إلى الولايات المتحدة. أعجب أسبلاغا بهذا البطل الطيار وخالجه الإحساس بأن يقلده.

وقد أخبرني أسبلاغا عن سبب آخر جعله يتخذ قراره هذا، وهو سبب يسجل لصالح السي آي إيه. ولعله في واقع الحال الدافع الأكثر تأثيرًا. كان معجبًا عن بعد بأحد ضباط هذه الوكالة – هو ضابط وسيم وجريء ومندفع يعمل في عمليات الوكالة الخفية داخل كوبا. وقال لي إنه حين كان في هافانا

يدير عمليات الاستخبارات المضادة بمواجهة الوكالة كان دومًا يراقب هذا الرجل الذي لا يمكن البوح بهويته في هذا المقام.

لعب ضباط المخابرات الأمريكيون دورًا مماثلًا في التحريض دون أن يدروا، ما أفرز أكثر من عملية انشقاق واحدة من المستوى الأعلى. فقد أخبرني ضابط مخابرات كوبي سابق قابلته وحاورته مرارًا بأنه قرر مغادرة كوبا الشيوعية لأنه كان معجبًا ببعض ضباط السي آي إيه. وهنالك العشرات من المنشقين عن مخابرات كاسترو وجهازه الأمني ممن اقتبس أقوالهم واستشهد بهم في هذا الكتاب من الذين كانت لهم أسباب مختلفة. وبالنسبة لهم جميعًا كانت الكراهية المتنامية ببطء للنظام الشيوعي القمعي والخوف المترابط معه من فيدل كاسترو وإعجابهم بالحريات والفرص الأمريكية هي تلك "الجراثيم" التي تسللت إلى رؤوسهم، اثنان منهم استقرا في باريس وآخرون في أمريكا اللاتينية، ومع ذلك تظل الولايات المتحدة المقصد النهائي المفضل للآخرين – وليس بالضرورة جنوب فلوريدا التي تعد قبلة المنفيين الكوبيين.

إنما يوجد لدى أسبلاغا الذي يفكر طويلًا أسبابه الأخرى. ففي سنوات خدمته المديدة لكاسترو كان يشعر باستبعاد قائده العام النرجسي له. وقد حدثت الواقعة المزعجة عام 1977 في أنغولا على الساحل الغربي لأفريقيا. كان أسبلاغا على رأس عمله في قاعدة عسكرية كوبية قرب لواندا العاصمة في إحدى الليالي عندما وصل إليها فيدل كاسترو يمشي مختالًا متباهيًا مثل قائد روماني فاتح. كانت حقًا لحظة انتصار جديرة بالاحتفال. فقبل عامين لعبت القوات العسكرية والمخابراتية الكوبية دورًا حاسمًا في تحقيق انتصار الحركة الثورية الماركسية المتحالفة معها واستلامها السلطة. حارب الكوبيون وهزموا قوات جنوب أفريقيا العسكرية القوية وقضوا على الانقلاب ضد القائد الذي نصبوه. كان ذلك التدخل الطويل عملًا بطوليًا وخطرًا قامت به تلك القوات على بعد آلاف الأميال من موطنها.

ألقى كاسترو خطابًا في وقت متأخر تلك الليلة أمام المئات من ضباطه العسكريين والمخابراتيين، وهم جميعًا يقفون أمامه بالزي العسكري وبوضعية

الانتباه. يستذكر أسبلاغا تلك اللحظة حيث كان يقف في النسق الأمامي لا يبعد أكثر من عشرين إلى ثلاثين قدمًا عن قائده العام. كان فيدل مرهقًا بعد رحلة جوية قطع فيها بضعة آلاف من الأميال. وقد يكون الإعياء السبب في قوله أشياء لم يكن يريد قولها أمام الرأي العام.

كان في حالة من النشوة يشعر بمجد ما أنجزه في أنغولا وفي أماكن أخرى في أفريقيا وغيرها من مناطق النزاع في الحرب الباردة. فكان الخطاب كله يدور حول انتصاراته وشجاعته وبسالته وصفاته القيادية الاستثنائية. ولم ينكر شيئًا عن إنجازات رجاله المصطفين أمامه أو تضحيات الكثيرين من الكوبيين. أحس أسبلاغا بالاشمئزاز، وكانت تلك المرة الأولى له أمام كاسترو. قال لي إن فيدل يشبّه نفسه بجوزيف غوبلز رئيس الدعاية النازية، "قال كاسترو إن باستطاعته قيادة الجماهير والحشود بأفضل مما عمل غوبلز. هذا ما قاله ... أن توجه الناس ليفعلوا ما تريده أنت لهم أن يفعلوه". هي غطرسة فيدل في أبشع صورها. قال أسبلاغا: "كنت أعرف أنه شر، وقلت في نفسي هذا رجل مجنون". كانت تلك أول ضربة أربكت إخلاصه المتفاني لفيدل وللثورة منذ طفولته.

وبالطبع هنالك أيضًا عوامل شخصية أثرت في قراره الخاص بالانشقاق. فهو مثل كثيرين غيره من زملائه السابقين - والحق أقول مثل أفضل ضباط المخابرات في أي مكان - كان شجاعًا مفعمًا بالحيوية محبًا للمغامرة، مهاجمًا للمؤسسات التقليدية ويميل للمجازفة. وربما ليس مثل قلة من المنشقين، يحب فعل ما هو خطر، ويشعر بحماس قوي لتبديل المواقع وركوب التحدي ليصل إلى هدفه، مثل فراشة تنجذب إلى اللهيب. صباح ذلك اليوم الذي فيه اتخذ قراره المصيري باللجوء إلى السي آي إيه في النمسا كان يعرف أن حكمًا بالإعدام سوف يصدر بحقه غيابيًا. وبسبب ما لديه من أسرار حساسة وغير عادية قد يبوح بها إلى أصدقائه الأمريكيين الجدد لم يكن لديه أية أوهام بأن يصدر فيدل عفوًا عنه.

كان أسبلاغا في مطلع العقد السابع من عمره عندما جلسنا معًا في ثلاث مناسبات مختلفة، في أماكن آمنة ومنزوية. تحدثنا فيها لما مجموعه خمس عشرة

ساعة من حوارات مسجلة. أعجبت بشدة بقوته واعتقاده الديني وبذاكرته الاستثنائية. كان دومًا يكثر الحديث، ومرحًا مع أنني أعرف أنه مثل غيره من معظم المنشقين الذين تركوا بلادهم قد عانى نوبات من اضطراب عاطفي.

لم يطلب مني شيئًا مقابل بوحه لي بتاريخه الشخصي والكثير من التحليلات المثيرة للاهتمام لعمل المخابرات الكوبية الداخلي. في أول جلسة لنا أعطاني نسخة باللغة الإنكليزية لمخطوطة من 200 صفحة تقريبًا تتضمن تحليلاً ومذكرات عن عمله. انتهى من تأليف هذه المذكرات التي بقيت دون عنوان عام 1990، أي بعد ثلاث سنين من وصوله إلى الولايات المتحدة. وقد أراد أن يسجل على صفحاتها ومن خلال أحاديثنا وأمام الرأي العام وللمرة الأولى بعض أسرار فيدل كاسترو التي كانت تحت حراسة مشددة.

يكاد لا يوجد شيء مما أباحه لي وعلى أهميته قد جرى الحديث عنه صراحة من قبل. حدثني، على سبيل المثال، عن أثمن كسب كسبته المخابرات العامة الكوبية، أو في الحد الأدنى قبل انشقاقه، ألا وهو عميل سري اخترق الصفوف العليا في الحكومة في واشنطن. كان هذا الرجل حساسًا جدًا ومؤثرًا جدًا حتى إن أحدًا لم يعرف هويته غير فيدل وضابط واحد في المخابرات العامة.

لم يكن لدى هذا الضابط من المخابرات الكوبية أي مسؤولية سوى الاجتماع بهذا العميل الأمريكي عندما يسافر إلى الخارج حيث يمكن بسهولة ترتيب موعد ومكان لقاء سري. كان ذلك قبل اعتماد نظام الاتصالات المتطورة القائم على الحاسوب التي صارت المخابرات العامة فيما بعد تستخدمها مع كبار عملائها الأمريكيين. وعندما يعود هذا الضابط إلى هافانا يرفع تقارير هذا الرجل إلى فيدل مباشرة وهو الذي يقرر ما إذا كان ممكنًا إبلاغ هذه المعلومات إلى الآخرين داخل مديرية المخابرات العامة بما في ذلك مدير هذه المديرية أو القيادة السياسية. وقد أخبرني أسبلاغا بعد أن سمع من هذا الضابط أن حتى راميرو فالديز Ramiro Valdés، وزير داخلية فيدل الموثوق والذي يضطلع بمسؤولية الإشراف على جميع الجهات الاستخبارية والأمنية الكوبية، لا تصله هكذا معلومات.

كان الجاسوس الأمريكي العميل السري الشخصي لكاسترو في مؤسسة واشنطن. وكان فيدل وحده الذي يتخذ القرار حول طريقة التعامل معه: مثل أين وكيف تتم اللقاءات السرية، وما الأسئلة التي يجب على الضابط الكوبي أن يطرحها، وكيف يتم استخدامه في عمليات خداع وتأثير. تلك هي القمة في حماية المصدر وفي التقسيم الإداري، وهي ممارسات نادرة في الدوائر الاستخبارية للبلدان الأخرى، لكنها متبعة في كوبا كاسترو. ولعله بسبب كون كاسترو وضابط المخابرات وحدهما يعرفان اسم الجاسوس الأمريكي ومنصبه لم يقدم هذا الجاسوس إلى القضاء في الولايات المتحدة. أسبلاغا لم يعرف اسمه ولا أين يعمل في واشنطن، إلا أنه قال بأنه يشك بأن مكان الرجل في السي آي إيه أو في البنتاغون.

استنتاجًا من الرعاية الشديدة المتخذة عند التعامل مع هذا الجاسوس يمكن القول بأنه من مستوى اختراق مساوٍ أو أعلى من آنا بيلين مونتيز Ana Belen Montes العميل السري الآخر لكوبا في واشنطن. فقد تجسست لما يقرب من ست عشرة سنة كان معظمها داخل "وكالة استخبارات الدفاع" في البنتاغون، قبل اعتقالها في أيلول/سبتمبر عام 2001. وقبل اعتقالها حققت مرتبة عالية وتمتعت بموافقات أمنية خاصة ذات سرية عليا وغيرها، وعملت في موقع مسؤولية لا بأس بها. فإذا كان هذا الاختراق السابق، كما يبدو، مصدرًا كوبيًا ذا قيمة كبرى، فإن هذا العميل لا بد وأنه يشغل موقعًا هامًا في مجلس الوزراء المصغر أو حساسًا بمثل هذا النحو.

يبدو أن علاقة عبر مسافة بعيدة قد نشأت بين فيدل وهذا العميل الغامض. وربما التقى كاسترو سرًا في كوبا مع هذا الخائن ليهنئه ويشجعه وليحتفي بنجاحهما معًا في خداع العدو "الإمبريالي" الأمريكي. وحيث إنه كان رأس الجاسوسية الأعلى في بلاده لفترة تقل قليلًا عن ثمانية وأربعين عامًا، كان فيدل يشعر بالسعادة عندما يلتقي شخصيًا مع أفضل عملائه الأجانب.

ثمة ثلاثة عملاء أمريكيون آخرون قُدّموا في نهاية المطاف إلى العدالة وحُكم عليهم بالسجن عرف عنهم أنهم نعموا بلقاءات خاصة على انفراد مع

الزعيم الذي أحبوه. مونتين، وولتر كندال مايرز Walter Kendall Myers – الذي شغل منصبًا رفيعًا في قسم الاستخبارات بوزارة الخارجية بواشنطن – وزوجته غويندولين ستاينغرابر Gwendolyn Steingraber، كلهم استمتعوا بلقاءات على انفراد للتهنئة مع فيدل. كان مايرز وزوجته يحلان ضيفين في قصر الضيافة بهافانا في كانون الثاني/يناير عام 1995 عندما اجتمعا مع كاسترو لنحو أربع ساعات ذات مساء. وقد باح مايرز بسر بعد ذلك عندما قال إن الكوبيين قد منحوه "كثيرًا من الأوسمة" وإن فيدل "رائع، رائع جدًا". كان كلامه هذا نشوة شخص شديد الإيمان بكاسترو وقضاياه الثورية.

وكان ثمة امرأة إنكليزية لا تزال هويتها مجهولة يقال إنها تعمل لصالح كوبا في الخفاء في مكان ما داخل الولايات المتحدة وكُرِّمت أيضًا بهذه الطريقة كما قال لي خوان أنطونيو رودريغز منيير Juan Antonio Rodrigues Menier أحد ضباط المخابرات الكوبية الهامين المنشقين. وهي مثل الأمريكيين الأربعة يقال إنها تجسست لسنوات عدة وقدمت لكوبا كما يقول رودريغز منيير معلومات غير محددة إنما "ثمينة جدًا"[3].

وقد علمت من أسبلاغا أن المخابرات العامة الكوبية جندت جاسوسين كثيري الإنتاج داخل وزارة الخارجية. وقال بأنه في وقت ما قبل فراره كان اثنان من أعضاء مجلس النواب الأمريكي المنتخبين قد جُنِّدا بشكل منفصل وزارا كوبا عن طريق بلد ثالث ولم يتركا أي أثر. من الصعب أن نتخيل بأن فيدل لم يكن شخصيًا متورطًا في هذه الانتصارات، يلتقي سرًا مع عضوي الكونغرس، يبدي إعجابه بهما ويحثهما على دعم قضايا كوبا. هذا وقد تحدث جيراردو بيرازا Gerardo Peraza منشق آخر من المخابرات العامة الكوبية أمام لجنة فرعية في مجلس الشيوخ عام 1982 وأبلغها بأن المخابرات الكوبية قد قامت باختراقات سرية داخل مجلس الشيوخ الأمريكي، لكن السناتور الذي كان يستجوبه في جلسة علنية قاطعه قبل أن يعطي التفاصيل أمام الرأي العام. أكد بيرازا بأن مجلس الشيوخ كان هدفًا رئيسيًا للمخابرات الكوبية، وليس ثمة أدنى شك بأن الأعضاء المنتخبين والموظفين في كلا مجلسي الكونغرس لا يزالون هدفًا[4].

هذا وقد حذر أسبلاغا الوكالة من عملية تخطط لها المخابرات العامة الكوبية ضد ضباط من السي آي إيه على الساحة الدولية ليتم إفشالها في الوقت المناسب. وقد كشفت المعلومات التي قدمها عن عملاء اختراق يسعون للوصول إلى مراكز حكومية حساسة.

حدثني عن لمحات في حياة فيدل الشخصية، منها قصة لطفل لم يكن معروفًا سابقًا اسمه رامون وقد أنجبته فتاة أمريكية على علاقة معه بعد وقت قصير من توليه السلطة. وعرفت أيضًا حكاية أستاذة جامعية في الولايات المتحدة كانت ضابط مخابرات كوبية موثوقة ولها تأثير قوي. هي أمريكية المولد وتتحدث الإسبانية بطلاقة مدهشة، وقضت بعض الوقت في كوبا متطوعة للعمل في حقول قصب السكر بصفة عضو فيما يسميه الكوبيون "كتيبة سوف ننتصر". وهي إلى جانب كونها ذات تأثير هدام ومفسد في قولبة تفكير الطلاب إلا أن قيمتها الكبرى لدى الاستخبارات الكوبية تكمن في موهبتها الكشفية وتجنيد العملاء. واللافت كما يقول أسبلاغا أنها أقنعت واحدًا من ألمع وأذكى طلبتها، وهو شاب من أصول أمريكية لاتينية ليعمل مع الاستخبارات الكوبية. وقد وصفها أسبلاغا بأنها المرشد القائد والمعلم لهذا الطالب.

عندما ظنت أن تلميذها هذا قد أصبح جاهزًا للانطلاق صحبته في زيارة إلى بلد ثالث صديق لكوبا وسلّمته إلى الضابط المسؤول في المديرية العامة للمخابرات. في ذلك الحين كان الطالب ونتيجة تأثيرها جاهزًا لخدمة فيدل. تم تجنيده فذهب سرًا إلى كوبا للتدرب المهني. كان من أكثر المهارات التي اكتسبها أهمية القدرة على قهر جهاز كشف الكذب. وكان الهدف المتوقع له أن يكسب وظيفة لدى السي آي إيه ويبدأ العمل هناك عميلًا سريًا لكوبا. يستذكر أسبلاغا ويقول إن الخطة كانت قريبة جدًا من النجاح ولعلها نجحت، لو أنه لم ينشق في لحظة انشقاقه تلك. قال لي بأنه لم يعرف مطلقًا هوية أي من هؤلاء الأمريكيين، أو عدد العملاء الآخرين الذين كشفهم مكتب التحقيقات الفدرالي وعطل عملهم بالإضافة إلى هذا الطالب. غير أنني لا علم لي بأي دليل مثبت في السجل العام معروف عن أي شخص ممن وصفهم وقُدِّم للعدالة.

من المحزن أن هذا الأمر انطبق على ثلاثة مرتدّين من ضباط السي آي إيه. تحدث أسبلاغا فيما يتذكره عن اثنين، وقد زودني بتفاصيل إضافية منشقون آخرون عن المخابرات الكوبية أجريت مقابلات معهم. يبدو أن هؤلاء الخونة بدؤوا العمل لدى فيدل بعدما تركوا السي آي إيه. قد يكون في هذا شيء من العزاء ذلك أنهم تسببوا بضرر كبير بعد أن خدموا أسيادهم الجدد لفترات طويلة. ومن خلال ما ذكروه من أسرار حساسة عن مصادر وطرائق السي آي إيه كشفوا عن زملاء سابقين لهم وخدموا مستشارين خبراء بعد أن بدّلوا مواقعهم. يقال إن اثنين منهم، هما فيليب آغي Philip Agee وفرانك تربيل Frank Terpil، استخدما بصفة فريق استطلاع وطُعم في عمليات ضد موظفين في الوكالة. وقد عملا – وربما معهما الأمريكي الثالث – في المقر العام لمديرية المخابرات العامة في هافانا بصفة مستشارين مقيمين للاستخبارات الكوبية.

كان آغي Agee الذي توفي في أحد مشافي هافانا في كانون الثاني/يناير عام 2008 معروفًا أكثر من زميليه الآخرين. وقد تسبب بضرر كبير يفوق كثيرًا ما أحدثه من أضرار منشق آخر عن السي آي إيه لن أذكر اسمه. إنما أكتفي بالقول بأن هذا الرجل كان ضابط موقع ذا خبرة واسعة في الوكالة ويعتبر كسبًا عظيم القيمة للمخابرات الكوبية حتى إنه حظي بمسكن فاخر في فيلا مع مسبح في هافانا. عُرفت هذه الفيلا لأسباب غير معروفة بـ"العلبة" (La Lata).

يسجل أوليغ كالوغن Oleg Kalugin الجاسوس الروسي الكبير والمنشق في مذكراته أن آغي اتصل بالمخابرات السوفياتية بمدينة مكسيكو في أوائل السبعينيات لكن أحدًا لم يستجب له. عندئذ ذهب إلى الكوبيين الذين كما قال كالوغن "رحبوا به وفتحوا أذرعهم له". قال أسبلاغا بإصرار إن آغي "عمل مع كوبا دائمًا" ولم يعمل لدى السوفيات. وأضاف كالوغن قائلًا بأن المخابرات الكوبية في السبعينيات والثمانينيات لم تكف عن ملاحقة ضباط السي آي إيه الحاليين والمتقاعدين. لكنه لم يعط مزيدًا من التفاصيل مدعيًا بأنهم "حققوا بعض النجاح"[5].

أما فرنك تربيل، واسمه الحركي كوريل Curiel أو "خنزير غينيا [حقل

التجارب]" عند الكوبيين فقد كان لعدد من السنين ثروة ذات قيمة كبرى في العمليات، بل الأكثر أهمية من بين هؤلاء المنشقين الأمريكيين الثلاثة. سافر إلى براتسلافا في شتاء عام 1987 بجواز سفر كوبي مزور ومعه اثنان من ضباط المخابرات الكوبية. وهدفهم أن يجندوا ضابطًا من السي آي إيه باختصاص كمبيوتر يفترض أنه ساخط ومستاء. كان مقررًا عرض 500,000 دولار مقابل خدماته إلا أنه لم يأت حسب الموعد المتفق عليه. قُدِّم إلى تربيل أيضًا مسكن جيد عند مضيفيه في منزل كبير يقع في ضاحية همنغواي مارينا Hemingway Marina القريبة من هافانا. وقد سمعت أن هذا المسكن قد زُرع بالكثير من أجهزة التنصت والكاميرات الخفية. في عام 1995 وجدت الرقابة أنه مفقود، ويقال بأنه اعتُقل واتُّهم بجرائم مالية.

* * *

لكن ما هو أشد دهشة فيما كشف عنه أسبلاغا هو أن المخابرات الكوبية كانت تدير ما قد يكون أكبر وأطول عملية لعملاء مزدوجين في تاريخ الجاسوسية الحديث. ما يقدر بنحو خمسين شخصًا كوبيًا جندتهم السي آي إيه ليكونوا جواسيس لها كانوا عمليًا عملاء مزدوجين يعملون لدى مديرية المخابرات العامة. وبعد أن أماط أسبلاغا اللثام عن أعمال الخداع التي ارتكبتها وسائل الإعلام الكوبية الرسمية ذكرت هذه الأخيرة أسماء سبعة وعشرين منهم، من الرجال والنساء من مختلف الأعمار ومن مختلف المهن والأعمال. أحد كبار ضباط مكتب التحقيقات الفدرالي واسمه آي. سي. سميث I. C. Smith، مختص بالقضايا الكوبية في ميامي في ذلك الحين كتب يقول فيما يتعلق بكوبا "بأن القدرات الاستخبارية البشرية لدى السي آي إيه والولايات المتحدة ... هي فجاة صفر لا شيء (Zero)"[(6)].

وما قد لا يصدقه العقل أن تنبيهات أو تحقيقات لدى الاستخبارات المضادة لا تبدو بأن لها أثرًا لدى السي آي إيه، حتى الاستخبارات المضادة بقيادة أنغلتون ليس لها دخل. كانت كوبا خارج تفويضها، ولم تكن أيضًا مشاركة في غزو السي آي إيه لخليج الخنازير في نيسان/أبريل عام 1961 إذ كانت

عملية اخترقتها جيدًا المخابرات الكوبية. كان أنغلتون المسكون بالهواجس يركز جل اهتمامه على عدو الوكالة الرئيسي ألا وهو المخابرات السوفيتية KGB. لا أحد داخل قسم المخابرات المضادة، أو في أي مكان آخر داخل السي آي إيه كان يظن بأن الكوبيين مهرة بما يكفي ليتولوا إدارة عملائهم السريين والعملاء المزدوجين بأنفسهم.

ومع ذلك كان ثمة في الحد الأدنى حالة معروفة سابقًا، ولعلها نسيت في السنين اللاحقة. تاريخ رسمي لهذه الوكالة، رفعت عنه السرية الآن ووضع في الحفظ لدى دائرة الأرشيف الوطني خارج واشنطن، يشهد ويقر بوجود عميل مزدوج كوبي. عرف لدى الوكالة باسمه الرمزي AMFOX-1، وقد جندته السي آي إيه بصفته عميلًا "خلفيًا" وذلك قبل إغلاق السفارة الأمريكية في هافانا في كانون الثاني/يناير 1961. وقد واصل عمله في وضع التقارير خفية بعيدًا عن الأنظار لما يزيد عن عشر سنوات وحتى عام 1973 عندما اكتُشف أخيرًا وأُنهيت خدماته لدى السي آي إيه[7].

معظم هؤلاء العملاء المزدوجين الذين يربو عددهم على الأربعين ويعملون ضد السي آي إيه لم يكونوا محل ثقة الوكالة منذ البداية. كانوا مجرد طعم جذاب أو carnada كما يقول الكوبيون، تقدمه المخابرات الكوبية لضباط السي آي إيه المتلهفين الذين ليست لديهم شكوك. وقد اختارتهم المخابرات الكوبية بعناية لكونهم يتمتعون بصفات سيكولوجية وفكرية ملائمة وبسبب المناصب التي يشغلونها، وكانوا يخضعون لتدريب مكثف في مدرسة خاصة. وبعد أن تجندهم السي آي إيه يبقى بعضهم لسنوات عدة يقبضون رواتبهم من الوكالة. وفي اجتماعات سرية مع ضباط الوكالة في مدن مختلفة من العالم كانوا يقولون ما لديهم ويكلفون بمهمات جديدة. لم يكونوا جميعًا كوبيين، فقد كان ثمة أوروبيون من الذين يتملقون ثورة كاسترو ويعملون بعمالة مزدوجة. وقد حدثني أسبلاغا عن واحد منهم يعرفه باسم "سباغتي".

لو أمكن تصديق الإعلام الكوبي، فهذه قصة واحد من العملاء المزدوجين الكوبيين – اسمه إدواردو ليل إسترادا Eduardo Leal Estrada، موظف مسؤول

في وزارة الاتصالات – الذين كرمتهم السي آي إيه في احتفال رسمي لمنح الجوائز "حيث أسدلت الستائر وبصمت مطبق" داخل غرفة في أحد الفنادق. وقد منح بناء على توصية من مدير السي آي إيه وليام كيسي William Casey علاوة قدرها 10,000 دولار تقديرًا لعمله الجاسوسي الزائف وميدالية ذهبية نقشت عليها عبارات مناسبة للوكالة. كان يعرف بالعميل اليخاندر Alejandr عند المخابرات الكوبية ويعتبر مصدرًا ثمينًا لدى السي آي إيه بسبب معرفته بنظم الاتصالات الوطنية الكوبية بما فيها شبكة الكبل المحوري التي كان يجري تركيبها في جميع أنحاء الجزيرة. وقال للصحافة الكوبية الحكومية بعد انكشاف أمره "العدو كان مهتمًا كثيرًا بمحاولة إفشال هذا العمل"[8].

وهنالك حالة نموذجية أخرى تتمثل في شخص أنطونيو غارسيا أوركيولا Antonio Garcia Urquiola، وهو كغيره من ما يزيد عن عشرة عملاء مزدوجين كان الإعلام الكوبي يصفه بالبطل بعد أن كشفه أسبلاغا. كان قبطان باخرة يعمل في خط الشحن الرئيسي في كوبا وتم تدريبه على الاستخبارات المضادة في أواسط الستينيات وأعطي الاسم الحركي "أوريليو Aurelio". لذلك كان المرشح المثالي ليكون طعمًا بيد المخابرات الكوبية. قُدِّم طعمًا في امستردام عام 1978 وسرعان ما جندته السي آي إيه وأعطي اسمًا حركيًا هو "اليخاندرو". وبدأ يلتقي بضباط معينين عند كل مرفأ يتوقف فيه. زودت السي آي إيه هذا العميل أوريليو/اليخاندرو بتجهيزات الكتابة السرية، ويفترض أنه أرسل مئات الرسائل إلى مشغليه باستخدام الحبر السري، ثم أعطي فيما بعد جهاز إرسال متطور يرسل رسائل مكثفة إلى قمر صناعي أمريكي، أو بحسب المسؤول الكوبي الحكومي إلى مكتب السي آي إيه الكائن في الطبقة الخامسة لمبنى البعثة الدبلوماسية الأمريكية التي أحدثت في هافانا عام 1977. يفترض أن الاسم الحركي الذي يستخدمه عند إرسال الرسائل إلى الوكالة هو "دادون Dadon"[9].

فيما بعد زعم غارسيا أنه كان يقبض مبلغ 1500 دولار شهريًا في السنوات المتأخرة من خدمته المزدوجة. وقبل أن ينفضح أمره كان قد أودع في حساباته في البنوك الأمريكية أكثر من 120,000 دولار. يقول إنه بسبب تدريبات

المخابرات الكوبية استطاع أن يجتاز اختبار كشف الكذب في الوكالة. وفيما بعد تباهى بالقول أمام مراسل صحفي لدى الحكومة الكوبية بأن "هذا الجهاز لا يعني شيئًا". (زعم شخص آخر من العملاء المزدوجين بأنه اجتاز اختبار كشف الكذب ثلاث مرات، وواحد فقط اعترف بأنه فشل في الامتحان.) وقد أعجب غارسيا بواحد من ضباط السي آي إيه كان يتعامل معه كثيرًا واصفًا إياه بأنه "مهني وواسع الخبرة". ولكن عمومًا، كما يدعي، هم يبخسون قيمتنا وينظرون إلينا بازدراء ... هم مخطئون لجهلهم حقيقتنا"(10).

كان الكوبيون في بعض حالات العمالة المزدوجة أكثر ذكاء من الوكالة من خلال استخدامهم لوسائل أداء ذكي ووسائل خداع سيكولوجي أكثر براعة. أحد الأشخاص المقدمين طعمًا – يدعونه باسم روبرت – قدم نفسه بأنه متمرد وأنه غريب الأطوار. وبحسب تقارير الصحافة الكوبية فإنه تخلف عن قصد عن حضور اجتماعات مع الضابط المعني في السي آي إيه، وكان متعجرفًا عند تفسير أسباب تخلفه. كان دورًا صممته له المخابرات الكوبية بهدف مزج الخليط باعتقاد أن ذلك قد يزيد من ثقة واهتمام السي آي إيه به. فهو لن يأتي إليهم على أنه ضابط استخبارات مدرب. وربما فعلوا ذلك لمجرد المتعة، متبعين في ذلك خطوطًا إرشادية وضعها فيدل نفسه ليرى مدى نجاح الخطة وانطلاء الحيلة. وثمة كوبي آخر لعب بمهارة وإتقان دور الساذج البسيط الذي يسهل إرضاؤه والكذب عليه.

التحديات الماثلة في ضبط إيقاع هذه السمفونية من خداعات الاستخبارات المضادة قد تجهد وتستنفد عبقرية ودهاء أكبر جهاز تجسس. والمثال السابق الأكثر شهرة – نظام العمالة المزدوجة الذي أدارته الاستخبارات البريطانية – سجل نجاحًا ملحوظًا في إحكام السيطرة على الجاسوسية الألمانية في الجبهة الداخلية إبان الحرب العالمية الثانية وما قبل غزو النورماندي عندما حقق عبقرية بارعة في خداع القيادة العليا النازية في برلين بخصوص مكان إنزال قوات الحلفاء على اليابسة. وكان ونستون تشرشل المنخرط بقوة في عمليات الخداع هذه من موقعه كرئيس للوزراء كان يشير إليها بقوله هي "الأكاذيب المرافقة له شخصيًا".

كان جي سي ماسترمان J. C. Masterman أستاذًا في جامعة أكسفورد وقد تم تجنيده للعب دور قيادي في تلك العملية البالغة التعقيد. وقد كتب يقول: "المشكلات الإدارية هائلة، وربما طاغية". نسخ كثيرة للسجلات يجب أن تكون مع كل عميل مزدوج وذلك بغية تفادي حصول اختلافات قد تضللهم عند وضع التقارير. كل جزئية لمعلومة تمرر، وفي الوقت الذي تمرر فيه، والتداعيات المحتملة لإرسالها إلى العدو يجب أن تسجل. وكان عدد العملاء المزدوجين البريطانيين أقل من عدد العملاء المشاركين في العمليات الكوبية[11].

كانت بريطانيا إبان الحرب كما في كوبا بزعامة كاسترو تعزل العملاء المزدوجين عن بعضهم. وعدد صغير جدًا من الضباط في الوكالة فقط يعرفون كل حالة بمفردها، وفي كوبا كان ثمة عدد قليل جدًا، بمن فيهم أسبلاغا، ممن يعرفون الحالات كلها. ومع ذلك كانت هيكلية عمليات العمالة المزدوجة في مديرية المخابرات العامة غير مستقرة داخليًا: فإذا كشفت السي آي إيه عن أي واحد من هؤلاء فالآخرون كلهم سوف يصبحون في دائرة الشك أيضًا حين تزداد مخاوف الاستخبارات المضادة. وأي خطأ خطير قد يكون سببًا لحل المركب بكامله. غير أن مهارة الكوبيين في الإبقاء على سلامة وأمن منظومة العمالة المزدوجة لهذا الوقت الطويل إنجاز قل نظيره. بعد فرار أسبلاغا وانشقاقه لم يستطع ضباط السي آي إيه إلا أن يعبروا عن دهشتهم الحاقدة إزاء ما تعرضوا له من خداع.

تحققت نجاحات كوبا بفضل رئيس الجاسوسية الأعلى في هذا البلد. وأما الآخرون ممن انتقاهم كاسترو شخصيًا وأخوه راؤل فقد كانوا في المناصب العليا في مديرية المخابرات العامة وغيرها من الأجهزة الأمنية، إنما كان فيدل شخصيًا هو الذي يقود ويجسد العمل الاستخباري الكوبي. يرأس نظام العمالة المزدوجة بصفته الرئيس الأعلى، مثلما كان يصر على التعامل مع جميع العناصر والعملاء السريين الهامين. كل واحد من العملاء المزدوجين كان يتعامل مع ضابط في مديرية المخابرات يختص بقضيته ويكون ملمًا إلمامًا كبيرًا بكل تطورات قضيته. لكن هؤلاء الضباط لم يكونوا أكثر من حفظة سجلات ومسؤولين لوجستيين. فيدل هو الذي يتخذ القرارات الأكثر أهمية برمتها.

هو الذي يضع رؤيته للاستراتيجية، يلعب لعبة الخداع ثلاث أو أربع حركات قبل ذلك ودومًا يكون عدد من هذه القطع في حالة حراك متزامن. وهو الذي يقرر من يكون الطعم ومن لا يكون، وأي الوزارات والجهات الحكومية التي يجب حمايتها من السي آي إيه، وما المعلومات التي يمكن أن تمرر للعدو – تسمى "إطعام" أو "تدخين" لدى المخابرات الأمريكية والبريطانية. لم أستطع أن أقرر ما إذا كان فيدل شخصيًا قد فحص وعاين المرشحين ليكونوا طعمًا للغير، إنما ثمة احتمالات جيدة بأنه فعل ذلك في بعض الحالات في الحد الأدنى.

وفي أحيان كثيرة كان يسمح للعملاء المزدوجين بإعطاء بعض البيانات الحساسة للسي آي إيه بغية تعزيز مصداقيتهم. غير أن معظم المعلومات المضللة كانت واقعية وصادقة، لذلك عندما تمرر كانت تقبل على الأغلب على أنها صحيحة. وهكذا معلومات يجب أن تبدو هامة بما فيه الكفاية أيضًا – تبوح ببعض أسرار الحكومة الكوبية – وذلك لمنع إثارة أية شكوك من جراء الخدعة. والسي آي إيه عمومًا تقيس قيمة ووثوقية عملائها بمدى صحة تقاريرهم. ومع ذلك، وبالطبع لا يمكن للمزدوجين أن يعطوا معلومات حساسة فعلًا. ولهذا السبب لم يقع في الطعم أحد من المخابرات الكوبية أو في المؤسسة العسكرية.

هذا الدور القيادي لفيدل كاسترو يتناقض كثيرًا مع الطريقة التي بها كان يدار نظام العمالة المزدوجة البريطاني. كانت لجنة العشرين The Twenty Committee جسمًا جامعيًا مؤلفًا من أساتذة جامعات وموظفي استخبارات برئاسة ماسترمان، وكان يرمز له بالرقم (20) الروماني XX، وهو رقم بالطبع رمز "للصليب المزدوج" حيث الحرف (X) هو الأقرب على لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة ويرمز إلى الصليب. كان الأعضاء يجتمعون أسبوعيًا وفي سرية تامة للنظر في جميع القرارات الهامة. وهم جميعًا يعتمدون المعلومات التي يمكن تمريرها للعدو ويصممون طريقة الخداع التي تستخدم مع المخابرات الألمانية والمخططين العسكريين.

كتب ماسترمان واصفًا عمل لجنة العشرين قائلًا إنها تعمل عمل "دار

مقاصة حيث تجري مقارنة لأعمال مختلف العملاء وتبقى ضمن مقياس معقول من التناغم والانسجام". لا يجوز للعملاء أن يناقضوا بعضهم ولا أن يرددوا كالببغاء ما يقوله بعضهم عندما يمررون المعلومات، فأي سبيل منهما قد يثير الشبهات لدى الطرف المتلقي. أما إبقاؤها جميعًا على استقامة واحدة وفي حالة توازن فهذا هو التحدي الأكبر لفريق عمل ماسترمان.

لم يكن لدى فيدل ما يغريه لتأسيس ما يمكن أن يماثل لجنة عشرين كوبية. فقد لعب هذا الدور شخصيًا بثقة وجرأة لا حدود لهما وهي من سماته الخاصة. لم يكن ضد إدخال بعض الضوابط والتوازنات في إدارة المزدوجين الكوبيين، ولم يكن ثمة أي شك لدى العاملين لديه بأن ذلك كله من صنعه هو. خلاصة القول إن فيدل كان بمفرده الشخص المكافئ للجنة العشرين بقيادة ماسترمان وكان ناجحًا بعمله هذا ولم يرتكب خطأ واحدًا.

بعد فرار أسبلاغا وضعت نظرية وممارسات مهنة العميل المزدوج والطعم في كتب تعليمية لمديرية المخابرات العامة. إحدى الدراسات المتطورة في هذا الشأن كانت من تأليف زايدا غوتييريز بيريز Zayda Gutierrez Perez وهي برتبة رائد في المخابرات العامة وقد أتمت علومها في وزارة أمن الدولة بألمانيا الشرقية الشيوعية، والمعروف باسم ستاسي Stasi. تكشف هذه الدراسة التي تمت في عام 1987 بالتفصيل الموسع الكثير من المبادئ التي كان فيدل يمليها من أجل إدارة عملاء الاختراق. نشرت في الأصل باللغة الألمانية وحفظت في أرشيف ستاسي ببرلين، ولم تر النور إلا بعد توحيد الألمانيتين. وهي الوثيقة الواقعية الوحيدة الداخلية لمديرية المخابرات العامة حسب علمي والتي وصلت إلى الرأي العام[12].

تحدثت غوتييريز في كتابها عن "التقديمات الاستخبارية" وهي اللفظة الكوبية لمصطلح "إطعام feed". لكنها لم تعترف صراحة بدور فيدل في اختيار التقديمات، مع أنها لمّحت بطرف خفي لمشاركته، إذ كتبت تقول "أعلى مسؤولي الدولة ... يجب أن يشاركوا". وأوضحت أن الأهداف الرئيسية للبرنامج تتمثل في استغلال وتضليل السي آي إيه. وقد تعلمت المخابرات العامة الكثير الكثير من

عمليات الخداع، إذ جاء في كتابها "تم اكتساب معرفة ذات قيمة عليا". وهذا يعني أن المخابرات الكوبية طورت وحسنت عملها بعد أن تعلمت من طرائق السي آي إيه. وبحسب ما أورده الإعلام الكوبي فقد كسبت ثروة من الاتصالات الفضائية وغيرها من وسائل الاتصال المتطورة من العملاء المزدوجين.

إنما إنصافًا للكثيرين من الحرفيين في السي آي إيه على كل المستويات والذين خدعتهم الحيل الكوبية لا بد من التأكيد بأن من الصعوبة بمكان الكشف عن حيل وخداع المزدوجين. ريتشارد هلمز Richard Helms، نائب مدير السي آي إيه للخطط في الفترة 1962 – 1965 وهو أستاذ جاسوسية والمدير المستقبلي، أدلى بشهادته بعد أداء اليمين حول هذا المجال في العمل السري أمام مجلس الشيوخ في العام 1975. فقال: "هذا جانب من أكثر جوانب العمل الاستخباري السري صعوبة ويتطلب الدقة والبراعة، ولا يوجد أحد عمل به لمدة طويلة ولم يخدع مرة أو مرتين وربما لمرات عدة. وفي كل مرة يبدأ المرء من جديد، يجازف ويتعرض للأخطار نفسها ... إنه عمل محبط بصورة غير عادية"(13).

* * *

وبينما كان أسبلاغا يميط اللثام عن العمليات الكوبية في صيف عام 1987 كان فيدل يدبر مكائده للانتقام. صدرت التعليمات إلى مديرية المخابرات العامة بأن تهيئ لحملة إعلامية موسعة تكشف فيها عن المزيد من النجاحات التي حققتها كوبا ضد العدو الأمريكي الأكبر. كانت هذه الأسرار المنكشفة مربكة جدًا.

اعتُقل ما يزيد عن عشرين عميلًا مزدوجًا مع أفراد عائلاتهم في هافانا وتحولوا لفترة وجيزة إلى نجوم إعلام. ومن خلال نصوص وأدوار مسرحية أتقنت كتابتها تحدثوا ورووا قصصًا متشابهة عن خيانة السي آي إيه وغدرها، قصص ملفقة أو حقيقية. وسرعان ما بدأت تنتشر في الصفحات الرئيسية لصحيفة غرانما Granma الناطقة باسم الحزب الشيوعي وكذلك على التلفزيون الحكومي قصص مطولة وصور ضوئية عن حياة هؤلاء المزدوجين.

أكثر من ثلاثين عميلًا مزدوجًا أرسلوا في جولة في المناطق كافة، ويقدمون في كل مكان على أنهم أبطال مخابرات. وشارك فيدل شخصيًا في هذه الحملة حيث استضاف اجتماعًا عامًا في القاعة الرئيسية لوزارة الدفاع، المعروفة باسم Sala Universal حيث حضر العديد من العملاء المزدوجين. وحضر الجمع أيضًا شقيقه وزير الدفاع راؤل وعشرات من كبار ضباط المخابرات. ولا يكاد أحد يصدق، فقد تحدث فيدل لنحو أربع عشرة ساعة متواصلة، وقرأ خلالها كثيرًا من "الإطعامات" (feeds) التي ساهم في كتابتها والتي قدمها العملاء المزدوجون إلى السي آي إيه. حدثني واحد من مرافقيه الشخصيين وهو ضابط مخابرات انشق فيما بعد وفر إلى نيويورك في معرض حواره معي عما يتذكره عن تلك الاحتفالية. وقال إنه اضطر لأن يتحمل كل تلك المشقة وهو يقف إلى جانب فيدل. "تورمت قدماي وآلمتاني. كنت واقفًا قرب كاسترو طوال هذا الوقت أحرسه"(14).

وقد بث التلفزيون الكوبي سلسلة من إحدى عشرة حلقة بعنوان "حرب السي آي إيه ضد كوبا" *The CIA's War Against Cuba* مدعيًا بأنه يعرض بالتفصيل الصادم كيف تم الكشف عن موظفي هذه الوكالة وعملائها في الجزيرة على مدى عقد من الزمان. كانت هذه البرامج تشاهد بانزعاج شديد ومتصاعد داخل المقر العام للسي آي إيه، وكل برنامج منها يحمل مفاجآت جديدة.

كان فيدل يضبط إيقاع البرنامج بكامله. وحيث إنه يعرف جيدًا التوترات التاريخية التي أساءت للعلاقات بين السي آي إيه ومكتب التحقيقات الفدرالي FBI فقد وجد سبيلًا منحرفًا لتضخيمها على حساب السي آي إيه. طلب إلى مديرية المخابرات العامة أن تحضر نسخًا مدبلجة إلى اللغة الإنكليزية لهذه البرامج واتخذ ترتيباته لإرسال طقم منها إلى آي سي سميث I. C. Smith العميل الخاص المساعد في مكتب التحقيقات الفدرالي المسؤول عن المكتب الميداني في ميامي. وعندما قام مسؤولون في السي آي إيه بزيارة سميث ليسألوه كيف حصل على الأشرطة المدبلجة حيث إنهم لم يجدوا إلا النسخ باللغة الإسبانية. تظاهر بالخجل وأشغل نفسه في نوع من الألاعيب البريئة التي تحدث عادة بين

الأجهزة وقال بلهجته اللويزيانية الشمالية: "طلبت منهم طقمًا". ثم ابتعد عن نظراته في السي آي إيه المنزعجين ولم يعط مزيدًا من الإيضاح[15].

كانت الأفلام الوثائقية الكوبية متقنة الصنع وبحرفية عالية. يقول أسبلاغا إن مجموعة إنتاج خاصة يعرفها لا بد وأنها تولت إنتاج العمل برمته. يعرض هذا المسلسل تغطية فلمية موسعة لأمريكيين من البعثة الدبلوماسية في هافانا متورطين فيما يبدو أنه عمل استخباري أساسي في مناطق نائية من الجزيرة. وقد كتب سميث يقول بأنهم ضباط من السي آي إيه صورتهم المخابرات الكوبية سرًا وهم "يتركون أو يلتقطون رزمًا تحتوي لأجهزة راديو وأموالًا وتعليمات لكوبيين يبدو ظاهريًا أنهم يعملون لدى السي آي إيه"[16].

وقامت المخابرات العامة أيضًا بتصوير وتسجيل سريين لبضعة أشخاص أمريكيين أثناء اجتماعات سرية مع عملاء مزدوجين في عواصم أوروبية. وعرض المسلسل التلفزيوني أيضًا وثائق يفترض أنها كتبت، وصورًا يفترض أنها صورت من قبل ضباط من السي آي إيه في مواقع مختلفة في كوبا. ولا يوجد أي تفسير للطريقة التي بها استطاعت المخابرات الكوبية أن تستحصل على هذه المواد، مع أنها دون شك تمت بوسائل سرية. أظهرت هذه العروض حاويات تضم رزمًا من عملة البيزو الكوبية وأجهزة راديو وحوامل معدات اتصال مصادرة. يقال إن صخرة اصطناعية جوفاء استخدمت في الريف لتكون وسيلة سرية لتمرير وثائق لعميل مزدوج.

عرض أحد البرامج صورًا لألعاب أطفال وبطاريات ومفروشات واصفًا إياها بأنها وسائل تستخدمها السي آي إيه للتخبئة. رجل مالطي من إيطاليا أنيق اسمه ماورو كازاغراندي Mauro Casagrandi – واسمه الحركي الكوبي "ماريو" – زعم في مقابلة استمرت لساعة من الزمن مع ضباط أمن كوبيين أن السي آي إيه قد جندته في مدريد، حيث اجتاز فحص كشف الكذب. هو مقيم في كوبا منذ مدة طويلة وقد تحدث وهو يخفي ضحكة أثناء حديثه ويتكلم بلغة إسبانية ممتازة أن الوكالة دفعت له على مدى الأيام ربع مليون دولار عندما كان يعمل عميلًا مزدوجًا تحت رقابة كوبية. لكنه لم يقل إن كان عليه أن يحتفظ بهذا المال[17].

العميل المزدوج خوان لويز أكوستا Juan Luis Acosta، قبطان أسطول كوبي لأسماك التونا – واسمه الحركي لدى الكوبيين "ماتيو" – كان واحدًا من أولئك الذين صوروا بدور نجومي في الصحافة والمسلسل التلفزيوني. وقد اختير بخاصة لإرسال الرسالة المرمزة النهائية إلى الوكالة بعد أن اتضح في هافانا بأن جميع خداعات العملاء المزدوجين قد افتضح أمرها. وقد زعمت الصحافة الكوبية أنها تلقت عبر وسيلة إرسال فضائي RS-804 مقدمة من السي آي إيه. تقول الرسالة "بالنيابة عن عملاء أمن الدولة وشعبنا المكافح أرسل لكم هذه الرسالة الأخيرة. عاش فيدل"[18].

المقصود من هذا المسلسل التلفزيوني بالطبع هو وضع السي آي إيه في أسوأ صورة ممكنة. عُرضت صورة أمريكي يقوم بعملية وهو يرتدي قميصًا "تي شيرت" طبع عليه في جهة الظهر كلمة "سوبرمان" Superman بحروف كبيرة. عندما حاولت الكاميرا أن تلتقط صورة مقربة تحدث الراوي عن غطرسة السي آي إيه واعتقادها المتنمر بأنها "كلية القوة".

وهنالك أيضًا صورة لأمريكي واقف بقرب سيارته يبحث عن مفاتيحه التي يبدو أنه أضاعها عندما وضع رزمة في منطقة حرجية، يفترض أن يأتي عميل ليأخذها. وعلى خلفية ريفية مماثلة يسمع صوت زوجة رجل أمريكي آخر وهي تصرخ قائلة "أنت يا غبي" حيث كان يشاهد خارج سيارته ويحاول تخبئة شيء ما. وتظهر الصورة هذا الرجل وهو يترك علامات بالطبشور على مقعد في الحديقة. ويشاهد أمريكي آخر يجلس على مؤخرة سيارته داخل منطقة حرجية يختبر ما يزعم الإعلام الكوبي أنه وسيلة اتصال عبر الأقمار الصناعية يقصد تسليمها إلى أحد العملاء.

جميع الرجال والزوجات المشاهدون في الفيلم قرب سيارته لا يعلمون شيئًا عن الرقابة الكوبية. ومن الواضح أن كاميرات عدة استخدمت في تصوير بعض الأحداث. بعض المقاطع مصوَّرة من الأعلى، وهذا يعني على الأغلب أن كاميرات صغيرة متطورة بها عدسات تلسكوبية قد وضعت في فروع الأشجار. ولا بد أن التحكم بها كان عن بعد لأنها تتوجه شمالاً ويمينًا لتتبع الأمريكيين

وهم يتنقلون. يعتقد أسبلاغا أن مهارات المراقبة عند الكوبيين هي "من بين الأفضل في العالم".

كانت الأهداف تشاهد في لقطات مقرّبة ومن مسافات مختلفة، وهذا يدل على أن لدى الكاميرات إمكانيات التقريب والتبعيد. بعض المشاهد صُوِّرت من مستوى عين الناظر وأمام الهدف مباشرة. جميع الأفلام التي عرضت على التلفزيون الكوبي كانت واضحة، صافية، عالية الدقة. وأظهرت البرامج مهارات تقنية ورقابية متطورة واستثنائية. وأظهرت إلى جانب ذلك أن مديرية المخابرات العامة لا بد وأنها قد كلفت بهذه المهام عددًا ضخمًا من العملاء لمراقبة الامريكيين. جميع الأفلام مصوّرة في ضوء النهار ولا نعرف كم من العمليات التي قد أجريت ليلًا ولم تكتشف.

كان فيدل وقادته الاستخباريون الكبار يشعرون بالسعادة وهم يسخرون من الوكالة آملين دون شك بأن تشعل هذه الأفلام عاصفة نارية في الإعلام والنقد داخل الكونغرس في الولايات المتحدة. ومع ذلك من اللافت أن كاسترو وكبار قادته لم يظهروا في هذه البرامج. وبحسب علمي هو لم يتحدث قط عن نجاحاته أو عن إذلال السي آي إيه.

لكن هذه البرامج ومضامينها، كما تبين لاحقًا، لم تحظ إلا بالقليل جدًا من الاهتمام في الإعلام الامريكي في صيف عام 1987. فهنالك تطورات كبرى غيرها – وبخاصة فضيحة إيران كونترا وشكوك حول دور الرئيس ريغان فيها – سيطرت على الأخبار في ذلك الفصل من العام. ومن حسن حظ السي آي إيه أن لجنتين للإشراف على الاستخبارات في الكونغرس كانتا متعاونتين، وذلك من خلال التكتم على القصة أو من خلال الإصرار على عدم السماع بها. واللافت أيضًا أنه لم تحصل تسريبات لها إلا بعد سنوات. ربما لم يكن أحد في واشنطن في صيف عام 1987 لديه رغبة في سماع الجديد عن الساحرات.

غير أنه ليس ثمة أدنى شك بأن قيادة السي آي إيه كانت لديها أسبابها لإبقاء الغطاء على هذه القصة. لذلك تمكنت هذه الوكالة في نهاية المطاف من

الإبحار عبر هذه الأزمة والخروج منها بأقل ضرر لسمعتها بسبب العرض المتلفز وإخفاق عمليات العمالة المزدوجة الكوبية. وبالمقابل كانت الجروح التي أصابت المعنويات كبيرة ومؤلمة.

ومع ذلك ترك هذا العرض سؤالاً معذبًا مفتوحًا، يئن في انتظاره للجواب، وهو كيف عرف الكوبيون مسبقًا وعلى وجه الدقة أين يضعون كاميراتهم. لا يمكن أن يكون العملاء المزدوجون هم من أخبروا الاستخبارات المضادة أين يضعون أجهزة المراقبة ليلتقطوا صورًا وتسجيلات صوتية للأمريكيين. فالعملاء لا يبلَّغون مسبقًا من قبل السي آي إيه أين يجب أن يذهبوا، مثلًا، ليأخذوا الأموال أو أجهزة الاتصال. فهم لا يتلقون التعليمات المفصلة إلا بعد أن يقوم الضابط المشرف عليهم بتسليم الأشياء. وهذه الممارسات الأساسية موضحة جيدًا في كتيّب للمبتدئين بخصوص الاستخبارات البشرية أو مهنة تطبيق القانون. لذلك يبقى الاستنتاج الذي لا مفر منه هو أن السي آي إيه بطريقة ما قد اختُرقت.

بصرف النظر عن الطريقة التي بها فعلوا ذلك – وعلى الأرجح في هافانا حيث يكون لديهم ميزة عملياتية طاغية – فمن المؤكد أن الكوبيين يفعلون ذلك منذ سنوات عدة وقد اكتسبوا دخولاً غير عادي إلى أسرار حساسة للوكالة.

بحسب علمي لم يتطرق سابقًا أحد للبحث علانية في هذه الاستنتاجات المرعبة. لكنني أعتقد أنها لا تقبل الجدال عند أي شخص شاهد المسلسل التلفزيوني الكوبي ولديه تفهم الهاوي للعمل السري، من خلال مشاهدة أفلام سينمائية أو قراءة قصص عن الجاسوسية. لقد كانت نية هذا النظام بالطبع أن يمسرح المسلسل التلفزيوني بأن السي آي إيه غير كفوءة وهي ضعيفة أمام المهنية الكوبية المتفوقة.

ومع ذلك فالسؤال الأكثر إزعاجًا لم يُسأل بعد علانية حسبما أعلم. ألا وهو "هل تم اختراق السي آي إيه؟"

ليس لي إلا أن أتكهن. ربما كان لدى الكوبيين دخول إلى إحدى منشآت

السي آي إيه، أو ربما اعترضوا اتصالات الوكالة وحللوا رموزها، وهو أمر أقل احتمالاً. أما أسوأ الاحتمالات - وأقلها إمكانية - هو أن الشبهة التي حدثني عنها أسبلاغا صحيحة وهي أن العميل السري المتفوق لفيدل في واشنطن هو ضابط في السي آي إيه يعمل في هيئة الموظفين الخاصة بالشؤون الكوبية، ربما كان يوجد هكذا خائن للوكالة صار بالتالي في موضع شبهة ثم تم تعطيل عمله وإبعاده ولكن لا يمكن تقديمه للعدالة لعدم وجود أدلة كافية تثبت خيانته.

ومع ذلك فالتفسير الأكثر احتمالاً أبسط من ذلك، ألا وهو أن لدى الكوبيين إمكانية الوصول المنتظم والدائم للبعثة الدبلوماسية الأمريكية في هافانا. فهذا البناء المكون من ست طبقات على شاطئ البحر بشارع مالكون بوليفار Malecon ظل فارغًا لما يقرب من سبعة عشر عامًا. وفيه كان مقر السفارة الأمريكية حتى قطعت العلاقات الدبلوماسية بين نظام كاسترو والولايات المتحدة ثم أغلق في كانون الثاني/يناير 1961 قبيل تنصيب الرئيس جون ف. كينيدي. بعد ذلك، تولت الحكومة السويسرية مسؤولية حراسة البناء، ولكن بسبب محدودية ما لديها من موظفين في هافانا ومحدودية مواردها لم يكن بمقدورها فعل الكثير.

ومن غير المرجح بالتأكيد أن يكون الأمريكيون قد تركوا سجلات حساسة للسي آي إيه أو تجهيزات يمكن للاستخبارات الكوبية أن تأخذها عندما أغلق هذا البناء. فقد جاء في التاريخ الرسمي للسي آي إيه المذكور آنفًا ما يلي:

> "عندما حصل القطع تلقت السفارة إشعارًا يمهلها ثلاثة أيام بأن الإغلاق سيكون في الرابع من كانون الثاني/يناير. كانت محطة السي آي إيه قد ركّبت لتوها جهازًا جديدًا للحرق وتمكنت من إحراق الملفات التي لا يمكن شحنها إلى Key West... وعندما لا يحرقون الأوراق أو تكسير التجهيزات التقنية يقوم الضباط المعنيون بتخبئة أجهزة الراديو أو يدفعون مسبقًا مستحقات العملاء الذين سوف يبقون ... أما ملفات المحطة التي لا تتضمن أشياء جوهرية فكانت توضع في الصناديق وتشحن إلى المقر. كان الضباط يعملون خمس عشرة ساعة يوميًا وسبعة أيام في الأسبوع"[19].

ويجدر بنا أيضًا أن نذكر الحواشي والهوامش القليلة والتي كتبت بألون مختلفة بخصوص ذلك الخروج الأمريكي العاجل عبر مضائق فلوريدا. نائب رئيس المحطة الذي كان لديه التوقع بقطع العلاقات الدبلوماسية تمكن من القيام "برحلة خاصة على متن عبّارة تتنقل على خط هافانا – كي وست Key West ليُخرج سيارته الخاصة والأواني الفضية للمائدة وآلة الكمان الثمينة".

لكن العاملين الآخرين من موظفي السي آي إيه لم يكونوا سعيدي الحظ مثله. "احتفظوا ببيوتهم حتى آخر لحظة وخسروا كل شيء بداخلها". ثم جرى أداء الفصل الأخير بأسلوب طقسي، وضباط السي آي إيه المرهقون في هافانا انضموا جميعًا في وقفة تضامنية للمرة الأخيرة: "في الرابع من كانون الثاني/ يناير اجتمع موظفو السي آي إيه في السفارة وركبوا السيارات التي أقلتهم في قافلة واحدة إلى العبّارة وأبحروا إلى الولايات المتحدة"[20].

ومضت السنون وظل هذا البناء الأبيض الجميل فارغًا يغتسل دوريًا برذاذ البحر الكاريبي. لم يكن يوجد أمريكيون مسؤولون في هذا المكان عندما حصل ذلك الفشل الذريع في خليج الخنازير عام 1961، وأزمة الصواريخ المروعة بعد عام وتلك المواجهات العديدة الأخرى مع كاسترو في عهود الرؤساء كينيدي وجونسون ونيكسون وفورد.

وأخيرًا أعيدت العلاقات الدبلوماسية المحدودة في الأول من أيلول/سبتمبر عام 1977. فقد تم التوقيع على اتفاق بين إدارة الرئيس كارتر الجديدة وكوبا على فتح "مكتب رعاية المصالح" في سفارتي البلدين في كل من هافانا وواشنطن. كانت البعثة الأمريكية من الناحية الفنية – عرفت باسم مختصر USINT دلالة على مكتب رعاية المصالح الأمريكية في هافانا – قسمًا من السفارة السويسرية. ومع ذلك فقد كبر هذا القسم وبات أكبر بعثة دبلوماسية في هافانا مع أنه لا يحتفظ بوضعية سفارة ولا يرأسه سفير إنما موظف كبير من مرتبة أدنى. كانت هذه الوسيلة ضرورية لأن الولايات المتحدة لا تعترف بشرعية حكومة الأخوين كاسترو ولم تؤسس لعلاقات دبلوماسية طبيعية.

كان المسؤول الرئيسي في مكتب رعاية المصالح للفترة الممتدة من عام 1990 وحتى 1993 ألان فلانيغان Alan Flanigan وهو دبلوماسي مخضرم. في مقابلة أجريت معه بعد بضعة أعوام كان صريحًا حين تحدث عن إمكانية اختراق هذا المبنى حتى إبان مدة عمله هناك، إذ قال:

> "لم نكن على ثقة حول مدى أمان حماية مبنى السفارة. كان افتراضنا أنها لم تكن آمنة قط، وأن لدى الكوبيين إمكانية الدخول إليه بحرية إلى حد ما خلال تلك السنين، لذلك عندما رجعنا إليه كان علينا أن نعمل بافتراض أن جهاز الاستخبارات الكوبي كان لديه القدرة على سماع كل شيء نفعله هناك"[21].

وأضاف فلانيغان قائلًا مستنكرًا ما جرى "كان لدينا نحو 120 موظفًا كوبيًا في مكتب رعاية المصالح". ولم يكن بحاجة لأن يضيف بأنهم افتراضيًا يعملون بطريقة أو أخرى لصالح جهاز استخبارات فيدل. في هذه الظروف ينبغي أخذ ما تتباهى به الحكومة الكوبية في كشفها للأسرار على محمل الجد. وبحسب صحيفة "غرانما" الرسمية فإن العروض التلفزيونية في صيف عام 1987 كشفت بأن "نشاط محطة السي آي إيه كان تحت مراقبة قوات الأمن الكوبية في جميع الأوقات".

تشير عبارة "في جميع الأوقات" إلى أنه ليس الموظفون الأمريكيون وحدهم كانوا تحت المراقبة الدائمة كلما تنقلوا في أنحاء الجزيرة بل وأيضًا كانت محطة السي آي إيه مخترقة وأن كل شيء يحدث بداخلها تقريبًا كان يرصد أو يسمع وربما الاثنين معًا. إذن الاستنتاج المنطقي بل والمنفّر أيضًا هو أن مكتب رعاية المصالح عندما أعيد فتحه، قد أمطر سرًا بأجهزة مراقبة سمعية وبصرية مصغرة ومتطورة جدًا في ذلك الحين، وبشبكة من الأنفاق والمداخل تحت أرضية متصلة بمباني الحكومة الكوبية القريبة، وعرّت كل شيء أمام عيون وآذان المخابرات العامة المتطفلة. لقد كان أمام رجال فيدل أكثر من عقد ونصف من السنين ليجعلوا بناء السفارة القديم ملكًا لهم.

من السهل جدًا أن يتخيل المرء بأن كاسترو شخصيًا دخل هذا المبنى،

وربما في وقت متأخر من الليل يرافقه ضباط استخبارات يرشدونه ويحيطونه علمًا بما أنجزته أيديهم. فهو دومًا يستمتع بهذا النوع من المتع في التعامل مع الولايات المتحدة. ولكن بصرف النظر عما إذا قام فعلًا بدخول المكان فإنه من المرجح كثيرًا أن صنّاع الأفلام في مديرية المخابرات العامة قد حضّروا أفلامًا وثائقية شاملة له تبيّن الأجزاء الداخلية للبناء. ومن المؤكد أيضًا أن رسومًا بمقاييس معمارية مفصلة قد رسمت للبناء. فهذه كلها ستكون جاهزة للاستخدام المتواصل لعمليات اختراق مستقبلية.

الفصل الثاني

بأوامر من فيدل

عندما بدأتُ لقاءاتي مع فلورنتينو اسبلاغا بعد عشرين عامًا مضت على انشقاقه كان في الستين من عمره، رجلًا نحيلًا مزيلًا لكنه أنيق يركض لمسافات طويلة ويمارس السباحة. وهو كغيره من الكوبيين مفعم بالحيوية والنشاط، يتقن التعبير عن نفسه، محب للضحك ولا يخفي مشاعره العميقة. عندما يلح أحد بالسؤال عن عمله في المخابرات الكوبية لنحو خمسة وعشرين عامًا تتحرك مشاعر قوية في أعماق نفسه بفعل وصفه للقاء مع ضابط السي آي إيه الذي أحبه وأعجب به عن بعد. حتى الأحاسيس الأكثر عمقًا تتوهج على محياه حين يحدثني عن فراره وهروبه إلى الحرية مع عشيقته مارتا.

كان "تايني Tiny" كما هو معروف عند عائلته وبعض أصدقائه يجري لقاءات طوال النهار يوم السادس من حزيران/يونيو علم 1987 في شركة كوبا تكنيكا Cuba Tecnica، الغطاء الذي كان يعمل في ظله في براتسلافا. فقد اجتمع عنده عملاء مخابراته الرئيسيون والمخبرون والمفوضون المكلفون بمراقبة العمال الكوبيين العاملين في المصانع المحلية ليرفعوا تقاريرهم إليه. استدعى مارتا من مدينة روزمبيروك Ruzomberok الصناعية الواقعة في شرق سلوفاكيا حيث تعمل في مصنع للنسيج. لم تكن تدري ما يدور بذهنه ولم تحضر معها شيئًا.

لا أحد في المخابرات الكوبية يعرف ما الذي يعتزم أسبلاغا فعله ذلك

المساء مع أن من هو أكثر ريبة وأشد دهاء قد يتساءل. كان يداعب زملاءه بين الفينة والأخرى قائلًا بأنه في يوم ما قد يلقي بنفسه بين براثن العدو، إذ يقول:"سوف أقفز فوق الجدار في يوم من هذه الأيام". لكنهم دومًا يضحكون، متأكدين بأنه يمازحهم، مجرد تنفيس عن النفس. فهو معروف بحبه للعبث. وعلى أية حال فهو ضابط الاستخبارات المضادة الذي نال أكثر الأوسمة من فيدل. ومن مسؤوليته أن يحرص على أن أحدًا لا يفكر بالفرار والانشقاق.

بعد وصوله مباشرة إلى العاصمة السلوفاكية في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر السابق بدأ يخطط لهجرته إلى السي آي إيه. فأماكن تعيينه السابقة خارج كوبا كانت في انغولا لنحو عام واحد في منتصف السبعينيات، ثم لفترة قصيرة في موسكو، لذلك لم تتح لأسبلاغا الفرصة للهروب إلى مكان يجد فيه ممثلًا للسي آي إيه. أما براتسلافا القريبة من الحدود النمساوية ولا تبعد أكثر من خمسين ميلًا عن فيينا العاصمة والسفارة الأمريكية فهي المكان السهل للفرار.

كان جزءًا هامًا من مخططه بأنه حين يقرر القيام بحركته هذه فيجب أن يكون ذلك في السادس من حزيران/يونيو الذي يصادف الذكرى السنوية لتأسيس وزارة الداخلية. وقد احتفل بهذه المناسبة في هافانا مرات كثيرة في الماضي مع زملائه، ومرة أو مرتين في الحد الأدنى كان واحدًا من جمهور المستمعين يقود الهتافات لخطب يلقيها فيدل أو الوزير. والآن وبعد أن وجد في فرار الجنرال ديل بينو ما يشجعه فقد اراد أن يكون مصدر إلهام للآخرين ليفعلوا كما فعل. أراد أن ينخس فيدل ويثير حنقه.

"كان لدي الدافع للمجيء يوم السادس من حزيران/يونيو. لقد أردت أن أنال من كاسترو وأن أجرح معنوياته"[1]. تواعد تايني – اسم التحبب ولعله تحريف لـ "تينو" اختصارًا لفلورنتينو – مع مارتا في حديقة عامة وسط المدينة في براتسلافا في وقت متأخر من العصر. ساعات قليلة تفصلهما عن العتمة، وكان يوم سبت دافئ. عائلات وأفراد سعداء احتشدوا في الحديقة يجلس بعضهم تحت ظلال الأشجار يستمعون لأنغام موسيقية تبثها إذاعة الدولة. كثيرون من التشيك والسلوفاك كانت معنوياتهم مرتفعة في ذلك الربيع يتعللون

بآمال بحصول تغيير سياسي يحررهم. وكانت النفحات الأولى للإصلاحات التي سوف تجد طريقها إلى الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية الشيوعية قد بدأت تتحرك.

أما فيدل، الذي أرّقه ما سوف تعنيه تلك التغيرات لكوبا فقد كان يغذّ السير للأمام بما أسماه تجملًا حملة "التصحيح". فلو أنه أسماها قمعًا لكان ذلك أفضل له. كانت استجابة كاسترو لتلك السياسات التحريرية للانفتاح المنبثقة من موسكو والتي بدأت تمزق المجتمعات الماركسية الاكثر تصلبًا إيديولوجيًا وتوافقًا اجتماعيًا. الإصلاحات السوفياتية جنون، وتقود للخراب. وفي معرض الدفاع عن الذات تبنى شعارًا جديدًا مثيرًا للخوف: "الاشتراكية أو الموت"، يهتف به رافعًا قبضة يده عند اختتامه لكل خطاب يلقيه. ورفعت يافطات تحمل هذا الشعار في طول الجزيرة وعرضها.

كان فيدل صامدًا عنيدًا، وأخذ يعتقل صغار المقاولين الذين وصفهم بألفاظ فظة بأنهم "استغلاليون ورأسماليون جدد". لكن جرائمهم تافهة بكل المقاييس. أحد المسيئين من الذين اتهمهم كان يبيع الشوكولا في متنزه لينين في هافانا، وآخر، وهو فنان متجول ننبه أنه كان يرسم رسومًا كاريكاتورية للأشخاص لقاء بضع بيزوات. وثالث كان يجمع بقايا نثريات ليصنع منها مجوهرات للملابس ويبيعها. كانوا لامنتمين مجرمين بنظر فيدل، استغلاليين، يخالفون الاقتصاد الموجه. لم يخبرني أسبلاغا قط بأن حركة الإصلاح الشيوعي السوفياتية والأوروبية كان لها تأثير على قراره بالانشقاق، لكنها دون شك أثرت في إذكاء كراهيته لكاسترو وغطرسته.

بما أن مارتا عاملة زائرة فقد صودر جواز سفرها الكوبي ووضع في خزانة حديدية في مركز المخابرات العامة الكوبية في براغ. وهذا إجراء احتياطي معتاد بغرض منع الهروب والانشقاق. وكان على أسبلاغا أن يهرّبها عبر الحدود إلى النمسا. وكان يعرف أن ذلك ليس بالأمر الصعب. وبما أنها تعشقه بجنون كانت على استعداد لأن تفعل ما يفكر به.

تجاهل وجود التشيك والسلوفاك الذين يستمتعون بأوقاتهم في الحديقة العامة، وقام برفع دولاب الاحتياط من سيارته الحكومية الكوبية وهي من طراز مازدا 202 خضراء، وثقب ثقبًا يساعد في التنفس في الأرضية. ثم أقنع مارتا لتكوّم نفسها في هذا المكان ثم أغلق مؤخرة السيارة، ولم يبدُ بأن أحدًا قد لاحظ ما فعله أو أبدى اهتمامًا.

لا تبعد الحدود أكثر من ميل واحد أو نحو ذلك عن المكان الذي منه انطلقا، وهو يعرف الحرس على كلا الجانبين لأنه كثيرًا ما مر من هنا وأبرز لهم جواز سفره الدبلوماسي، وهو واحد من ثلاثة جوازات سفر كل منها يحمل اسمًا مختلفًا وعناوين غلاف مختلفة كان يحملها ذلك اليوم. كان يبتسم ويمازح الحرس النمساويين كالمعتاد، وهم يشيرون بأيديهم له ليتابع سيره. وما هي إلا هنيهات حتى أوقف سيارته في الطريق ليخرج مارتا من مخبئها. ظنت أنهما في مهمة استخبارية سرية. وحينئذ فقط تحدث معها وهي جالسة إلى جانبه في السيارة وشرح لها خطته. أحس بالانهيار وأطلق تنهدات عميقة وتوسل إليها طالبًا الزواج منها في أمريكا حيث سيبدآن حياة مشتركة معًا.

"نحن ذاهبان إلى الولايات المتحدة. وسوف تعيشين سنوات عدة دون أن تري عائلتك ... سوف يحاولون قتلنا".

كاد يختنق وهو يروي هذا المشهد لي بعد عشرين عامًا. لقد كان محقًا في قوله بأنه سرعان ما يكون هدفًا للاغتيال. أما هي فلم تكن مستهدفة.

تبعد فيينا عن نقطة الحدود أقل من ساعة بالسيارة، والطرقات جيدة والقيادة سهلة. حين وصلا، بيّت السيارة ثم لوّح لسيارة عامة وأعطى السائق قطعة ورق كان قد كتب عليها عبارة "السفارة الأمريكية". لكن السفارة كانت معتمة مساء يوم السبت مقفلة وكئيبة خلف بوابة حديدية ثقيلة. لم يقلق أسبلاغا. كان يعرف أن الحرس من مشاة البحرية قائمون على عملهم بصرف النظر عن ساعة قدومه، مثلما كان يعرف جيدًا أنهم يقومون بدورياتهم طوال الساعات عند البعثة الدبلوماسية الأمريكية في هافانا. سار متمسكًا مع مارتا قرب

البوابة وما لبث أن اقترب منهما حارس شاب من مشاة البحرية جيد التدريب. قدم له أسبلاغا جواز سفره وأبرز وثيقة استخبارية كوبية سميكة كان سرقها، وبمساعدة مارتا حاول توضيح الأمر على عجل.

"أنا ضابط مخابرات كوبي. أنا قومندان استخبارات".

لقد اجتاز أسبلاغا نهر الروبيكون Rubicon(*) ولم يعد لديه سبيل إلى الرجوع عن قرار اتخذه. في تلك اللحظات التي قضاها مع جندي مشاة البحرية أصبح بمفهوم الاستخبارات الأمريكية القائم طوعًا. وفي كوبا "متطوع". بعضهم يُحضر معه وثائق لستخبارية سرية ليثبت صدق نواياه - أي أنهم حقًا من يدعون وأن لديهم معلومات ثمينة يدلون بها. وصل أسبلاغا إلى فيينا ومعه نسخة حسلسة مرقمة من كتيب بعنوان "قواعد وإجراءات في المديرية العامة للاستخبارات المضادة" ختم عليها عبارة "من أسرار الدولة". النسخة التي قدمها لي لا تتضمن بوحًا عميقًا لمعلومات عن العمل الكوبي أو الأولويات الاستخبارية، لكنها تفيد في تأكيد ثبوتياته وأوراق اعتماده. أما الأسرار المذهلة التي سوف يميط اللثام عنها فهي مودعة في رأسه.

بعض هؤلاء القادمين طوعًا يطرقون عند أبواب السفارات الأجنبية عندما يأتون فجأة من دون وثائق سرية ومن دون إنذار. ربما هم من الاستفزازيين أو الكذّابين أو المنتحلين لشخصيات معينة. أما حقيقة أن معظمهم قد يشعرون بالاضطراب حين يصلون فلن تشفع لهم في تهدئة المخاوف. وكانت كل من السي آي إيه و الـ KGB تحذر هكذا أشخاص إبان الحرب الباردة. وحقيقة الأمر أن كلا الوكالتين أحيانًا كانت ترفض منشقين حقيقيين من المستوى العالي والذين قبلوا فيما بعد عندما حاولوا الاقتراب مرة ثانية وقدّموا معلومات ذات قيمة عليا. وأفضل مثال معروف كان فرار فاسيلي متروهكين Vasily Mitrohkin

(*) الروبيكون: اسم نهر صغير في شمال إيطاليا كان يشكل جزءاً من الحدود بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لها. وقد اجتازه قيصر عام 49 ق.م. مشعلاً بذلك نار الحرب الأهلية التي جعلته سيد روما. وأما عبارة "اجتاز الروبيكون" فتعني "اتخذ قراراً خطيراً لا سبيل إلى الرجوع عنه - المترجم.

وأوليغ بنكوفسكي Oleg Penkovsky من الجانب السوفياتي. فكلاهما جاء طوعًا إلى الأمريكيين لكنهما لم يؤخذا على محمل الجد في البداية.

لكن الكوبيين، بالمقابل، أقل حذرًا عادة عندما يقترب منهم غرباء يعرضون المساعدة. قال لي أسبلاغا "كوبا أكثر حرية"؛ فالفلسفة لديهم عمومًا هي "خذ ما يأتي إليك". وعلى سبيل الإطناب في توضيح فكرته أضاف قائلًا: "إذا جاءك مليون شخص فسوف تتعامل مع المليون شخص". وفي بلدان كثيرة في أنحاء متفرقة من العالم تطوع كثيرون من المؤمنين الصادقين بفيدل وثورته لتقديم خدماتهم بهذه الطريقة، وهذا يعني حرفيًا يطرقون أبواب السفارات الكوبية. وكان لي هارفي أوزوالد الذي اغتال الرئيس كينيدي واحدًا من هؤلاء.

كان ضباط مخابرات كاسترو وبتشجيع منه يميلون لأن يكونوا – كما يقولون بعبارة خاصة بهم – مشحونين، متلهفين ومتحمسين، جازمين وجريئين. وهذه صفات يمجدها فيدل. فهو ينتظر من الرجال والنساء الذين يخدمونه في العمليات السرية أن يتصرفوا بشجاعة وتكون لديهم المبادرة ويجازفوا وأن يتحدوا الصعاب. ولسخرية القول، فإن هذه الخصائص أيضًا تفسر لماذا يوجد كثيرون من المنشقين في الصفوف العليا في المخابرات الكوبية.

كان أسبلاغا على ثقة أكيدة بأن ما قاله فيما بعد لجندي البحرية سوف يعجل في قبوله. وهذا يمكن التأكد من صحته بسهولة ويثبّت. أما صحة أقواله فيمكن التحقق منها. قال للشاب الأمريكي إنه يريد الالتقاء بضابط من السي آي إيه كان معجبًا به عن بعد في هافانا. وقدم اسم هذا الضابط والعاصمة الأوروبية الموجود فيها.

"اتصل بهذا الشاب فهو في السي آي إيه وقل له إنني أريد التحدث إليه".

أسبلاغا لم يلتق بهذا الضابط، مع أن كلًا منهما كان يتعامل مع العميل المزدوج نفسه والمعروف عند الكوبيين باسم "فرانشيسكو". فالأمريكي هو الضابط المختص بفرانشيسكو في السي آي إيه، وأسبلاغا هو الضابط الكوبي الذي يتعامل معه على الطرف الآخر من العمل المزدوج. والعميلان نظر أحدهما

إلى الآخر من خلال الموشور المتمثل بالعميل الذي يتعاملان معه. وكل واحد منهما عرف أشياء وسلوكيات شخصية عن الآخر من خلال فرانشيسكو. أسبلاغا سمع صوت الأمريكي المسجل سرًا أثناء اللقاءات السرية مع فرانشيسكو. وراقبه مرارًا في فلم وفيديو صورا أثناء المراقبة. وعملا أيضًا مع عميلين مزدوجين آخرين أقل أهمية ولأغراض متعارضة[2].

الأمريكي يتحدث الإسبانية بطلاقة وبلكنة كوبية. وبسهولة تمثل الثقافة اللاتينية والكوبية وكان بنظر أسبلاغا النموذج الأكثر نبلًا ومهنية حتى بالمقارنة مع زملائه الكوبيين. ومن خلال مراقبته له بات تايني قريبًا جدًا من نقيضه.

كان يحترم مهارات هذا الرجل الأمريكي العامل في السي آي إيه ونزاهته وقيمه الأسرية. زوجته أيضًا كانت محل إعجابه. فهي مثل سائق سيارة أصيل متمرس وهي تجلس خلف مقود سيارتهما تسرع لتتفادى رقابة الكوبيين. وصف مهارتها بقيادة السيارة أمامي بكلمة "وووووش"، يحرك ذراعه اليمنى حركة ترسم بالهواء قوسًا واسعًا. كان ضابط السي آي إيه رجلًا أهيف القد "سمباتيك" كما وصفه بلغته الإسبانية (*Simpatico*) وهي تعني أيضًا أنه رجل محبوب ودمث ولطيف، وعند الكوبيين حين ينطقون بها فهي ترمز إلى الإعجاب الدافئ. وعندما يصفون رجلًا بأنه "سمباتيك" فهم يعنون أنه جدير بأعلى صفات المديح والإطراء التي يستطيع الكوبيون أن ينطقوا بها.

أخبرني أسبلاغا بشيء من الرهبة الممزوجة بالاحترام بأن مهارات هذا الأمريكي في العمل السري هي "ربما الأفضل ... في العالم بأسره ... والروس قالوا أيضًا إنه الأفضل. وقرأت ذلك في تقارير من الـ KGB". وفي منكراته كتب تايني إن نظيره في الوكالة "كان المسؤول الأشد خطرًا فيما يخص قدراته في العمل السري والاستخبارات العليا التي يمكن أن نواجهه في أي جهاز استخبارات".

أطلقت المخابرات الكوبية اسم "البينستا Alpinista" على هذا الأمريكي. يعني هذا الاسم "متسلق الجبال" أو "متسلق جبال الألب". ولعل ذلك مقياس

لمدى احترامهم له، إضافة إلى أنه يشكل اعترافًا بصفاته الدالة على حب المغامرة والتصدي للصعاب. فهو أستاذ في فن التنكر والتهرب. ولذلك فهو رجل يصعب تعقبه. والمعروف أنه هو من تعامل مع فرانشيسكو واثنين آخرين من المزدوجين بدفء وسحر وحيوية. وكان سلوكه كأنه كوبي.

وكانوا يعرفون أيضًا أنه لم يكن يأخذ لنفسه شيئًا من الرواتب التي تدفعها السي آي إيه إلى العملاء الذين يشغّلهم. وقد أعجب أسبلاغا بنزاهته وهو الذي يعرف مدى ضعف المعايير الأخلاقية عند زملائه. المزدوجون الكوبيون يتعين عليهم أن يسلموا الأموال التي يقبضونها من الوكالة إلى حكومتهم. والسبب في ذلك كما يقال لهم أن هذه الأموال سوف تنفق في بناء مدارس جديدة لذلك فهم يتبرعون لأجل نظام تعليمي أفضل. أما الواقع فإن هؤلاء المسؤولين الكبار في المخابرات والحزب الشيوعي كانوا ينهبون معظم هذه المبالغ الضخمة لينفقوها على شراء أشياء فاخرة. والعملاء المزدوجون الذين يسافرون للخارج بمهمات كانوا يعطون عادة قوائم للتسوق من رؤسائهم لشراء سلع غير متوفرة في كوبا.

هذا الضابط من السي آي إيه غير قابل للفساد. حاولت المخابرات السوفياتية مرة أن تجنده. وقد علم أسبلاغا من قراءة تقارير ترسلها KGB إلى مديرية المخابرات العامة أن الأولى أغرت هذا الضابط للدخول في جلسة مكاشفة تعقد في بلد أوروبي حيث وضع العميل السوفياتي أكياسًا من النقود أمامه وقام بطرح فجٍ لتجنيده. يتذكر تايني فيقول: "لست أدري كم مليونًا من الدولارات كان المبلغ".

لكن ضابط السي آي إيه بقي هادئًا ساكنًا ومتحديًا. وقال للـ KGB: "كلا، لا أريد أموالكم. الشيء الوحيد الذي أريده لو شئت أن أعمل معكم هو أن أكون رئيس وزراء روسيا".

ذهلوا. وقالوا: "ماذا؟ لماذا، أنت الأمريكي، تريد ذلك؟ هذا جنون. ما الذي تتحدث عنه؟" ابتسم ساخرًا وانحنى للأمام قليلًا نحو خصومه السوفيات واضعًا

مرفقيه على الطاولة بينه وبينهم وقال: "حسن، بهذه الطريقة أستطيع أن أغير روسيا وأهزم الدكتاتورية الشيوعية".

اعترف السوفيات والكوبيون صراحة أنه هدف يستحيل تجنيده. وواقع الحال أن مديرية المخابرات الكوبية قد استنتجت آنذاك مما كان عملاؤها المزدوجون يقولونه في تقاريرهم ومن التنصت والمراقبة أنه ليس مرشحًا محتملًا للانشقاق. وأيقنوا بأنه ليس لديه نقاط ضعف يمكن استغلالها. لقد أعجب الكوبيون والسوفيات بتشبثه وعناده وإخلاصه. وبعبارات كوبية كان "عقائديًا" أكثر مما ينبغي - معارضًا قويًا للدكتاتورية الشيوعية - ولا يمكن الإفادة منه.

عندما كان أسبلاغا يروي لي هذه الذكريات أثناء لقائنا الثالث سيطرت العواطف والمشاعر الحساسة عليه. وفي تلك اللحظة بدأت أقدر فعلًا كيف كان إعجابه الشديد بهذا الوطني الأمريكي النموذجي الدافع الرئيسي عنده ليختار الانضمام إلى صفوف السي آي إيه العدوة. وعلى أية حال لم يكن سبب انشقاقه إيديولوجيا محضًا. ولم يكن لمجرد إيذاء فيدل. لقد أراد تايني أن يعمل ليس فقط مع هذه الوكالة بل تحديدًا مع العميل الذي كان يجله ويوقره كثيرًا. وقد أسر لي قائلًا إن علاقته التنافسية مع صورة المرآة لضابط السي آي إيه كانت "جميلة جدًا". ظننت ذلك اعترافًا غريبًا صادرًا من القلب عن عميل استخبارات كوبي متحجر الفؤاد طالما كرمه فيدل لكونه واحدًا من الأفضلين عنده. لكنه في تلك اللحظة وبغية التوكيد على قوله كرر أسبلاغا ثانية ما كان يفكر به.

عندما وصل عميل السي آي إيه إلى مركز الاستجواب الأمريكي في أوروبا الغربية حيث جيء بهذا الخصم القديم الذي لم يجتمع به من قبل من فيينا، كان متنكرًا ومتخفيًا بحيث لم يستطع تايني التعرف إليه.

"لم يقولوا لي بأنه سيأتي ... جاء متغيرًا كثيرًا".

بعد حديث استمر لخمس عشرة أو عشرين دقيقة كشف هذا الأمريكي أخيرًا عن حقيقته. دهش أسبلاغا كثيرًا لكنه كان مسرورًا.

"وعندئذ أخذنا نضحك معًا. كان يداعبني ليرى إن كنت سأعرفه".

ومن دون كثير من الوقت صار الخصمان الآن زميلين في مهنة واحدة، يلعبان في فريق واحد. حدثني أسبلاغا قائلًا إن احترامه لضابط السي آي إيه ازداد وحلق عاليًا. وتعانقا عناقًا شديدًا على الطريقة الكوبية.

توجد حكايات أشد غرابة في التاريخ المستتر للمكائد الاستخبارية، لكن القلة القليلة منها، كما أتصور، مؤثر ويثير المشاعر كما هذه القصة. هنالك منشقون هامون آخرون أثناء الحرب الباردة، ومنهم كوبيون آخرون، كانوا أيضًا معجبين عن بعد بجهاز الاستخبارات المعادي لكنهم انضموا إليه فيما بعد. وهنالك قصص مشابهة في الأدب وفي التاريخ العسكري. لكنني لا أعلم بأي حالة أخرى من حالات الانشقاق في أي بلد أنها كانت تستند على مهنية وجاذبية شخصية واحدة من الجانب الآخر. لكن المتطوع الأكثر أهمية الذي ترك المخابرات الكوبية قد جاء إلى السي آي إيه بسبب إعجابه الذي لا تحده حدود بخصم لم يلتق به.

في مركز الاستجواب الأمريكي لم يصدق المسؤولون تلك الأسرار الصادمة التي بدأت من فورها تنطلق من فم غنيمة كوبية غير متوقعة. استمعوا بدهشة مؤلمة وهو يروي كيف استطاعت المخابرات الكوبية أن تتلاعب بالسي آي إيه وتخدعها بنسبة عظيمة لا يمكن تصورها ولسنوات عدة. تحدث أسبلاغا، بداية مع هؤلاء الذين استجوبوه في المركز الأمريكي، ومعي بعد عشرين عامًا، كاشفًا الغطاء عن أكثر أسرار فيدل كاسترو حساسية والتي تجرّمه، وكان حديثه دومًا مزيجًا غريبًا من تأنيب الضمير والفخر والاعتزاز.

* * *

هو الآن مواطن أمريكي يعيش مغمورًا وبهدوء بهوية جديدة. كان تزويده بهكذا حماية من جانب السي آي إيه ومكتب التحقيقات الفدرالي بعد استجوابه هذا هو الشيء الحصيف الذي يجب اتخاذه. وهو حتى الآن وبعد انقضاء زمن طويل على وصوله إلى الولايات المتحدة، لا يزال يبتعد عن الشهرة وعن الجدالات

العنيفة والساخنة الهجومية واتخاذ موضع معين في تعاطي سياسة الكوبيين في المنفى. وبرغم ذلك، وكما كان يخشى منذ البداية، فقد كان هدفًا للاغتيال.

المحاولة الأولى – وقعت في لندن في 12 أيلول/سبتمبر 1988 – كانت أقرب ما تكون من النجاح. والحق يقال، كانت نجاته معجزة. وهو لا يزال يرتدي الجاكيت التويد التي كان يرتديها في ذلك اليوم. وقد أتى بها إلى أحد اجتماعاتنا ليريني الثقوب التي أحدثتها في جانبي المعطف الرصاصات التي أطلقها من مسافة قريبة زميل سابق له في المخابرات الكوبية. وكان واثقًا بأن أمر تنفيذ حكم الإعدام بحقه صدر من فيدل مباشرة. وقد أكد لي صحة ذلك دون أدنى شك اثنان من المنشقين الكوبيين من مستوى عال أجريت مقابلات معهما[3].

خوان سانشيز كريسبو Juan Sanchez Crespo فر من كوبا عام 2008. كان عضوًا أمينًا يوثق به في المفرزة الأمنية المرافقة لفيدل كاسترو في الفترة بين 1977 وحتى 1994، ولمدة من الزمن عمل رئيسًا لفريقه الأمامي الذي ينهي تقييمات الأخطار قبل رحلات فيدل الدولية. وقد أخبرني أن "الرجل الذي أطلق النار على أسبلاغا فعل ذلك بأمر من فيدل".

وهنالك منشق آخر من مستوى رفيع في المخابرات العامة الكوبية حدثني عن تفاصيل محاولة الاغتيال. كان هو وأسبلاغا يعرف أحدهما الآخر وسبق أن تعاونا معًا في عمليات حساسة. وهذا الرجل الذي يعرف الكثير يعيش الآن مواطنًا أمريكيًا بهوية أخرى. وحتى هذه الهوية الجديدة لا يمكن الكشف عنها في هذا المقام. فقد طلب ذلك بقصد حمايته وحماية أفراد أسرته، لذلك سوف أدعوه جوزيه ماراغون José Maragon.

قال في حديثه معي: "كان فيدل شخصيًا مشاركًا في عملية الاغتيال تلك. فقد أدارها، ووجه معظم تفاصيلها. أمر فيدل قيادة المخابرات العامة بأن تتصل بالشرطة السرية السوفياتية KGB في هافانا وتطلب منها مسدس اغتيال خاص. وكان لدى السوفيات واحد منها في السفارة وأعطتنا إياه". كان من طراز غروزا

Groza أو ثندرستورم Thunderstorm (العاصفة الرعدية)، لكن الاسم يتعارض مع المضمون، فهو صامت إذا أطلق.

هو مسدس جيب صغير أفطس، له سبطانتان متراصفتان شاقوليًا، يطلق نخيرة من عيار 7.62 ملم عالية السرعة، وهي النخيرة عينها المستخدمة في بندقية الكلاشينكوف القوية. لقد صممت الشرطة السرية السوفياتية طراز غروزا هذا لغرض واحد فقط هو القتل المؤكد وبصمت ومن مسافة قريبة، وتنفيذ ما يعرف بالعمليات الرطبة أو الاغتيالات. الصوت الوحيد الذي يصدر عن هذا المسدس الصغير هو صوت نقر ناعم جدًا هو صوت الزناد.

عند توصيفه لهذا السلاح أمامي التقط ماراغون مملحة زجاجية عادية موجودة على طاولة المطعم حيث كنا جالسين وأطبق كف يده اليمنى عليها وقال: "المسدس صغير جدًا، مثل هذه تقريبًا".

المقصود بهذا المسدس أن يستعمله ميغيل ميدينا بيريز Miguel Medina Perez ضابط في المخابرات نُسِب بصفته سكرتيرًا ثالثًا إلى سفارة لندن. أخبرني أسبلاغا أنهما درسا معًا في مدرسة الاستخبارات التابعة للمخابرات العامة وبقيا صديقين. وكان أسبلاغا يعتبر هذا الرجل ميدينا ذا الوجه الطفولي مرشحًا ناضجًا للانشقاق، قائلًا إن ولاءه لكاسترو وللثورة كان موضع شك. وعندما علم أسبلاغا أن صديقه القديم كان حزينًا مكتئبًا في ذلك الأسبوع في لندن – إذ توفي ابن زوجته في حادث غرق في كوبا – ظن أنه الآن قد ينجح في إقناع صديقه هذا على ارتكاب فعل الخيانة.

اجتمع الزميلان القديمان في ملهى ليلي وشربا معًا لأربع أو خمس ساعات. تحدثا بلغة إسبانية كوبية سريعة النبرات حتى منتصف الليل يتبادلان النكات وبعض الذكريات. قدّم مبدئيًا لأسبلاغا كل ما يجعله يعتقد بأنه هو أيضًا سوف ينشق ويهرب، واتفقا في النهاية على أن يكون ذلك في غضون بضعة أيام في زمان ومكان معلومين. لكنه لم يأت.

في تلك الأثناء اعترف بكل شيء أمام من يشرفون عليه في المخابرات

العامة. فقد أبلغهم "رأيت أسبلاغا البارحة". كان ذلك قبل بضعة أيام، لكن ميدينا كان يحاول يائسًا أن يحمي نفسه بسبب لقائه بهذا الخائن. وتكفيرًا عن هذا الإثم وفي بادرة تثبت أصالة إيمانه الثوري صدر له الأمر بأن يقتل صديقه.

ولم يكن ثمة ما يكفي من الوقت ليصل مسدس غروزا إلى لندن كما أمر فيدل بطريق الحقيبة الدبلوماسية لوزارة الخارجية. لذلك تسلح ميدينا بمسدس ماكاروف Makarov. وهو السلاح الجنبي الأكبر والأثقل من الإصدارات السوفياتية المعتادة والذي يحمله الضباط العسكريون والمخابرات منذ أربعين عامًا.

تقول التقارير الصحفية البريطانية والأمريكية المعاصرة إن ضباطًا من السي آي إيه والسكوتلاند يارد انتشروا في الشوارع عصر يوم الاثنين الذي أعقب ذهاب ميدينا إلى منزله في حي بيزووتر Bayswater الفاخر. سوف يحاول مجددًا إقناعه بالفرار. فتح ميدينا باب الشقة التي يسكنها وتقدم تايني نحوه ليصافحه[4].

"مرحبا يا ميدينا، كيف أنت؟" لم يكن يفصل بينهما أكثر من خمس أو ست أقدام عندما سحب ميدينا مسدس ماكاروف من جرابه المستتر وبدأ بإطلاق النار دون كلام ودون إنذار. وخلافًا للمسدس غروزا كانت كل طلقة من هذا المسدس تدوي مثل قصف الرعد.

لكن ميدينا لم يكن قاتلًا مدربًا. فقد أخبرني سانشيز كريسبو "بأن الرجل الذي أطلق النار على أسبلاغا بأوامر من فيدل لم يعرف كيف يستخدم المسدس. وهو موظف مكتبي في المخابرات ولم يتلق أي تدريب على استخدام السلاح الناري".

لكن ميدينا في حقيقة الأمر ابن شقيق واحد من أوائل أبطال ثورة كاسترو، وكان منغمسًا في الملذات وعصابيًا، وكان تعيينه في لندن مجرد وظيفة بلا عمل. ولا يملك خبرة في مسدسات ماكاروف النصف آلية أو أي سلاح يُحْمل باليد. فزع واضطرب واهتاج بسبب معاناته وخوفًا من التلكؤ في تنفيذ

أوامر القائد العام، فأطلق النار عشوائيًا بيد واحدة والمسدس الكبير يرتعش ويرتد للوراء مع كل طلقة.

أما فيدل، وهو أكثر القضاة قسوة، فقد تظاهر بأنه صدق بأنها كانت محاولة حقيقية لارتكاب جريمة. استقبل ميدينا شخصيًا استقبال الأبطال لدى عودته إلى هافانا ومنحه أرفع الأوسمة وسيارة وهدية سخية جدًا في وقت كان فيه الاقتصاد الكوبي يعاني نقصًا حادًا في كل شيء تقريبًا. لقد أراد كاسترو أن يفهم كل من يعمل في أجهزة الاستخبارات أن ميدينا، سواء نجح أم لم ينجح، قد تصرف تصرف الأبطال بأوامر من القيادة[5].

لكن ماراغون Maragon يشكك في صدق اقتناع فيدل بأن ميدينا فعل كل ما بوسعه لقتل صديقه. فهو المتشكك بوجود خيانة ومؤامرة دومًا، ولا بد أنه تساءل عما إذا كان ميدينا قد اقترب كثيرًا من مرحلة الانشقاق أيضًا. ولكن وكما حصل مرارًا في تاريخ الثورة المعقد، كان بحاجة للاستفادة من الوضع، وهكذا أمر بترقية الضعيف الذي يحتقره لوضعية الأبطال لفترة وجيزة. وليس مستغربًا أن أحدًا لم يعد يسمع عن ميدينا.

عند لقائنا الثاني أوضح لي تايني الرشيق ذو الجسم المكتنز كيف تهرب من الطلقات الخمس أو الست في ذلك اليوم بلندن. اندفع وقفز ورقص في وثبات سريعة كراقص باليه في تلك الغرفة حيث كنا نتحدث. وطوال هذا الأداء العفوي كان يبتسم منتصرًا وهو يعيد تمثيل نجاته بعد انقضاء خمسة عشر شهرًا على فرض كاسترو حكمًا بإعدامه. والواقع، أن طلقة واحدة مست خصره الأيمن وجرحته. وهو يذكر حتى الآن حرارتها الكاوية. وعلى الحزام الجلدي الذي يرتديه تظهر علامات خفيفة لتماس تلك الطلقة به.

وكان ثمة زيارة أخرى له في عام 1997، أي بعد عشر سنين مضت على انشقاقه. كان فيدل لا يزال على إصراره بوجوب تنفيذ حكم الإعدام. وقد حدثت تلك الواقعة في وقت متأخر من الليل حيث كان أسبلاغا يقيم مع مارتا التي صارت زوجته وطفليهما. تمكنت المخابرات العامة الكوبية وبالرغم من جميع

الاحتياطات من تعقبه، لا سيما أن العملاء كانوا دؤوبين في محاولاتهم ومصرين، مستفيدين من خطأ كتابي ارتكب داخل جهة حكومية أمريكية من خارج أسرة المخابرات قادهم بالتالي إلى مكان اختباء أسبلاغا.

شعر بالريبة عندما لاحظ رجالًا غرباء يشبهون كوبيين شبابًا يتسكعون قرب منزله. بدوا كأنهم كوبيون. كانوا فتية بلياقة حسنة. ذات ليلة، وبعد أن انتصف الليل أصغى سمعه وراقب هؤلاء المتطفلين الذين أحس بأنهم قادمون بينما هو جالس يراقب عند طاولة المطبخ يحيط به ظلام دامس. كانت مارتا والأطفال نائمين في حجرة النوم عندما سمع صوتًا يشبه الحفيف قادمًا من الخارج.

وعلى نحو مفاجئ أطلق أحدهم عيارًا ناريًا نحوه. ظن هذا الصوت طلقة من مسدس طراز AK-47. طاشت الطلقة من المسدس وأصابت عمود الألومنيوم الداعم للظلّة القريبة من النافذة بمواجهته.

ومرة أخرى أسعفه حظه. هؤلاء القتلة برأيه هم عملاء للمخابرات العامة الكوبية، دخلوا البلاد متخفّين بصورة غير شرعية ويعيشون في الولايات المتحدة كمواطنين أمريكيين بهويات مزورة أو مسروقة. وهو لا يشك البتة بأنهم أعضاء شبكة سرية لعملاء كوبيين، باسم Red Avispa، وهم جماعة من شبكة Wasp للتجسس ومقرها في ميامي أُغلق عملها بقرار من مكتب التحقيقات الفدرالي بعد عام، وذلك في أيلول/سبتمبر عام 1998. ولم يكن أمام تايني خيار سوى أن يغير مكان إقامته هو وعائلته.

المحاولة الثانية والواقعة الثالثة، كما يقول أسبلاغا، كانت بضبط وتنظيم في هافانا من قبل واحد من أصدقائه القدامى يثق به كثيرًا. عملا معًا في الاستخبارات العامة والاستخبارات المضادة لنحو أربعة وعشرين عامًا. يعرفه زملاؤه باسمه الحركي ريكاردو Ricardo، وأعيد للخدمة رئيسًا لمركز تابع للمخابرات العامة في بلد أفريقي بعد انشقاق زميله القديم.

اختير "ريكاردو" لتنفيذ انتقام فيدل لأنه يعرف أسبلاغا جيدًا ولأنه قادر

على التنبؤ بما يفعله صديقه وكيف يمكن العثور عليه. ولديه معرفة جيدة بنقاط ضعف أسبلاغا وخصوصياته. ولعله يستطيع أن يتصل بزوجة أسبلاغا الأولى وابنته اللتين بقيتا في كوبا ليستقي منهما معلومات تقوده إليه. يقول أسبلاغا فيما كتبه في مذكراته التي لم تنشر: "لقد صدر إليه الأمر ليعود إلى كوبا بهدف أن يقوم بإدارة المجموعة التي تبحث عني وتحديد مكان إقامتي لغرض إرسال قاتل يقتلني"[6].

كذلك استخدمت خيانة تايني رافعة محفزة في تدريب المؤسسة العسكرية لفرق الكوماندوس والقناصة. لازارو بتانكورت Lazaro Betancourt، أحد أفراد المفرزة الأمنية الشخصية لفيدل، وهو شاب قوي الجسم مفتول العضلات، فر عبر السفارة الأمريكية في جمهورية الدومينيكان عام 1999. وأخبرني بأنه ركب الطائرة من سانتو دومينغو في رحلة تجارية يرتدي وعلى نحو مقنع كما لو أنه من مشاة البحرية الأمريكية. يستعيد بتانكورت في ذهنه النخبة في صف الدراسة للقناصة الذين كان معلموهم يوبخونهم في حقل الرمي، حيث يقولون لهم: "تعلموا هذا جيدًا لكيلا يخطئ عياركم الناري عندما تكلفون بقتل أسبلاغا"[7].

إذن في عام 1999 كان أسبلاغا لا يزال هدف ملاحقة صيادي مديرية المخابرات العامة وكلابهم. فطالما أن فيدل في السلطة فهو عازم على الانتقام. وربما تغير هذا الواقع عندما أُجبر في أعقاب العمليات الجراحية التي أخضع لها على تسليم الرئاسة مؤقتًا إلى أخيه راؤل في تموز/يوليو 2006، والتنحي نهائيًا في شباط/فبراير 2008. لذلك يمكن القول بأن الحكم بالإعدام قد ألغي أو لعله بات في دائرة النسيان في ظل قيادة راؤل كاسترو الأقل حبًا للانتقام. ومع ذلك يفترض أسبلاغا، كما يجب أن يكون، بأنه يبقى الرجل الهدف وسوف يظل في بؤرة تركيز الحكومة الكوبية حتى يأتي زمان يكون فيه الأخوان كاسترو والنظام الشيوعي قد زالا من الوجود.

* * *

لم يكن ثمة أي شكوك قط داخل أروقة وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفدرالي إزاء صدقية ووثوقية تليني وعدم الريبة فيما يبوح به. قال لي أحد كبار الضباط المتقاعدين بأن "قيمة أسبلاغا في كونه ضابطًا منشقًا جيدة وربما أفضل من قيمة أي منشق آخر وصل إلى السي آي إيه في أي مكان. ولو كان سوفياتيًا لكان الأفضل والأكثر أهمية في تاريخنا كله".

أخبرني أسبلاغا أنه لم يخضع لفحوص كشف الكذب. "كلا. وثقوا بي. إن قيمة ما زودتهم به شيء غير عادي".

إنما قد يكون من نافلة القول الزعم بأنه لو وصل به جهاز كشف الكذب وأراد خداع المتعاملين معه من السي آي إيه لنجح. والمخطوط الذي قدمه لي يكرس فصلًا كاملًا حول تدريبات مقاومة اختبارات كشف الكذب التي تجريها مديرية المخابرات العامة في منزل آمن – Casa Operativa – أنشئ لهذا الغرض حصرًا في ضاحية إلى الغرب من هافانا. وقد جاء فيما كتبه أسبلاغا أنه تطوع للتدريب لأن العملاء المزدوجين الذين تعامل معهم كانوا قد جندوا روتينيًا، لذلك فقد يقرون بالكذب أمام أجهزة الكشف هذه في السي آي إيه.

"لقد أردت أن أشعر شخصيًا بتلك الأحاسيس التي يشعر بها العملاء".

ولكن سواء استخدم فحص كشف الكذب الأمريكي أم لم يستخدم، يخضع المنشقون غالبًا للتحقق والتدقيق في غضون ساعات أثناء لقاءاتهم الأولى مع اختصاصيي استخبارات مشهورين بسعة علمهم ومعرفتهم. ولا بد أن حقيقة أن أسبلاغا ليس عميلًا مزدوجًا تأكدت قبل تهريب أسبلاغا من فيينا.

فيما بعد خضع لاستجوابات بطيئة وأزيلت كل الشكوك نهائيًا من أذهان القلقين داخل الاستخبارات المضادة. والسبب في ذلك أنه عندما كانت السي آي إيه تتعامل مع عملاء تؤمن بصدقيتهم، كانت تنظم تمثيليات دفاعية وتطبق عمليات عالية المهارة للتحقق المزدوج أكدت فيما بعد دون أدنى شك أن أسبلاغا منشق صادق. وهذه الإجراءات أكثر تعقيدًا مما يمكن وصفها في هذا المقام.

وما زاد في قوة الصدمة التي صعقت القيادة الكوبية أن أسبلاغا لم يكن

الخائن الوحيد من المستويات العليا عام 1987. فقد فر من كوبا خمسة ضباط من الرتب العليا من المؤسسة العسكرية والاستخبارات خلال بضعة شهور. خوان أنطونيو رودريغز منيير Juan Antonio Rodriguez Menier، ضابط مخضرم في الاستخبارات والاستخبارات المضادة، كُرّم كثيرًا منذ السنة الأولى لنظام كاسترو. فر في شهر شباط/فبراير من منصبه حين كان رئيسًا لمركز المخابرات العامة في بودابست. وفي وقت لاحق من العام نفسه فر ضابط آخر من المخابرات العامة تاركًا مهمة كُلّف بها في إحدى عواصم أمريكا الجنوبية. وحدثني أسبلاغا أيضًا عن ضابطين آخرين من المخابرات العامة، هما زوج وزوجة، هربا في ذلك العام، لكنهما ظلا صامتين في منفى غير معروف. وكما أشرنا سابقًا قام رفائيل ديل بينو بالفرار على متن طائرة أوصلته إلى فلوريدا قبل مغادرة أسبلاغا. هؤلاء جميعًا كان لديهم دوافع لعلها تكونت في جانب منها بسبب حركات الإصلاح التي بدأت تتبرعم في دول الكتلة الشيوعية ومعارضة كاسترو الشديدة لها.

كل واحد من هؤلاء المنشقين كان ضربة موجهة إلى شخص فيدل. هم جميعًا بنظره خونة غدروا به وسخروا منه وتنكروا له عندما بدلوا مواقعهم. في بادئ الأمر كانت نيته أن يبقي خيانتهم طي الكتمان فلا يعلم بها إلا القلة القليلة في أجهزة الاستخبارات والمؤسسة العسكرية الكوبية. لكن انشقاق ديل بينو حظي باهتمام إعلامي دولي كثيف، لذلك لا فائدة من إبقائه سرًا مخفيًا. ولم يمض وقت طويل حتى ظهر كل من ديل بينو وأسبلاغا في مقابلات إذاعية يمكن سماعها في الجزيرة. ظهر أسبلاغا في مقابلات إذاعية على راديو مارتي Radio Marti – وهو محطة أخبار ومنوعات تابعة لإذاعة صوت أمريكا – وعلى غيرها من المحطات التجارية في ميامي. وفي مقابلاتهما أدان الرجلان هذا النظام الذي تركاه وراءهما وسخرا منه.

كان الضرر الذي سببه هؤلاء المنشقون الستة كبيرًا جدًا، وخطر التكرار كان نذيرًا بما هو أسوأ، فلم يعد بمقدور فيدل البقاء صامتًا. في خطاب مدوٍ لمدة أربع ساعات ألقاه في الرابع والعشرين من حزيران/يونيو عام 1987، أي بعد

أسابيع قليلة من وصول أسبلاغا إلى السي آي إيه، هاجم وشجب الخيانة والغدر متحدثًا وكأنه طبيب جراح لداء السرطان في غرفة العمليات حيث يحدد الأورام الخبيثة الواجب استئصالها[8].

قال في خطابه: "يوجد خونة كبار وخونة صغار. وأنكر ثلاثة من الكبار". وما يميز هؤلاء الثلاثة عن "الخونة الصغار" أنهم كانوا جميعًا قريبين منه. خانوا الأمانة، وليس مجرد خيانة الشيوعية أو الثورة أو النظام، بل خانوه شخصيًا. فمن منظوره الشخصي لم تكن الانشقاقات مجرد انتهاك هدام للأمن القومي بل هي أيضًا إهانة شخصية دنيئة.

كان الخائن "الكبير" الأول فلاحًا اسمه أوتيميو غيرا Eutimio Guerra الذي انضم إلى حركة فيدل في عام 1957 ثم أصبح مخبرًا لنظام باتيستا الدكتاتوري القديم. ثم عثر فيما بعد على أوتيميو السيئ الطالع ونفذ حكم الإعدام به راؤل كاسترو بأمر من فيدل. كان ذلك ثاني إعدام لخائن، أو مشتبه به، ينفذه راؤل دون وخز من ضمير. والإعدامات المستعجلة في كوبا كاسترو وبأمر من فيدل هي كل ما ينفذ بحق المجرمين الحقيقيين أو الوهميين[9].

في عملية انشقاق غريبة من باب صَدِّق أو لا تصدق الخائنان "الكبيران" الآخران اللذان هاجما فيدل هما شخصان يحملان الاسم نفسه: "رفائيل ديل بينو". وبالمناسبة ليس هذا الاسم من الأسماء الشائعة كثيرًا في كوبا، كما هو حال اسم جون سميث في الولايات المتحدة، وقد يتساءل المرء كيف كان حال الأشخاص الآخرين الباقين في الجزيرة من الذين يحملون هذا الاسم بعد خطاب كاسترو. الشخص الأول باسم ديل بينو، بحسب كاسترو، خانه بعيد انتصار الثورة مباشرة. سُجِن وتوفي في زنزانته في هافانا، وقيل انتحر. والأرجح أنه قد سُمم أو قتل رميًا بالرصاص.

وهناك أيضًا بطل في سلاح الطيران هاجمه فيدل كثيرًا في خطابه عن "الخونة"، هذا الجنرال ينتمي لعائلة برجوازية، وبالرغم من كل مشاركاته البطولية، ما كان له أن يكون موضع ثقة بأنه ثوري حقيقي. هذا الجنرال يعيش

الآن مغمورًا في الولايات المتحدة تحت اسم جديد، يحرص على اجتناب الشهرة التي قد تجعله عرضة لقتلة حكوميين كوبيين. وقد استُهدف أكثر من مرة بأوامر من فيدل. خلال لقاءاتي معه لم يُظهر أي خوف، وفي مناسبات قليلة جدًا تجرأ وخرج من هويته المفترضة ليظهر على حقيقته. لكنه يعرف أنه الناجي الوحيد من أحكام فيدل الشيطانية للخونة "الكبار"، لذلك فهو شديد الحذر والحيطة.

فهم كل منَ استمع إلى خطاب فيدل ممن هم في المخابرات الكوبية بأنه كان يتحدث في هجومه اللاذع عن عدة انشقاقات في صفوفها. فهو لم يذكر اسم أسبلاغا على الملأ، ولم يشر إلى انشقاقه، مع أن تايني هو بلا شك المنشق الوحيد المتسبب بأكبر ضرر في الصفوف المدنية والعسكرية والاستخباراتية في ما يزيد عن نصف قرن من تاريخ نظام الأخوين كاسترو. كان فيدل في خطابه هذا يقصد تحذير الآخرين في الأجهزة السرية من التفكير بالخيانة وبأن العقوبات ستكون بالغة القسوة. فقد قال: "لن يكون هناك عذر لثوري عندما ينحاز إلى جانب العدو. قد نقبل أشياء كثيرة، أما هذا فلا ... لا نقبل بالفرار والانشقاق ... وفعل الانشقاق عندما يعرف المرء الأسرار أمر بالغ الخطورة"[10].

جرى إعراب وتحليل هذا الإنذار بحذر. أراد فيدل أن يكون خطابه توعدًا وتهديدًا في أسماع من بالداخل، لكنه لم يرغب أن يبدو ستالينيّ الأسلوب عند المستمعين الأجانب. أخبرني تايني بأنه بعد مغادرته علم – ربما من خلال أحاديث هاتفية مع زملاء سابقين – بأن فيدل بدأ يطلب من ضباط المخابرات بأن يوقّعوا على قسم بالدم يقرّون به بأنه سوف يحكم عليهم تلقائيًا بالموت إن فكروا بالانشقاق. والخطاب كان طريقة فيدل في إعلان التحدي والنزال. لقد صدر الحكم بإعدام الخائن أسبلاغا الذي سيكون مثالاً للآخرين الذين قد يفكرون بأن يحذوا حذوه.

كان الضرر الناتج تراكميًا في "عام المنشقين" كبيرًا جدًا ما جعل فيدل يأمر بإجراء إعادة تنظيم واسعة في مديرية المخابرات العامة التي اتخذت اسمًا جديدًا لها هو "مديرية المُخابرات". تكثفت الشكوك إزاء ولاء العديد من الضباط

واستمرت عملية إعادة الهيكلة. وقد أفضت جميعها في صيف عام 1989 إلى عملية تطهير هدامة من الأعلى للأسفل في وزارة الداخلية. وخشي الأخوان كاسترو من مزيد من الانشقاقات في الرتب العليا، وربما أعمال شغب خطيرة داخل هذا الحصن المنيع للنظام والذي يأتي في المرتبة الثانية للأهمية بعد المؤسسة العسكرية.

القمع على الطريقة الستالينية إجراء استباقي لحترازي، يقصد به إطفاء كل أثر داخل الأجهزة السرية يشير إلى دعم الإصلاحات التحررية التي أدت في عام 1989 إلى انهيار جدار برلين وتفكك الكتلة الشيوعية. أرنالدو أوشوا Arnaldo Ochoa، القائد العسكري الكوبي المحبوب جدًا والمكرّم بأوسمة كثيرة، أُعدم بتهمة ملفقة للاتجار بالمخدرات. انطونيو دو لا غوارديا Antonio de la Guardia عقيد في الاستخبارات معروف بتهوره والنموذج المفضل في نظر العملاء من جيل الشباب، أعدم رميًا بالرصاص. لماذا؟ لأنهم فكروا وربما بدؤوا بتدبير عملية الانشقاق.

الرجال والنساء العاملون في طلائع العمل السري عند فيدل يمشون على حبل مشدود في سعيهم لإرضائه. ليس مُهمًا مدى ما يبذلونه من جهد ودأب في سبيل تنفيذ أوامره – أو حتى لتحقيق منجزات رائعة باسمه – فهم لا يعلمون متى يحل بهم غضبه المفاجئ. خوزيه ابراهانتيز José Abrahantes، وزير الداخلية المعروف بولائه الشديد عندما انشق أسبلاغا وإبان حركة التطهير عام 1989، أودع السجن في ذلك العام وبعد وقت قصير توفي، كما يقولون، إثر نوبة قلبية.

معاونه باسكوال مارتينز غيل Pascual Martinez Gil، جنرال شجاع في مديرية المخابرات العامة ونال أوسمة كثيرة، علم أنه شخص يمكن التخلص منه بالرغم من بطولاته التي أظهرها في واحدة من أعظم انتصارات فيدل. قبل عشرة أعوام كان "باسكواليتو" كما يحلو لكاسترو أن يدعوه عندما كان أثيرًا لديه، أول رجل على رأس وحدة كوماندوس داهمت خندقًا عظيم التحصين لسوموزا Somosa دكتاتور نيكاراغوا الذي فر قبل وصولهم. هذا الباسكواليتو الذي طاله التطهير يعمل الآن سائق سيارة عمومية في هافانا[11].

وقعت مديرية المخابرات العامة في حالة من الاضطراب العنيف وأُسندت قيادتها إلى جنرال بثلاث نجوم اسمه أبلاردو كولومي إيبارا Abelardo Colomé Ibarra صديق راؤل كاسترو الأثير. وكما هو الحال عمومًا عندما يطلق الأخوان كاسترو حملة تطهير يكون لهما دوافع كثيرة. ضباط كثر في المخابرات كسبوا حنق نظرائهم في الحكومة بسبب غطرستهم، وكما يزعمون بسبب مستويات معيشتهم العالية. وكانوا بصفة خاصة موضع ازدراء الضباط العسكريين الذين يعيشون بتقشف ويكسبون أقل منهم. وأما تلك النجاحات السهلة التي حققتها الاستخبارات قبل انشقاق أسبلاغا فقد استولدت غطرسة مؤسسية. ومديرية المخابرات مثلها مثل جميع الجهات الحكومية الكوبية صارت ضحية الفساد. عندما انقضت أسوأ حالات الرعب كتب فيدل افتتاحية مطولة في الصحف أعرب فيها عن شكواه بأن وزارة الداخلية تفتقر إلى نظام داخلي للاستخبارات المضادة وبأن مديرية المخابرات أصبحت مستقلة وقوية أكثر مما يجب[12].

نتج عن عمليات التطهير خسائر كثيرة، كان منها إعدامات وتخفيضات في الرتب العسكرية والنفي وعمليات انتحار وحوادث موت مفاجئ لم تعرف أسبابه. وبحسب المنشق رودريغز منيير زُجَّ بالسجون نحو مئتي شخصية استخبارية، قائلًا: "كل من أعرفهم في الوزارة بلا استثناء أُعدموا أو سجنوا أو أحيلوا للتقاعد". وقال آخر، خوزيه رامون بونسي، وهو عالم نفس له خبرة ثمانية عشر عامًا في الاستخبارات المضادة: طال التطهير "الآلاف"[13].

لاحظ رودريغز منيير أيضًا أن كل الضباط الذين زج بهم في السجون كانوا "معارضين لكاسترو وأنهم وصلوا إلى مرحلة التآمر للإطاحة به". هم الأكثر "تقبلًا للتغيير" والكوبيون الأكثر ذكاءً والأوسع علمًا ومعرفة. وكتب يقول إن انقلابًا ضد الأخوين كاسترو قد بدأ يتشكل داخل أسرة المخابرات. وذكر أسبلاغا أيضًا أن حركة استياء بدأت تنتشر داخل المخابرات العامة في عام 1983، ووصلت إلى حالة من الشدة باتت تهدد النظام بعد ستة أعوام. وتحدث آخرون فيما كتبوه بأن الكثيرين من أولئك الذين طالهم التطهير أو الإعدام، بمن فيهم الجنرال أوشوا، كانوا معجبين بالحركة الإصلاحية التي أخذت تزدهر آنذاك

في الكتلة السوفياتية. ولم يكن مصادفة أن تبدأ حملات التطهير بعد أيام قليلة من حدوث مجزرة ميدان تيانانمان التي راح ضحيتها متظاهرون ينادون بالديمقراطية في بايجين[14].

الضربة التغييرية الأخرى التي أعقبت لجوء أسبلاغا إلى السي آي إيه هي تلك المتمثلة في التوقف المفاجئ لذلك الكسب المجاني الذي تمتع به الكوبيون لمدة طويلة من عمليات المخابرات الأجنبية. لم يعد الأمريكيون بعد الآن يستخفون بقدراتهم، بل أصبحوا بين عشية وضحاها هدفًا رئيسيًا للاستخبارات المضادة وخصوصًا من صنف عالمي جيد ومحترم. لقد مكّن لجوء أسبلاغا الأمريكيين بأن يفهموا على نحو أفضل - ويتصدوا بسهولة - للعمل الكوبي العدواني. العمليات الخفية الكوبية خارج البلاد تعوقت مؤقتًا، إذ لم تكن هذه الضربة في مكان ما أكثر كارثية منها في أمريكا اللاتينية. وبحسب روبرتو هرنانديز ديل لانو Del Liano المنشق عن المخابرات العامة، أكثر من 150 عميلًا كوبيًا اشتُبه بهم وأُخرجوا من الخدمة[15].

وثمة عدد قليل من الضباط الذين كانوا على صداقة متينة مع أسبلاغا سُحبوا من مواقعهم خارج البلاد حالما تبين أنه صار في أيدي الأمريكيين. وأخبرني أنه بالإضافة إلى ميدينا بيريز في لندن، كان ثمة زميل مقرب له في باريس استدعي على عجل إلى هافانا. وشخص ثالث هو رئيس عمليات الاستخبارات المضادة ضد السي آي إيه في هافانا أُخضع لعملية استجواب وفحص دقيقين وبلا رحمة، بخصوص إساءة رصد الأموال أو لأخطاء خطيرة في العمل لها صلة بطريقة أو بأخرى بهروب أسبلاغا. وعندما أحس أن العار وشيك وضع هذا الضابط المسدس في فمه وشد على الزناد.

بعد انشقاق أسبلاغا مباشرة تقريبًا توقفت جميع عمليات العملاء المزدوجين. العملاء والعملاء السريون الكوبيون الذين خافوا من افتضاح أمرهم توقفوا عن العمل، وبعضهم بشكل دائم. وكان منهم أستاذ أمريكي كان يجند الطلبة لحساب مديرية المخابرات العامة. لكن آنا مونتيز Ana Montes كانت استثناء لم يحالفه الحظ. هي أصلًا جاسوسة كوبية وبدأت عملها في البنتاغون

في أيلول/سبتمبر عام 1985، أي قبل عامين تقريبًا من انشقاق أسبلاغا، لكنه لم ينتبه لها. ولعل السبب في ذلك أنها بقيت في مناصب دنيا نسبيًا في البداية أو لان قضيتها كانت مجزأة لفئات منذ البداية وتتعامل مع فيدل شخصيًا.

لقد تسبب أسبلاغا بضرر بالغ من خلال تعريفه على جمع كبير من شركائه السابقين. أعطاني يومها دليل هاتف كان في ذلك الحين باليًا يتضمن أسماء أكثر من ألف موظف استخبارات كوبي كانوا ناشطين في الجزيرة ودوليًا يوم انشقاقه. فكان لا بد من تشكيل إجماع جديد في الرأي داخل أسرة المخابرات الأمريكية. لا يمكن تجاهل حقيقة بشعة مفادها أن فيدل كاسترو يدير عمليات سرية ذكية جدًا واستثنائية ضد المصالح الأمريكية. ففي اعتبارات كل الاختصاصات تقريبًا وكل فرع من فروع علم الاستخبارات البشرية بقي الكوبيون في وضع لا يجاريهم فيه أحد حتى بعد الخسائر والتوقف المؤقت الذي عانوا منهما في أواخر الثمانينيات.

كانت العلوم غير التقنية مواطن تميزهم عن الغير: التجسس والتجسس المضاد، العميل المزدوج وعمليات تحت علم كاذب، إدارة "اللاشرعيين"، وإدخال العملاء السريين والعمل الخفي (أو ما يدعوه الكوبيون إجراءات ناشطة)، عمليات الخداع، الدخول سرًا، والاستحواذ الخفي على التكنولوجيا - بالإضافة إلى فرع عملية صنع الجاسوس بما في ذلك على سبيل المثال تزوير الوثائق والتصوير الضوئي والتنكر والمراقبة والمراقبة المضادة التي تسهل مثل هذه الأعمال. إن خبرتهم في عمليات العميل المزدوج والاستخبارات المضادة ليس لها مثيل في أي مكان بالعالم.

يعتقد أسبلاغا أن الكوبيين في عمليات المراقبة أفضل من أي جهاز استخبارات آخر حتى في البلدان الأكبر والأغنى من كوبا. قال "لدي بعض الأصدقاء من الذين هم أذكياء جدًا. ليس ثمة من هو أفضل منهم، لا الروس ولا السي آي إيه، لا أحد".

والسبب في جانب منه، كما قال، مرده أن كوبا تستخدم التحليل

السيكولوجي والسلوكي الماكر بغية تكوين توقعات حول ما الذي يمكن أن يفعله الشخص الملاحق. "عندما يتعقبون شخصًا يتفحصون حالته، وبذلك يعرفون مسبقًا ما الذي قد يفعله هذا الشخص".

جزء من الفيلم الجاسوسي الذي عرض على التلفزيون الكوبي بعد انشقاق أسبلاغا كان ممكنًا تصويره بسبب استخدام فنون متطورة ومتقدمة. يجري تصوير ودراسة الأهداف ليتمكن علماء النفس العاملون في المديرية من التعرف على أسلوبهم السلوكي وطريقة كلامهم ومشيتهم ومشاعرهم وغير ذلك من الخصائص التي تميزهم. وأي تغير هام في أوصافهم أو مظهرهم قد يؤشر إلى أنهم يخططون للتخفي. ولكن إنصافًا في القول لا بد من الإشارة إلى أن أي شخص يحاول التهرب من مراقبة الحكومة الكوبية على أرضها – حيث الجواسيس والعملاء والمخبرون والواشون منتشرون في كل مكان وحيث موارد الاستخبارات غير محدودة – هو بلا شك ذو حظ عاثر.

وكتب أيضًا أسبلاغا عن عناصر أخرى مميزة وجديرة بالاهتمام في العمل الجاسوسي الكوبي. ففي كثير من الأحيان تُنشر ألوية كاملة من اختصاصيي المراقبة في كوبا لملاحقة أهداف لها أهميتها وبخاصة الأمريكيين المعروفين أو المشتبه بأنهم ضباط مخابرات. في إحدى زياراتي إلى العاصمة هافانا عندما كنت مسؤولًا رفيع المستوى في الاستخبارات ومعروفًا عند الكوبيين تبعتني فرقة كبيرة من المراقبين وجميعهم مزودون بمعدات اتصالات صغيرة ومتطورة. لا يوجد حدود لأعداد العملاء المنتشرين في الشوارع والذين يمكن نشرهم. وبحسب أسبلاغا "تستخدم حافلة كبيرة في حالات كثيرة لا سيما وأن هذه الوسيلة تفيد في حجب من فيها عن الرؤية".

لقد رفع الكوبيون مهنة دخول الأماكن سرًا إلى مستوى قل نظيره في العالم. بما أن جهة حكومية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمخابرات هي التي تشرف على جميع إيجارات العقارات للأجانب في الجزيرة يستطيع العملاء أن يرتبوا بسهولة الدخول غير المشروع إلى الأملاك الخاصة. يقول أسبلاغا إن السفارات الأجنبية وأماكن إقامة السفراء الغربيين وغيرهم من الدبلوماسيين تُخْترق بشكل اعتيادي.

وفي بعض الأحيان يضخ العملاء غازًا غير ضار كما يقولون تحت الأبواب أو عبر ثقوب المفاتيح أو غيرها من الفتحات الصغيرة لتخدير المقيمين وهم نائمون. عندئذ يستطيع العملاء الدخول بسهولة ليسرقوا أو ينسخوا وثائق ومستندات أو ليركّبوا وسائط استماع وكاميرات صغيرة. وقد أجاز فيدل شخصيًا استخدام الغاز المنوّم ضد الممثلين الدبلوماسيين الأجانب في منتصف الستينيات ولا تزال هذه الممارسة متبعة حتى اليوم[16].

يمتد دور كاسترو بصفته مدير الجاسوسية ليشمل جميع مجالات هذا العمل الغريبة. حتى إن رؤساء الدول والحكومات الأجنبية ليس لهم حصانة. يذكر أسبلاغا عملية عاجلة بصفة خاصة نُفِّذت بأمر من كاسترو ضد الرئيس اليوغوسلافي جوزيف بروز تيتو الذي جاء في زيارة إلى هافانا في 29 آب/ أغسطس 1979 للمشاركة في مؤتمر قمة دول عدم الانحياز.

كان تيتو، وهو أحد مؤسسي هذه الحركة وماركسي مستقل ووثيق الارتباط بنظام كاسترو الأكثر راديكالية، هدفًا حيويًا للمخابرات. ففي اجتماع عقد في شهر تموز/يوليو الذي سبق قدومه مع قادة آخرين لدول عدم الانحياز انتقد بشدة التدخلات العسكرية الكوبية في أفريقيا. وكان فيدل يخشى من أن يقوم هذا النصير القديم والمسن بتكرار انتقاداته هذه في هافانا، وربما يستنكر قيام هذه الدولة المفترض أنها غير منحازة بسبب تحالفها الوثيق مع الكرملين. طلب كاسترو من مخابراته أن يحددوا على وجه الدقة ما الذي يعتزم تيتو قوله في خطابه أمام المؤتمر. وتحققت هذه العملية السرية بنجاح مذهل. كتب أسبلاغا عن هذه الحادثة قائلًا: "أمر فيدل بتصوير جميع الأوراق الشخصية لتيتو، وتم الإعداد لعملية ضخمة انتهت إلى اختراق سفارة يوغسلافيا والمقر المخصص لتيتو".

في الحادي والثلاثين من آب/أغسطس استضاف فيدل الزعيم اليوغسلافي على مأدبة غداء خاصة. وكان حينئذ راضيًا بأنه لن يسبب له إحراجًا على أرضه وفي بلده عندما يتسلم رئاسة حركة عدم الانحياز. فقد زودته المخابرات ببرهان وثائقي.

جاء فيما كتبه أسبلاغا إن الأشياء الشخصية للمقيمين التي تحمل رائحتهم الفريدة كانت تُسرق أثناء عمليات البحث هذه وتُختم فورًا في حاويات مفرغة من الهوء. ثم تخزن في مباني المديرية العامة وتخرج عندما يكون لها فائدة عند استعمالها في عمليات المراقبة التي تقوم بها الكلاب. وأخبرني أسبلاغا أيضًا: "قد تندهش عندما تعلم عدد هذه الأشياء الشخصية الخاصة بدبلوماسيين من أمريكا الشمالية ومن جنسيات أخرى التي توضع في المخازن". أعتقد أن رائحتي موجودة في هذا الملف، أو ربما تذكار معين لزياراتي الرسمية للجزيرة في مطلع التسعينيات.

يشكل هذا النوع من المهارات واحدًا من علوم الاستخبارات الرئيسية. وبرغم إتقان الكوبيين لمثل هذه المهارات إلا أنهم لن يستطيعوا مضاهاة المجموعة الضخمة لدى المخابرات الامريكية للوسائل العلمية والتقنية، وآليات وأجهزة عملياتية أو حتى المحمولة جوًا. ففي خارج كوبا – ما خلا ميامي التي تعد الاستثناء الهام – لا يعتمدون كثيرًا على أجهزة التنصت وغيرها من وسائل الاستماع المتطورة أو الدخول سرًا للأماكن.

الاختراق المتطور للشيفرة بعيد عن قدرات الكوبيين، علمًا أن العملاء في الآونة الأخيرة قد أصبحوا يتقنون فن استخدام أجهزة الاتصال المتطورة والآمنة الخاصة بالعملاء. وهافانا لا تملك إطلاق أقمار صناعية استطلاعية تسترق السمع من الفضاء. والمخابرات الكوبية أصغر من أن تحتفظ بإمكانية كبيرة وعالمية لاعتراض الاتصالات. كما أنها لا تعمل في عشرات البلدان في العالم حيث لا يوجد لها مصالح أو حتى لا توجد لها فرصة لاختراق عمليات السي آي إيه.

بل ركزت كوبا الثورية، كما عملت الاستخبارات الاسرائيلية، كل اهتمامها على أعدائها الذين تعرفهم. وبالنسبة للأخوين كاسترو كان عدد هكذا أعداء أقل كثيرًا من الخصوم العرب والمسلمين الكثر الذين يتعين على الموساد أن يتعامل معهم. والتصور عند الاستخبارات الكوبية أن ثمة مجرد عدوين رئيسيين هما الحكومة الامريكية – وبخاصة السي آي إيه – وقسم كبير من الزعماء والمنظمات الكوبية في المنفى.

هذا التركيز يتيح تكثيف الموارد والإمكانات المتطورة وتطوير عمق الخبرة مع الزمن. الأهداف الأمريكية هي "سبب وجود جهاز الاستخبارات الكوبي"، كما يقول الضابط السابق في المخابرات العامة الكوبية جيراردو بيرازا Gerardo Peraza. وقد اتفق معه في الرأي جميع المنشقين الآخرين الذين تشاورت معهم وقابلتهم، وقد أوضح ذلك لي جيدًا هيرنانديز ديل لانو الذي جاء إلى الولايات المتحدة بعد ستة عشر عامًا من الخدمة في جهاز الاستخبارات، إذ قال: "ظلت المخابرات الكوبية تستهدف الأمريكيين – العدو الأكبر – لنحو خمسين عامًا. لذلك ليس مستغربًا أنهم قد حققوا نجاحات كثيرة"[17].

الفصل الثالث

قصص من على سطح الدار

كان أسبلاغا أحمر منذ فطامه، تشرّب الإيديولوجية الماركسية والإعجاب بالاتحاد السوفياتي منذ نعومة أظفاره. كان والده، واسمه فلورنتينو أيضًا، يحرص على ذلك. فهو محارب قديم في الحزب الشيوعي منذ ما قبل كاسترو، وكان ناشطًا مخلصًا في الحملات السرية ضد دكتاتورية باتيستا.

عندما كان ابنه في العاشرة أو الحادية عشرة كان الأب يحثه على أعمال المكائد والشغب في الشوارع، وكانا يعملان معًا في توزيع المنشورات، حيث كان الطفل يتسلق ويخترق السياجات المقامة حول منازل أعوان باتيستا ليمرر المنشورات من تحت الأبواب. وكُلّف بأول مهمة له في العمل الاستخباري الذي أتقنه فيما بعد عندما تسلق شجرة "أفوكادو" لينصب هوائيًا بدائيًا يستخدمه الشيوعيون في اتصالاتهم السرية. وعندما كانت تعقد الاجتماعات السرية غير القانونية في منزل العائلة كان الصبي يلعب دور الحارس المراقب. لقد كان العمل الاستخباري مهنته الفطرية الموروثة.

كان تايني يعتقد أن والده كان منذ أمد طويل مخبرًا للاستخبارات السوفياتية. وما لبث فلورنتينو الأب أن كسب رضا الأخوين كاسترو. لم يمض على تسلمهما زمام السلطة سوى ثلاثة شهور حتى وضع في عهدته وفي منزله ضابط كبير من الشرطة السرية السوفياتية KGB. هذا الضابط السوفياتي، وهو

أول مندوب من الكرملين يصل إلى هافانا بعد الثورة، سرعان ما بدأ يجتمع سرًا مع راؤل كاسترو ليؤسسا لتحالف سرعان ما حقق نجاحًا وازدهارًا. وكوفئ الأب بأن أعطي منصبًا داخل قدس أقداس فيدل كاسترو، ألا وهو الرئيس السياسي للمفرزة الأمنية الكبيرة المرافقة له. كان شديد الإخلاص للأخوين كاسترو وبحماس متزايد ولسنوات عدة.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام 1986، وفي الليلة التي سبقت مغادرة تايني إلى براتسلافا جرى حديث بين الأب وابنه يمكن وصفه بأنه نقد للذات. كانا وحيدين جالسين على سطح المبنى حيث شقة الابن في هافانا. كانا يعلمان أنه لا توجد أجهزة تنصت هناك، ولا شهود قد يسترقون السمع. حتى الثوار الأكثر إخلاصًا وانتمائًا ليسوا محصنين ضد الشبهات. وقد حدثني تايني عن بعض المستشارين المقربين جدًا من فيدل وكذلك عن أكبر المسؤولين الرسميين لديه وكانت بيوتهم ومكاتبهم قد زودت بأجهزة تنصت من قبل المخابرات بأمر منه.

عندما أحس الاثنان أنهما قد لا يلتقيان ثانية أراد الأب أن يخبر ابنه عن معلومات مشينة بحق فيدل لم يبح لأحد بها من قبل. كان يعتقد أن رجلًا يثق به ويأتمنه يجب أن يحمل هذه الأسرار التي احتفظ بها لعقود من الزمن. كانت لديه شكوك بأن ابنه يخطط للانشقاق، ولعله كانت لديه آمال بأن تفاصيل تلك الأحداث التي شهدها قد تصل بالتالي إلى أسماع الأمريكيين.

القصتان اللافتتان اللتان حكاهما فلورنتينو الأب هما ملحوظتان تدينان بالجرم المشهود ذلك الفراغ الأخلاقي الذي يفسر الكثير من سلوكيات فيدل كاسترو منذ أن كان في مطلع العقد الثاني من عمره. وهما من أسراره التي كانت في الحفظ والصون.

كان فيدل طالبًا في جامعة هافانا عندما وقع الحادث الأول في شباط/ فبراير 1948. كان قاتلًا يخافه الجميع، معروفًا في عالم كوبا السفلي الأسود حيث يختلط القتلة من الطلبة وزعماء العصابات الإجرامية، وكان دومًا مسلحًا

وعلى أهبة الاستعداد للقتال. أسبلاغا الأب رأى فيدل وهو يطلق النار ويقتل شابًا آخر يحمل اسم كاسترو أيضًا – مانولو كاسترو Manolo Castro – لكنه ليس من أقاربه. كان مانولو زعيمًا شابًا سيئ السمعة، ورجل عصابات له صلات سياسية ويحصل على المنافع بهذه الطرق الفاسدة، ويُعتقد أنه متورط في أعمال قتل مافياوية.

قُتل خارج صالة سينما في هافانا. كان الرجلان كاسترو عدوين شرسين، وعضوين في عصابات إجرامية متعارضة تطارد الواحدة منهما الأخرى. ولعل الشيء الذي آلم فيدل كثيرًا بل وأكثر من أي شيء آخر في هذه العلاقة المتسمة بالعنف أن عدوه القوي، الذي يشبهه بالشخصية والطموح، يحمل لقبه.

لقي مانولو كاسترو مصرعه في الشارع حيث ضرب بالنار. وقال أسبلاغا الأب لابنه بأنه كان هناك. وقد تبع فيدل واختبأ وراء شجرة، ومن دون أن يلاحظه أحد شاهده وهو يضغط على الزناد. وبسبب خشيته وخوفه من القتل لو أنه أخبر أحدًا بذلك احتفظ الأب بهذا السر لثمانية وثلاثين عامًا.

وعلى الفور حامت الشبهات حول فيدل في هذه الجريمة. هو معروف بأنه العدو اللدود لخصمة. وقد كانت أعمال العنف الشديدة والمنفذة من دون ندم أو وازع من ضمير من طبيعته آنذاك. وكان لديه الحافز للقيام بعمل انتقامي بعد نجاته بأعجوبة من محاولات اغتيال قام بها شركاء مانولو كاسترو. أما خوزيه ماراغون José Maragon، المنشق الآخر من المخابرات العامة، فلم يكن لديه أي شك إزاء القاتل. وقال لي: "كل من تحدثتُ إليه حول ذلك كان يعتقد أن القاتل هو فيدل".[1]

أوقفت الشرطة فيدل بعد أن اتهمه أحد أقارب المقتول ولكن أفرج عنه بسبب عدم كفاية الأدلة. وما ساعده في ذلك أنه كان لديه دليل له مصداقية لعدم وجوده في المكان. ومع ذلك فإن اثنين في الحد الأدنى من الذين كتبوا سيرة حياته وضعاه في مكان الجريمة أو قريبًا من هذا المكان. قال أحدهما بأنه شوهد وهو يغادر المكان لحظة الاغتيال. والآخر استشهد بشهود لاحظوا "أنه كان

يتسكع في الشارع في ذلك اليوم". وآخرون "رأوه ووجدوه متوترًا وعصبيًا بصورة غير معتادة" قرب صالة السينما. وبالرغم من ذلك كله لا يجد هذان المؤلفان، كما الكثيرون غيرهما من الذين كتبوا عن هذه الجريمة، أنه بريء[2].

غير أن كاتبًا للسيرة في كتاب صدر مؤخرًا، وكان يتمتع بدعم الحكومة الكوبية وعائلة كاسترو، يتوصل إلى استنتاج أشد غموضًا. فقد ورد فيما كتبه أنه على الرغم من أن فيدل "ربما لم يشارك بشكل مباشر إلا أنه لا بد قد شارك في المناقشات والتخطيط لهذا الاعتداء". وسواء كان هو المتهم أم لا، القاتل الذي ضغط على الزناد أم لا، فإنه كان شديد الخوف على حياته لدرجة أنه على الفور اختبأ وصار يتنقل من عنوان إلى آخر طوال الأسابيع الأربعة أو الخمسة التالية[3].

لكن هذه الجريمة خدمت أغراضه وغاياته وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من أسطورته. تعززت سمعته في عدم التواني عن اتخاذ الإجراء السريع والحاسم والتهديدي. فعملية القتل هذه أزاحت من طريقه رجل عصابة يحتقره الجميع، وأحس الكوبيون بالارتياح لذهابه. وكبرت وضعية فيدل بأنه الرجل الناشط السياسي الشجاع ولو أنه محب للقتل. وقد استطاع أن يجعل سمعته بكلا الاتجاهين: لم يمكن اتهامه، لكن أعداءه نظروا إليه بجدية أكبر. وهذا ما أرضى غروره في زمن كان فيه يستعرض بقوة عضلات أجنحته السياسية ويحظى باهتمام الكوبيين بأنه القائد الوطني الطموح.

ومن جهة ثانية شكل القضاء على خصمه الخاتمة المرضية لفيدل. لن يقارع بعد اليوم رجلًا آخر اسمه كاسترو ولا كوبيًا أو عدوًا من جنسية أخرى. فهو الوحيد تحت الأضواء على المسرح العالمي. لكن اسم مانولو كاسترو سيظل حيًا، وبأوامر من فيدل. بعد انتصار الثورة أطلق اسمه على مبنى للعلوم في جامعة هافانا. تعليقًا على ذلك أخبرني ماراغون إن تلك البادرة "علامة على حب فيدل المنحرف للفكاهة".

واليوم، وبعد كل تلك السنوات الطويلة، يستحيل التحقق من قصة الجريمة

التي رواها فلورنتينو الأب. وخلافًا لكل شيء آخر تقريبًا سمعته من اسبلاغا الابن، تعد هذه القصة رواية من مصدر ثان هو الآخر متوفى. (توفي الأب في كوبا عام 1994 وعمره خمسة وسبعون عامًا.) لذلك يسهل وصف روايته بأنها مجرد مثال آخر لنقد لاذع متطرف مناهض لكاسترو. معظم المتعاطفين مع الثورة يعاملون المزاعم حول تورط فيدل في قتل مانولو كاسترو على هذا النحو.

ومع ذلك فهذه الحادثة مماثلة كثيرًا لمحاولة قتل مؤكدة لزعيم طلابي آخر نفذها فيدل في هافانا قبل أربعة عشر شهرًا من الجريمة الآنفة الذكر وتبدو صحيحة. في كانون الأول/ديسمبر عام 1946 عُرف عن فيدل – من شهادات غير مطعون بها أدلى بها معاصرون لها – أنه حاول قتل بدم بارد ومن دون استفزاز ليونيل غوميز Leonel Gomez الطالب الأصغر سنًا منه والذي لمع نجمه الواعد بأن يكون منافسًا سياسيًا له.

اختبأ فيدل وراء سور حجري قريب من استاد الجامعة الرياضي وأطلق النار على الشاب في ظهره ومن دون إنذار. وهذه الحادثة يتذكرها ماكس ليزنك Max Lesnick جيدًا، فهو المعاصر لفيدل والمقرب منه في تلك الآونة – ولا يزال نصيرًا شديد الحماس، وهو الآن في المنفى في الثمانينيات من عمره. أخبر صحفيًا كان يحاوره في ميامي بأن كاسترو فعلها وذلك بغية لفت الانتباه إلى شخصه ولينال حظوة لدى زعماء عصابات منافسة له. كان للاعتداء على غوميز – ولكل ما فعله فيدل في الواقع – تفسير عقلاني كما يقول ليزنك. فذهنه "كان ذهنًا منطقيًا"[(4)].

كان فيدل يفكر تفكيرًا استراتيجيًا. وهدفه هو ذلك الهدف نفسه دون سواه في كلا الاعتداءين على غوميز ومانولو كاسترو. كان عازمًا على تنظيف المسرح السياسي الرئيسي في كوبا من المنافسين الشباب ذوي الكاريزما وليكوّن لنفسه حلفاء أقوياء يقدمون له الحماية في حروب العصابات المشتعلة في هافانا. وقد نجحت خطته كما سيكون الحال في كثير من المرات في السنين اللاحقة. عندما جُرح غوميز صار فيدل تحت جناح واحد من أكثر زعماء العصابات سوء سمعة وأمسى بالتالي "عرّابه" الإجرامي. وبحسب ليزنك أعطى هذا الراعي الجديد

لكاسترو مسدسًا وسيارة وحماية من أعدائه العديدين.

بعد خمسة شهور من جريمة مانولو كاسترو تعرّف شاهد على فيدل في جريمة قتل أخرى راح ضحيتها رقيب في شرطة هافانا. لكن هذه الشهادة سحبت فيما بعد، ومرة أخرى، لم توجه أي تهم له. كانت تلك آخر جريمة مزعومة تعين على فيدل أن يتهرب منها أو أن يدافع عن نفسه ضدها. ولم يحدث مرة أخرى أن كان قريبًا ماديًا من هكذا جريمة قد يتهم بها. وستبقى يداه على الدوام غير ملطختين بدم سُفك بالنيابة عنه أو بأمر منه.

لكنه سيكون مسؤولًا عن أعمال ومحاولات قتل كثيرة جدًا. فقد أمر باغتيالات متسلسلة لبعض رجاله المؤتمنين وبعمليات كوماندوس ضد أهداف أجنبية ذات أهمية، وجرائم عصابات في الشوارع وعمليات إعدام لا حصر لها ينفذها ضد الكوبيين أمام فرق الموت وفي حوادث عرضية في ظاهرها. نشر قتلة كوبيين وأجانب كان منهم أفراد نخبويون لجماعات إرهابية وجماعات حرب عصابات يعتمدون على كوبا. وبأمر منه حُدِّدت أسماء رجال استُهدفوا للإعدام (لم يكن بين المستهدفين أي امرأة كما تبين لي من الأدلة التي جمعتها) وذلك للأسباب نفسها التي حفزته للقتل خلال أعوام دراسته الجامعية. ففي جميع الحالات تقريباً، كان يسعى إلى الانتقام أو التخلص من خصوم وأعداء أقوياء بما في ذلك رؤساء دول سابقين أو قائمين على رأس عملهم.

يقول أحد مصادر السي آي إيه، وهو مصدر سري ومنتج، في تشرين الثاني/نوفمبر 1962 إن كاسترو "كان مسكونًا بالغرور وتسيطر عليه نزعة الجنون بالعظمة ويتملكه حب فاحش للانتقام". ويضيف المصدر قائلًا بأن ذلك في بعض الأحيان يجعل كاسترو "يعود بذاكرته إلى نحو عشرين عامًا للوراء لينتقم لأفعال نُفِّذت ضده في ذلك الحين"[5].

بعض أهداف فيدل، مثل تايني أسبلاغا، كانوا يتملصون ويهربون من المكلفين بقتلهم. لكن كثيرين غيرهم لقوا مصرعهم في ظروف غامضة وفي بلدان مختلفة. هم كوبيون، أو كوبيون في المنفى أو منشقون، وآخرون كانوا

أمريكيين لاتينيين، وربما بعضهم من جنسيات أخرى. وكما كان الحال في قضية مانولو كاسترو ينتهي البحث في الأدلة إلى نهايات ضبابية بعيدة عن الوضوح وبالتالي إلى رفض مقبول في جميع الحالات الأخرى تقريبًا. لكن هذه الصفحات سوف تنبش القبور وتعيد إحياء الكثير من الحالات الباردة استنادًا إلى أدلة جديدة قدمها أسبلاغا وغيره من المنشقين عن المخابرات الكوبية.

عندما قام أحد كتبة سيرة كاسترو بإجراء مقابلة معه في عام 1984 لم يكن لدى ماكس ليزنك أي تحفظات إزاء توصيف هاجس صديقه فيدل للعنف. كان الهاجس محددًا وحقيقيًا مثلما كان إحساسه المكبوت بمصيره المقدر. طبقًا لما يقوله ليزنك "كان لدى كاسترو بعض الخطط الدقيقة لصنع مكان له في التاريخ، وكان دومًا مسكونًا بقناعة بأن عليه الوفاء بمهمة عُلوية تفوق نطاق معرفة البشر، وكان عنيفًا لكنه دومًا يحسب الحسابات".

استمتع ليزنك وهو يروي قصة أخرى تكشف المزيد من الأسرار. عندما كان مختبئًا بعد مقتل مانولو كاسترو اعتمد فيدل على أصدقاء يؤمّنون له ملاذًا آمنًا من أعدائه. مكث لبعض الوقت مع ليزنك في غرفة صغيرة في شقة جدته في هافانا القديمة. كانت الشقة مقابل الشرفة الشمالية للقصر الرئاسي ولا يفصل بينهما أكثر من نحو مئة ياردة. وكان الرئيس كارلوس بريو Carlos Prio يستخدم هذه الشرفة عندما يلقي خطبه أمام الجماهير المحتشدة أسفل الشرفة.

في صباح يوم من الأيام كان فيدل يقرأ في كتاب نظر عبر نافذة غرفته. لم يكن ليزنك في البيت، وشهدت جدته ما حدث بعد ذلك. وقف كاسترو منتصبًا وأخذ بيده عصا مكنسة وصوبها من النافذة نحو الشرفة الرئاسية. وأمسكها كما يمسك الرامي المحترف بندقيته وسدد نحو الهدف كما لو أنها بندقية ذات منظار تلسكوبي، قائلاً في نفسه كم هو سهل قتل بريو من هنا. ذهلت جدة ليزنك وفزعت ثم خاطبته قائلة:

"حسنٌ يا ولدي، بعدما تفعل ذلك ماذا سيحل بك وبي؟" لكن جوابه كان

ماكرًا وأنانيًا وبدم بارد. قال: "حسن يا سيدتي العزيزة. سأهبط هذا السلم وآخذ المصعد وأغادر إلى شارع برادو. لا شيء البتة سوف يحدث لي"[6].

كان "مهووسًا بقوة قاهرة مهما كانت الوسيلة". هذا ما قاله صديق عمره ليزنك.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يتخيل فيها فيدل قتل رئيس كوبي على تلك الشرفة. الرئيس رامون غراو سان مارتين Ramon Grau San Martin، سلف بريو، دعا ذات يوم كاسترو وعددًا قليلًا من زعماء الطلبة للاجتماع به في القصر. وطلب إليهم أن ينتظروه على الشرفة بينما يقضي بعض الأعمال. همس فيدل في أذن الآخرين وهم واقفون على الشرفة وحيدين، قائلًا: "لدي صيغة لاستلام السلطة ذات يوم وأتخلص من هذا المحتال. عندما يعود هذا العجوز لنقم نحن الأربعة بحمله وإلقائه من فوق الشرفة. وعندما يموت سوف نعلن انتصار ثورة الطلبة".

شعر الآخرون بالخوف والرعب ورفضوا ذلك، إلا أن فيدل صرخ قائلًا: "إنها فرصة عظيمة لنا جميعًا لنقبض على السلطة"[7].

الجدير ذكره أن رواية أسبلاغا حول مقتل مانولو كاسترو تنسجم جيدًا مع هذا التوصيف. ولا أستطيع أن أجزم بوثوقية فلورنتينو الأب في كونه مصدرًا، لكنني لا أملك سببًا يجعلني أرتاب فيما قاله لي ولده، بما في ذلك قصص سطح المنزل. لم يكن لدى الأب ما يدعوه للمبالغة أو لتلفيق القصص.

وليس لدي شك بأن أسبلاغا تذكر هذا الحديث بأدق تفاصيله. فقد جرت المحادثة قبل سبعة أشهر من انشقاقه. وعلاوة على ذلك كانت تجارب الأب مع فيدل مروّعة وحيّة في الذاكرة – وعندما تُروى مجددًا وتختصر بعبارات بسيطة صريحة – تبدو بعيدة عن أي احتمال بأن يكون أصابها تشويش وخلط من جانب الابن.

لعل القصة الثانية التي رويت على سطح الدار أبلغ وأكثر كشفًا لصورة فيدل الشيطانية في أسوأ حالاتها. فهي تشكل تأملًا في استعداده للاستعانة

بغضب الآلهة – يدمّر الهيكل ويدمّر نفسه مثل شمشون الأعمى المنتقم – لو لم يتحقق سعيه لمصير تاريخي.

يرى ليزنك أنها جوهرية وأساسية في فهمنا لفيدل. "كنت أرى فيدل دومًا رجلًا يسعى لقدره، فهو إما ان يحققه أو يموت دونه". ولم يكن هذا التوتر المريض أكثر وضوحًا من ذلك اليوم في أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1962.

* * *

كانت أزمة الصواريخ الكوبية تدخل ساعاتها الأربع والعشرين الأخيرة والأشد خطرًا في تلك الليلة الحارة الرطبة 26–27 تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام. وكان فيدل مضطربًا ومرهقًا. نهض قبل الفجر، وكان طوال اليوم يجري مسرعًا من منشأة عسكرية إلى أخرى، يصدر أوامره، يتوعد ويشجع المدافعين الكوبيين، وينسق الدفاعات على جميع أراضي الجزيرة مع القادة السوفيات. قبل منتصف الليل بساعات قليلة انطلق نحو السفارة السوفياتية في هافانا. كان سائق سيارته والسيارات الأخرى المساندة تنطلق مسرعة في شوارع المدينة الخالية من الناس. لقد أمر بحالة تأهب قصوى في كوبا قبل أربعة أيام.

كان أسبلاغا الاب معه يراقب مفرزة الأمن الشخصي لفيدل، وانضم إليهم في السفارة الكساندر إلكسييف، حلّال المشاكل المحنّك في جهاز الشرطة السرية السوفياتية KGB والمؤتمن عند الأخوين كاسترو، وكان أيضًا السفير السوفياتي. وكان معه مساعده الخاص المختص بالشؤون الكوبية في الكرملين.

كانت الدولتان العظميان تنظران لبعضهما عبر هاوية نووية. أكثر من أربعين صاروخًا سوفياتيًا للمدى المتوسط والوسيط محملة برؤوس نووية، وقادرة على ضرب واشنطن ونيويورك ومعظم المدن الأمريكية الكبرى كانت على منصات إطلاقها أو قربها في الجزيرة. تم تسليمها سرًا وبمباركة من كاسترو. اكتُشفت هذه الصواريخ عندما كانت طائرة استطلاع من طراز U-2 تحلق على ارتفاع عال فوق إحدى القواعد، فبدأت الأزمة في واشنطن صباح السادس عشر

من تشرين الأول/أكتوبر حين بدأ الرئيس كينيدي اجتماعات سرية مع مستشاريه. بعد ستة أيام وجه الرئيس خطابه إلى الشعب الأمريكي وألقى القفاز من يده معلنًا التحدي. فرض عزلة بحرية تامة على كوبا لمنع قدوم المزيد من الأسلحة ووجه إنذارًا إلى الكرملين يقضي بوجوب إزالة جميع الأسلحة الهجومية.

أدرك فيدل بأن الأزمة وصلت إلى أوجها وأن كوبا في خطر شديد جدًا. بعد ثلاثين عامًا من تلك الحادثة وفي مؤتمر دولي عقد في هافانا لمناقشة الأحداث استعاد في ذاكرته ما كان يفكر به في تلك الليلة الأخيرة من المواجهة النووية إذ قال: "في تلك الليلة ... لم نر حلًا ممكنًا. ولم نر مخرجًا"[8].

ذهب إلى السفارة عازمًا على الاتصال بصورة آمنة مع رئيس الوزراء السوفياتي نيكيتا خروتشيف Nikita Khrushchev. كان يستشيط غضبًا وعازمًا على القتال، وكان سلوكه كما هو دومًا حين يكون تحت الضغط. اتخذ المبادرة. لقد كان حتى تلك اللحظة على هامش الأزمة، والآن ألقى بثقله في مركزها المشتعل. كان كينيدي وخروتشيف يحاولان التوصل إلى حل سلمي. لكن فيدل بقي متعجرفًا عنيدًا يخشى أن يتم تجاهل مصالحه. لم يستشره أحد، وما هو أسوأ من ذلك، أنه بدأ يرتاب بأن الزعيم السوفياتي بدأ يفقد شجاعته وقد يخضع للأمريكيين. يتذكر فيدل:

"كان هدفي أن أشجعه ... خشيت أن يكون ثمة أخطاء وتردد".

والتردد عند كاسترو مؤشر جبن. قال في مؤتمر هافانا متباهيًا: "طوال تاريخنا الثوري، وفي كل مرة نشمّ فيها خطرًا كنا نتخذ الخطوات اللازمة. كنا نفضل أن نرتكب خطأ اتخاذ احتياطات متزايدة من أن نؤخذ على حين غرة بسبب الطيش والتهور. وكان على قناعة بأن خروتشيف لم يكن على هذا المستوى من المعايير[9].

إذن تجرأ فيدل بأن يقدم للزعيم السوفياتي نصيحة استراتيجية. كاسترو البالغ من العمر ستًا وثلاثين سنة ولا يزال قليل الخبرة نسبيًا على المسرح العالمي أراد أن يعطي المشورة لخروتشيف المخضرم الحكيم من الحرب العالمية

الثانية والناجي من حملة ستالين التطهيرية ويكبره باثنين وثلاثين عامًا. كان البلشفي العجوز الصارم مسؤول الكرملين الذي أطلق سبوتنيك أول قمر صناعي إلى الفضاء وفيما بعد يوري غاغارين أول رجل يحلق في الفضاء، وقد جعل الاتحاد السوفياتي دولة عظمى تملك سلاحًا نوويًا، وكان بجسارة وجرأة يتحدى كينيدي في باحة أمريكا الخلفية الكاريبية. لم يكن خروتشيف يتوقع نصيحة تنتقده ولم يطلبها من كاسترو المغرور المدعي.

قام إلكسييف ومساعده، وكلاهما يتقن الإسبانية، بالترجمة بينما كان كاسترو يكتب ثم أملى عليهما ما كتبه. كانت رسالة سترسل برقيًا إلى موسكو كتبت عليها رموز تدل على أولوية عاجلة جدًا. استغرقت كتابة المسودة ساعات عدة ثم قام فيدل الذي كتبها بالإسبانية بالقلم الرصاص بتصحيح هذه الرسالة وإعادة كتابتها وأعاد السوفيات التدقيق على الترجمة. في صباح اليوم التالي السابع والعشرين من تشرين أول/اكتوبر أُرسلت الرسالة أخيرًا إلى الكرملين قبيل الفجر وكان ذلك اليوم الكامل الأخير لأزمة الصواريخ، شاهد أسبلاغا الأب هذه العملية من أولها إلى آخرها[10].

تذكر تايني جوهر الرسالة الرؤيوية عندما روى لي القصة التي سمعها من والده وهما على سطح الدار، مستخدمًا المصطلح الكوبي لأزمة الصواريخ، وقال: "طلب فيدل كاسترو إلى خروتشيف أن يطلق الصواريخ على الولايات المتحدة أثناء أزمة أكتوبر".

لم يقدم الأب أية تفاصيل لابنه. فالذكرى التي أوجزت في هذه الكلمات القليلة احترقت في اللاوعي عندهما. عندما حكى أسبلاغا هذه القصة لمسؤولي الحكومة الأمريكية الذين كانوا يستجوبونه في صيف عام 1987، لم يكن أحد قد سبق له وهمس برسالة كاسترو خارج الدوائر النخبوية الصغيرة في موسكو. وفي كوبا من المحتمل الأرجح أن فيدل وفلورنتينو الأب وحدهما يعرفانها. وفي الولايات المتحدة لم يكن لدى أحد أية فكرة عنها حتى لما بعد بضع سنوات. لا بد وأنها كانت واحدة من الأشياء القليلة التي باح بها أسبلاغا إلى السي آي إيه وتبدو بالكاد قابلة للتصديق. تبدو القصة في ظاهرها سخيفة ربما جعلت

المستجوبين يشكون بصدقيته. وبالطبع تبين لاحقًا أن عكسها صحيح. كان أسبلاغا أول شخص يخبر أحدًا في الولايات المتحدة عن رسالة فيدل. وتبين أن روايته هي الحقيقة الصارخة.

اللغة التي استخدمها كاسترو في الرسالة فيها دقة أكثر مما يستطيع أسبلاغا الأب والابن أن يتذكراه، لكنها برغم ذلك كانت مروّعة ورهيبة. وقد كُشف عما تتضمنه من ضغوط ببضع كلمات في نسخة أفرجت عنها الحكومة الكوبية فيما بعد.

بدأ فيدل رسالته كما يلي: "عزيزي الرفيق خروتشيف، من تحليل الوضع والتقارير التي بحوزتنا أرى أن العدوان وشيك وربما في غضون الساعات الأربع والعشرين أو الاثنتين والسبعين القادمة".

كان باعتقاد فيدل أن كينيدي يدرس نوعين للعدوان:

"الأول والأكثر احتمالاً هجوم جوي ضد أهداف معينة بهدف محدد هو تدميرها، والثاني، وهو أقل احتمالاً مع أنه ممكن هو الغزو ... إن طبّق الخيار الثاني وغزا الأمبرياليون كوبا بهدف احتلالها فإن الخطر الذي تشكله هذه السياسة العدوانية على البشرية كبير جدًا بحيث يتعين على الاتحاد السوفياتي بعد هذا الحادث ألا يسمح بظروف يستطيع فيها الأمبرياليون أن يشنوا أول ضربة نووية عليه"[11].

تلك هي الكلمات المؤثرة فيما بات يعرف برسالة فيدل الهرمجدّونية Armageddon(*). والغريب في الأمر أنه يطالب بهجوم نووي استباقي كبير على الولايات المتحدة، محرقة نووية، لو تم غزو كوبا. وقد قال بعضهم بأنه يقصد القول بأن على خروتشيف أن يهاجم لكي ينقذ كوبا ويدمر القدرات العسكرية الأمريكية قبل أن تحتل القوات الغازية هذه الجزيرة. ويصر كاسترو والمتعاطفون معه بأنه يقصد القول أن على خروتشيف أن يأمر بالهجوم بعد الغزو للحيلولة دون قيام هجوم أمريكي مفاجئ على أهداف سوفياتية.

(*) الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر في "يوم الله العظيم" والإشارة فيه إلى مجدّو Megiddo في شمال فلسطين (م.)

لكن تاد تسولش Tad Szulc، الصحفي وكاتب سيرة كاسترو، وقد أمضى ساعات كثيرة في لقاءات مع فيدل، يعتقد بأن اللغة المبهمة في الرسالة يمكن أن تفسر بالطريقتين. غير أنه استنتج بأن كاسترو طالب بهجوم استباقي ليدرأ غزوًا واحتلالاً عسكريًا أمريكيًا لكوبا[12].

لم تكن الصواريخ الموجودة في الجزيرة وحدها التي اعتقد فيدل بوجوب إطلاقها بل وأيضًا تلك الترسانة الاستراتيجية القائمة على التراب السوفياتي. كان يعرف عن يقين بأن ملايين المدنيين على جانبي الستار الحديدي سيموتون إثر هكذا هجوم نووي. مدن أمريكية كبرى سوف تسوى بالتراب وقسم كبير من الاتحاد السوفياتي سوف يمسي أنقاضًا في ردود فعل انتقامية لصواريخ أمريكية في صوامع مقساة ورؤوس نووية تطلقها الغواصات وقاذفات قنابل استراتيجية نجت من الهجوم الأول. سحب من الإشعاعات سوف تغطي القارات والضرر الفيزيائي والبيئي لا يمكن تقديره.

لا يوجد مثيل للرسالة الهرمجدّونية في تاريخ العصر النووي بأسره منذ هيروشيما وناغازكي. ولا أحد يعرف قائدًا في العالم اقترح استخدام رأس نووي واحد منذ إعطاء الرئيس هاري ترومان موافقته على هذين الاعتداءين الأمريكيين على اليابان عند نهاية الحرب العالمية الثانية. كان اقتراح فيدل على خروتشيف بحجم وقوة وضخامة أكبر من ذلك كله. كان يحرض على هجوم كبير مفاجئ سوف تحصل فيه مئات الانفجارات النووية تكون جميعها أكثر قوة من القنبلتين اللتين ألقيتا على اليابان، حتى الأفلام السينمائية والقصص الخيالية لا تنسب هذه الأفكار الغريبة التي تنافي كل ما هو طبيعي إلى شخصيات من نمط الدكتور Strangelove.

ومع ذلك وعلى الرغم من كونها رسالة تستوجب الشجب والإدانة إلا أنها لم تفض إلى شيء. كان كاسترو يعوي في الريح في تلك الليلة داخل السفارة السوفياتية. شعر خروتشيف بالذعر عندما جاءته الرسالة. فهو يشعر بالآلم لما كابده في الحروب ويكره أن يعود إلى ذلك ثانية. في إحدى رسائله إلى كينيدي أثناء الأزمة كتب يقول متأملاً ما جرى معه: "حضرت حربين وأعرف أن الحرب

لا تنتهي إلا بعد أن تعيث خرابًا في المدن والقرى وتبذر في غداتها بذور الموت والدمار"[13].

يقول كاتب سيرة خروتشيف الجليل بأنه في الحرب العالمية الثانية "لقي الآلاف مصرعهم أمام ناظريه، من الجنود البسطاء الذين حصدتهم معارك سيئة التخطيط وحتى الجنرالات الذين انتحروا أمامه". وبعد سنة على هذه المجزرة التي أودت بحياة 27 مليون سوفياتي كاد خروتشيف نفسه يُقتل عندما قصفت الطائرات الألمانية مقر قيادته. فكان على كاسترو أن يعرف بأنه لا فرصة أمامه ليقوم الزعيم السوفياتي بإطلاق نيران مخزونه الاستراتيجي من الأسلحة على أهداف أمريكية، ومن خلال ذلك يستفز هجومًا نوويًا مضادًا ماحقًا[14].

لذلك قد يقول قائل إن الرسالة الهرمجنّونية لم تكن أكبر جريمة يرتكبها فيدل، ذلك لأنها لم ينتج عنها شيء. وهنالك قرارات أخرى كثيرة وهامة وفي هذا السياق عينه وكانت جميعها افتراضية. فالأعمال التي قام بها في بدايات ثورته للقضاء على الطبقة الرأسمالية في كوبا كانت لها ضريبتها المروّعة. صادرت الثورة جميع الأملاك الخاصة وأخرجت جميع الملّاك السابقين إلى المنفى لا يملكون شيئًا سوى الملابس التي يلبسونها. ولم يعوِّض لهم بشيء، بل كان فيدل والنافخون في بوقه يسخرون منهم منذ خروجهم يصفونهم بالمنحرفين اجتماعيًا. مئات الآلاف – وبالمحصلة أكثر من مليون من الأشخاص - أجبروا على مغادرة بلدهم الأم بهذه الطريقة. واليوم يهاجر نحو عشرين ألفًا إلى الولايات المتحدة بصورة شرعية كل عام بحثًا عن حياة أفضل. وهؤلاء هم الحطام المنبوذ لثورة فيدل الفاشلة.

وهنالك قرار آخر يثير الازدراء حقًا اتخذه فيدل في عام 1980 كان شبيهًا بهذا إنما على مستوى أصغر. أثناء خروج الكوبيين الكبير من مرفأ ماريل Mariel عمد إلى إفراغ أجنحة المشافي النفسية والسجون الأمنية، ثم طرد هؤلاء الكوبيين بعد أن أجبرهم على ركوب الزوارق إلى ميامي وكي ويست KeyWest. في هذا الجسر البحري الفوضوي الذي أمر به هرب أكثر من 127,000 شخص. وكان بينهم نحو 17,000 من المجرمين – منهم القتلة المحكومون بجرائم

الاغتصاب والاتجار بالمخدرات – وأشخاص من ذوي الأمراض العقلية الحادة الذين أبعدوا فجأة عن عائلاتهم وعن علاجهم. ولم يقبل بعودة إلا حفنة صغيرة من أولئك الذين وصفوا بحالات يمكن استثناؤها. وبقي الآخرون في بلدهم الجديد، وكثير منهم أدخل السجون لارتكابهم جرائم يعاقب عليها بالإعدام بما في ذلك القتل الجماعي. لا يمكن أن يتخذ قرارًا مثل هذا إلا فيدل الذي أجبرهم على ركوب القوارب إلى فلوريدا. ولم يطلب أحد تفسيرًا منه لذلك، وهو لم يعتذر ولم يعبر عن الندم.

معروفة للجميع تلك وغيرها من الانتهاكات الفظيعة لحقوق الإنسان التي ارتكبها كاسترو. وعلى النقيض منها ظلت الرسالة الهرمجدّونية واحدة من أسراره الافضل كتمانًا ولمدة ثمانية وعشرين عامًا. لم يتوقع أن يبوح بها أحد قط. فهي أولًا وأخيرًا اتصال خاص وسري بين رئيسي دولة حليفين. ولم يشك قط بأن الاتحاد السوفياتي قد يرتكب عملًا مدمرًا للذات وأن تخرج للعلن الكثير من الوثائق الحساسة.

كان سيرغي، نجل خروتشيف، أول من تحدث علانية عن هذه الرسالة. حدث ذلك أثناء مؤتمر دولي آخر بشأن أزمة الصواريخ عقد في موسكو في الشهر الأول من عام 1989. قال الابن بزلة لسان إن والده ذكر مرة أن فيدل بعث له برسالة يقترح فيها هجومًا نوويًا على الولايات المتحدة.

كان رد الفعل على البوح بهذا السر عنيفًا جدًا. وكان الرفض الكوبي والسوفياتي عاليًا وحادًا ما اضطر سيرغي لأن يسحب كلامه. غير أن إلكسييف Alekseyev، سفير الـ KGB والمترجم، قال لصحفي أمريكي: "هذا غباء. أنا كتبت التلكسات ولا يوجد شيء من هذا القبيل". وانضمت الحكومة الكوبية إلى تلك الجوقة ونشرت ردًا دفاعيًا في صحيفة غرانما *Granma*، قائلة: "هذا سخف". أمام ثقل هذا الرفض المتعدد الجوانب هدأ غضب الإعلام، فقد بدا هذا الزعم منافيًا لطبيعة الأشياء ويستحيل تصديقه.

ولم يسمع أحد بالمزيد عن هذه القصة حتى أيلول/سبتمبر 1990. سياسة

الانفتاح التي تبناها الاتحاد السوفياتي قبل زواله شجعت الصراحة التي لم يكن مسموحًا بها في السابق. وبهذه الروح من الصراحة صدر المجلد الثالث من مذكرات خروتشيف المنشورة بعد وفاته، والذي اشتهر بعنوانه الفرعي *The Glasnost Tapes*، وفجر تلك الفقاعة التي كان فيدل يحاول كثيرًا حمايتها.

في أعقاب عزله عن السلطة عام 1964 أملى خروتشيف قصة حياته سرًا على أشرطة تسجيل بقيت مخبأة في المنزل الريفي المنعزل حيث نفي. والموضوع الذي اختار أن يعالجه قبل غيره كان واحدًا له أكبر أهمية عاطفية بالنسبة له ألا وهو فيدل وأزمة الصواريخ. وقد شكلت كلمات خروتشيف المطبوعة وصفًا ذا مصداقية للرسالة. ويبدو أنها تدعم تفسير تسولش بأن فيدل كان يتمنى وقوع هجوم نووي يمنع غزو أمريكا واحتلالها للجزيرة. كتب الزعيم السوفياتي الراحل يقول: "تلقينا برقية من سفيرنا في كوبا ... اقترح كاسترو بأنه بغية الحيلولة دون تدمير صواريخنا النووية يتعين علينا أن نشن ضربة استباقية ضد الولايات المتحدة ... وعلينا أن نقوم فورًا بتوجيه ضربة بصواريخ نووية"[15].

رد فيدل على ذلك، على مضض أولًا، ثم ساخرًا بهذه القصة وذلك في خطاب ألقاه في مسرح كارل ماركس بهافانا في الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر. حاول أن يضع اللوم على الولايات المتحدة – وتحديدًا كان يقصد السي آي إيه، قائلًا: "كانوا دومًا يستخدمون، أو يجدون سبلًا لخلق العداوة والكراهية ضد كوبا لدى الرأي العام الأمريكي". وكالعادة، كان يشعر بقلق إزاء الطريقة التي سيكون هو عليها بنظر صانعي الرأي الهامين في الولايات المتحدة أكبر من القلق إزاء نظرة الشعب الكوبي له.

وتابع قائلًا: لم يكن إلكسييف يُتْقن الإسبانية حقًا، فقد قدّم ترجمة سيئة للرسالة، وشوّه المعنى. ومع ذلك كشف فيدل بأنه تم العثور على نسخة من الرسالة وسوف تنشر. فهو يعلم من دون شك بأن نسخة أخرى باللغة الروسية سوف تسحب من الأرشيف السوفياتي[16].

وقدّم خروتشيف في مذكراته مزيدًا من التفاصيل التي تجرّمه. فقد قال أتيحت الفرصة له ولفيدل في أيار/مايو عام 1963 ليراجعا معًا ذلك الجدال الدائر أثناء زيارة موسعة قام بها فيدل إلى الاتحاد السوفياتي. كان خروتشيف لا يزال غير قادر على فهم كيف طالبه فيدل بمحرقة نووية، فلم يتصنع كلمات مع الزعيم الذي وصفه بـ "الشاب والمتهور".

"قلت لكاسترو ... أنت تريد إشعال حرب مع الولايات المتحدة. ولكن إن بدأت هذه الحرب فقد ننجو نحن بطريقة أو بأخرى أما كوبا فسوف تفنى من الوجود دون شك. سوف تُطْحن وتصير مسحوقًا. ومع ذلك تقترح ضربة نووية!"[17]

كان أوليغ ترويانوفسكي Oleg Troyanovsky السفير ومساعد خروتشيف للسياسة الخارجية هو الذي استلم رسالة فيدل برقيًا عندما وصلت إلى موسكو. وقد كتب عنها قائلًا:

"تلقى خروتشيف برقية من فيدل كاسترو. كانت الرسالة التي كتبت بعاطفية فيدل المعروفة مفعمة بمشاعر القلق. أذكر أنني اتصلت بخروتشيف الذي كان في منزله وقرأت الرسالة له. ... ليس لدي شك بأنها أضافت وقودًا لأفكاره باعثة على القلق تدور في ذهنه"[18].

إن ما يقصد أوليغ قوله، وما تؤيده أدلة أخرى، أن الزعيم السوفياتي انزعج كثيرًا من كلمات فيدل حتى إنه أدرك بأن لا مفر من التوصل من دون تأخير إلى تسوية مع كينيدي. فقد علمت القيادة السوفياتية في وقت متأخر من يوم السابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، كما قال ترويانوفسكي، بأن "شرارة واحدة قد تسبب انفجارًا". وليست لديها أي فكرة عما قد يفعله كاسترو بعد ذلك وهو الذي يتصرف مثل طفل حاقد يلعب بالنار.

حصلت في ذلك اليوم تطورات أخرى تثير الرعب والخوف تكاد تتصادف مع استلام رسالة فيدل في موسكو. سُمعت في الصباح أول طلقات أطلقت بغضب أثناء الأزمة. بدأت المدفعية المضادة للطائرات وبأمر من فيدل ومع أولى

ساعات الصباح تطلق نيرانها على طائرات استطلاع أمريكية تحلق على علو منخفض. وامتلأت أجهزة الإعلام الكوبية بتقارير عن مسيرات وعن دولة تعد العدة لحرب من بيت لبيت. عند مناقشة هذه الأزمة في مؤتمر هافانا عام 1992 استعاد فيدل في ذهنه تلك اللحظات وتذكر كيف كانت القوتان العظيمتان قريبتين جدًا من حرب حقيقية.

"بدأت الحرب في كوبا صباح يوم 27 تشرين الاول/أكتوبر". فقد فَضَّل استعمال "المواجهة العنيفة حتى لو كان كينيدي وخروتشيف يبذلان ما بوسعهما لتفادي هذه الحرب"[19].

عصر ذلك اليوم أُسقطت طائرة استطلاع أمريكية من طراز U-2 في شرق كوبا بصاروخ أرض جو سوفياتي الصنع. وقتل في الحادث الرائد رودولف أندرسون من سلاح الجو. وقد اعترف فيدل أنه قد استفز الحادث من خلال إذكاء نار مزاج كفاح ساخن جدًا ألهب القادة العسكريين الكوبيين والسوفيات على حد سواء. وقد اعترف فيما بعد قائلًا: "لا نستطيع القول بأنهم يتحملون كامل المسؤولية ... ابتدأ إطلاق النار، وبروح أساسية للتضامن قرر السوفيات إطلاق النار أيضًا". ومن دون تفويض من موسكو أعطى قائد القاعدة الصاروخية السوفياتي أمره بإسقاط الطائرة. وفي مقابلة أخرى قال فيدل ببساطة بأن الطائرة دُمِّرت "من دون شك نتيجة الوضع الذي أوجده قرارنا"[20].

لكن خروتشيف تذكر هذا الحادث على نحو مختلف. جاء في مذكراته: "أمر كاسترو ضباطنا في الدفاع الجوي بإسقاط طائرة الاستطلاع U-2"[21].

وفي شهر آذار/مارس عام 1963 كان أحد عملاء السي آي إيه، وهو رجل حساس ونثمنه عاليًا ولم يكن يومًا مزدوجًا ولديه إمكانية الوصول إلى القادة الكوبيين، أول من روى هذه الحادثة. وكانت روايته شبيهة برواية خروتشيف. أخذ فيدل زمام المبادرة ومسؤولية إسقاط طائرة U-2 تقع عليه. يقول المصدر إن "كاسترو خاطب الضابط السوفياتي الآمر بكلام رنان" فخضع الضابط للضغط ولـ "محاولات كاسترو لإقناعه"، وعندئذ أعطى الأمر بإسقاط الطائرة. يقول

المصدر "كانت القيادة العسكرية السوفياتية غاضبة" فأرسلت هذا الضابط مخفورًا إلى وطنه[22].

كانت القيادة والتحكم في وضع منهار داخل قوات البعثة السوفياتية في كوبا، وكان قادة خروتشيف العسكريون يتلقون أوامرهم من فيدل. فكانت كل هذه الأمور مضافًا إليها الرسالة الهرمجدّونية وتدمير طائرة U-2 ووابل المدفعية المضادة للطائرات الكوبية ضد الطائرات الأمريكية أكثر من أن يحتمله هذا الزعيم السوفياتي. كان يعلم أن الأزمة التي أشعلها يجب أن تنتهي إلى نهاية سلمية. فاستسلم من دون المطالبة بتنازلات إضافية كان كينيدي على استعداد لتقديمها، ومن دون التشاور مع كاسترو، وأعلن عن قراره بسحب الصواريخ.

* * *

ظل فيدل على موقفه ولم يندم على فعلته. في خطاب ألقاه في هافانا في أيلول/سبتمبر عام 1990 قال: "لست نادمًا في الحد الأدنى على ما قلت وما فعلت". مشاعر الخجل أو الندم الخالص بعيدة كل البعد عنه مثلما يستحيل عليه أن يحلق لحيته التي يتميز بها.

في مؤتمر هافانا لعام 1992 تحدث بإيجاز وبصورة مُجتزءة عن تلك الرسالة، ومرة أخرى من دون أي اعتذار. وسئل عن ذلك بعد ستة أعوام أثناء مقابلة أجريت معه على قناة CNN الإخبارية. في ذلك الحين، وبعد أن تدرب جيدًا وبيده وثائق ذات صلة قدم دفاعه الأكثر تفصيلاً حتى الآن عن أفعاله. لكنه ما زال رافضًا الاعتراف بأنه ارتكب خطأ شنيعًا.

وبتأنق وتباه كبيرين قال لمحدثه: "تلك هي الرسالة الأكثر ترويعًا في التاريخ". كان يحاول أن يخلق سردًا جديدًا للحادث. أراد بطريقة ما أن يغير مسار الحادثة 180 درجة ليجعلها شيئًا نبيلًا، فأعلن: "أعتقد أن على المرء أن يكون قويًا جدًا، وأقول إن المرء بحاجة لشجاعة أخلاقية ليقول ذلك، لأنني أنا أرى الأشياء هكذا، ورؤيتي لما هو وشيك حدوثه"[23].

في تلك المناسبة وفي مناسبات أخرى عندما يطرح موضوع الرسالة يكون

فيدل ماهرًا جدًا في التحكم بالمناقشات. ويفعل ذلك من خلال إغراق محاوريه بدفق كبير من الكلام الحشو يكون دومًا منمقًا ودقيقًا وفي أغلب الأحيان يتضمن إطراء لهم وفي الوقت نفسه قلما يبوح بما هو أكثر مما خطط له في البداية. وعلى نحو سلس وناعم يغيّر مجرى الموضوع ويتطرق إلى اتجاهات جديدة ولا يتوقف عن الكلام حتى يكون الغرض من السؤال الأصلي قد غاب في دائرة النسيان. والنتيجة هي أنه طوال السنين التي انقضت بعد كتابته للرسالة وقبل أن ينكفئ عن الحياة العامة ويختار العزلة لم يتعرض يومًا لضغط يهدف إلى جلاء غموض ما كان يفكر به حين دعا لحرب نووية.

قال بعضهم بأنه لا بد وأنه كان في حالة من اللاعقلانية في تلك الليلة داخل السفارة السوفياتية، وهذه فكرة يسهل جدًا التكهن بها. كتب باحث أمريكي له مكانته قائلًا: "القائد الذي يقنع نفسه بأن الانتحار الجماعي وحده ممكن لا يتصرف بعقلانية"[(24)].

لكن أسيلاغا الأب لم يتحدث عن هكذا هفوات عاطفية أو نفسية. لم يقل شيئًا لابنه عن فيدل يدل على أنه كان في حالة تدعوه لتصرف غريب أو كان عاجزًا عن ضبط عواطفه في تلك الليلة في السفارة السوفياتية. حقيقة الأمر أنه لم يكن غير منضبط. وهو لم يُمْلِ الرسالة الهرمجدّونيّة في لحظة جنون أو تفجر واقعية سحرية. بل كان تقييمه للوضع في تلك الساعات الأخيرة والكئيبة لأزمة الصواريخ عقلانيًا وبهدوء أعصاب وببرود وبقسوة. وكان صديقه ماكس ليزنك محقًا حين قال "ذهنه ذهن منطقي".

مع أن فيدل كان دومًا يحسب تحركاته بدقة إلا أن سوء الفهم الذي يكتنف سلوكه المتطرف كان شائعًا. والسبب في ذلك أن المراقبين كانوا دومًا يقللون من أهمية قدرته على فعل ما لا يفكر به أحد، وأن يتصرف بعدوانية بطرائق لا يفكر بها قائد آخر في العالم. طوال عمله كان بارعًا في مفاجآته غير المتوقعة، ويدهش أعداءه بما لديه من جرأة وشجاعة وحسن اختيار التوقيت.

عندما أرسل سرًا آلاف الجنود الكوبيين ليقاتلوا في أنغولا عام 1975 إلى

جانب عصابات الماركسيين الذين كان يرعاهم فوجئت الاستخبارات الأمريكية أيما مفاجأة. ولم نكن نحن الوحيدين الذين أذهلتهم الدهشة، فقد كتب وزير الخارجية هنري كيسنجر فيما بعد في مذكراته بأن أحدًا لم يكن ليتصور بأن فيدل "سوف يتصرف بشكل مستفز بعيدًا هكذا عن أرض وطنه"[25].

كان هذا التدخل، وتدخل آخر مماثل في أثيوبيا بعد بضع سنين، مجرد مثالين من عشرات الأمثلة الدالة على اللاتماسك المفاجئ، والنوبات الجسورة في السياسة الكوبية التي يفكر بها فيدل. استباق الأعداء والقضاء عليهم، واتخاذ زمام المبادرة، والمجازفة من دون حساب واتخاذ موقف الهجوم والتآمر واعتماد الأساليب غير القويمة هي كلها من سمات أسلوبه القيادي منذ كان في الجامعة. حين كان في ريعان الصبا لا أحد يمكنه أن يتنبأ بسلوكه عن ثقة. كان فريدًا، وربما القائد الأكثر خصوصية في العالم الحديث، هو نسيج وحده بسبب عظمة طموحاته التي لا حدود لها.

أدرك ليزنك أن سعي فيدل لمصير تاريخي لن ينجم عنه إلا نتيجتان على الأرجح، إما العظمة أو الشهادة. هما القطبان اللذان يفسران لماذا تفادى كاسترو المناطق الوسط التي، من وجهة نظره المحبة للمغامرة، تركت للرجال العاديين الذين يبحثون عن الأمن والطمأنينة.

كان فيدل يسير بين نقيضين منذ ذلك اليوم في 26 تموز/يوليو عام 1953 حين قاد هجومًا انتحاريًا ضد حامية مونكادا Moncada العسكرية شرق كوبا ليعلن انطلاقة رحلته الثورية الطويلة. بحسب حساباته الخاصة – المُبالغ فيها – قُتل ثمانون رجلًا من أولئك الذين دفع بهم إلى المعركة. ومرة أخرى، في أوائل كانون الأول/ديسمبر عام 1956 لم ينج إلا القلة القليلة من قوته الطليعية التي نزلت إلى الساحل الجنوبي الشرقي لكوبا التي أطلقت شرارة تمرده. في خطاب ألقاه في حفل لجمع الأموال في نيويورك في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام تعهد أمام الجميع "بأننا في 1956 سنكون أحرارًا أو شهداء". كان بحاجة لأبطال موت وثوريين ومهرة بالألعاب النارية ليعطي الشرعية لقضيته. وبعد أن استلم السلطة بعد عامين سيكون الأمر نفسه دائمًا[26].

كان ينتظر من أتباعه – سواء كانوا بضع عشرات أم شعبًا بأكمله – أن يشاركوه النصر أو الموت البطولي. ففي الكثير من الأوقات كان يشبه مبشرًا إنجيليًا متهورًا منزعجًا يقود قطيعه إلى استشهاد جماعي، وذلك كله في سبيل رؤاه وأوهامه المشوهة.

في خطاب ألقاه في نيسان/أبريل 1963 بمناسبة الذكرى السنوية الثانية لغزو السي آي إيه لخليج الخنازير، أعاد كاسترو إلى الأذهان نهاية تلك اللعبة الختامية لأزمة الصواريخ ومشهد الفصل الأخير في السفارة السوفياتية في ذهنه من دون شك. "نحن نتذكر تلك الأيام حِين كان الشعب كله بهدوئه المثير للإعجاب مستعدًا لمقاومة هجوم العدو ... مستعدًا للقتال، ومستعدًا للموت"[27].

كانت تلك ملحوظة أعاد تكرارها كثيرًا على مدى الأعوام، مصدقًا فعلًا بأن جماهير الكوبيين مستعدون للتضحية من أجله. في شهر أيلول/سبتمبر عام 1981، على سبيل المثال، قال لصحفي مكسيكي: "الهدوء الذي أظهره الشعب وهو على استعداده للموت كان مؤثرًا وأكاد لا أصدقه"[28].

كان شغله الشاغل جمال الشهادة الجماعية في مناسبات أخرى أيضًا. في السنة الأولى لحكم الرئيس ريغان الذي كان يخشاه كثيرًا ظهر فيدل مجددًا وهو مسكون بنذر الموت والدمار. وقد كتبتُ تقييمًا استخباريًا عن مزاجه الكئيب في تشرين الثاني/نوفمبر 1981 عندما كنت رئيس المحللين في مجلس الاستخبارات القومي. كانت الدراسة تستند كلها على معلومات غير سرية، وبصورة رئيسية خطاباته وأدائه العام. فكتبت عن "تأكيده المتواصل على أفكار تتعلق بالمحرقة والرؤية النبوئية".

توجد أدلة كثيرة في خطبه تشهد على خوفه من الإدارة الأمريكية الجديدة ومواقفها المهددة لكوبا. وقد أبلغته القيادة السوفياتية التي لم تنس سلوكه الحربي المعادي أثناء ازمة الصواريخ بأنها لن تقدم له ضمانة أمنية إذا قامت الولايات المتحدة بعمل عدواني ضده. شعر أنه وحيد، قريب جدًا من الهاوية، حتى إنه واجه مشكلات اجتماعية واقتصادية مؤلمة في الجزيرة في أعقاب

خروج ماربيل Mariel. لم أكن أعلم شيئًا عن الرسالة الهرمجدّونيّة حين كتبت في تقييم رُفعت عنه السرية الآن عن تأملاته السوداء في تلك المنعطف التاريخي الحرج:

"يبدو كاسترو اليائس ظاهريًا يخفي كثيرًا من مخاوفه المتصاعدة إزاء صراع مع الولايات المتحدة بقناع من التبجح بالطريقة التي بها يتوجب على الثوار الكوبيين الحقيقيين أن يحاربوا حتى آخر رجل، ومزاجه الرؤيوي غالبًا ما يكون صريحًا. كان يكثر من استعمال كلمة "محرقة"، ويفكر بكوبا والعالم بعد حرب نووية بين القوتين العظميين ويحث جمهوره على زيادة المراقبة والقيمة الثورية في مواجهة كارثة محتملة"[29].

وقد قال في منتصف أيلول/سبتمبر إن الحشود العسكرية الدفاعية عند الرئيس ريغان "لن تفضي إلا إلى المحرقة الأخيرة". وفي 24 تشرين الأول/أكتوبر قال: "الموت بشرف هو السبيل الجيد للسلوك والتصرف". وفي مناسبة أخرى قال: "إذا تجرؤوا وغزوا فإن أعداد 'اليانكيين' الأمريكيين الذين يموتون سيكون أكبر من عدد من ماتوا هنا في الحرب العالمية الثانية، ومرة أخرى قال بأن الملايين من 'اليانكيين' الأمريكيين سوف يموتون .. نحن لسنا مثل مسيحيي روما القديمة الذين استسلموا بصبر وخنوع".

وكما فعل قبل واحد وعشرين عامًا حين كتب رسالة الهرمجدون، كان يشعر الآن بإحساس رهيب من العزلة وتخلي الآخرين عنه. وقد ذكرتُ في التقييم الاستخباري كيف أنه في مناسبتين أخريين أعاد التأكيد على تلك الرؤية المخيفة نفسها للنتيجة التي سينتهي أو تنتهي ثورته إليها. فقد قال: "وطالما يوجد رجل مسلح واحد فسوف نقاتل حتى النهاية".

كان كاسترو يتخيل في كثير من الأحيان أنه سيكون آخر محارب يصمد في مواجهة قوى الشر المتربصة به. وكان ذلك لعشرات السنين العنصر المعتاد لتفكيره الرؤيوي. قد يكون مرد ذلك في جزء منه إلى براعته في أداء نابع من ثقته بنفسه، وإيمانه باستثنائية شخصه. وهو أيضًا انعكاس للاحتياطات التي

يتخذها دومًا عندما يكون في أوضاع خطرة. أطلق النار على ليونيل غوميز في ظهره عن بعد. وأول عملية قتل معروفة عنه في سييرا مايسترا Sierra Maestra أثناء حملته في حرب العصابات التي قادها كانت أيضًا من بعد مسافة معقولة حين أطلق النار من بندقيته التي كانت مزودة بمنظار. آخرون كثر ممن كانوا معه أثناء الهجوم على حامية مونكادا Moncada يذكرون كيف كان يتخلف عن الآخرين ويجتنب وطيس المعركة ويصرخ بأوامر غير مترابطة[30].

وفي تشرين الأول/أكتوبر عام 1962 حين كتب الرسالة الهرمجدّونية قيل عنه إنه لعبها في الجانب المأمون. فقد كتب اناتولي دوبرينين Anatoly Dobrynin السفير السوفياتي المعروف باتصالاته في واشنطن لسنوات عدة في منكراته يقول إن فيدل "اقترح بأن ينسحب هو وسفيرنا معًا إلى ملجأ بُني في موقع للقيادة داخل كهف قريب من هافانا". فهنالك قد ينجو فيدل من الموت أثناء الغزو الأمريكي، وحتى في حرب نووية"[31].

وثمة مثال آخر لعقدته الرؤيوية التي تحدث عنها الإعلام الكوبي الرسمي وقد حدث في تشرين الاول/أكتوبر عام 1983. نحو ثمانمئة كوبي علقوا في دولة غرينادا الصغيرة في الكاريبي حين غزتها القوات العسكرية الأمريكية بذريعة إنقاذ طلبة طب أمريكيين. وجه فيدل كلمة في الإذاعة مخاطبًا موظفيه – العسكريين وعمال البناء المدنيين – يأمرهم بالقتال حتى الموت. فيما بعد، وحين ظن أنهم يأتمرون بهذا الأمر، تحدث ثانية مع الضابط الآمر لهم وقال: "نهنئكم على مقاومتكم البطولية. الشعب الكوبي فخور بكم. لا تستسلموا مهما كانت الظروف"[32].

كان ينتظر منهم انتحارًا جماعيًا في سبيل مجد الثورة، ثورته. لكن الضابط الكوبي الأعلى والجميع ما عدا عدد قليل منهم تجاهلوا أوامر قائدهم العام العجيبة وسلموا أنفسهم للأمريكيين. كان أسبلاغا يعرف جيدًا ما حدث بعد ذلك. فقد كتب يقول في المخطوط الذي أعطانيه أنه عندما عاد الناجون إلى كوبا تم استجوابهم بعنف على فترات طويلة من الزمن.

بعضهم، كما علم من صديق له كان واحدًا من المحققين، تعاونوا مع آسريهم رغم أنهم لم يبقوا إلا لفترة قصيرة في غرينادا قبل إعادتهم إلى كوبا. جاء فيما كتبه أسبلاغا: "أربعة على الأقل اعترفوا بأنهم قبلوا عرضًا للتعاون مع العدو بعد عودتهم إلى كوبا". وبعضهم جعلتهم الاستخبارات الكوبية عملاء مزدوجين. ضابط واحد على الأقل اشتبه بأنه قد جندته المخابرات الأمريكية رفض الاعتراف فخفضت رتبته العسكرية وتم تعيينه في عمل لا فائدة له. صديق أسبلاغا المحقق أخبره بأنه جرى اعتبار تجاهل الكوبيين في غرينادا لأوامر فيدل عملًا مبررًا.

ورد فيما كتبه أسبلاغا إن التحقيقات الجارية في هافانا كشفت بأنهم "اختاروا عدم التصدي للأمريكيين ليس فقط بسبب انعدام القيادة الفاعلة، بل ولأنهم لم يفهموا لماذا عليهم أن يموتوا إن لم يكونوا يدافعون عن بلدهم".

وأضاف بأنه "حُكم على الجميع بالأشغال الشاقة في بناء الطرق وغيرها من الأشغال العامة في إقليم ماتانزاس Matanzas. أما الضباط من ذوي الرتب العالية فقد أُرسلوا إلى مناطق حربية ذات أخطار عالية جدًا في أنغولا".

كان فيدل يتوقع أن يعمل جميع الكوبيين حتى المدنيين في غرينادا بمحاكاة المحارب الإسبارطي المعروف بصلابته وجلده. وطلب منهم أن لا يبالوا بالصعاب والألم وبأن يطيعوا أوامره طاعة عمياء، وأن يبتهجوا بالموت دفاعًا عن الوطن. الثوار الكوبيون المخلصون لا يسألون لماذا ولا يفكرون مرتين. لذلك كانت ضربة قاسية له عندما رأى قليلين جدًا كانوا على حسن ظنه بهم.

ومع ذلك حدثت فترة أخرى في تفكيره الرؤيوي في عام 2010، أي بعد عامين من تخلي فيدل رسميًا عن الرئاسة. فقد اعتاد في فترة تقاعده على كتابة تأملات في موضوعات مختلفة من مقر استشفائه في هافانا ومن افتتاحيات صحفية صادرة عن الإعلام الكوبي حينئذ. ووضع لها عنوانًا "تأملات فيدل". فهي تهتم بجميع القضايا الدولية ذات الصلة وبعضها يقصد به ترميم أو تجميل صورته. أكثر من عشرة من المقالات التي كتبها بين حزيران/يونيو وتشرين

الثاني/نوفمبر كرست لاهتمامه المتجدد بالمحرقة النووية. واحدة من هذه المقالات تحمل عنوان "أخطار الحرب النووية"، ومقالة أخرى بعنوان "على حافة المأساة". في 16 حزيران/يونيو كتب يقول "السماء تتلبد بالغيوم"، وفي 11 تموز/يوليو رأى أن "كل شيء اليوم معلق بخيط رفيع".

وفي 23 آب/أغسطس تبين أنه يعود إلى مسألة الرسالة الهرمجدّونية المعقدة. لم يشر إليها صراحة، لكن نيته بدت جلية بما يكفي. عنوان المقالة "شتاء نووي". كانت هذه المسألة لا تزال تؤرقه حتى إنه بعد سنين عدة ظهر على أنه الدكتور سترينجلوف Strangelove الكوبي عندما نُشِرت الرسالة المرسلة إلى خروتشيف. فقد أراد وهو في حالة من الخرف أن يبحث عن طريقة أخرى ترفع عنه المسؤولية ويفسرها.

كتب وهو يقترب من ذكرى عيد ميلاده الرابع والثمانين بأنه لم يدرك إلا مؤخرًا بعضًا من الوقائع الأساسية والمعروفة عمومًا لحرب استراتيجية حسبما تكتب عنها الكتب. قال إنه تشاور في وقت سابق من اليوم مع أربعة خبراء كوبيين، ومنهم ابنه الأكبر - الذي كان ذات يوم مسؤولًا عن الوكالة النووية الكوبية - بالإضافة إلى رئيس دائرة العلوم والتكنولوجيا العسكرية. وادعى بأنهم ساعدوه في أن يقدر أخيرًا ما قاله وكان في السابق تفوته معرفته.

"كان علي أن أفهم منذ عهد بعيد أن أخطار حرب نووية أكثر خطورة مما كنت أتصور ... لم آخذ في حسابي واقعًا واحدًا بسيطًا، ليس الأمر سيان عند تفجير 500 قنبلة نووية في ألف يوم كما لو تم تفجيرها في يوم واحد"[33].

لا يوجد سبب يدعو للاعتقاد بأن كاسترو كان خرفًا عندما كتب أو أملى (وهو الأرجح) تلك الكلمات. ولا يمكن تصديق أنه لم يكن يعرف هذه الحقيقة البسيطة التي كان يعرفها منذ عشرات السنين طلاب وطالبات المدارس في العالم أجمع. لقد درس (فيدل) أزمة الصواريخ على مدى السنين الماضية بعمق مع بعض أكثر صناع القرار الأمريكيين والسوفيات شهرة في ذلك الحين. وشارك عام 1992 في مؤتمر هافانا. وكان رئيسًا لأحسن جهاز استخبارات في العالم،

وقاد أكفأ مؤسسة عسكرية لدولة في العالم الثالث. وهو يفاخر الجميع بما لديه من ذاكرة تصويرية. وهو قارئ نهم. ومع ذلك يدعي بأنه لم يناقش علم آليّة الصراع النووي البسيط مع أحد من قبل، وأنه لم يقرأ أيًا من آلاف المقالات والدراسات التي تشرح وتوضح هذا العلم.

يبدو أنه بهذا التفسير المنافي للعقل والمبرئ للذات يأمل بأن يضع الرسالة الهرمجدّونية وراء ظهره للأبد. فهو قلق بشأن إرثه، كيف سينظر إليه المؤرخون. لم يؤرقه بهذا القدر أي قرار آخر اتخذه. ولا يستطيع أن يجبر نفسه على الاعتراف بأنه أخطأ في تشرين الأول/أكتوبر عام 1962. وأراد للجميع أن يعرفوا بأنه يعتبر الحرب النووية شيئًا مقيتًا جديرًا بالازدراء.

لقد فعل ما بوسعه للسيطرة على أعالي الأخلاق بخصوص هذه القضية الشائكة. في الثاني من آذار/مارس عام 2003، وفي سياق زيارته الوحيدة إلى اليابان ذهب إلى هيروشيما حيث وضع إكليلًا من الورود تكريمًا لذكرى الضحايا في المتحف التذكاري للسلام. ولدى عودته إلى أرض الوطن بعد بضعة أيام وأثناء مراسم تنصيبه لولاية جديدة رئيسًا لكوبا وجه انتقادات جارحة إلى أول قوة نووية في العالم.

"كان العدوان غير ضروري بالمطلق ولا يمكن تبريره أخلاقيًا ... لا يوجد عذر لهذه المذبحة الشنيعة للأطفال والنساء والشيوخ والأبرياء مهما كانت أعمارهم ... يجب على الملايين من الناس أن يزوروا هذا الموقع ليعرف العالم ما الذي حدث حقًا"[34].

لقد كان على حق دون شك. لكن لا أحد ينكر أنه كان على استعداد في تشرين الأول/أكتوبر 1962 أن يرى الملايين يهلكون في قداس جنائزي عالمي جائحي للثورة الكوبية. وقد عبر عن تبريره هذا في مقابلة أجراها معه في شهر تموز/يوليو التالي مراسل صحيفة نيويورك تايمز. قال فيدل لمحاوره الصحفي بأنه أثناء أزمة الصواريخ كان يعتبر أخطار الحرب التقليدية مماثلة ومساوية لأخطار حرب نووية ألا وهي "دمار كوبا"[35].

كان حسابًا منطقيًا إنما رؤيويًا مخيفًا. لو أن الثورة – التي هي إنجاز حياته وتجسيد لسعيه للعظمة – قد أبيدت عن بكرة أبيها بطريقة أو أخرى فلا فرق عنده إن احترق العالم المتحضر أيضًا في نار حرب نووية. إن رسالته إلى خروتشيف ومن أي زاوية تقرأ توضح بجلاء استخفافًا كونيًا بالبشرية.

الفصل الرابع

المجيء إلى كوبا

في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1962 وبعد انقضاء بضعة أسابيع على حل أزمة الصواريخ سجّل فلورنتينو الأب ولده في مدرسة الاستخبارات التابعة لمديرية المخابرات العامة. لم يكن تايني قد بلغ بعد السادسة عشرة من عمره. "قدري أن أعمل في المخابرات،" كما قال لي. ولم يشك قط في حكمة والده في تسهيل عملية التسجيل.

جميع رفاق صفه الخمسين كانوا أيضًا ناضجين عقليًا، ومعظمهم في سن المراهقة بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة من أعمارهم. أكبرهم سنًا عمره ثلاثة وعشرون، وكان ثمة زميل له يصغره بالعمر. كانوا ليني العريكة مطواعين يتعلمون سريعًا، مساعدين يملؤهم الحماس في جهاز استخبارات مبتدئ قليل الخبرة يقوده عمالقة ثوريون معظمهم يكبرونه ببضع سنوات.

راميرو فالديز Ramiro Valdéz وزير الداخلية وهو رأس التسلسل القيادي كان آنذاك في الثلاثين من عمره. مانويل بنييرو Manuel Pineiro – أو "بربروخا" Barbaroja، كما يلقبونه وهو "أحمر اللحية" تلقى علومه في أمريكا – ترأس مديرية المخابرات العامة منذ نشأتها وكان في الثامنة والعشرين. فيدل نفسه كان في السادسة والثلاثين، راؤل في الواحدة والثلاثين، تشي غيفارا في الرابعة والثلاثين، القسم الأكبر من الشخصيات القيادية كانوا أيضًا في

العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات من أعمارهم، وكذلك كان معظم العملاء الأكثر أهمية والعاملين في الخارج. أرماندو لوبيز أورتا Armando Lopez Orta – أو "ارخميدس" المهذَّب – كان نموذجًا لهم. هو صديق بنييرو، وكان في الثلاثين من عمره حين جاء تعيينه لإدارة مركز المخابرات العامة الكبير في باريس. هم جميعًا كانوا طليعة جيَشان الجيل الذي كان يزلزل المجتمع الكوبي[1].

أما معظم الرجال الأكبر سنًا والذين لهم ارتباطات مع نظام ما قبل الثورة فهم مرشحون للإقصاء. هم في نظر هؤلاء الشباب فاسدون ومتعجرفون، ولهم ارتباطات بالولايات المتحدة. والشباب القوميون السريعو التأثر – المادة الخام لـ "الرجل الثوري الجديد" المثل الأعلى بنظر فيدل – سوف يحلون محلهم. نفذت عملية تطهير في سبيل التنظيم الجديد في بادئ الأمر في النخبة بأجهزة الاستخبارات والأمن وفي قمة القوات المسلحة الثورية بقيادة راؤل.

غالبية الدماء الشبابية كانت من الفلاحين والعمال الثوار الذين التحقوا بحركة التمرد التي قادها كاسترو أو من أبناء عقائديي الحزب الشيوعي مثل أسبلاغا. جيلهم الصاعد الذي لم يصب بالتلوث هو وحده الذي يمكن الوثوق به والاعتماد عليه في تنفيذ عمل فيدل بكل قوة وإخلاص من دون النظر إلى الوراء بلهفة إلى ماضي كوبا البرجوازي.

معظم زملاء تايني في الدراسة تلقوا علومهم في أعمال جمع المعلومات الاستخبارية والدعاية والإجراءات الفاعلة. وكلهم تقريبًا عيّنوا بغطاء دبلوماسي في المراكز التابعة لمديرية المخابرات العامة في الخارج حيث سرعان ما انتبهت السي آي إيه إليهم. هؤلاء الفتية الكوبيون كانوا في ريعان الشباب وأغرار وبعضهم بدأ لتوه حلاقة ذقنه، وكانوا يفتقرون إلى الكياسة الاجتماعية التي يتطلبها عادة غطاؤهم الدبلوماسي.

في هذا السياق يقول ديفيد آتلي فيليبس David Atlee Phillips، قائد طيارة قاذفة في الحرب العالمية الثانية والممثل الهاوي والكاتب المسرحي الذي شد الأضواء إليه قبل أن ينضم إلى السي آي إيه بأنه لن ينخدع بهؤلاء الشباب

مثلما انخدع بفيدل من قبل. في كانون الثاني/يناير عام 1959 حين كان يعمل متنكرًا لصالح الوكالة وقف عند منعطفٍ في أحد شوارع هافانا وانضم إلى حشد من الكوبيين وهتفوا جميعًا لدى عودة فيدل من نصره الذي حققه في حرب العصابات. تلك كانت الحالة المسببة للعدوى في الوكالة في تلك الأيام الأولى للثورة. ضابط استخبارات كان أيضًا يعمل متنكرًا في كوبا في تلك الأيام اعترف لي بأن "الوكالة بأسرها حينئذ كانت مؤيدة لكاسترو. ولا أنكر شخصًا واحدًا لم يكن مؤيدًا لفيدل"[2].

بعد أعوام قليلة جاء تعيين فيلييس في محطة كبرى بمدينة مكسيكو حيث بدأ يلتقي بعضًا من فتية بنييرو. وقد كتب فيلييس بعد إحالته للتقاعد مقالة وفصلًا كاملًا في كتاب عرض فيهما لهؤلاء الفتية، وأشار إلى مدى سرعة التحسن الحاصل في المخابرات الكوبية منذ سنوات تكوينه. كان عنوان المقال والفصل في الكتاب "جواسيس كاسترو تجاوزوا مرحلة المراهقة". وقد جاء فيما كتبه أنه يسهل التعرف إلى العملاء الكوبيين الاغرار "بشعورهم الطويلة ولحاهم غير المشذبة، وبزاتهم التي لا تنسجم مع مقاساتهم، والنتوءات عند أردافهم التي تكاد لا تستر مسدساتهم الآلية من طراز كولت عيار 0,45"[3]

ربما كان في ذهنه عندما كتب هذا الوصف على نحو خاص شاب متهور حاد الطبع عمره تسعة عشر عامًا. روجيليو رودريغز Rogelio Rodriguez ضابط مخابرات كوبي خدم لدورتين في مركز مدينة مكسيكو في أوائل الستينيات. جاء في ملف سيرته الذاتية عند السي آي إيه أنه في كانون الأول/ ديسمبر عام 1961 شارك في "شجار" وقع في المطار الدولي حين هب ليدافع عن مراسل مغادر، لا شك أنه كان زميلًا له في المخابرات الكوبية ويحمل مواد حساسة. كان الاثنان يحملان مسدسين لم يحسنا إخفاءهما وقد صادرتهما الشرطة المكسيكية. لكن رودريغز الذي لم يرتدع هدد بالعودة مسلحًا مرة أخرى، وهو يصيح قائلًا: "سوف نرى حينئذ إن كنتم ستأخذون مسدسي"[4].

ليس غريبًا والحالة هذه أن يسترعي فتية بنييرو القساة اهتمامًا لا بأس به. وزير خارجية المكسيك السابق والمؤلف جورج كاستانيدا Jorge Castaneda

الذي يعرف ذا اللحية الحمراء (بنييرو) جيدًا كتب عن هؤلاء كثيرًا كما فعل فيليبس. كان فتية رئيس دائرة المخابرات العامة هؤلاء "عمومًا صغار السن من الطبقة المتوسطة الدنيا أو من الفقراء، أساليبهم فظة وخرقاء ولكن أذكياء". واستشهد كاستانيدا بقول شخص كولومبي يعرف بعضهم إذ قال: "علّم بنييرو هؤلاء الفتية كيف يلبسون ويستخدمون الشوكة والسكين على الطاولة"[5].

لم يعرفوا في حياتهم ملاعب أنيقة مشذبة، ولم يعرفوا الملابس البيضاء في ملعب التنس ولا آداب السلوك في حفلات رقص ليلية يحييها طلبة الجامعات. غالبيتهم، ومنهم أسبلاغا، لم يتعلموا في المدارس. لكن فيليبس، مثل غيره من ضباط السي آي إيه في تلك الأيام، خُدع بهم. فهؤلاء المراهقون الكوبيون كانوا مؤمنين قساة صادقي الإيمان بفيدل وثورته. تلقوا تدريبات جيدة وهم على أهبة الاستعداد ليفعلوا أي شيء، ولا ينبغي لأحد أن يبخس قيمتهم.

هم أذكياء وماكرون، وقد شدت عزائمهم سنوات قضوها في حرب عصابات وفي صفوف متآمرين في مخابئ تحت الأرض في المدن يعملون للثورة. بعضهم نجا من محن التعذيب في سجون باتيستا السياسية. وكان بعضهم من المعاونين المحبين والمخلصين لفيدل أو راؤل أو بنييرو أو لزعيم آخر في القمة كان يعاملهم وكأنهم أبناؤه. كتب كاستانيدا يقول إن فتية بنييرو "يحبونه ومخلصون كل الإخلاص له".

أحد ضباط السي آي إيه في سانتياغو، وهي ثاني مدن كوبا في الطرف الشرقي للجزيرة، كان معجبًا أيضًا بذي اللحية الحمراء عندما التقيا في مناسبات مختلفة عام 1958. قال لي إنه يحسن الظن ببنييرو ويقدره عاليًا إذ قال: "كنت أظنه شخصًا لطيفًا حقًا. ولم يكن شيوعيًا حين تعرفت إليه".

هذا الضابط المجرب ذو الخبرة الطويلة في الوكالة قد خُدع به أيضًا. تلقى بنييرو علومه في جامعة كولومبيا بنيويورك في مطلع الخمسينيات حيث خطب ثم تزوج راقصة باليه من ولاية تينيسي. كان يتحدث الإنكليزية بلهجتها العامية، وكان بارعًا في سحر الأمريكيات. فيما بعد وعندما ربط مصيره مع

الأخوين كاسترو صار من الثوار حتى الصميم. وكان يشاطرهما الحقد للولايات المتحدة ورغبتهما بتصدير الثورة إلى أمريكا اللاتينية بأسرها. لم يكن لدى فيدل وراؤل أدنى شك بأنه كان الخيار الأمثل لتطوير جهاز المخابرات الوليد والنهوض به.

لم تستغرق مديرية المخابرات العامة في ظل قيادة ذي اللحية الحمراء وقتًا طويلًا لتنجز شيئًا يكاد يوصف بأنه متفوق بمستوى عالمي. خمسة من المدربين من جهاز KGB لعبوا دورًا محوريًا في هذا الإنجاز. ريتشارد هلمز Richard Helms الذي تسلّم رئاسة السي آي إيه في مرحلة لاحقة قال مستذكرًا ما فعلوه "إنه عمل مدهش"[6].

علّمهم السوفيات كل ما هو معروف عن صنعة غير مشروعة. كبير المعلمين، وهو روسي قصير القامة أشيب الشعر يعرفه الكوبيون باسم "الفرنسي"، كان يتحدث الإسبانية بطلاقة. وكان يُشاهَد هو ومرافقه السوفياتي أو مع مساعده إلى جانب بنييرو. تعلم المدربون الكوبيون سريعًا من هؤلاء المخضرمين في جهاز KGB، ثم طور ذو اللحية الحمراء فابتكر وحسّن وارتجل. أما الطلبة المتفوقون الذين يكملون دورة في تخصص عملياتي فهم غالبًا يقفزون إلى مقدمة الصف، حيث يعملون على تعليم المستجدين ما كانوا هم قد أتقنوه. وطُبّق هذا النمط في صف بعد صف[7].

خلال وقت قصير برع هؤلاء الجواسيس الكوبيون الشباب التواقون إلى العمل الاستخباري وملكوا مهارة تضارع خصومهم الأكثر خبرة في السي آي إيه، وواجبهم في هذا الولاء لقائدهم العام الذي لا سبيل إلى تغييره أن يعملوا على إرضائه ويحاكوه. ومثلهم مثل فيدل الذي يتلذذ بتحدي الأمريكيين كانوا متأكدين ومقتنعين بأنهم أفضل وأشد قسوة وأكثر عبقرية في العمليات من الجواسيس التقليديين في لانغلي Langley. كانت هكذا غطرسة صفة تعريفية للمخابرات الكوبية منذ النصر الذي حققه فيدل في صراع شبيه بذلك الصراع الواقع بين النبي داود والملك الطاغية جالوت عند غزو السي آي إيه لخليج الخنازير.

في خريف عام 1963 عندما أتم تايني تدريبه كانت مهام العميل المزدوج خط الدفاع الأول والمفضل عند الكوبيين. بتوجيه أصلاً من الـ KGB وسريعًا بفضل عبقرية ومكر الكوبيين وحدهم تحول الكوبيون إلى متعاونين مع السي آي إيه في كثير من البلدان. وآخرون هم فعلاً تحت سيطرة كوبا وضعوا أمام السي آي إيه لإغرائها لتجنيدهم، فإذا بلعت الطعم ينضمون إلى صفوف المزدوجين الكوبيين.

وقد أخبرني روبرتو هرنانديز ديل لانو، المنشق الذي عمل في الاستخبارات المضادة مع أسبلاغا، كيف تحاول مديرية المخابرات وبالتالي تتمكن من إحراز سبق على الوكالة ببضع خطوات وتنصب أفخاخًا خفية.

فهو يقول: "عندما علمنا أن ضابطًا في السي آي إيه لديه اهتمام في شخص من أمريكا اللاتينية في بلد ثالث كنا نسبق ونغلبهم. نجند الشخص نفسه ثم نجعل السي آي إيه تعتقد أنهم قد جندوا مصدرًا جيدًا، هو في الحقيقة، الذي نحن نسيطر عليه وبالتالي استخدمناه ضد الوكالة".

كان تجنيد المتعاونين وبخاصة الشباب منهم، عملاً سهلاً نسبيًا لدى الجواسيس الشباب في كوبا. فالثورة شكلت عامل جذب قوي لحشود من المتعاونين وبخاصة في أمريكا اللاتينية. كان شجب فيدل المتأجج للإمبريالية الأمريكية لا يحتاج في نظرهم للكثير من التفاصيل. كوبا محاصرة ولا أحد في واشنطن كان يهمه أمر إنكار ذلك. والثورة بحاجة لمساعدة الرجال والنساء التقدميين حيثما كانوا. دعوات كانت جوهر محاولات تجنيد الكوبيين لعملاء جدد.

وُضعت المعايير العملياتية الدائمة في تلك الأيام الأولى لأعمال الجاسوسية الكوبية. قلائل جدًا من الجواسيس كانوا يقبضون رواتب، على سبيل المثال. قال واحد من كبار المنشقين في حديثه مع السي آي إيه إن 95 بالمئة منهم لم يقبضوا أموالاً. آنذاك، ومنذ ذلك الحين، يمكن القول إن ما يقرب من كل الذين عملوا متنكرين لصالح كوبا كانوا يؤمنون إيمانًا أعمى بقضايا فيدل ويشعرون بالسعادة ليعملوا لديه من أجل المصلحة العامة. وأقصى ما كانوا عمومًا يتوقعونه

هو أن يقبضوا مصروف جيب. وقد جاء أمريكيون كثر للعمل في الصفوف الكوبية السرية على أنهم مؤمنون صادقون. يقول هرنانديز "كان الامريكيون دومًا فريسة سهلة للتجنيد. كثيرون منهم بسطاء وسُذَّج بخصوص كوبا وميالون لأساطيرها ودعاياتها"[8].

السجل العام لاختراقات كوبا السرية يتضمن ذلك. إن ما يقرب من نصف الأمريكيين الذين ذهبوا بشكل غير مشروع إلى هذه الجزيرة في الستينيات والسبعينيات للعمل متطوعين في قطع قصب السكر أو للعمل في فِرق البناء "كانوا يجندون فيما بعد من قبل المخابرات الكوبية"، كما يقول هرنانديز ديل لانو. وبعض هؤلاء الحجاج السياسيين تحولوا إلى مصدر قوة يمكن الاعتماد عليه في أعمال سرية على المدى الطويل. وآخرون أصبحوا عملاء بعلمهم أم دون أن يدروا مدافعين نشطاء أقوياء عن الثورة. كثيرون منهم استقروا في الجامعات. ومن منتصف الستينيات وما بعد صارت كوبا الشيوعية موضوع دراسة في الجامعات في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وصار ينظر إليها بأنها الضحية البريئة التي تحاصرها الإمبريالية الامريكية. أما الأستاذة الجامعية التي سلَّمت أحد طلبتها إلى المخابرات الكوبية ليعمل لديها فلم تكن حالة نادرة غير عادية فيما عدا أن خيانتها اكتشفت بعد انشقاق أسبلاغا.

في عام 1963 كانت الإجراءات الناشطة والاعمال السرية لدعم القضايا الكوبية تموّل بسخاء من الاخوين كاسترو. وكانت نسخ من خطب فيدل والمؤلفات ذات الطباعة الأنيقة التي تمجد الثورة وقادتها تضخ بقوة إلى خارج هافانا وتوزع بلغات متعددة.

كانت السي آي إيه تراقب ذلك كله عن كثب. في شباط/فبراير 1963 تحدث مديرها الشديد في مقاومته لكاسترو، جون ماكون John McCone وهو من الحزب الجمهوري أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب قائلًا إن نحو اثني عشر طنًا من مواد هذه الدعاية تصادر وتدمر كل شهر في بنما وحدها. وعشرة أطنان أخرى كانت ترسل إلى كوستاريكا. معظم هذه الدعايات كان يفترض أن ترسل إلى بلدان أخرى في المنطقة. كما أن إذاعة هافانا وبرنسا

لاتينا، وكالة الأنباء الكوبية التي تهيمن عليها المخابرات العامة كانتا تشاركان في "هذا المجهود الدعائي الهائل"، كما قال ماكون في شهادته[9].

كان العملاء الكوبيون ينفذون حملات تضليل إعلامي نكية لاتهام السي آي إيه في العواصم الأجنبية. كانوا يجندون الصحفيين والمنيعين المتعاطفين للترويج لكوبا. وتطوع المفكرون البارزون والنقاد المعجبون بفيدل وثورته والمعادون للولايات المتحدة لتقديم خدماتهم لفتية بنييرو وكانوا يقتنعون بسهولة للمساعدة. في باريس شغّلت السفارة الكوبية النادي الليلي الذي تملكه على الضفة اليسرى لعرض الأطعمة الكوبية والموسيقى والسيجار الكوبي ووداعة هذه الجزيرة المدارية. وليس مصادفة أنها كانت أيضًا تشكل غطاء لأعمال التجسس وعمليات التأثير[10].

توسع الحضور الدولي للمخابرات العامة الكوبية سريعًا. في عام 1963 كانت حاضرة في ما يزيد قليلًا عن عشر دول. وحيثما كان لكوبا تمثيل رسمي كان رؤساء المركز يعملون بصورة مستقلة عن السفراء، يتلقون أوامرهم من المقرات أو من المركز الرئيسي في هافانا.

كانت السفارة في باريس النموذج المثالي. لأن السفير هناك في منتصف الستينيات كان صديق الصبا لفيدل فقد كان أكثر حراكًا من أي مبعوث كوبي عادي. ومع ذلك كان لوبيز أورتا Lopez Orta، رئيس المديرية العامة للمخابرات، أكثر سلطانًا وقوة. وكلما نشأ نزاع حول الأولويات في السفارة فالقاعدة، كما يقول المنشق أورلاندو كاسترو هيدالغو Orlando Castro Hidalgo، الذي يأتمر بأمر لوبيز، هي أن "اللاشرعي له حق التصدر على الشرعي"[11].

وفي البلدان التي لا يوجد فيها سفارات لكوبا كانت المخابرات تجند عملاء أجانب، تشير إليهم عادة بـ "اللاشرعيين" وتديرهم وتتعامل معهم عبر "دائرة اللاشرعيين". معظمهم – طلبة جامعات، وقادة عماليون، ومفكرون، وموظفون بيروقراطيون، وسياسيون، وضباط جيش أيضًا – أصابتهم عدوى أساطير ثورة كاسترو وتلك المسرحية اليومية للصراع مع "الإمبريالية" الأمريكية. وبمساعدة

المخابرات العامة كان هؤلاء العملاء السريون يسافرون بشكل سري، وعادة عبر براغ، إلى هافانا حيث يتعلمون الأسرار الأساسية لمهنة الاستخبارات وفي الوقت عينه يزدادون تعمقًا بالإيديولوجيا الثورية.

وعندما يعودون إلى أوطانهم تكون مهماتهم اختراق الحكومات والجماعات السياسية الهامة واستهداف السي آي إيه. وغالبيتهم كانوا أيضًا يقدمون الدعم للجماعات المتمردة برعاية كوبية وتعمل داخل بلدانها أو في البلدان المجاورة لها. كان حجم هذا المجهود الكوبي المبكر هائلًا حتى بمقاييس أجهزة المخابرات الأكبر كثيرًا. خلال خمس سنوات فقط في مطلع الستينيات كان ما لا يقل عن 650 رجلًا أجنبيًا من هؤلاء "اللاشرعيين" يسافرون إلى كوبا للتدريب وفي أغلب الأحيان عن طريق تشيكوسلوفاكيا الشيوعية. لدى فاسيلي متروخين Vasily Metrokhin دلائل وثائقية صلبة تثبت ذلك. هو موظف أرشيف في جهاز KGB وقد سرق مجموعة نفيسة من السجلات السوفياتية السرية وسلّمها إلى المخابرات البريطانية عندما فرّ إليها في عام 1992[12].

بعد أزمة الصواريخ بدأت المخابرات العامة ترسل صنفًا آخر من "اللاشرعيين": هم كوبيون يحملون هويات مزورة بأنهم من جنسيات أجنبية. وهذه هي الطريقة التي بها تفهم عادة "أسرار مهمة اللاشرعيين". أحد هذه النماذج وليام أوغست فيشر William August Fisher، جاسوس الكرملين المستتر والشهير باسم رودولف آبل Rudolf Abel. اعتقل في نيويورك عام 1957 وتمت إدانته بإدارة حلقة جواسيس كبيرة ومنتجة. بعد بضع سنوات جرى تبادله مقابل فرنسيس غاري باورز Francis Gary Powers، الطيار الأمريكي الذي أسقطت طائرته التجسسية من طراز U-2 التابعة للسي آي إيه فوق الاتحاد السوفياتي في عام 1960.

وغني عن القول بأن عمل هؤلاء اللاشرعيين الكلاسيكيين مكلف جدًا ومرهق ومحفوف بالأخطار. ونتيجة لذلك تميل أجهزة الاستخبارات الكبرى إلى الإقلال جدًا من استخدامهم. في هذا السياق يقول أوليغ كالوغن المنشق عن جهاز KGB: "حتى في أسوأ ظروف الحرب الباردة لم يكن في الولايات المتحدة

حسب اعتقادي أكثر من عشرة لاشرعيين سوفيات، وربما أقل". وهو صادق دون شك. ومع ذلك، وفي شهر حزيران/يونيو عام 2010 تحديدًا أوقفت أجهزة مكتب التحقيقات الفدرالي عددًا كبيرًا من اللاشرعيين الروس - وهم جيل جديد - في عدد من المدن الأمريكية. تبدو روسيا بقيادة فلاديمير بوتين هذه الأيام راغبة باللعب بمجازفة كبيرة مثل الكوبيين الذين يديرون عددًا كبيرًا يثير الدهشة من هؤلاء اللاشرعيين التقليديين[13].

تعلّمت المخابرات العامة الكوبية أسرار وتعقيدات عمل اللاشرعيين التقليديين من الـ KGB. أحد المستشارين السوفيات العاملين مع "الفرنسي" في مقر المخابرات العامة كان يستخدم الاسم فلاديمير غرينشنكو Vladimir Grinchenko. وقد عمل بالتعليم في هافانا بعد أن عاش عشرة أعوام بصفة "لاشرعي" في الأرجنتين. وقد التحق بعض ضباط المخابرات العامة، مثل المنشق جيراردو بيرازا Gerardo Peraza، في مدارس متخصصة بالجاسوسية في الاتحاد السوفياتي. فقد قال بيرازا أمام لجنة تحقيق من مجلس الشيوخ إن أحد المدربين في الـ KGB كان خبيرًا في أعمال اللاشرعيين. قضى هذا الروسي أكثر من عشرين عامًا يعيش بهوية مُنتحلة في الولايات المتحدة[14].

في تلك الأيام الأولى كان اللاشرعيون الكوبيون على استعداد للقيام بمهام دولية بسرعة تفوق كثيرًا نظراءهم من الـ KGB. وقد قال متروخين، موظف الأرشيف في الـ KGB، للمخابرات البريطانية إن السبب مرده في جزئيته إلى أن المخابرات العامة لا تعير اهتمامًا كافيًا إلى وضع "مفاتيح تفسيرية للمعلومات" لأغراض دفاعية - أي الخصائص والأوراق المؤيدة للهوية المخترعة. ومع ذلك، لم يكن رفاق صف أسبلاغا الشباب مؤهلين للقيام بهذه الواجبات المتقدمة. كانت المخابرات العامة تختار دومًا ضباط الاستخبارات الأكبر سنًا والأكثر خبرة بالحياة لمثل هذه المهام اللاشرعية. لكن الطرائق المستخدمة في السنوات الأخيرة لاختيار وتدريب ودعم هؤلاء باتت اليوم أكثر تطورًا.

المعلومات المفتاحية صارت تدعَم حاليًا بوثائق مزورة بشكل متقن جدًا. فصار بمقدور "اللاشرعيين" الكوبيين أن يغيروا أنفسهم بسهولة بعد ظهورهم

وكأنهم مواطنون من الدومينيكان أو فنزويلا أو الأرجنتين أو بورتوريكو. لكن اكتساب اللكنة العامية وتعلم العادات الفريدة لتلك البلدان التي يحملون جنسيتها هي العقبات الأشد صعوبة والتي يتعين عليهم تجاوزها. هم ينخرطون ويعتادون سريعًا داخل بلدانهم الجديدة وبعضهم يكتسب نفوذًا هامًا في أوساط الإعلام والسياسة. ولأسباب لا يجهلها أحد كان من السهل جدًا للاشرعيين الكوبيين أن يظهروا متجانسين مع المنفيين المقيمين في ميامي.

لم يشرع بنييرو في هكذا عمليات اختراق إلا في مطلع عام 1964. عندما استقبلت السي آي إيه ورحبت بفلاديمير رودريغز لاهيرا Vladimir Rodriguez Lahera، أول المنشقين من ذوي المعرفة الواسعة من المخابرات العامة الكوبية في شهر نيسان/أبريل من ذلك العام علمتْ منه بوجود ثلاثة مواطنين كوبيين "لاشرعيين" قد أنهوا برامجهم التدريبية وهم يعدون العدة ليبدؤوا حياتهم بهويات جديدة. قال إن واحدًا منهم اختير للإقامة في المكسيك، أما الآخران ففي مكان آخر - لم يكن يعلم على وجه الدقة أين - في أمريكا اللاتينية. كان هؤلاء الثلاثة طليعة تخصص عملياتي سري أتقنته كوبا إلى درجة لا يدانيها فيه أي جهاز استخبارات أجنبي آخر[15].

كان أسبلاغا يعلم، حين انشق، عن اثنين من الكوبيين اللاشرعيين "الجيدين فعلًا" يعيشان بهويات مزورة ويعملان في كاليفورنيا دون أن يشتبه بهما أحد، وربما في وادي السيليكون. لكنه لا يدري إن كانا يتخذان صفة مواطنين أمريكيين أم ربما مواطنين من أمريكا اللاتينية لهما إقامة شرعية. ومع أن مكتب التحقيقات الفدرالي بذل مجهودًا كبيرًا ليقتفي أثرهما إلا أنني لا أعلم إذا كشف أمرهما أم لا.

أنشأت المخابرات العامة الكوبية حول فريق مخلص من "اللاشرعيين" الأوفياء شبكة Wasp (الدبور) ومركزها في ميامي وفي سلسلة جزر فلوريدا كيز Florida Keys. وكانت أكبر شبكة تجسسية كوبية فككتها أجهزة مكتب التحقيقات الفدرالي، وكانت تستهدف الجماعات المنفية ومنشآت وزارة الدفاع، وكان أعضاؤها ينفذون مهام خاصة بما في ذلك محاولة اغتيال استهدفت

أسبلاغا في منزله. تولى قيادة هذه الشبكة جيراردو هرنانديز Gerardo HernàndezK وهو ضابط كبير في المخابرات العامة، وكان أداؤه هذا رائعًا بكل اقتدار. واستخدم اسمين مستعارين يؤيدهما جوازا سفر مزوران، وتحسبًا لأي طارئ كان يحمل أيضًا شهادة ميلاد مزورة من تكساس.

يؤدي هرنانديز حاليًا حكمين بالسجن مدى الحياة داخل إصلاحية خاصة بالتجسس. وقد حكم أيضًا معه على اثنين من أكبر مساعديه، وهما أيضًا "لاشرعيان" كوبيان متخفيان بصفة مواطنين أمريكيين، وعلى اثنين أمريكيين كوبيين. وهنالك خمسة أعضاء في هذه الشبكة تعاونوا مع المدعي العام فكانت الأحكام الصادرة بحقهم مخففة عن الآخرين. هذا وقد تمكن عشرون آخرون – بعضهم أيضًا من اللاشرعيين التابعين للمخابرات العامة – من الفرار إلى كوبا قبل اعتقالهم أو ربما هم لا يزالون يقيمون سرًا في الولايات المتحدة. والفرار سهل، فقد كانت المخابرات العامة تزود عملاءها اللاشرعيين من الكوبيين بما لا يقل عن مجموعة واحدة من الوثائق المزورة يستخدمونها إذا افتضح أمر الاسم المستعار الرئيسي.

كان الإعلام الكوبي ومنذ بدء هذه المحاكمات ينقل أخبار قادة الحلقات الخمسة هؤلاء المسجونين باستمرار ويصفهم بـ"الأبطال الخمسة". وكان النظام يصر دومًا بأنهم لم يكونوا يفعلون شيئًا أكثر شرًا من محاولة منع القيام بأعمال إرهابية على الجزيرة قد يرتكبها منفيون مسلحون في ميامي. ومن خلال تسليط أضواء الدعاية الساطعة عليهم أراد القادة الكوبيون أن يطمئنوا العملاء السريين بأنهم، إن اعتقلوا، فلن يتخلى عنهم أحد.

وقد أخبرني المنشق عن المخابرات العامة خوزيه ماراغون José Maragon مؤخرًا عن فئة ثالثة من عمليات "اللاشرعيين" لدى المخابرات العامة، هي فئة اللاشرعيين "بهوية حقيقية". بدأت هذه الأعمال في منتصف الثمانينيات حيث جرى التعرف على كوبيين من الذين يحملون جنسيتين – ومعظمهم أيضًا مواطنون أمريكيون – وتم تجنيدهم في الجزيرة حيث عاشوا فيها منذ طفولتهم. دربوا تدريبًا مكثفًا لعدد من السنين واختبر ولاؤهم للثورة وأعيد اختبارهم ثانية

لإزالة أي شكوك. وربما تم اختبارهم على جهاز كشف الكذب لمزيد من التأكد والتحقق. يقول ماراغون إن الجهاز الذي كان يعمل به أرلد "أن يخفض التكاليف والصعوبات الخطيرة في خلق ضباط 'لاشرعيين' يمكن تصديقهم من الصفر" كما فعلوا مع هرنانديز قائد شبكة Wasp. ومن خلال هذه المقاربة يستطيع عملاء الاستخبارات الكوبيون المحترفون من السفر شرعًا إلى الولايات المتحدة بجوازات سفر أمريكية حيث يبدؤون القيام بواجباتهم التجسسية.

والحالة الشهيرة جدًا للاشرعي "بهوية حقيقية" هي قضية واحد من الجواسيس الخمسة الرئيسيين في شبكة Wasp. ولد في الولايات المتحدة وانتقل مع عائلته إلى كوبا عندما كان طفلًا وبالتالي فهو يحمل جنسيتين. كان طيارًا ماهرًا، وبنجاح تسلل إلى منظمتين بارزتين في المنفى. حكم عليه بالتآمر وأمضى ثلاث عشرة سنة من حكم مدته خمسة عشر عامًا في إصلاحية فدرالية.

* * *

كان لدى فيدل طوال القسم الأكبر من عقد الستينيات أولوية سرية أخرى تعادل في أهميتها عملية زرع عملاء اختراق في ميامي وواشنطن. كان شغفه في تشجيع حركات حرب العصابات في أمريكا اللاتينية معروفًا وواضحًا للجميع منذ الشهور الأولى لتسلمه السلطة. عصابات صغيرة من متمردين مدعومين من كوبا انطلقت من الجزيرة وحطت رحالها على سواحل أربع بلدان في الكاريبي خلال الشهور الستة الأولى من عام 1959. تقضي الخطة بإشعال حركات تمرد جديدة في الريف على النمط الفيدلي.

لطفئت جميعًا، لكن اهتمام فيدل في هكذا تدخلات عنيفة تزايد وأصبح أكثر تنظيمًا. يؤكد ملكون مدير السي آي إيه في شهادة أدلى بها أمام الكونغرس في شباط/فبراير عام 1963 أن "المجهود الكوبي اليوم أكثر تطورًا وأكثر سرية وأكثر فتكًا".[16]

أُحدثت دائرة خاصة في مديرية المخابرات العامة باسم "التحرير الوطني"

لهذا الغرض حصرًا. وسرعان ما أصبحت أكبر جهة في جهاز الاستخبارات الكوبي. لم يكن لها رئيس في عام 1963 لأن بنييرو ومعاونه ترأساها شخصيًا، وقد أدارا برامج قمعية متعددة في المنطقة بتعاون وثيق مع الأخوين كاسترو وتشي غيفارا Che Guevara.

كان راؤل يزور بنييرو في كثير من الأحيان، فهو صديقه الحميم ورفيقه السابق في الحرب، في مقر إدارة "التحرير الوطني" في منطقة ميرامار في هافانا. ثمة أشياء كثيرة بحاجة للتنسيق، وكانت وزارة القوات المسلحة تدير مدارس تدريب حرب العصابات بالتعاون المشترك مع ذي اللحية الحمراء. (لم تكن لحيته وشعره باللون الأحمر فحسب، فقد أخبرني رجل كوبي يعرفه بأن لونهما كان "برتقاليًا تقريبًا"). وكان راؤل يحرص على أن يكتسب المتطوعون الشباب من أمريكا اللاتينية خبرة حقيقية وواقعية في القتال. في مطلع الستينيات وحتى منتصفها أرسل كثيرون منهم في جولات تدريبية إلى جبال إسكامبري Escambray في وسط كوبا.

قال رودريغز لاهيرا للسي آي إيه بعيد انشقاقه: "يؤخذون إلى هناك في الجبال ليندمجوا في وحدات الجيش الكوبي النظامي ويتأقلموا مع حياة الريف وليشاركوا في عمليات ضد عصابات مناهضة لكاسترو في تلك المنطقة". وقد قدم هؤلاء الأمريكيون اللاتين الشباب دعمًا مفيدًا لا يمكن اقتفاء أثره لقوات راؤل المسلحة وهم يقومون بعمليات إبادة للمعارضة المنظمة في الجزيرة. وكان لاهيرا يعرف سلفادوريين وغواتيماليين قاتلوا دفاعًا عن الأخوين كاسترو بهذه الطريقة. عندما يُقتل المتدربون الأجانب أثناء العمليات لا تُبَلّغ عائلاتهم بما حصل لهم – فهم لا يدرون أصلًا أنهم ذهبوا إلى كوبا[17].

تحدث أسبلاغا فيما كتبه في مذكراته عن شابين من أمريكا اللاتينية ذهبا إلى كوبا ليتدربا ولم يرجعا إلى بلدهما. هما من بلد واحد لكنه لم يكن متأكدًا من جنسيتهما. أُرسل الاثنان عندما اشتبه بأمرهما في كوبا إلى منزل آمن تابع للمخابرات العامة ليخضعا لفحص كشف الكذب. فقد لوحظ أنهما "يتصرفان بشكل غريب جدًا". وتحت ضغط الحجز والتحقيقات العدوانية اعترف كل منهما

بأنه حقًا عميل سري يعمل لحساب القوات المسلحة في بلده. نقلوا إلى فيلا ماريستا Villa Marista، وهي مدرسة كاثوليكية للبنين قبل كاسترو وقد حوّلت إلى سجن ومقر للاستخبارات المضادة في وسط المدينة بهافانا. تم استجوابهما مجددًا ثم أجبرا على الاختفاء، ونفذت بهما حكم الإعدام فرقة موت عسكرية.

كان فيدل أكثر انخراطًا من أخيه راؤل في أنشطة العنف التي تقوم بها دائرة "التحرير الوطني". وكان على بنييرو أن يرفع له تقارير دورية وينسق معه كل شيء بما في ذلك نفقات لأجل السلاح أو غيره من المشروعات الباهظة التكلفة. وكان القائد العام شديد الاهتمام بدقائق هذه العمليات. وكان يتدخل ليتأكد بأن مجموعة الغواتيماليين الذين التقى بهم أثناء زيارته إلى الاتحاد السوفياتي في أيار/مايو عام 1963 يتلقون تدريبًا جيدًا على أعمال القتال في حرب العصابات. ومن خلال تجاوزهما لبيروقراطية مديرية المخابرات العامة رتب هو وبنييرو في ذلك العام لمناضلين قادمين من جزيرة زنجبار بشرق أفريقيا – والتي اندمجت فيما بعد مع تانزانيا – ليتلقوا تدريباتهم على حرب العصابات[18].

جمعت السي آي إيه معلومات أكيدة عن مدارس كوبا للهدم والتخريب. قال ماكون في شهادته "إن ما لا يقل عن 1000 إلى 1500" من الشباب الأمريكيين اللاتين من كل بلد "باستثناء الاوروغواي" ذهبوا إلى كوبا للتدريب وللإعداد العقائدي في عام 1962. وفي حديثه في شباط/فبراير 1963 قال إن عددًا أكبر من ذلك وصلوا في هذا العام، وأكبر فرقة – نحو 200 شخص – كانت من فنزويلا التي كانت آنذاك هدف فيدل الرئيسي. يقول ماكون إن بعض هذه الدورات التدريبية "قصيرة ولمدة أربعة أسابيع ... وبعضها الآخر طويل المدة قد تمتد لعام"[19].

ويصف المنهجيات المتبعة في كوبا بقوله:

"يقول كاسترو للثوار القادمين من بلدان أمريكية لاتينية أخرى: 'تعالوا إلى كوبا، نحن ندفع أجور السفر وندربكم على أساليب التنظيم السري، وعلى حرب العصابات، وعلى التخريب والإرهاب. وسوف نهتم بأن تعودوا إلى أوطانكم. وعندما تستقرون هناك سنبقى على اتصال معكم ونعطيكم الدعم الدعائي ونرسل لكم

مواد دعاية لحركتكم ووسائل تدريب لتوسعوا قواتكم لحرب العصابات وطرائق الاتصال السرية وربما الأموال والتجهيزات الخاصة بالتدمير[4]".

لدى السي آي إيه أدلة تثبت بأن هؤلاء المجندين عادوا إلى بلادهم سرًا بجوازات سفر ووثائق مزورة. لقد علمتهم المخابرات العامة كيف يحصلون على السلاح والذخيرة بطريقة غير شرعية من الأجهزة العسكرية في بلدانهم، وكيف ينهبون البنوك للحصول على الأموال. تعلموا أسس اعتماد العمل في الخفاء، أو كما يسمونها trabajo de manta (وتعني حرفيًا البطانية أو العمل السري باسم مستعار).

وهم جميعًا تقريبًا تعلموا كيف يستعملون الحبر السري في كتاباتهم السرية، وكيف يستخدمون عناوين الإقامة وعناصر مختصة بصندوق البريد للتواصل سرًا مع المسؤولين عنهم في هافانا. في تلك الأيام الأولى كان القليل جدًا من الأموال الكوبية تعطى لتجهيزات الاتصال اللاسلكية أو برامج الكمبيوتر المتطورة التي استخدمتها فيما بعد آنا مونتيز Ana Montes الجاسوسة الكوبية في البنتاغون.

كان ماكون مقنعًا عندما قدّم إحاطته للرئيس كينيدي وفريق أمنه القومي بخصوص كوبا، كما فعل غالبًا في عام 1963. كانت الرسالة دومًا بليغة ومحكمة الإيجاز ومقنعة استنادًا إلى أدلة موثوقة من مصادر استخبارية. فيدل ينفذ سياسات تدخّل جريئة ووقحة. ينفق طاقات وموارد هائلة لتدمير جيرانه. وكان رئيس السي آي إيه وفريق عمله على قناعة أكيدة بأن فيدل إن لم يجد من يردعه سوف ينجح في قلب واحدة أو أكثر من حكومات أمريكا اللاتينية ويضع محلها أنظمة ماركسية ثورية تدين بالولاء له. ولم يكن هدفه فقط أولئك الحكام العسكريين الدكتاتوريين الذين يندد بهم دومًا – ويحب أن يصفهم بـ"القردة" أو "الغوريلا" – بل وأيضًا الزعماء المدنيين المنتخبين ديمقراطيًا.

كان رئيس فنزويلا روميلو بتانكورت Romulo Betancourt الهدف الأكثر ازدراء عند فيدل. هو شيوعي سابق وديمقراطي اجتماعي تقدمي، تخلى عن

القضايا الماركسية التي اعتنقها في شبابه. وما هو أشد سوءًا أن بتانكورت وفي كراكاس وفي مطلع عام 1959 قال مستنكرًا بأن "فيدل زارني في منزلي" وتوسل إليه بأن ينضم له في حملة مناهضة للأمريكيين فيما وصفه كاسترو بأنه "الخطة الرئيسية ضد هؤلاء الغرينغو gringos" [وهي كلمة عامية تدل على ازدراء للأمريكيين]. لكن بتانكورت عوضًا عن ذلك تحالف مع الأمريكيين. وكان الزعيم الأمريكي اللاتيني الأثير عند الرئيس كينيدي، رئيسًا إصلاحيًا له شعبيته، وبالتالي الصنف الأكثر مصداقية لعدو يمكن أن يواجهه ماركسي ثوري[20].

ذاكرة فيدل عن هكذا أعداء لا تنسى أبدًا ولا تغفر. بعد ستة وأربعين عامًا من مقارعة بتانكورت لكل شيء قذفته به دائرة التحرير الوطني – من مخربين وإرهابيين وقتلة وقراصنة وحروب عصابات في الريف – ونجا منها لا يزال باقيًا في ذاكرة كاسترو. في شباط/فبراير عام 2010، وبعد عامين فقط على تسليم فيدل رئاسة كوبا إلى أخيه أراد للخلف أن يتذكر مدى حقده وكراهيته لبتانكورت. ففي تعليق نشره في الصحافة كتب عن هذا الفنزويلي الذي توفي منذ أمد طويل يقول: "كان عدو الشعب الأكثر خسة وحقارة" و"كان دجالاً ومدعيًا".

سجلت السي آي إيه بعض النجاحات المدهشة ضد عمليات بنييرو الهدامة. ولكن كان ثمة ثغرة كبيرة فيما كان معروفًا آنذاك. كان عدد كبير من الضباط العسكريين ذوي الرتب العالية وجميعهم من مخضرمي تمرد كاسترو ضد باتيستا يقاتلون سرًا إلى جانب العصابات الأمريكية اللاتينية. وقراءة متأنية للعديد من الإحاطات التي قدمها ماكون بالإضافة إلى ما هو متاح من آلاف الصفحات التي كانت سابقًا عالية الحساسية وباتت الآن مرفوعًا عنها السرية لا تسمح بأي استنتاج غير هذا. لم تكن الوكالة قبل عام 1967 تعلم شيئًا إلى حد ما عن المحاربين الكوبيين الاستثنائيين الذين تسللوا إلى البلدان الأخرى بصفة مستشارين في حروب العصابات وقدوة ومقاتلين.

وقد تحدث مدير السي آي إيه أمام الكونغرس عن ثلاثة كوبيين كانوا

متورطين في إضراب عمالي عنيف في البيرو تسبب بأضرار مادية قدرت بـ "أربعة ملايين دولار" لرجل أعمال أمريكي يعمل في صهر المعادن. كانوا دون شك من فتيان بنييرو. وكان أحدهم "يدير غارات مسلحة على مزارع كبيرة في مرتفعات الأنديز يقوم بها هنود متعطشون للأراضي". هذا كل شيء تمكن ماكون من قوله بشأن المتطوعين الكوبيين المثيرين للعنف الثوري. لو كانت لديه معلومات حتى لو كانت غير نهائية أو تقارير مقبولة حول وجود ضباط عسكريين كوبيين يخدمون متنكرين بأسماء مستعارة مع العصابات الإقليمية لكان قد كشفها بكل تأكيد[21].

في عقد الستينيات ودون أن تدري السي آي إيه كان ثمة ما يزيد عن ثلاثين ضابطًا من هؤلاء. وهم جميعًا محاربون مشهود لهم، وبعضهم مقربون من الزعماء الكوبيين القياديين. وكان ينتظر منهم أن يظهروا حماستهم ونشاطهم وولاءهم للثورة من خلال التطوع في مغامرات خارجية – هو واجب "أُممي" كما صار يعرف. شكل هؤلاء فئة رابعة من "اللاشرعيين" هم "اللاشرعيون النخبة". وخلافًا للاشرعيين الآخرين لم توكل إليهم مهام القيام بعمليات تجسس، بل مهام الإطاحة بحكومات في أمريكا اللاتينية.

كثيرون منهم كانوا يُنقلون بالسفن، وعادة سفن صيد كوبية، إلى البلدان الهدف. وينزلون للبر في مراكب صغيرة على شواطئ نائية ثم يتوجهون عبر البراري إلى الغابات والسلاسل الجبلية. وآخرون يستخدمون وسائل تخفٍ معقدة ومعلومات معينة يُزَوَّدون بها ليسافروا بالطائرات التجارية، ثم يعملون تحت الأرض حيث ينضمون إلى قوات حرب العصابات في المناطق البعيدة عن السواحل في بلدان أمريكية لاتينية عدة.

أحد هؤلاء اللاشرعيين النخبة ضابط اسمه راؤل مينينديز توماسيفيتش Raul Menéndez Tomassevitch تحدث معنا لاحقًا: "أمرنا فيدل بألا نحمل معنا أكثر من 35 رطلًا من الأمتعة بما فيها البنادق زنة عشرة أرطال والذخيرة". وكالمعتاد هو متأكد بأن كاسترو يعرف الأفضل، يتدخل على المستوى العملياتي في مراحله الأكثر بدائية ويفرض إدارته التي لا تُغلب[22].

ولكن بصرف النظر عما يحملون من معدات خفيفة لم يكن من السهل دومًا لهؤلاء الكوبيين الالتقاء مع رجال العصابات الذين جاؤوا لمساعدتهم. في مقابلة أجريت بعد سنوات عدة مع مينديز الذي قضى حكمًا بالسجن في مطلع الخمسينيات بتهمة الاختلاس والتدليس المصرفي ثم بات فيما بعد من الأثيرين عند راؤول تحدث عن تجاربه كجندي مرتزق في ثلاث دول. وكان مصرًا على ذكر مهمة تسلل ضخمة في أيار/مايو عام 1967 على شاطئ منعزل معروف باسم ماشوروكوتو Machurucuto على الساحل الكاريبي لفنزويلا.

كان فردًا في قوة توغل كبيرة نجا عند الإنزال لكن الآخرين أبيدوا عدا ضابطين عسكريين كوبيين تم أسرهما إثر معركة شرسة مع قوات الأمن الفنزويلية. كانت الخسارة الكبرى أنطونيو بريونيز مونتوتو Antonio Briones Montoto قائد هذه الحملة – وذلك في يوم ميلاد فيدل في آب/أغسطس 1963 – وهو مؤسس القوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية. كانت قوة التوغل هذه قوة نخبوية للضربة الأولى عند النظام ثم دمجت بوزارة الدفاع أثناء حملة التطهير لعام 1989. وفيما بعد أطلق على مدرسة الاستخبارات الكوبية اسم بريونيز.

وقد علمت من ثلاثة منشقين مشهود لهم بالمعرفة الجيدة – وهم المصدر الوحيد لديّ للمعلومات حول هذه الحادثة – أن السبب في تلك النكبة الحاصلة في ماشوروكوتو هو اختراق السي آي إيه للمؤسسة العسكرية الكوبية. فرنشيسكو كاربالو باتشيكو Francisco Carballo Pacheco ضابط برتبة نقيب في الجيش واختصاصي في الخرائط تم تجنيده في المكسيك في السنة الأولى أو الثانية للثورة. وكان في موقعه المثالي يعمل في دائرة رسم الخرائط العسكرية التي أحدثت بمساعدة أمريكية في عهد الرئيس باتيستا، وحوّلت فيما بعد إلى معهد عسكري.

كان رسام الخرائط هذا لسنوات عدة الوغد الأسطوري – معروف باسم "الجاسوس باتشيكو" – واسمه يذكر دومًا في الدورات التدريبية للقوات الخاصة بأنه مثال الخيانة الخسيسة. وبحسب لازارو بتانكورت المرافق الشخصي السابق

لفيدل يعتبر باتشيكو الجاسوس الأكثر تخريبًا في اختراق القوات المسلحة[23].

زود المخابرات العامة – ويبدو السي آي إيه – بالإحداثيات الجغرافية لشاطئ ماشوروكوتو حيث تكون القوة الناصبة للكمين، وليس العصابات الفنزويلية، على أتم الاستعداد. أما باتشيكو الذي اعتقل عند محاولته الفرار من كوبا على متن زورق صغير فقد اعترف تحت التعذيب. وقد أخبرني بتلنكورت أنه شاهد شريط فيديو تدريبي بشأن هذه القضية عام 1978 عندما التحق بمدرسة المدفعية. قال إن الطلاب جميعًا مطلوب منهم مشاهدته، وفيما بعد جميع الضباط العسكريين أيضًا. يشاهد راؤل كاسترو في الشريط المصور وهو ينزع الرتب العسكرية عن كتفي باتشيكو. ثم يشاهد باتشيكو وهو يجثو على ركبتيه على الأرض بعد أن أصيب بعيار ناري في مؤخرة رأسه أطلق من بندقية AK-47 هي واحدة من أول دفعة جاءت إلى ترسانة كوبا[24].

وهنالك أيضًا صورة لباتشيكو في المتحف التابع للقوات الخاصة في ضاحية سيبوني Siboney خارج هافانا. أقيم هذا المتحف في ثكنة سابقة صارت تابعة لوزارة الداخلية. ذهب بتانكورت إلى هناك وقال لي: "توجد معروضات كثيرة لن يعرف بها أحد من العامة". وتذكر أيضًا وعلى وجه الخصوص خارطة للعالم على الجدار عليها دبابيس ملونة تمثل المهام التي نفذتها القوات الخاصة بنجاح. وقال: "هنالك دبابيس في كل مكان، في جميع أنحاء العالم".

راؤل مينننديز Raul Menendez وغيره من الناجين إثر عملية الانزال في ساحل ماشوروكوتو – هم أربعة كوبيين وأربعة فنزويليين – هاموا على وجوههم لنحو ثلاثة شهور ونصف الشهر في البراري قبل أن يصلوا أخيرًا إلى قوات حرب العصابات الماركسية التي أرسلوا لنجدتها. ولكن الظروف لم تتحسن بعد وصولهم وانضمامهم للقوات. انخفض وزن مينننديز البدين لنحو مئة رطل (نحو 50 كلغ) إذ أبقى على حياته بأكله للديدان والثعابين والقردة. وسبب هذه المشقة والحرمان مرده القائد العام فيدل الذي أصر على أن يحدد رجال الحملة كمية الطعام التي يحملونها في جعبهم برطلين ونصف[25].

كان مينندير نحيلا جدًا وهزيلًا عندما عاد أخيرًا إلى كوبا حتى إن راؤل كاسترو دبر له دعابة عملية رهيبة موضوعها الموت. تقول الدعابة بأنه سوف يعلن نبأ وفاة صديقه، ويسجى في نعش حيث يلقي عليه أصدقاؤه نظرة الوداع الأخيرة ثم ومن خلال لحن يعزف على البوق يشاهدونه "ينهض من الموت" بأعجوبة. اشتهر راؤل بهزله وحبه للفكاهة الرخيصة لكنه فكر على نحو أفضل بهذه الفكرة. استعاد مينندير صحته وعافيته وكوفئ بترقيته إلى رتبة جنرال بنجمتين في الجيش[26].

كان هو وغيره من المتطوعين العسكريين أفضل من استطاعت الثورة أن تجنده جميعهم شديدو الوفاء للنظام ولعبئه المتأجج بتصدير الثورة. كانت هافانا تؤمن بأنهم من الجودة بمكان يجعلهم يقلبون موازين القوى لصالح المتمردين أينما ذهبوا. سوف يكونون الملهم، مثل آلهة الإغريق، يأتون من عند الإله فيجعلون المتمردين يثبون إلى السلطة.

في عام 1975 قال ديفيد فيليبس الأكثر حكمة أمام لجنة خاصة لمجلس الشيوخ يرأسها السناتور الديمقراطي فرانك تشيرش Frank Church عن ولاية أيداهو إن أربعة عشر رجلًا كوبيًا عملوا متطوعين في حرب العصابات في فنزويلا في الستينيات[27].

وكان واحدًا من هؤلاء رجل شاب اسمه أرنالدو أوشوا Arnaldo Ochoa، ولديه إحساس معدٍ للفكاهة – وله سجل عسكري لا يجاريه أحد في القوات المسلحة التي يقودها راؤل. وقد كُشِف عنه لأول مرة عام 1989 أثناء محاكمة الجنرال المعزول بتهمة الخيانة. وأخيرًا لم تشفع له خدماته الأممية المخلصة في فنزويلا وفي صراعات عدة في العالم الثالث من غضب فيدل، فأُعدم.

اثنان آخران من الكوبيين الذين تسللوا إلى فنزويلا تم ترفيعهما إلى رتبة جنرال. والرابع فيما بعد وضع على كتفيه رتبة عقيد في الجيش. واليوم الشخص الأعلى منزلة فيهم – وهو أوليسيز روزاليز ديل تورو Ulises Rosales del Toro – يحمل رتبة جنرال بثلاث نجوم (قائد فيلق)، ونائب الرئيس والوزير

الأعلى في حكومة راؤل كاسترو. كان لخمسة عشر عامًا الساعد الأيمن لراؤل من موقعه كرئيس لأركان الجيش. لعله ما كان له أن يصل إلى هذه الرتب والامتيازات لو لم يتطوع في شبابه ليقاتل إلى جانب العصابات الفنزويلية. فهذه خدمة إلزامية تمكّن المرء من الارتقاء في المناصب في كوبا كاسترو.

كان روزاليز واحدًا من الضباط العسكريين الأمراء البالغ عددهم واحدًا وأربعين ضابطًا يجلسون للحكم على زميلهم أوشوا فيما يسمى محكمة الشرف. وافقوا جميعًا وبالإجماع على الحكم بالإعدام الذي طلبه فيدل. أخبرني لازارو وبتانكورت أن روزاليز جلس مقابل المتهم مباشرة في غرفة الاستماع، وهي "واحدة من أعمال فيدل المكيافيلية للانتقام". ولعلها اللحظات الأشد مشقة للجنرال روزاليز. لقد عمل أوشوا على إنقاذ حياته أثناء الخدمة في حرب العصابات الفنزويلية، وحمله على ظهره إلى بر الأمان عندما كان ضعيفًا وهزيلًا لا يقوى على السير. والآن وبعد اثنين وعشرين عامًا لا يستطيع روزاليز أن يفعل شيئًا ينقذ حياته.

هنالك ناجون آخرون من العمليات التي نظمتها إدارة التحرير الوطني ويحتلون الآن مناصب عليا ومؤثرة. عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي أبلاردو كولومي إيبارا Abelardo Colomé Ibarra، وزير داخلية كوبا منذ العام 1989، وثاني أو ثالث شخصية ذات السلطان الواسع في هذا البلد، تطوع عام 1963 ليكون منظِّمًا لحرب عصابات ومستشارًا لحركة تمرد مبتدئة في الأرجنتين. وباستخدام وثائق جزائرية وبوليفية مزورة ذهب إلى منطقة نائية في بوليفيا قريبة من حدود الأرجنتين وأنشأ قاعدة عمليات[28].

ومع ذلك فقد أبيدت عن بكرة أبيها مثلما أبيدت جميع حركات التمرد الأخرى التي دعمتها كوبا في تلك الأيام، وقتل الكثير من قادتها وجنود مشاتها أثناء الحرب أو أسروا ثم أعدموا. لكن كولومي إيبارا - المعروف باسم "فاري" Furry عند الكوبيين منذ طفولته - لم يوضح علانية كيف تمكن من النجاة. عندما انطلق في مهمته كان في الثانية والعشرين، وكان الأثير عند كل من راؤل كاسترو وتشي غيفارا.

وعلى الرغم من كل تلك المغامرات التي خاضها هؤلاء اللاشرعيون النخبة، لم تقدّر السي آي إيه مدى جراءة وقوة تدخلات كوبا إلا حين أمكن تتبع ثم إعدام تشي غيفارا أكثرهم شهرة وألقًا في بوليفيا في تشرين الأول/أكتوبر عام 1967.

كان غيفارا القائد الأول والأخير لحملة اللاشرعيين يقود قوة مؤلفة من عشرين كوبيًا، منهم خمسة أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي واثنان من معاوني الوزراء في الحكومة. تسللوا إلى أراض نائية من بوليفيا لا يحملون خريطة لها وهدفهم صنع حركة تمرد تسيطر على تلك الدولة في جبال الأنديز ثم تكبر وتنتشر في جميع أنحاء القارة الأمريكية الجنوبية[29].

لا يُعرف عدد من قتلوا من الكوبيين على أيدي قوات مكافحة التمرد الحكومية بمساعدة أمريكية من فنزويلا وبوليفيا وكولومبيا وغواتيمالا وربما من بلدان أخرى أثناء القتال، ولا عدد من تركوا ليكابدوا شظف العيش وهم هاربون. وحتى هذا اليوم تمتنع حكومة الأخوين كاسترو عن الاعتراف بكل الضحايا خلا عدد قليل منهم. وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة قبل إخفاق غيفارا في بوليفيا إلا أنه لا يوجد نصر واحد لحرب عصابات ولا توجد نجاحات تكتيكية في ميدان المعركة في أي مكان عمل فيه متمردون بمساعدة كوبية.

تعلموا دروسًا قاسية كثيرة. عندما توقف راؤل ميننديز في باريس أثناء رحلة عودته إلى هافانا من فنزويلا التقى بضباط مركز المخابرات العامة ليعرض معهم ما جرى. حدثهم عن جميع الطرق والأساليب التي كان فيها المقاتلون الفنزويليون أشقاء غير مناسبين. هم شيوعيون وأنصار فيدل جميعًا تدربوا في مدارس حرب العصابات الكوبية، وتشربوا أسطورة الثورة الكوبية، ودُعموا بالسلاح والذخيرة من مخزون راؤل – انقلبوا على مستشاريهم الكوبيين الذين بذلوا التضحيات الكثيرة لمساعدتهم. واستعاد المنشق عن المخابرات العامة أورلاندو كاسترو هيدالغو في ذهنه ما قاله ميننديز في باريس في شأن المقاتلين الفنزويليين، إذ قال: "لا يريدون أن يصدقوا بأننا، نحن الكوبيين، جئنا فقط جنودًا نقاتل. كان ثمة دومًا شكوك وهواجس، مخاوف بأن الكوبيين يريدون السيطرة"[30].

وكانت تجربة غيفارا في بوليفيا على هذا النحو. فقد أُسر وأُعدم في ذلك البلد في شهر تشرين الأول/أكتوبر 1967، وكانت مغامرته بلا أمل، فاجعة انتحارية عملياً. كان مثل مينتديز وروزالين، ضعف وهزل ومرض، وفي نهاية المطاف عجز عن السير. لم يكن قادرًا على تجنيد فلاح بوليفي واحد في سبيل قضيته. لم يكن ثمة انتصارات عسكرية يتباهى بها، مجرد مناوشات دامية ظلت تلتقط واحدًا بعد الآخر من عصبته. يوميات الميدان التي احتفظ بها كانت قصصًا تحكي عن مشاق وإخفاقات لا نجاة منها.

هام غيفارا على وجهه لشهور عدة يقود مجموعة غير منظمة تائهة مما يسمى جيش التحرير الوطني في هروبهم من قوات تضيّق عليهم الخناق لجوالين بوليفيين مدربين في أمريكا. والذي أعلم البوليفيين في الميدان بذلك رجلان كوبيان منفيان حاربا في معركة خليج الخنازير ويعملان ثانية لدى السي آي إيه. كان أحدهما فيلكس رودريغز Félix Rodriguez. وقد حاول إنقاذ تشي غيفارا من الإعدام وكان آخر من تحدث معه. وكانت تلك هوامش غريبة جدًا جيء بها من أيام الحرب الباردة: الكوبيون يحرضون ضد الكوبيين في الأماكن النائية بشرق بوليفيا.

كان غيفارا "اللاشرعي" النخبوي. ومع أنه لم يكن ضابطًا في المخابرات العامة إلا أنه كان أستاذًا في العمل السري، وقد وقع في شراك عمليات سرية منذ الأسابيع الأولى لهذا النظام الثوري. سافر سرًا إلى بوليفيا مستخدمًا جوازي سفر أوروغوايين مزورين، في كل منهما اسم مختلف عن الآخر والمعلومات نفسها لرجل أعمال متكرش قليلًا وفي منتصف العمر. وحالما دخل بوليفيا استخدم الاسم رامون. وبما أنه أرجنتيني قبل حصوله على الجنسية الكوبية عام 1959 فإن الادعاء بأنه مواطن من بلد مجاور هو الأوروغواي لا يشكل له مشكلة[31].

قامت المخابرات العامة الكوبية بعمل فني في إعداد هذه الهوية الجديدة. وقد كتب جون لي أندرسون Jon Lee Anderson، وهو واحد ممن كتبوا قصة حياته، أن بذلة أسنان اصطناعية وضعت في فم تشي لتغيير شكل وجهه. وخط

الشعر في جبهته جعل لينحسر للوراء بعد أن اقتلعت الشعرات بملقط خاص. أما لحيته المميزة فقد حلقت. وعلى نحو غير مألوف له كان يرتدي بزة حين يقوم بدور رجل الأعمال الأوروغوانّي.

بعد أن اكتملت عملية تنكره، وقبل مغادرته لكوبا ببضعة أيام في هذه الحملة البوليفية، التقى جماعة من المسؤولين الحكوميين في هافانا وجميعهم يعرفونه جيدًا. يقول أندرسون فيما كتبه بأن فيدل قدم غيفارا المتنكر إلى هذه الجماعة بأنه "صديق" أجنبي. لم يعرفه أحد. وفي وقت لاحق، وهو لا يزال متنكرًا شاطر أولاده في غداء وداعي طويل. لقد كان عمل المخابرات العامة جيدًا جدًا حتى أولاده لم يعرفوه[32].

حين وقع في الأسر وجرح وأخذ يعرج في مشيته تغير مظهره وتمزقت هويته المزورة بأنه رجل أعمال أوروغوايي من المدينة. كثر شعره وطال وتجدل. وصار قذرًا، ولحم بدنه المكتنز ترهل وترقش. وبات بائسًا، مكتئبًا، جائعًا.

"أنا تشي غيفارا"، قالها بصوته الأجش العالي ورأسه منخفض موجهًا كلامه إلى الجنود من الفلاحين البوليفيين الذين حاصروه. عرفوا أنه هو من يبحثون عنه ولكن لا يعلمون شيئًا عنه. بالمقابل كان أسطورةً في المدن الأوروبية والأمريكيتين. رسوم "تشي" الرومانسية في الصور والملصقات وهو في وضعية تأمل مرتديًا القبعة البيرية السوداء، وفي الأشعار حلوها ومرها وفي النثر البليغ ومن ذلك الاسم المكون من المقطع الواحد الذي اخترعه الكوبيون له. كان فريدًا في نوعه. لا يوجد آخر مثل تشي. لكن هذه الهالة التي أحاطت به في كل الأماكن لم يكن لها توهج في بوليفيا[33].

لم يكن لدائرة التحرير الوطني بقيادة بنييرو - والتي تغيرت تسميتها لتصبح دائرة الأمريكيتين لتبدو أقل مجابهة - أي دور في هذه المغامرة. لم يفكر ذو اللحية الحمراء كثيرًا بهذا الأمر. كان ماركوس وولف Markus Wolf أستاذ الجاسوسية الألماني الشرقي الذي ينافس فيدل في كونه أفضل من خدم بهذه المهمة في القرن العشرين، يتعاون مع بنييرو في عمليات مشتركة.

يتحدث وولف عن بنييرو في منكرات كتبها بعد أن توحدت الألمانيتان، وكان قد تقاعد عن عمله. كانت لديه معرفة جيدة عن نظرية الكوبيين للثورة، يعتقد أن فرار تشي من بوليفيا قد مهد لما فعلته حركة التمرد في كوبا في أواخر الخمسينيات. سوف تنشأ في الريف وتجذب إليها الفلاحين ودعم الآخرين، وتشن حرب عصابات، وفي نهاية المطاف تستولي على السلطة في العاصمة.

وبخصوص تشي يقول الألماني بأن بنييرو اعترف له قائلًا: "إن كوبا نسيج وحدها، أعتقد أننا جميعًا عرفنا ذلك قبل أن يذهب"[34].

إذن بحسب هذا المصدر الموثوق حتى فيدل كان يدرك بأن فرص نجاح تشي في بوليفيا ضعيفة جدًا. فالبلدان مختلفان مثل اختلاف أي بلدين آخرين في أمريكا اللاتينية. وعلى أية حال كان هدف كاسترو المفضل هو بتانكورت، فقد ركز هو وبنييرو على فنزويلا التي كانت تشبه كوبا إلى حد كبير، إنما بما فيها من نفط وثروة معدنية فهي الجائزة الأكبر في نصف الكرة. كان فيدل دومًا يفكر استراتيجيًا، تسبقه تحركات كثيرة مثل بطل شطرنج عالمي يحرك القطع على رقعة شطرنج عملاقة. فنزويلا هي الملكة عند الخصم وبوليفيا هي البيدق.

يمكن لتشي غيفارا أن يتسلل إلى ذلك البلد الهندي الفقير الذي ليس له منفذ بحري ويجرب حظه هناك. وكان فيدل مرتاحًا لذلك. ويرضى بأي نتيجة تؤول إليها هذه المحاولة. إذا تمكن غيفارا بشيء من الحظ أن يكسب فهو (فيدل) ينال شرف رعاية النصر والتخطيط له. وإذا مات هذا الارجنتيني الجوال المثير للقلاقل في هذا السعي فذلك سوف تتردد أصداؤه لديمومة أكثر. وسيكون لكوبا قديس راع استشهد.

لقد كان تشي وكل أولئك "اللاشرعيين" الذين أرسلتهم هافانا في الستينيات الطليعة السابقة لعشرات ألوف "الأمميين" الذين جاؤوا بعدهم في السنوات اللاحقة. وقد نجحت التدخلات العسكرية الكوبية في أنغولا وأثيوبيا بقوات برية وجوية ضخمة قاتلت في معارك ضارية، والمهمات العسكرية الأصغر حجمًا في نيكاراغوا وبلدان أخرى في تحقيق أهدافها الآنية المتمثلة بإقامة أنظمة

ماركسية ثورية. وفي جميع هذه الصراعات كانت القوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية هي التي تقود السبيل.

أُرسل الأطباء والعاملون في الحقل الصحي والفنيون من الاختصاصات كافة والمستشارون الاستخباريون من كوبا إلى عشرات البلدان بدءًا من عقد السبعينيات. وبالمثل أيضًا كانت وزارة الداخلية تقدم خبراء في حماية الرؤساء القادة في البلدان الخاضعة للنفوذ الكوبي، وهذا كله لا يزال ساري المفعول حتى اليوم. فنزويلا برئاسة هوغو شافيز Hugo Chavez تستضيف آلافًا من الكوبيين. معظمهم خبراء في الطب والمخابرات والأمن، وهم جميعًا يلعبون دورًا محوريًا في الدفاع عن النظام الاشتراكي. وبالمقابل، يقوم شافيز بتزويد هافانا بالنفط والاستثمارات بمعدل 3 إلى 5 مليارات دولار سنويًا. وهذا الدعم شبيه بالمساعدات التي قدمها الاتحاد السوفياتي لكوبا على مدى ثلاثة عقود من السنين.

يبدو أن هذا التحالف غير العادي مع شافيز النجاح الأوحد والأكثر إثارة للذهول الذي حققه فيدل في سياسته الخارجية على مدى حكمه الطويل. لولا هذا الشريان الحياتي الفنزويلي لانهار اقتصاد كوبا وانهار معه نظام راؤل كاسترو. هذا الدعم المقدم من شافيز الذي تلقى مؤخرًا العلاج من سرطان خبيث حيوي وهام. ولولا الدعم الذي يقدمه لها لوقعت كوبا في فراغ اقتصادي وجيوسياسي مثل ذلك الذي واجهته حين انهار الاتحاد السوفياتي.

لا أحد يعلم جهارًا كيف أصبح شافيز تلميذ فيدل كاسترو المحب وهو الذي كان ضابطًا عسكريًا في فنزويلا. ولكن، ثمة احتمال كبير بأن يكون هو وأخوه الأكبر آدان Adan قد اكتشفته المخابرات العامة وجندته عميلًا نائمًا منذ سنين سبقت استلامه للسلطة. وأي من هذين الرجلين، بعد تجنيده عميلًا "لاشرعيًا" كوبيًا، تلقى تدريبًا بشكل سري في كوبا.

عرف عن هوغو شافيز أنه كان كثير الترحال إلى كوبا، حيث يقيم في دار ضيافة فخمة في السنوات التي تلت إطلاق سراحه من السجن في أعقاب محاولة

انقلابية لم تنجح في عام 1992. فقد حاول أن يطيح بكارلوس أندريس بيريز Carlos Andrés Pérez وزير الأمن الداخلي لدى روميلو بتانكورت وهو قيادي في حزبه السياسي، حزب العمل الديمقراطي، ووريثه في الرئاسة. ليست لدي أدلة صلبة بأنه كان ثمة يد كوبية في تلك المحاولة الانقلابية، ومع ذلك ليس من السهل التصور بأن شافيز هو الذي قام بها دون مساعدة خارجية.

المؤسسة العسكرية الكوبية اليوم محدودة داخل الجزيرة، هي أصغر من حيث الحجم ومحرومة من تلك الكميات الهائلة من التجهيزات السوفياتية التي قُدِّمت لها مجانًا على مدى ثلاثة عقود. والآن يستطيع كبار الضباط والمتقاعدين أن يشكلوا مشاريع ربحية – كثير منها في قطاع السياحة – وهذا ما ينجم عنه مستويات عليا من الفساد والانحراف في صفوف المؤسسة تفوق ما كان في السابق. الضباط القادة كهول، ومعظمهم في أواخر الستينيات والسبعينيات من أعمارهم وقليل منهم بمن فيهم راؤل نفسه – الجنرال الوحيد في كوبا بأربعة نجوم – في الثمانين أو أكثر من أعمارهم. ويبقى حكم المسنين الطبقة السياسية المسيطرة.

خدموا هذه الثورة منذ شبابهم، وكانوا مقاتلين مخلصين في الصفوف الأولى لما كان فيدل يصفه دومًا بصراع الموت والحياة مع الإمبريالية الأمريكية. ولكن لم يصنع المحاربون الكوبيون فرقًا منذ بداية الستينيات مثلما فعل مجندو بنييرو المراهقون في المخابرات وكل أولئك العملاء السريين التابعين للمخابرات العامة. وكان بينهم عدد من رفاق صف أسبلاغا الأصليين.

الفصل الخامس

مرحلة سحب الخناجر

تلقى أسبلاغا علومًا وتدريبات متطورة دفعت به في اتجاهات مختلفة. فقد درس مهنة الاستخبارات المضادة لما يقرب من عام وأصبح خبيرًا بأسرار هذا العمل بكل ما فيه من صعوبات تقنية في اعتراض الاتصالات ومعرفة الاتجاه. وبتوجيه وإرشاد من مدربيه السوفيات وباستخدام تجهيزات سوفياتية تعود لفترة الحرب العالمية الثانية تعلم إشارة مورس والبرق اللاسلكي والاتصالات المتسلسلة المفاجئة وعمل الموجات الراديوية القصيرة وأسس علم التجسس المضاد.

تخرج من الصف وكان من الأوائل في تشرين الأول/أكتوبر 1963، ومن فوره بدأ العمل في كوخين بدائيين صغيرين. كانت هذه المنشأة السرية مجاورة لبنتو سيرو Punto Cero، المجمع السكني العائلي المنعزل لفيدل على الشاطئ القريب من قرية خيمانيتاس Jaimanitas الصغيرة القريبة من سيبوني Siboney على الحافة الغربية لهافانا. لكن هذه المنطقة اليوم أكثر تطورًا من السابق، ومنتجع همنغواي مارينا Hemingway Marina أبعد قليلًا عنها نحو الغرب.

كان تايني في السادسة عشرة، شهور قليلة ويبلغ السابعة عشرة. ومثل الكثيرين من فتية بنييرو كان موضع ثقة وأوكلت له مسؤولية هامة منذ البداية. في البدء كان واجبه الرئيسي أن يحدد مصدر اتصالات السي آي إيه السرية في الجزيرة. فقد كان ثمة أكثر من عشرة عملاء يتصلون بالوكالة راديويًا،

يستخدمون وحدات مصغرة، يبلغ حجم الواحدة منها حجم علبة السجائر. ومن خلال تطبيقه لمهارات معرفة الاتجاه أصبح تايني بارعًا يتقن تحديد ومعرفة مواقع العملاء وهم يبثون رسائلهم، وهذا ما كان ينجم عنه أحيانًا اعتقال قوات الأمن لهم[1].

في تلك العام أدخلت السي آي إيه نظامين أكثر سرعة وأمانًا للبرق اللاسلكي لكي يرسل عملاؤها ويستقبلوا الرسائل المشفرة. الأول وهو رابط صوتي باتجاه واحد، يعرف بـ OWVL، ويستعمل على تردد موجة قصيرة عادية. ويعتمد على بث سلسلة من الأرقام تبدو في ظاهرها عشوائية. ولا يمكن فك تشفير هذا "الحساء" الرقمي إلا إذا كان لدى العميل على الطرف المستقبل وسادة pad مماثلة لتلك التي يستخدمها المرسل من السي آي إيه. وفي وقت لاحق أضاف البث الانفجاري طبقة أخرى للحماية وذلك عبر التسريع الميكانيكي لسرعة إرسال الرسالة. في البث الانفجاري يجري تلقيم الشريط المشفّر عبر جهاز بث صغير بسرعة عالية جدًا تجعل من يحاول معرفة الاتجاه إذا كان أقل مهارة من أسبلاغا في وضع حرج وحالة من الإحباط. والمبدأ بسيط، كلما ازدادت سرعة البث قل احتمال كشفها واحتمال تعرض المرسل للخطر[2].

وقد أخبرني تايني أن التفجرات الإلكترونية المندفعة فجاة والتي تعلّم اقتفاء أثرها قلما تستغرق أكثر من ثماني ثوان. وادعى بأن لها مهارات استثنائية في تحديد مواقع المرسلين خلال تلك النافذة الصغيرة للفرصة. ولما كان فخورًا في عملها في خيمانيتاس فقد أصبح بالنتيجة الخبير الكوبي الأول في تتبع اتصالات السي آي إيه ومنها تلك التي لدى العملاء المزدوجين الذين عمل على كشف أمرهم[3].

قال لي: "كنت الوحيد الذي يعرف كل شيء عن السي آي إيه وعن كل اتصالاتها".

لكي يتصيد الموجات الهوائية كان سريعًا في ضبط قرص الجهاز الذي لديه وتحريك إبرته حتى يحصل على "القفل" المطلوب. وكان شبيهًا بأبطال

الشطرنج اليافعين وعباقرة الرياضيات والموسيقى - واليوم مبرمجي الكمبيوتر - الذين كانوا يدهشون الكبار بما ينجزونه من اختراقات في أعمارهم الغضة. تشوبان وموزارت ومندلسون وصلوا جميعًا إلى قمة إبداعاتهم الموسيقية الاستثنائية وهم في سني مراهقتهم المتوسطة أو المتأخرة. وكان تايني مثلهم عبقريًا في العمل الاستخباري الراديوي.

وأوكلت له أيضًا مهام اقتفاء آثار أهدافٍ بحريةٍ. كان المتسللون من المنفيين يرسلون من سفن تابعة للسي آي إيه قريبة من الساحل الكوبي إشارات لاسلكية إلى متعاونين موجودين على الساحل لأجل ترتيب مواعيد وتسليمات. كانت هذه الأمور تحدث بانتظام في خريف عام 1963. وكان تيد شاكلي Ted Shackley، رئيس محطة JMWAVE، المحطة العملاقة للسي آي إيه في ميامي، قد ذكر في مذكراته: "كانت فرقنا شبه العسكرية ومشغلو مراكبنا يدخلون ويخرجون من المياه الكوبية في كل حين"[4].

عمل تايني وحيدًا في الأعوام التالية. وكان الشخص الوحيد، من غير مفرزة كاسترو الأمنية الضخمة، الذي يسمح له بالمرور على ذلك الطريق الترابي المؤدي إلى المقر المنعزل لإقامة القائد العام. وكان ثمة بناء ثان قربه يستخدمه أمن فيدل، وفيما وراءهما لا يوجد شيء سوى حقول فارغة، تحجبها شجيرات مارابو Marabu المدارية. كانت هذه الأرض التي لم يصلها التطوير موقعًا لمضمار غولف في العهد الرأسمالي. كان تايني يذهب إلى خيمانيتاس كل يوم بالحافلة التي تمر بالشارع الخامس، وهو شريان حيوي رئيسي يتجه موازيًا للساحل الشمالي، ثم يمشي تلك المسافة القصيرة من موقف الحافلة إلى موقع تنصته.

قلما كان يرى فيدل، وإن رآه فمن بُعْدٍ حين يمر من أمامه مسرعًا في مركبة مدرعة أو في قافلة يكون فيها بسيارة جيب. لم يحصل لقاء بينهما. وقد سمعت الكثير من أسبلاغا عن عشيقة كاسترو الفتاة ذات الجمال الأخاذ داليا سوتو ديل فاله Dalia Soto del Valle.

هي أم لخمسة من أبناء فيدل، وهم الآن في الثلاثينيات أو الاربعينيات من أعمارهم، وقد قيل عنها مؤخرًا بأنها زوجته. أعجب بها تايني وكان مفتونًا بها خلال السنوات التي كان فيها عمله قريبًا. كان يتحدث عن داليا بدفء، يصفها بأنها ذات جمال استثنائي، "طيبة ونبيلة". تعيش متواضعة بعيدًا عن الأنظار، لم يرها أحد علانية مع فيدل، ولم يرها أحد من أفراد الشعب الكوبي.

كانت داليا تسير وحيدة على تلك الطريق القصير الذي يسلكه تايني إلى موقف الحافلة في الشارع الخامس، وأحيانًا في الوقت عينه الذي يسلك فيه تايني هذا الطريق. لم يعطها فيدل سيارة وسائقًا، فكانت برزانة وهدوء تستقل وسائل النقل العام عند الذهاب إلى هافانا حيث تعمل أو تدرس في الجامعة دون أن يعرفها أحد.

لم تتحدث مع هذا المعجب بها المراهق إلا ليحيي كل منهما الآخر ودائمًا بشكل رسمي. "صباح الخير، كيف حالك؟" ولا شيء آخر.

"لم أحاول قط أن أتكلم كثيرًا لأنني أعرف من هي ... وأنت تعرف ... يمكنه قتلك".

ضرب أسبلاغا بكف يده على الطاولة حيث كنا جالسين، في إيماءة تمثّل كيف ينبغي أن نخاف فيدل وألا يغضبه أحد. لكن الذكرى أثارت مشاعره. تذكر تلك الزيارة السرّية في لندن مع ميغيل بيريز ميدينا والمحاولات الأخرى التي جرت لقتله. مغازلة عشيقة فيدل الأصغر سنًا قد تكون تهورًا خطرًا.

لكن تايني الشاب اليافع غير المرتبط والمتحمس والمصمم على النجاح عمل وكدح أربع عشرة أو خمس عشرة ساعة يوميًا ومعظم الأيام داخل مكان صغير لا نافذة له مليء بمعدات إلكترونية. حين كان شابًا يقوم برحلاته اليومية في أعمال استخبارية كان متعصبًا لشدة إيمانه بالثورة والمبادئ الماركسية التي ورثها عن والده. أما خوزيه ماراغون، الذي بدأ عمله وهو في سني مراهقته فيتذكر زميله بصورة لا تشي بمحبة له. قال لي بأن أسبلاغا كان "مؤمنًا صادقًا في إيمانه، صلبًا، ومواعظيًا". ينتقد بشدة وقسوة العملاء الكوبيين

الآخرين الذين يخبئون سرًا مبالغ صغيرة من العملة الصعبة التي يحصلون عليها أثناء مهام دولية. كان "شيوعيًا راديكاليًا، اعتاد الوعظ، مفضلًا الفقر، وكان متشددًا". ولم يستطع ماراغون تفسير سبب تغير أسبلاغا فيما بعد على هذا النحو[5].

كان تايني يفعل كل شيء حسب تعاليم الثورة وينجح. كانت معداته الخاصة بمعرفة الاتجاه موصولة بغابة من الهوائيات الموضوعة في حقل قريب خال من الأشجار وقريب من البحر، ولا تعوقها خطوط النظر نحو الشمال. كانت الهوائيات موجهة عادة نحو منشآت السي آي إيه خارج واشنطن ومحطة JMWAVE في ميامي. وبعد حلول الظلام كانت تراقب قوسًا عريضًا من المياه في مضائق فلوريدا البعيدة عن الساحل الشمالي الغربي لكوبا. والمهمة هي التقاط جواسيس ومتسللين أمريكيين بالجرم المشهود.

* * *

كان ذلك يحدث عمومًا في ليال يغيب فيها القمر وعندما تكون حركة المد في وضع ملائم. كانت السفن الأم التابعة للسي آي إيه - وغالبًا واحدة اسمها Rex وأخرى اسمها Leda تغادران شاطئ وست بالم West Palm - وتقترب من الجزيرة بصمت وتكمن على بعد بضعة أميال من الساحل في المياه الدولية. وكانت أحيانًا تحل محلها سفينة اسمها Olga Patricia وسفينة LCI التي دشنت باسم بربارة جي Brabara J أثناء خدمتها في خليج الخنازير. وعلى مسافة 150 إلى 200 قدم من الساحل كانت تنزل قوارب سريعة تتوجه بسرعتها العالية نحو شواطئ معزولة ومستنقعات المنغروف [شجر استوائي] وعلى ظهرها كوماندوس ومخربون من الكوبيين المنفيين. والمرحلة الأخيرة من الرحلة إلى الساحل تكون عادة بقوارب هوائية صغيرة وسوداء تدفعها محركات صامتة[6].

وكان تيد شاكلي من محطة JMWAVE في ميامي يشغّل ثالث أكبر قوة بحرية في الكاريبي تشتمل على غواصة صغيرة وسفينة تموين وقوارب دوريات وسرب من الزوارق المتوسطة الحجم والسريعة. كانت طواقمهما حصرًا من

الكوبيين في المنفى وتبحر من مرافئ على نهر ميامي وسلسلة جزر فلوريدا Keys وفلوريدا في الشمال قرب تامبا Tampa وفورت بيرس Fort Pearce. جميع أفراد الطواقم بحارة لهم خبرات جيدة، وثلاثة من ربابنة السفن خريجو عام 1960 من الأكاديمية البحرية الكوبية انشقوا وفروا من كوبا وعملوا بالبحر ضد رفاق صفهم الموالين.

في شهادته أمام لجنة تشرش Church التي تُحقق بمزاعم حول أخطاء السي آي إيه قال شاكلي: "كان ثمة خمسمئة شخص منخرطون في هذه العمليات البحرية. وكانت البحرية التابعة للسي آي إيه تعادل في حجمها حجم أسطول كاسترو المقدم من السوفيات، لكنه عمومًا أكثر سرعة ومجهز بطواقم أكثر مهارة. قصص التغطية التي استُخدمت للتمويه على عملياتها لم تكشف إلا بعد أعوام من تاريخه. وظلت القوة البحرية بقيادة شاكلي ومحطة الإمداد في ميامي سرًا لا يعرفه إلا القلائل جدًا من خارج نطاق العمل السري[(7)].

كان "ميثاق هذه القوة القيام بعمليات هجومية ضد كوبا"، كما قال أحد كبار مديري السي آي إيه في تلك الحين. وكانت المعارك مع قوات كاسترو أكثر عدوانية من تلك الحملات الطموحة والفاشلة التي مقرها في أوروبا الغربية في السنوات الأولى للحرب الباردة عندما كانت الأولوية الأولى عند الوكالة دحر الشيوعية في الدول التي تدور في فلك ستالين. كان سام هالبرن Sam Halpern ضابطًا رفيعًا في السي آي إيه وفي الخطوط الأمامية للصراع الكاريبي في عهد الرئيس كينيدي، وهو من نيويورك ويتصف بسرعة الكلام، وهو صريح لدرجة الوقاحة مع رؤسائه. وقد وصف لاحقًا ما جرى معه دونما حذر أو احتراس. "كنا نقاتل في حرب ضد كوبا، سواء كانت حربًا مُعلنة أم لا، لكننا نقاتل في حرب". كان كاسترو وسياسته شيئًا بغيضًا لإدارة كينيدي بسبب أعمال التخريب التي يرعاها في أمريكا اللاتينية وتحالفه العسكري مع الاتحاد السوفياتي[(8)].

أوضح ريتشارد هلمز في شهادات متعددة أدلى بها في السبعينيات تحت القسم بعد أن تنحى من منصبه كمدير للسي آي إيه ودائمًا بأسلوبه الرشيق وعلى مضض، أن التفويض بشن هذه الحرب جاء مباشرة من الرئيس كينيدي

وأخيه روبرت وزير العدل. وقال أمام اللجنة التي ترأسها نائب الرئيس نلسون روكفلر: "أراد الاخوان كينيدي الإطاحة بكاسترو بأي وسيلة. وكان ثمة مجهود ثابت أمر به البيت الأبيض والرئيس وبوبي كينيدي ... للإطاحة بحكومة كاسترو، وبفعل كل شيء ممكن للتخلص منها بأي وسيلة". وقال أيضًا أكثر من ذلك في شهادته أمام لجنة تشرش: "لم توضع حدود لهذه الوسائل"[9].

وقال أيضًا بعد أداء اليمين: "دعونا لا نفكر للحظة واحدة أن إدارة كينيدي لم تكن جادة جدًا بخصوص التخلص من حكومة كاسترو. أراد الرئيس بكل تأكيد أن يتخلص منه". وقال كذلك بأنه في العام 1963 كانت "الطاقات بكاملها" في مديرية العمليات السرية التي ترأسها من 1962 وحتى 1965 مكرسة للإطاحة بكاسترو. "وهذا هو السبب وراء القيام بتلك العملية الكبيرة في ميامي"[10].

كانت قبلة المنفيين الكوبيين القريبة جدًا من الهدف هي المكان الأفضل لوضع محطة JMWAVE. ولم يكن ثمة أي سابقة للقيام بعمليات شبه عسكرية في زمن السلم من أي مكان على التراب الأمريكي. وقد عملت محطة أصغر منها كثيرًا في بورتو ريكو لفترة من الزمن ولا تزال مهامها محاطة بالسرية التامة، وقد أغلقت عام 1958. وطُرح سؤال في سياق استشارة طُرحت على المستشار العام للسي آي إيه لاري هيوستن Larry Houston، هل يشكل تركيب منشأة موسعة للعمل السري في ميامي انتهاكًا للقوانين التي بموجبها أُحدثت السي آي إيه وكُلِّفت بالعمل حصرًا خارج البلاد؟[11]

كان هيوستن رجلًا عالي الثقافة ومن قدامى العاملين، محبوبًا في الأوساط الاجتماعية بواشنطن وقريبًا من القادة في الطابق السابع لمقر الوكالة في لانغلي Langley. وكان على تواصل منتظم مع بوبي كينيدي، ولذلك كان يعرف مدى أهمية الإطاحة بكاسترو بالنسبة للبيت الأبيض. هو لم يقل ذلك ولكن ربما كان وزير العدل هو الذي أعطاه أمر المباشرة بتأسيس المحطة. وقد قال لفريق العمل الخاص بكوبا: "أنتم أيها الشباب مسؤولون أمام الرئيس وإليه تعودون. لذا امضوا ببنائها بالطريقة التي تريدون". بهذه الشيك الأبيض باشرت محطة JMWAVE عملها في أيلول/سبتمبر 1961، وكانت بنيتها ومعاملتها مثل جميع

محطات الوكالة على الساحة الدولية مع أنها سريعًا ما صارت أكبر كثيرًا منها جميعًا[12].

وكان شاكلي في ميامي يتبع مباشرة إلى دزموند فتزجيرالد Desmond FitzGerald رئيس ما يسمى رمزيًا هيئة الشؤون الخاصة (SAS) في مقر الوكالة بلانغلي. ولم يكن لهذه الهيئة أية مسؤولية بخلاف إدارة عمليات التجسس والشبه عسكرية ضد كاسترو من واشنطن وفلوريدا وعدد من محطات السي آي إيه الأخرى المنتشرة في العالم. قال جيم أنغلتون Jim Angleton، قيصر العمل الاستخباري الموقر، أمام لجنة تشرش بأن هيئة الشؤون الخاصة (SAS) تعالج شؤونها بنفسها، فهي تتمتع بسلطة ذاتية. كان دون شك ممتعضًا لما لديها من هذا العدد الكبير من موظفي الاستخبارات وارتباطها المستقل مع مكتب التحقيقات الفدرالي[13].

ومع ذلك استطاع أنغلتون أن يجعل لنفسه مساعدًا في العمليات الكوبية. فقد رتب مع المخابرات الإسرائيلية بأن تُدخل واحدًا من عملائها ذوي الخبرة الموجودين في هافانا وهو شاب "مولود في بلغاريا ... ومصدر لا أحد يعلم به".كما قال أنغلتون. هلمز وحده وضابط آخر واحد من السي آي إيه يعلمان "بوجوده وهويته". هذا الإسرائيلي يتكلم الروسية ولغات أخرى، وفيما بعد شغل منصبًا عالي المستوى في الموساد. والمعلومات الاستخبارية التي يجمعها كانت تنقل بأمان إلى تل أبيب ومن ثم ترسل فورًا إلى أنغلتون[14].

كبرت جدًا وسريعًا هيئة الشؤون الخاصة SAS بقيادة فتزجيرالد حتى باتت أكبر كيان جغرافي للسي آي إيه، إذ تضم في مقر عملها أكثر من 150 موظفًا، أي أكبر من الأقسام الإقليمية المسؤولة عن عشرة بلدان أو أكثر، وأكبر حتى من القسم السوفياتي. كانت كوبا بتلك الأهمية عند الأخوين كينيدي[15].

وميزانيتها كانت ضخمة، تزيد بأربعة أمثال عن مجموع ما تنفقه الأقسام العاملة في عشرين دولة في أمريكا اللاتينية والكاريبي مجتمعة. وبحسب تقييم للوكالة يعود إلى تلك الفترة سوف تستمر كوبا في كونها "من أولى أولويات

جميع مكونات الأجهزة السرية". وهذا يعني أن أقسام وموظفي الوكالة الآخرين يتعين عليهم أن ينتهزوا كل فرصة ممكنة لتجنيد العملاء وإدارة العمليات التي تؤذي فيدل. وكان ثمة نجاحات كثيرة ومترامية الأطراف. ولكن في شهر تموز/ يوليو عام 1962 قام مدير السي آي إيه ماكون بإبلاغ وزير العدل وآخرين في اجتماع بالبيت الأبيض: "لم نتمكن حتى الآن من تحقيق اختراق عالي المستوى في الحكومة الكوبية"[16].

غير أن وثيقة تتحدث عن تخطيط لأعمال سرية يعود تاريخها إلى أواخر عام 1963 أو أوائل عام 1964، رفعت عنها السرية مؤخرًا، كشفت بأن عددًا جيدًا من البعثات التجارية والدبلوماسية الكوبية في الخارج قد تم اختراقها. وذكر التقرير خمسة عشر عميلًا تم تجنيدهم وإحدى عشرة عملية سمعية وأربعة عشر تنصتًا هاتفيًا في البعثات الكوبية. وكانت مدينتا مكسيكو وباريس الأكثر اختراقًا، وأن الدبلوماسيين وعملاء المخابرات الكوبيين في نحو سبع عشرة عاصمة أخرى في العالم قد تم التنصت عليهم أو مراقبتهم سرًا. كان الأمل في مقر الوكالة بلانغلي بأن "بعض أولئك الذين جُنِّدوا الآن سوف يعودون إلى هافانا ليرتقوا إلى مناصب أعلى في وزارة الخارجية أو في مواقع حكومية أخرى"[17].

كانت فرق عمل هيئة الشؤون الخاصة SAS ترسَل إلى محطات عدة للسي آي إيه حيث تكثر الأهداف الكوبية. وكان أكثرها ازدحامًا حتى ذلك التاريخ في مدينة مكسيكو. يذكر ديف فيليبس أن كل موظف في سفارة كوبية على وجه التقريب كان مستهدفًا لغرض التجنيد. كانت السي آي إيه تعتقد خطأ أنهم عراة أمام تحديق المتطفلين. كان العملاء يعترضون بريدهم ويصورون الأفراد وهم يدخلون أو يخرجون من أماكنهم، وينقبون في حاويات قمامتهم. وكانت هواتف السفارات مراقبة – أو "مغطاة بالكامل" كما جاء في تقارير الوكالة التي أنجزت تحت رعاية فيليبس عندما كان رئيس قسم أمريكا اللاتينية، بعد عودته من المكسيك. وتبين فيما بعد أن هذا التبجح كله كان مبالغًا فيه في نواحي عدة ذات أهمية تاريخية[18].

سبعة ميكروفونات مخبأة داخل السفارة الكوبية كانت تضخ أحاديث حساسة، كان أحدها ملصقًا في قائمة طاولة قهوة في مكتب السفير. من خلال واحدة أو أكثر من هذه العمليات الفنية كشفت السي آي إيه القناع عن جاسوس يتبع لمحطة مكسيكو – هو في الواقع عميل مزدوج يعمل لصالح المخابرات العامة الكوبية. كانت الوكالة تمطر الضباط الكوبيين في العاصمة المكسيكية وفي ثلاث قنصليات إقليمية بالدعاية المغرضة والمعلومات المضللة.

كان فتزجيرالد يدير ذلك كله من شبكة معقدة من الحجرات والمكاتب الصغيرة المعتمة في قبو داخل المقر أو في الطابق الأرضي. هو خريج من جامعة هارفارد وزرع عضوًا بارزًا في مجتمع بارك أفينو Park Avenue ويعرفه الجميع باسمه المختصر (ديز) "Des". كان مقربًا من الرئيس كينيدي وأخيه، ويعتقد أنه يمت بصلة قرابة بعيدة لهما من خلال روز فتزجيرالد كينيدي الأم الكبرى لعائلة كينيدي. يذكر هلمز أن ديز وبوبي "كانا على خير انسجام، ولا صعوبة في التواصل بينهما". وحقيقة الأمر أن كينيدي الأصغر مكث في منزل فتزجيرالد في جورجتاون بواشنطن أثناء حفل تنصيب أخيه[19].

بعد أن تسلم إدارة هيئة الشؤون الخاصة SAS مباشرة في مطلع عام 1963 سافر ديز إلى الخطوط الأمامية في ميامي ليتعرف على المحطة الوليدة. وكان شاكلي قائدًا لنحو ستمئة من موظفي الوكالة بالإضافة إلى ما يقرب من ألف متعاقد. في مقابلة أجريت معه بعد إحالته للتقاعد قال إن "نحو خمسة عشر ألف كوبي كانوا على صلة بنا بطريقة أو أخرى". وكانت تساندهم ما يقرب من ثلاثمئة إلى أربعمئة شركة، بما فيها شركات لصيانة القوارب وتجارة الأسلحة وشركات عقارية ووكلاء سفر. وكانت قوة حراسة عسكرية تابعة لمحطة JMWAVE تتولى حراسة المبنى. إضافة إلى أنها استأجرت أكثر من مئة سيارة[20].

كان شاكلي الذي يبدو شريرًا غير مقبول من بعض زملائه المعاون الميداني المثالي. وكان رزينًا تعوزه العاطفة وبرمًا بعيدًا عن الحلم، يطلب من موظفيه أكثر مما يستطيعون القيام به. عُرفت هذه الوكالة بأنها توتونية

Teutonic [من الشعوب الجرمانية] نسبة إلى أندرو ك. روتمان Andrew K. Reuteman، ولأسباب غير معروفة كان الكوبيون في ميامي يلقبونه بـ "تكيلا Tequila". ويقول كاتب سيرته ديفيد كورن David Corn بأنه كان يُكنى أيضًا باللقب الميلودرامي الذي يكرهه وهو "الشبح الأشقر Blond Ghost"[21].

تلقى شاكلي علومه في جامعة ماريلاند وتخرج منها يتقن جيدًا لغة أمه البولونية، وهو ذلك الكيس المبتهج الذي يشكل مع فتزجيرالد، ذي الحذاء الأبيض نقيضين لا يتوافقان. وقد ابتهج ديز دون شك بأن مسافة ألف ميل تفصل بين مكتبيهما، لا سيما وأن حفلات الكوكتيل وما يتخللها من أحاديث صغيرة في جورجتاون لا يمكنه أن يتصورها. غير أن شاكلي لم يتردد مطلقًا بفعل العمل القذر المطلوب. فهو طموح دون خجل، ويعلم جيدًا موقعه بأنه التابع المطيع لفتزجيرالد الأعلى مرتبة منه. ومهمتهما بسيطة إذ قال له ديز في ميامي: "تغيير النظام في هافانا"[22].

إذن كل شيء مسموح به من أجل هذه الغاية. كان شاكلي معتدًا بنفسه حين قال أمام لجنة تشرش "ليس مخالفًا لسياستنا أن نزود بالأسلحة شخصًا لديه قابلية الوصول إلى كاسترو". واعترف قائلًا أيضًا بأن المجموعات الثورية في المنفى التي يدعمها واللاجئين المسلحين الواردة أسماؤهم على جداول رواتب الوكالة ربما قاموا بشكل مستقل بمحاولات اغتيال. وكان محقًا في قوله[23].

حين تسارعت العمليات البحرية التي نفذتها محطة JMWAVE في عام 1963 أصيب الطرفان بخسائر كبيرة. خسرت السي آي إيه الكثير من رجال الضفادع البشرية والمخربين وعملائها خلف خطوط العدو في الجزيرة. وتزايدت صعوبات حمايتهم وتسريبهم إلى الخارج بأمان. وكان تايني وغيره من المشغلين الكوبيين الشباب لاعتراض الاتصالات يزدادون إتقانًا لعملهم، فلم تعد اتصالات السي آي إيه السرية آمنة كما كانت. صارت عمليات تبادل إطلاق النار تضيء ليل الكاريبي بعد أن ازداد عددها بسبب تصدي قوات الأمن الكوبية للمنفيين القادمين.

وبدت الخسائر الواقعة في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1963 أعلى كثيرًا من أي شهر سبقه منذ معركة خليج الخنازير قبل نحو عامين ونصف. لم يخبرني أسبلاغا عما إذا كان له يد في تلك العمليات أو غيرها من النجاحات التي تحققت ضد السي آي إيه وعملائها من الكوبيين في المنفى. ولكن توجد احتمالات بأنه كان أحيانًا يعترض سبيل اتصالات العملاء وينبه القوى الأمنية في الوقت المناسب لاتخاذ الإجراءات الدفاعية. فهذا أولًا وأخيرًا واجبه ومسؤوليته الرئيسية. وموقعه في خيمانيتاس موقع مثالي لكشف اتصالات السي آي إيه في غرب كوبا والمياه المحيطة[24].

في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1963 وردت معلومات بأن ما لا يقل عن خمسة وعشرين من العملاء المتعاقدين مع محطة JMWAVE قد تم اسرهم أو قتلهم في ذلك العام. لكن العدد الحقيقي بما في ذلك أعداد من فُقدوا أثناء العمليات القتالية أكبر من ذلك على الأرجح. لا أحد في الوكالة أو في الأوساط السياسية العليا حيث تتم الموافقة على عمليات التخريب والاختراق لديه أي تصور حول مصير من أُسِروا. ربما لم ينجُ أحد من الإعدامات العاجلة. فالنجاة تعني الموافقة على القيام بالعمالة المزدوجة وبالتالي يرتدّ ضد السي آي إيه، وطوال هذه المدة لا أحد يعلم متى سيصدر العفو الشيطاني الشرير[25].

مشاعر الألم والخزي الأخلاقي كانت تقض مضاجع الكثيرين في ميامي ولانغلي من أولئك الذين يرسلون الشباب الشجعان في المنفى ليلقوا حتفهم. فقد قال هلمز أمام لجنة تشرش: "إنه مؤلم كثيرًا جدًا. لا تعرفون كم هو مؤلم أن يحاول المرء العثور على أفراد ... قادرين على النزول إلى الساحل ويبقون على قيد الحياة في اليوم التالي". لكن الضغط الذي كان يمارسه الأخوان كينيدي للنيل من كاسترو كان طاغيًا ولا تمكن مقاومته. وفي شهادة أخرى أدلى بها هذا المدير السابق والسفير الفخور اضطر للاعتراف قائلًا: "لو طلب مني وزير العدل أن أقفز عبر طوق لفعلت"[26].

لا أحد أفضل من هلمز في معرفته تلك الخفايا البشعة للسياسة الخفية بخصوص كوبا لما بعد معركة خليج الخنازير. بدأ دوره البارز عندما باغته

ماكون في اجتماع صباحي لكبار الموظفين عقد في كانون الأول/ديسمبر عام 1961 وعلم منه أنه سيكون "رجل الوكالة الجديد في كوبا". كان سام هالبرن حاضرًا الاجتماع وتذكر أن رئيسه الذي يحبه "بدا وكأن صاعقة أصابته". كان ذلك آخر شيء يريده. فقد كان هلمز الناجي الهادئ، وهو خريج مدرسة داخلية سويسرية وكلية وليامز Williams College وصحفي أجرى مقابلة مع هتلر في مدينة نورمبرغ عام 1936، ومحارب قديم في مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) زمن الحرب. انضم إلى السي آي إيه منذ نشأتها وبدأ يرتقي سُلَّم الترقيات حتى القمة. طويل القامة نحيل الجسم له حضور أبوي في زلات وعثرات السي آي إيه. وكان اسمه المستعار فلتشر م. نايت Fletcher M. Knight يناسبه كثيرًا.

قلما كانت المواهب الفطرية لمدير هلمز تخذله. وكان كلاهما يطالبنان بشدة بالخروج من خليج الخنازير. في تلك الكارثة هُزِمَت أعمال لا حصر لها للسي آي إيه. وكان يتمنى أيضًا لو يبتعد عن عملية النمس Operation Mongoose العقابية التي أرادها الأخوان كينيدي، والتي جاءت بعد عملية خليج الخنازير، والفصل الثاني في حربهما السرية الخفية ضد فيدل. كانت حملة دامت لنحو عام من العمليات شبه العسكرية والتجسسية والتي ارتفعت وتيرتها في تشرين الثاني/نوفمبر 1961 بأمر من بوبي كينيدي. كان هذا المجهود عملًا مثيرًا لنزاع بالغ القسوة، وبوبي يمسك بعنق هلمز.

يقيم وزير العدل على بعد ميل أو نحو ذلك من المقر الرئيسي ويحب أن يزوره بشكل مفاجئ ليطلع على العمليات الكوبية. يقول هلمز كان "يدعو بانتظام ضباط السي آي إيه من المستويين المتوسط والأدنى" يعرفهم بأسمائهم "ليعطيهم التعليمات". والشيء الذي لا يمكن تصديقه أن سكرتير كينيدي في وزارة العدل يتصل أحيانًا بالنيابة عنه ليصدر الأوامر إلى الضباط. وكانت قيادة "هيئة الشؤون الخاصة" SAS تذعن دومًا لتلك التدخلات[27].

وصفه هلمز الذي تعامل مع بوبي دائمًا بأنه "ساعد الرئيس الأيمن في هذه الأمور والذي لا يكف عن المطالب". وهو دومًا "يمارس ضغطًا ليحصل

على مزيد من العمل، وأنا كنت الرجل الذي يحاول التفكير باختراع الأعذار" عندما لا نستطع أن نحقق له توقعاته في نجاح أو إخفاق عمل في كوبا". كانا "في دعوى متخاصمَين". ومع أنهما كانا صديقين إلا أن بوبي كان يحب أن يرهب فتزجيرالد. يقول توم باروت Tom Parrott الذي كان في البيت الأبيض ويعرف الرجلين فيما ينكره بأن بوبي "كان شوكة في خاصرة فتزجيرالد". "وفي بعض الأحيان قد يثور نيز ويهتاج". ينكر مارشال كارتر Marshall Carter الجنرال في الجيش الذي شغل منصب معاون ماكون في الوكالة أن وزير العدل كان "حامل بلطة" الرئيس الذي يعمل "كما لو أنه كلب صغير يصيد الجرذان"[28].

سادت حالة من "الهستيريا" بشأن كاسترو داخل الإدارة بعد معركة خليج الخنازير، حسبما يقول روبرت ماكنمارا Robert McNamara، وزير الدفاع. فقد قال بأن الأخوين كينيدي غير معتادين على الخسارة، ويريدان الثأر ممن آذوهما. وهذا أيضًا ما يتذكره هلمز. فقد قال في شهادته، إن غزو المنفيين الفاشل "أثار شهية الإدارة للتخلص من كاسترو بوسيلة أخرى". وقد جاء فيما كتبه المؤلف غاري ويلز Garry Wills بأن "كاسترو استحث كل غريزة قتالية عند الأخوين كينيدي". وينقل عن تد سورنسون Ted Sorenson المستشار المؤتمن والمؤلف قوله: "لقد جعل كاسترو كينيدي يفقد هدوءه المعتاد". إذن جاء تعيين هلمز الجديد في كونه القائم بأعمال ماكون لتخليص كوبا من فيدل ليعني بأنه لا يوجد تهرّب من مطالب البيت الأبيض[29].

* * *

كان هلمز وعلى مدى عشرات من الساعات لشهادة بعد أداء القسم وفي أربع عشرة مناسبة في السبعينيات الشاهد الأساسي بشأن عمله إزاء كوبا لصالح الأخوين كينيدي. وكان الإدلاء بالشهادة يسبب له ألمًا. فقد اعتاد على القيام بعمله الحساس سرًا ومن دون الحديث عنه. لذلك كان مع أعضاء الكونغرس متفوقًا بامتياز في تخلصه من الرد حين وجد من الأهمية بمكان حماية أسرار السي آي إيه والإدارة.

ذات مرة شاهد أعضاء من مجلس الشيوخ وموظفون كبار في لجنة تشرش على الشريط وهم يعلقون على مهارات هلمز الجدلية حين كانوا يحضرون للبدء بجلسة استماع أخرى. فقد قال رئيس هيئة اللجنة بطريقة جافة: "أمس كانت محاولتنا شاقة لإبقائه في نطاق السؤال". وتدخل كبير المستشارين قائلًا: "إنه شاهد ذكي جدًا جدًا وإذا أردت أن توقعه في حادثة محددة فهو يعرف جيدًا كيف يجعل ذلك صعبًا". أما رئيس اللجنة فرانك تشرش والذي بدا مستمتعًا بالمباراة فقد أطلق طلقة البدء إذ قال: "حسن، فلنبدأ وليحضر"[30].

كان هلمز المستودع الأمين الذي تُحفظ فيه المعلومات الأكثر حساسية عن كوبا. وعمل معه فتزجرالد وشاكلي، وكان ماكون والجنرال كارتر رئيساه الوحيدان قانعين وراضيين بتسليمه بطاطا كوبا الساخنة [أي قضية كوبا التي يصعب التعامل معها]. كان يشعر بعدم الاطمئنان على نحو خاص عندما طلب إليه بإصرار أن يدلي بشهادة بعد أداء اليمين في شأن الأخوين كينيدي. إنما في الوقت الذي عُقدت فيه جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ لم يعد سرًا أن السي آي إيه قد نَسَّقت مكيدات قتل ضد كاسترو في أوائل الستينيات. وكان معروفًا على نطاق واسع أيضًا أن فتزجرالد فكر بمخططات قتل أخرى لم تخرج قط إلى ما وراء مجرد التفكير في المكاتب الخلفية.

تعيّن على هلمز أن يرد على وابل من الأسئلة حول ما الذي يعرفه الأخوان كينيدي عن المحاولات التي دُبِّرت ضد كاسترو. هل فوضاها؟ هل يعرفان التفاصيل؟ لا أحد غير هلمز يستطيع تقديم الإجابات. أما ماكون وكارتر فقد استُبعدا عن التخطيط لعملية الاغتيال وربما بناء على أوامر من بوبي كينيدي. وكان ديز قد توفي قبل هذه الجلسات.

رفض هلمز الخادم الأمين للرئيس أن يورّط أيًا من الأخوين كينيدي في مؤامرات الاغتيال. وفي مذكراته التي نُشرت بعد وفاته يمر مرور الكرام على الموضوع. ولكن لا يوجد فهم خاطئ لما ظل يقوله ما بين السطور عندما يزداد الضغط عليه وهو تحت اليمين في غرف الاستماع داخل الكونغرس. كان رده الوحيد في التهرب من الجواب هو: "تخلص من فيدل". وكان جوابًا في مكان ما

بين التنميق اللفظي الذكي والاعتراف الصريح بأن قتل كاسترو كان حقًا أيضًا هدف الإدارة.

وقد لخص السناتور تشرش ما اعتقد أنه استخلصه من هذا القول في جلسة من جلسات الاستماع إذ قال:

> "تبين شهادتنا من السيد هلمز شيئين ... أنه يعتقد بأن سياسة الحكومة تقضي بالإطاحة بكاسترو بأي وسيلة كانت. وأنه هو مقتنع بأن ذلك يتضمن الاغتيال. وتبين الشهادة أيضًا أن هلمز لم يكن ... قد تلقى تعليمات من روبرت كينيدي باغتيال كاسترو"[31].

ومع ذلك، في ظهور آخر لهلمز سأله تشرش عما إذا كان وزير العدل "قد [طلب] إليك قتل كاسترو؟" وكان جواب هلمز "كلا، ليس بهذه الكلمات. أنا لا أريد أن أدعي بأن هكذا كلمات قالها رجل ميت. هذا ليس عدلًا، برأيي". الاستنتاج واضح بما فيه الكفاية. كان هذا الجواب أقرب من كل ما قاله إلى توريط بوبي.

لكن التحقيقات التي أجرتها لجنة تشرش وروكفلر والتحقيق الذي أجرته بعد بضع سنين لجنة مختارة حول الاغتيالات من مجلس النواب لم تقترب قط من الحقيقة المجردة. بيد أن هلمز في محاولاته لحماية وزير العدل كان أيضًا يحصن الرئيس. وهذه هي "الوصية الحادية عشرة" المعمول بها في الأجنحة التنفيذية في الطابق السابع لمقر السي آي إيه. توريط أحد أشقاء كينيدي يعني توريط الاثنين.

جميع من عمل معهما يعرف أن بوبي مرآة لصورة الرئيس ويقلده. ولم يكن ثمة أدنى شك حيال من الذي يتخذ القرارات الأكثر أهمية في السياسة الخارجية. صحفي صديق اسمه جاك بيل Jack Bell سأل الرئيس ذات يوم عمّن في هذه الإدارة يصنع السياسة الخارجية. فأجاب كينيدي وهو يشير إلى أرضية المكتب البيضوي قائلًا: "إنها تصنع هنا". وهذا القول ينطبق بصفة خاصة على القرارات المتعلقة بكوبا[32].

قال عدد لا بأس به من المسؤولين في السي آي إيه للجنة تشرش بأنهم علموا أو اعتقدوا من أحاديث هامسة في لانغلي بأن مطالب وزير العدل للتخلص من كاسترو نشأت من أخيه. فقد اعترف هلمز قائلًا: "نحن نُبعد هذه الأشياء عن المكتب البيضوي". وكانت لجنة تشرش مشكورة بأن فعلت ذلك أيضًا[33].

ولكن لو أنه سئل من أي رئيس لاحق من أين جاء التفويض بالاغتيال لتكلم الحقيقة بالتأكيد. يقول المؤرخ الشهير ماكس هولاند Max Holland بأن لديه شكوكًا بأن هكذا حديث قد حصل فعلًا بين مدير السي آي إيه في حينه والرئيس ليندون جونسون في اجتماع عقد بينهما في البيت الأبيض في العاشر من أيار/مايو عام 1967. فقد ذهب هلمز إلى هناك ليبلغ الرئيس عن تقرير في منتهى الحساسية أعده المفتش العام للسي آي إيه ويتضمن بيانًا لجميع المؤامرات والمخططات المتعلقة باغتيال كاسترو. وكان يجري توصيف ثمانية بأسلوب نثري بيروقراطي صريح يلمّح إلى مدى شعور المؤلفين بالخزي وهم يتحدثون عن سلوك زملائهم[34].

استمر اجتماع هلمز بالرئيس قرابة الساعة، لكن شيئًا مما قيل لم يجر تسجيله. ومع ذلك يقول هولاند فيما كتبه لو أن جونسون سأل هلمز بتفويض ممن تصرفت السي آي إيه لقال إن روبرت كينيدي "شخصيًا تولى إدارة عملية" اغتيال كاسترو. في عام 1975 استخدم هلمز لغة مماثلة عند اجتماعه مع وزير الخارجية هنري كيسنجر. وهنالك وثيقة، ربما هي الوحيدة الباقية في أي مكان، وهي محفوظة في مكتبة جيرالد فورد الرئاسية في واشنطن، تذكر بصراحة ارتباط بوبي بالتخطيط لاغتيال كاسترو[35].

* * *

انتهت عملية النمس Operation Mongoose أثناء أزمة الصواريخ عندما شعرت العقول الأكثر حكمة بالخوف بأن عملًا تخريبيًا خاطئًا تقوم به محطة JMWAVE قد يُفهم خطأ بأنه طلقات البداية لغزو أمريكي لكوبا. ومع ذلك لم يمت كاسترو. بعد توقف لبضعة شهور أُطلقت المرحلة الثالثة من الحروب

الكوبية. بحسب شهادة هلمز بدأت في ربيع عام 1963. كان توم باروت، رجل الوكالة منذ العام 1949 وعمل في البيت الأبيض في عهد الرئيس كينيدي، أمينًا للجنة الأسرار التي تعتمد جميع الأعمال السرية، وقال في شهادته إن عملية "النمس" صُمِّمت بحيث "يبقى القِدْر على نار هادئة" في كوبا. وفي الربيع التالي جُعل القِدْر يقترب من مرحلة الغليان[36].

في مقابلة داخلية في الوكالة أجريت عام 1988 ورُفعت عنها السرية بعد أحد عشر عامًا تحدث سام هالبرن Sam Halpern المساعد الخاص الدائم لكبار قادة الوكالة مستذكرًا تلك الزيادة في التسخين. "بعد أزمة الصواريخ كان كل شيء ساكنًا في المياه". وسرعان ما بدأت الضغوط تتزايد مجددًا. "'كاسترو لا يزال هناك. افعلوا شيئًا'. عندئذ بدأنا من جديد"[37].

ثار الأخوان كينيدي واستشاطا غضبًا بأن فيدل قد أعطى أراضي كوبية لخروتشيف لنصب صواريخ نووية. لم يكن لدى الرئيس علم بالرسالة الهرمجدّونية، ولكن لو تسربت بطريقة ما عندما كان يعد العدة لإعادة انتخابه عام 1964 فإن خصومه الجمهوريين سيكون بيدهم قضية بالغة السوء يثيرونها ضده. ويكفي سوءًا أن التخريب والهدم الكوبي في أمريكا اللاتينية بلغ مرحلة جديدة من الشدة وأن الكرملين يرفض سحب بضعة آلاف من جنود الاحتياط الذين يحتفظ بهم في الجزيرة. ولو بقي كينيدي على قيد الحياة لكانت هذه القضايا مادة جيدة لحملة ساخنة جدًا[38].

يقول الصحفي تشارلز بارتلت Charles Bartlett صديق الرئيس والمطلع على ما يفكر به ومؤتمن عليه، في مقابلة تحدث فيها شفهيًا عن حوارات تاريخية أن كينيدي "لم يفكر فعلًا بأن إعادة انتخابه ستكون عملًا سهلًا. ولعلها ستكون حملة تثير الاهتمام ... اعتقد أنه قد يحاور في موضوع كوبا". وقد أظهرت بعض استطلاعات الرأي نقاط ضعف واضحة بجلاء. فقد أظهر استطلاع لمؤسسة هاريس Harris أجري في تشرين الأول/أكتوبر أن 42 بالمئة فقط من الذين شاركوا اعتقدوا أن كينيدي يقوم بعمل ممتاز أو جيد نوعًا ما في "تعامله مع كاسترو". أما فيدل الذي ما زال في السلطة، وما زال ينخز بمهمازه، يدين

ويجابه "العدو الإمبريالي" فسوف يكون على الأرجح قضية بسمة للحملة مثلما كان أثناء حملة كينيدي عام 1960 بمواجهة ريتشارد نيكسون[39].

إذن، تجددت حرب تخليص كوبا من كاسترو في آذار/مارس ونيسان/أبريل عام 1963. وعلى سبيل الموازنة يمكن القول إن هذا الهجوم الثالث والأخير للإطاحة بفيدل كان الأكثر طموحًا والأكثر شرًا.

يقول هلمز في شهادته "يجب أن يكون ثمة شيء أكثر تطورًا". وقال مستذكرًا تلك الأيام مرددًا ما سبق وقاله بأنه "لا توجد حدود لما كنا نحاول فعله. لم يقل أحد لنا لا تفعل هذا أو ذاك". كان يعرف أن العداوة التي كبرت بين كاسترو وكينيدي باتت ورمًا. التنافس بينهما على النفوذ في أمريكا اللاتينية، والأشكال المتعددة للتخريب التي كان يمارسها كل منهما ضد مصالح الآخر والذكريات التي لا زالت قائمة عند كل منهما عن أزمة الصواريخ جعلت الاثنين في حالة من الحرب الافتراضية.

وكانت أولوياتهما تصطدم في أمريكا اللاتينية. كان كينيدي يخصص لهذه المنطقة وقتًا أكثر من أي جزء آخر في العالم، وكانت تنتابه الهواجس حيال أي بلد آخر قد يقع تحت سيطرة فيدل. خلال مدة رئاسته التي لم تكتمل استطاع أن يلتقي وجهًا لوجه مع خمسة عشر من أصل ثمانية عشر رئيسًا تنفيذيًا في أمريكا اللاتينية باستثناء كوبا، وأن يقوم بثلاث زيارات إلى تلك المنطقة ويتشاور داخل البيت الأبيض مع سفراء وسياسيين ومفكرين لا حصر لهم في شأن أمريكا اللاتينية. واجتمع مرتين مع الأثير لديه منهم الرئيس الفنزويلي المهدد بالأخطار رومولو بتانكورت، وأسس كينيدي تحالف التقدم، وهو برنامج مساعدات ضخم يشجع الزعماء في هذا الإقليم على القيام بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية لتكون وسيلة دعم لهم في مواجهة الأعمال الهدامة التي تقوم بها كوبا.

كان كينيدي وكاسترو يتنافسان على النفوذ وبخاصة لدى جيل الشباب من اللاتين. وتكاد لا توجد زاوية بعيدة في أي مكان في العالم لم تكن فيها صورة

فيدل واسمه على كل لسان حتى بين الفقراء وغير المتعلمين. لكن شهرة كينيدي ومحبته كانت أيضًا تحقق نجاحات جيدة. تذكر الصحفية لورا بيرغست Laura Bergquist أنها في زياراتها العديدة تحدثت مع "ثوار شباب يحرقون أهراءات الحبوب كانوا مؤيدين لكاسترو" لكنها وجدت لدهشتها أنهم يتعاطفون أيضًا مع كينيدي. وقالت: "إنه ليدهشني كيف استطاع الوصول إلى الناس، ليس فقط في الولايات المتحدة، بل في العالم أجمع"[40].

كان توماس مان Thomas Mann سفيرًا للولايات المتحدة في المكسيك وقد استضاف زيارة الدولة التي قام بها الرئيس إلى ذلك البلد في حزيران/تموز 1962. وكان هو أيضًا معجبًا بجاذبية كينيدي الهائلة. جاء فيما كتبه مان بمذكراته التي لم تنشر أن زيارة كينيدي كانت نجاحًا لا يعدله نجاح. وهو لم ير "شخصًا يترك مثل هذا الانطباع في نفوس شعب من بلد آخر في أي زمان ومكان" كما فعل كينيدي مع جماهير المكسيكيين المبتهجين الذين جاؤوا لتحيته. وبالمثل يذكر آلن ستيوارت C. Allen Stewart السفير الأمريكي في فنزويلا ذلك "التأثير المكهرب" الذي أحدثه كينيدي يوم تنصيبه في ذلك البلد وفي جميع أنحاء أمريكا اللاتينية عمومًا[41].

وبسبب التهديد الكوبي أشار كينيدي ذات مرة إلى هذه المنطقة بأنها "المنطقة الأشد خطرًا في العالم". وبضغط وإلحاح كبيرين من ماكون وأمام تلك التقييمات المتشائمة للسي آي إيه لم يشك الرئيس قط بأن بلدًا واحدًا أو أكثر من بلدان أمريكا اللاتينية كانت عرضة لاعتداءات كوبية. في تقييم استخباراتي قومي خاص صدر في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر 1963 كان ثمة تحذير بأن "كاسترو لن يُخَفِّض إلى درجة كبيرة تحريضه على التخريب". خلاصة القول، وكما كان هلمز يعتقد، وذكره في شهادة أدلى بها، كان كاسترو وكينيدي "في مرحلة سحب الخناجر، وعلى مقربة من القتال". كانا مثل رجلين في الشارع كل منهما على أتم الاستعداد لتوجيه ضربة مميتة أو إن رأى أحدهما شخصًا قادمًا أشاح بوجهه إلى الجانب الآخر[42].

* * *

بتاريخ الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1963 أحيط الرئيس علمًا بآخر المستجدات حول مسار تقدم الحملة الخفية ضد كوبا. كان ذلك قبل عشرة أيام من اغتياله في مدينة دالاس، وكان الأخير من الاجتماعات الكثيرة العالية المستوى التي حضرها في الشأن الكوبي. جلس فتزجيرالد في الكرسي المخصص لمن يقدم الإحاطة إزاء الطاولة الطويلة المزخرفة في حجرة مجلس الوزراء بالبيت الأبيض، جنرال مدني يرفع تقريره للقائد العام.

وانضم إلى الأخوين كينيدي سبعة من وزراء المجلس ومسؤولون من مستوى دون المجلس، وكان بينهم وزير الخارجية ووزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان المشتركة. مثل هذا الحضور الرفيع المستوى كان أمرًا غير عادي. فمثلًا وزير الدفاع ماكنمارا قلما يحضر مثل هذه الاجتماعات حول كوبا. لكن هذا الاجتماع وصف بأنه ذو أهمية قصوى. كان البيت الأبيض، وكذلك السي آي إيه، يعتقدان أن ساعة الصفر في الحرب الخفية على كاسترو آخذة بالاقتراب. فكان ثمة خطط عملياتية تتلاقى مع بعضها، وكان ثمة إحساس ملموس بالاستعجال[43].

كان برنامجًا للسي آي إيه، لذلك حضر الاجتماع في هذه الغرفة خمسة ضباط من ذوي الرتب الأعلى. وكان هنالك ماكون وهلمز وبروس تشيفر Bruce Cheever معاون فتزجيرالد في هيئة الشؤون الخاصة SAS. وقدم شاكلي بالطائرة من ميامي. شكل هذا الاجتماع مجهودًا كاملًا بكل تنوعات جوانبه، كيف لا والأخطار عظيمة!

افتتح الاجتماع ماكون وبعد بضع دقائق تولى الكلام فتزجيرالد، فقال: "لقد تكثفت الجهود الاستخبارية الكوبية المضادة واشتدت كثيرًا خلال الشهور الماضية. وازدادت خسائرنا. وهذا ينطبق بصفة خاصة على الفرق "السوداء" (في العمل السري). نظام الرقابة الكوبي وكذلك نظام التقنين يجعلان البقاء المتواصل لهذه الفرق عرضة للمزيد والمزيد من الأخطار"[44].

وقد واجهت فرق جواسيس الوكالة مشكلة في البقاء شبيهة بتلك

المشكلات التي أهلكت المتطوعين الكوبيين الذين قاتلوا مع جماعات حروب العصابات الأجانب: ألا وهي مشكلة الجوع. بات البحث عن غذاء كاف وهم يهربون أمرًا مستحيلًا إلى حد ما دون التخلي عن الأغراض التخريبية. محضر البيت الأبيض الرسمي لهذا الاجتماع أكد ذلك، إذ جاء فيه: "تكمن أسباب تزايد أرقام الخسائر في ازدياد فاعلية قوات الأمن الداخلي عند كاسترو والاكتشاف الذي يحصل عندما يحاول العملاء الحصول على الطعام".

إنما بصرف النظر، أكد فتزجيرالد للمجتمعين في تلك الغرفة أن هيئة الشؤون الخاصة SAS سوف "تكثف عملياتها في ضروب أخرى من الاستخبارات". وطبقت السي آي إيه سلسلة كاملة من كل شيء تعلمته ومارسته في جميع أنحاء المعمورة، بالإضافة إلى الخدع والهجوم المخادع التي لم تجربها سابقًا. وصفت هذه الخطة بأنها "برنامج من ست نقاط متكاملة ضد كوبا". كان المشاركون المجتمعون يعرفون غرضها ومعاييرها العامة لكن معظم التفاصيل كانت جديدة لأغلبيتهم.

كان تشيفر يسجل محاضر اجتماعات الوكالة، وتشكل مذكرته "السرية" التي رفعت عنها السرية بالكامل مؤخرًا سجلًا شاملًا لما تمت مناقشته. لا توجد وثيقة أخرى للسي آي إيه تكشف بهذا الشكل الرائع المسرحي ضخامة هذه الحرب غير المعلنة ضد كوبا عشية وفاة الرئيس كينيدي، كما أنها تزيل كل الشكوك حيال تواطؤ الرئيس بهذه الحملة الوحشية العنيفة. وما يثير السخرية أيضًا أن شقيقه الذي يعد أكبر مسؤول عن تطبيق القانون والنظام في الولايات المتحدة هو المدافع الأكثر تطلبًا في هذه الحملة[45].

كان التجميع السري للمعلومات الاستخبارية البند الأول في الإحاطة التي قدمها فتزجيرالد. وقد شعر بالاطمئنان إزاء طريقة أداء هيئة الشؤون الخاصة SAS. إنما على الرغم من الخسائر المتكبدة لصالح الأمن الكوبي فقد كان ثمة مكمّل متنوع للجواسيس في هذه الجزيرة. وقد أتى على ذكر أربعة وسبعين عميلًا فردًا يعملون كل بمفرده و "يتصلون بنا مباشرة". وهؤلاء الذين يتصلون بالراديو كانوا الهدف الرئيسي لجهود أسبلاغا في معرفة الاتجاه. وهنالك تسعة

وسبعون عميلًا ثانويًا مقيمون في كوبا ويعملون في شبكات تجسسية. كما يوجد فريق كومندوس "أسود" مكون من خمسة وخمسين عميلًا ثانويًا في شبكتهم يعملون في إقليم بينار ديل ريو Pinar del Rio في أقصى الغرب[46].

وكان ثمة بندان آخران في الإحاطة التي قدمها فتزجيرالد هما الدعاية المغرضة وبرامج التخريب. لم تكن البرمجة قد وضعت حول أفكار مستترة وعالية الذكاء مثل قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان النبيلة، أو على الطريقة التي باتت بها كوبا تابعًا للاتحاد السوفياتي. بل كانت قائمة على تحريض الشعب "لإثارة أعمال تخريبية قليلة المخاطر" والمقاومة. وكانت محطة إذاعة راديو سوان Radio Swan، العاملة في جزيرة صغيرة غرب الكاريبي ثم تنازلت عنها الولايات المتحدة لصالح هندوراس، تبث ثلاث عشرة ساعة يوميًا. وكانت البرامج تركز على جماعات محددة هي الطلبة والمؤسسة العسكرية الكوبية والعمال وغيرهم.

اعتبر هذا العمل ناجحًا بكل ما في الكلمة من معنى. فكان ثمة "تقدم طفيف" في عمليات التخريب. ولدى السي آي إيه تقارير تتحدث عن 109 عمليات من هذا القبيل ارتكبت منذ شهر نيسان/أبريل الفائت، كان منها "تخريب قاطرات وسكك حديدية، وتدمير أعمدة التوتر العالي، وإحراق شاحنات ومصانع". وقال ديز كان بعض هذه الهجمات الأخيرة ناجحًا في تخريب "محطة كهرباء ومنشآت تخزين النفط، ومنشرة أخشاب. ونفذت عملية تخريب من تحت الماء لرافعة طافية في ميناء كوبي". يبدو أن الدعاية المغرضة تجد سبيلها للنجاح. فالكوبيون في الجزيرة صار لديهم الحافز ليقوموا بهجماتهم التخريبية ضد النظام الكوبي من تلقاء أنفسهم. ولكن ثمة سبب آخر لهذا التحسن في العمل التخريبي لم يعترف به ديز[47].

يتحدث شاكلي في مذكراته عن استحداث جماعة شبه عسكرية في المنفى من الصفر أطلق عليها تسمية فرقة كومندوس مامبيزيز Commando Mambises تيمنًا باسم جماعة كوبية قامت بحرب عصابات من أجل استقلال بلدهم ضد إسبانيا في أواخر القرن التاسع عشر. ووضعت المحطة تصميمًا

لرقعة توضع على الكتف ترمز لعلم كوبي رمزي ومحارب ممتطيًا صهوة جواد. وكانت فرقة الكومندوس هذه التي استحدثها شاكلي متخصصة بعمليات تخريب تحت الماء وكانت بإدارة JMWAVE. بدأت تهاجم الأهداف الكوبية في أواخر صيف عام 1963 تنقلها سرًا إلى الجزيرة زوارق البحرية. فقد وافق شاكلي في شهر نيسان/أبريل على استخدام عبوات التفجير اللاصقة – وهي عبوات تفجير زنة خمسة أرطال يلصقها رجال الضفادع البشرية مغناطيسيًا على جوانب السفن تحت خط المياه[48].

تم تنفيذ عدد من الهجمات على مدى الشهور القليلة التالية، كان منها هجوم على مستودع تخزين النفط وخطوط أنابيب نقل النفط ومنشرة أخشاب وزوارق دورية ساحلية. بعض هذه الأهداف كانت ضمن ما ذكره فتزجيرالد. غير أن شاكلي قال في مذكراته كان من الصعب التمييز بين عمليات التخريب التي تنفذها فرقه الجديدة والعنف الذي تقوم به بشكل مستقل جماعات من أشخاص معارضين للنظام داخل الجزيرة. لكنه ادعى بأن "أحداثًا عفوية كانت تحصل عقب عملية من تنفيذ كومندوس مامبيزيز مباشرة"[49].

كان ديز مسرورًا على نحو خاص بالأعمال الهادفة إلى إرهاق الاقتصاد الكوبي وإماتته، وهذا هو البند الرابع في قائمته. وقال أمام الاجتماع المنعقد في البيت الأبيض بأنه عند المقارنة "كان لهذا البرنامج الحكومي الواسع أثر أكبر" من أي شيء جرى تنفيذه من قبل بهدف الإطاحة بكاسترو. معظم إجراءات المقاطعة الاقتصادية – بما في ذلك حظر السفر الذي طال معظم الأمريكيين – لا تزال سارية المفعول حتى كتابة هذه السطور، أي بعد خمسين عامًا من تطبيقها، وقد تعززت ومُدِّدت مرتين بتشريعات صدرت في التسعينيات. لا توجد دولة أخرى استهدفتها الولايات المتحدة بمثل هذه العقوبات الاقتصادية والاعتداءات كما حصل لكوبا في عهد كاسترو إبان سنوات حكم كينيدي.

كانت البرامج السرية تكمّل الكثير من البرامج المعلنة الهادفة إلى خنق النظام اقتصاديًا. وكان يجري الحديث عنها في الأوساط السياسية المهذبة بأنها

"الرفض الاقتصادي"، لكن لغة أقل تهذيبًا تستخدم في دهاليز هيئة الشؤون الخاصة SAS المطلية باللون الرمادي. فقد استخدم الجنرال كارتر المعروف بفظاظته في جلسة استماع لتحقيق أجراه الكونغرس عبارة "الإمساك بخصيتيه بكل قوة". لكنه هو وغيره كانوا يفضلون عبارات أكثر شيوعًا تستخدم ضمن الغرف المغلقة عند الحديث أمام الأصدقاء[50].

لا يوجد خط أحمر لأي شيء تقريبًا. كان ثمة حديث على مستوى رفيع حول استخدام عناصر بيولوجية للقضاء على المحاصيل الزراعية الكوبية. تذكّر كارتر ما قاله للوكالة ماكجورج بوندي McGeorge Bundy مستشار الرئيس للأمن القومي "لا تقلقوا" بهذا الشأن. لا أعلم بوجود دلائل على تنفيذ هكذا خطط، مع أن فيدل حتى هذا اليوم ما يرح يؤكد إصراره بأنها نُفِّذت على مستوى كبير الضرر.

وبرغم ذلك، نُفِّذت بصورة روتينية كثير من أعمال الإرهاب بالغة القسوة. فقد تناقلت الألسن داخل لانغلي بأن قططًا سائبة كانت تغمر بالبنزين وتضرم النار فيها فتركض بجنون وتشعل الحرائق في حقول قصب السكر. وأوكل إلى العملاء في كثير من البلدان مهمة تعطيل المحركات وخزانات الوقود في المركبات التي تشتريها الحكومة الكوبية قبل تحميلها على الشاحنات[51].

هذا وقد عمل فتزجيرالد على تجنيد بيل ستاربتس Sturbitts، وهو من قدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية ومحلل مكتبي في مديرية التحليل في السي آي إيه، لتحريك هذا المستحضر القوي المرعب. وكان اثنان من الأعمال العقابية التي طلع بها الرجلان قد نفذا بحدود القانون الأمريكي، أما غيرهما من أعمال فقد كانت أعمالًا إجرامية بكل المقاييس.

يتمثل أحد هذه الأعمال في بيع قطع تبديلية صناعية طالتها أعمال التخريب إلى كوبا عبر بلد ثالث. فقد أقر ستاربتس لاحقًا: "كنا نطلب من عملائنا الحصول على الطلبيات الكوبية في جميع أنحاء أوروبا. ونذكر أيضًا "هدف فرصة" – سفينة شحن تنقل السكر الكوبي إلى الاتحاد السوفياتي التي

بمحض المصادفة أصيبت بثقب في قاعها واضطرت للتوقف في بورتو ريكو للإصلاح. ورتبت هيئة الشؤون الخاصة SAS بأن يجري وضع مادة غير ضارة في السكر بشكل خفي فتجعله حامضًا لا قيمة له، وقد تلقت الوكالة ثناء على عملها هذا وشجاعتها[52].

وكان ستاربتس يدير ما أسماه برنامج شراء استباقي. قال "إذا علمنا بوجود مصدر واحد لتوريد سلعة معينة فنحن نتدخل ونشتريه لنبعد الكوبيين عن هذه السوق". عملية واحدة من هذا النوع منعت الكوبيين من شراء النفط الثقيل الذي كانوا بأمس الحاجة إليه. وقام العملاء بالاتصال بأكثر من ستمئة شركة أمريكية لإقناعها بعدم بيع قطع تبديلية إلى كوبا من خلال شركاتها الفرعية الخارجية. وتذكّر ستاربتس أن شركة واحدة لم ترفض التعاون. وتحدث أيضًا عن أعمال تكللت بالنجاح لمنع الحكومة الكوبية من الدخول في مزايدات في أوروبا وكندا بخصوص مجموعات فنية قيّمة وخيول سباق مصادرة من العائلات الثرية. "لقد قمنا بعمليات قانونية، جئنا بالمالكين وطلبنا إليهم توكيل المحامين وتقديم الحكومة الكوبية إلى العدالة"[53].

واعترف فتزجيرالد أيضًا بأنه كان مسرورًا بسير أعمال ما يسمى الجماعات المناهضة لكاسترو ذات التسيير الذاتي – وهذه أيضًا نقطة تجميلية تستخدمها الوكالة ومجالس السياسات. اثنان من الزعماء البارزين في المنفى – وكلاهما أثير عند بوبي كينيدي – قد تم تحريضهما وتزويدهما بالسلاح والمال الكثيرين من JMWAVE للقيام بهجمات تخريبية وجاسوسية من قواعد في أمريكا الوسطى. لذلك يسهل إنكار انشطتهما. كان ديز مبتهجًا. أخبر الرئيس والآخرين المجتمعين داخل قاعة مجلس الوزراء بأن "هذه الجماعات سوف تخفف من بعض الضغط على عملياتنا التي نعتقد أنها مفيدة جدًا".

لكن شاكلي كان متشككًا منذ البداية، ليس أدناه أن تلك "الجماعات ذات التسيير الذاتي" تعمل من خارج سيطرته. أشار في مذكراته أن واحدة منها لم تكن قادرة قط على فعل شيء. أما الأخرى، التي كانت بقيادة مانويل أرتايم Manuel Artime، الناجي من معركة خليج الخنازير، فقد بدت في بادئ الأمر

واعدة، إلا أن شاكلي قال ساخرًا بأن الدعم الذي قدمه إلى أرتايم "تبين بأنه فعل حب لم يعط نتيجة ملموسة". وقال للمؤلف دون بوهننغ Don Bohning بأنها كانت عملية بوبي كينيدي و"عملية لا جدوى ترجى منها"[54].

ومرة أخرى كان شاكلي مصيبًا. ذكر فيدل في خطاب ألقاه في آذار/مارس 1966 أن المخابرات العامة الكوبية اخترقت قلب مجموعة أرتايم منذ نشأتها قبل ثلاث سنين مضت. وهذا الاعتراف مثال نادر لتباهي كاسترو على الملأ بانتصارات المخابرات الكوبية. وقال جميع الأسلحة المسلّمة سرًا إلى الجزيرة من قبل أرتايم في سبع عشرة عملية تسلل استعيدت واستخدمت لاحقًا من قبل قوات الأمن الكوبية. ثم أضاف بضربة عنيفة للسي آي إيه تحتمل بعض التنبوء كما تحتمل اللبس في المعنى وتعبير بلاغي قائلًا: "لا أحد يدري كيف علمنا، لكننا نعلم، نحن نعلم كيف نعلم"[55].

كان المقصود بالبند الأخير من البنود التي تحدث عنها فتزجيرالد في إحاطته أن يكون الضربة القاضية. فهو البند الذي يتحدث عن عمله السري الذي وضع فيه أضخم استثماره الشخصي. وضع نفسه ووزير العدل معًا في دائرة أخطاء عظيمة. فقد كانت هيئة الشؤون الخاصة SAS ومحطة JMWAVE يحاولان بقوة وجهد كبير على جبهات عدة ليبذروا بذور الشقاق والتمرد في صفوف القوات المسلحة بقيادة راؤل كاسترو. وكان ذلك هدفًا رئيسيًا في السياسة تمت الموافقة عليه على أعلى المستويات منذ مطلع العام والهدف، بالطبع، القيام بانقلاب عسكري.

وقال فتزجيرالد متعمدًا إخفاء نغمة موسيقية في نبرة صوته: "وقد أنجز تقدم بطيء إنما مشجع". وقد أتم فريق عمله بالتعاون مع وكالة استخبارات الدفاع دراسات مفصلة للسير الذاتية لنحو 150 شخصية عسكرية هامة. كان منهم زهاء خمسة وأربعين من ذوي "الاهتمام الخاص". كما قال فتزجيرالد مضيفًا "ونحن حاليًا على اتصال مباشر مع 'ثلاثة من أبطال الثورة'". لم يكن هذا لقبًا شائع الاستعمال في كوبا آنذاك، لكن ديز كان مصيبًا، وكانت هيئة الشؤون الخاصة SAS على اتصال مع عدد قليل من القادة العسكريين الذين

"يحتاجون لأن نؤكد لهم ... بأنهم 'إن أطاحوا بكاسترو' فسوف ينظر إليهم في الولايات المتحدة بتقدير عال"[56].

كان أكثر هؤلاء الرجال أهمية رجل اسمه رولاندو كوبيلا Rolando Cubela، وهو بطل ثوري بارز وإن كان غريب الأطوار أحيانًا. أصيب بجروح أثناء حركة التمرد المناهضة لباتيستا، وبات قائدًا محبوبًا لدى الطلاب الثوار المعجبين به، وهو طبيب برتبة قومندان - أو رائد بالجيش - وذلك قبل السبعينيات حين أدخل نظام رتب الضباط الجنرالات، إذ كانت هذه الرتبة أعلى رتبة في القوات المسلحة.

كان كوبيلا يلتقي سرًا بضباط السي آي إيه في عواصم أجنبية منذ مطلع عام 1961، وتم تجنيده عميلاً موثوقًا به في آب/اغسطس عام 1962، وحتى هذا التاريخ لم يكن لدى الوكالة مصدر رفيع المستوى داخل النظام الكوبي. وقد اعترف شاكلي في مذكراته بأنه "كان كل ما لدينا ضباط صف، وضباط لوجستيين وأشخاص يتعاملون بالأطعمة، هم مفيدون في الماضي لكن ليسوا ما نحتاجه للقيام بانقلاب". وهنالك وثيقة أخرى من وثائق الوكالة تعود لتلك الفترة الزمنية كشفت بأن أحدًا ممن لدينا ليس من "مستوى رفيع أو يؤتمن على القرارات السياسية والعسكرية الأساسية". واعتقدوا بأن كوبيلا من الذهب الخالص[57].

استمر اجتماع المجلس الحربي في البيت الأبيض لما يزيد قليلاً عن نصف ساعة. سأل الرئيس عما إذا كانت الهجمات البحرية جديرة وما إذا كانت تسهم بهدف القضاء على كاسترو. وكان روبرت كينيدي مؤيدًا لهذه الهجمات، ويعتقد بأن جهود الوكالة قد "أنتجت أثرًا جيدًا". وافق وزير الدفاع ماكنمارا. وكان وزير الخارجية دين راسك Dean Rusk الوحيد الذي أعرب عن تحفظاته بخصوص ما فضل أن يدعوه "غارات اضرب واهرب". وفي الختام أعطى الرئيس تفويضًا للقيام بهجمات تخريبية إضافية. هجمة تستهدف رصيف الميناء والثانية تستهدف منشرة أخشاب. وحدد الموعد لهما في نهاية الأسبوع المقبل السادس عشر والسابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر.

وهكذا، استمع رئيس الولايات المتحدة وشقيقه – وزير العدل – ومجلس الأمن القومي جميعًا بهدوء ودون اعتراض وباتوا جميعًا مشاركين بأعمال تشكل حملة إرهاب دولي مدروسة ومتعمدة وكبيرة الحجم. كتب المؤرخون عن ثقة الرئيس الصامتة بأنه سوف ينال من فيدل. وأشار غاري ويلز Garry Wills قائلًا: "خيار واحد لم يفكر به الأخوان كينيدي .. ألا وهو أن يتركوا كاسترو وشأنه"[58].

* * *

بعد عشرة أيام جلس تايني أسبلاغا وحيدًا في كوخه الصغير في خيمانيتاس، وتحديدًا في الصباح الباكر من يوم الجمعة 22 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1963. وحوالي الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف كما يتذكر تلقى رسالة مرمزة بالراديو من مقر رئاسته. لا يوجد هاتف في المبنى حيث ينهض بالقسم الأعظم من عمله. حملت هذه الرسالة تعليمات له بأن يذهب إلى المبنى الصغير الثاني الذي يستخدمه ويبعد عن الأول نحو مئة ياردة ويستخدم الهاتف الآمن هناك ويتصل ليتلقى التعليمات.

وجاءه الأمر بأن يوقف جميع أعماله التي تقتضي اقتفاء آثار السي آي إيه. لقد كان عمله خلال أشهر أو نحو ذلك في هذا المكان وللأعوام الاثني عشر التالية يستهدف فقط جواسيس الوكالة في الجزيرة والغارات من البحر. لا شيء آخر له أهمية. لقد كان ذلك الصباح من شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام 1963 الاستثناء الوحيد. كما تذكر فيما بعد.

"القيادة تريد منك أن توقف جميع عملك المتعلق بالسي آي إيه، جميع عملك هذا". وطُلب إليه أن يعيد توجيه الهوائيات بعيدًا عن ميامي وعن مقر الوكالة في فرجينيا. كان النهار مشرقًا وساطعًا ولم يكن بحاجة لمراقبة غارات بحرية يقوم بها مخربون من JMWAVE التي تحدث عادة في الليل.

بل أُمر بأن يستمع لجميع الاتصالات الواردة من تكساس.

قال لي أسبلاغا: "طلب إلي أن أستمع لجميع الأحاديث وأن أتصل بالقيادة

إذا سمعت بأن شيئًا هامًا يحدث، ووضعت جميع ما لدي من أجهزة لأصغي جيدًا لأي تفاصيل دقيقة ترد من تكساس. قالوا لي تكساس".

ثم قال: "وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات بدأت أسمع إذاعات على موجات تبث من راديو هواة حول إطلاق النار على الرئيس كينيدي في مدينة دالاس".

قُتل كينيدي عند الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر بتوقيت دالاس أو الواحدة والنصف بعد الظهر بتوقيت هافانا. وأبلغني أسبلاغا بأنه ولّف أجهزته على ترددات تكساس قبل ثلاث ساعات تقريبًا.

قال: "كان كاسترو يعلم. كانوا يعلمون بأن كينيدي سوف يقتل".

الفصل السادس

قتل الطغاة

أبرز عنصر المخابرات العامة الكوبية البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا جواز سفر كوبياً دبلوماسياً مزوراً يحمل اسم فيسنت راميرز لوبيز Vicente Ramirez Lopez. لكن اسمه الحقيقي كما ستكتشف السي آي إيه قريبًا هو فلاديمير رودريغز لاهيرا Vladimir Rodriguez Lahera. وهو أول شخص ينشق ويفر من قلب الاستخبارات الخارجية الكوبية[1].

لم يكن رودريغز لاهيرا ينطق بكلمة إنكليزية واحدة عندما خرج من الطائرة التابعة للخطوط الجوية الكوبية Cubana Airline عندما حطت في هاليفاكس، بإقليم نوفا سكوتيا بكندا المطلة على المحيط الأطلسي في 21 نيسان/أبريل عام 1964. نظر نظرة شاملة فاحصة إلى مدرج المطار باحثًا عن موظف حكومي كندي يدنو منه ليقول بأنه يريد اللجوء السياسي. قد لا يكون ثمة وقت كاف، أو لعل هذه فرصة سانحة واحدة، ليقنع السلطات بأن حياته ستكون في خطر لو أجبر على العودة إلى الطائرة.

كان مطار هاليفاكس الواقع عند منتصف المسار الطويل شمالي الأطلسي ما بين هافانا وبراغ محطة توقف للتزود بالوقود لجميع الخطوط الجوية الكوبية الحكومية. وكان مسافرو الترانزيت القادمون من الدول الشيوعية يهربون إلى الحرية من هذا المكان في السابق. لكن الهروب محفوف بالأخطار. وكان رودريغز

لاهيرا يعرف من خلال عمله في مقر مديرية المخابرات العامة أن عددًا لا بأس به من مواطنيه الموجودين في الطائرة، بمن فيهم المضيفات، هم من العناصر أو المخبرين في أمن الدولة، وهم مدربون على مراقبة المنشقين[2].

كانت حياته عرضة لخطر داهم. إن أوقع الكوبيون به قبل أن يدافع عن قضيته فسيكون مذنبًا بالخيانة وتضاعف العقوبة لضعفين أو ثلاثة أضعاف. سوف يُتَّهم بأنه لص بالإضافة إلى الخيانة، ذلك أنه يحمل كنزًا ثمينًا صغيرًا من الوثائق السرية العائدة للمخابرات العامة والمحشوة جميعًا داخل حقيبة وثائق ويحمل أيضًا حشوة سماكتها إنشان من أموال سُرقت من حسابات رسمية. وكان ضمن ما بحوزته 127 ورقة فئة عشرين دولارًا أمريكيًا ومبلغ صغير من "الكولون"، عملة السلفادور. وسيكون مصيره الإعدام في سجن معتم بالجزيرة بسبب ما ارتكبه من جرائم لو أعيد إلى الكوبيين[3].

بعد الانتهاء من استجوابه في هاليفاكس نقل إلى أوتاوا حيث أوضح أمله بأن ينقل سريعًا إلى الولايات المتحدة. له أقارب في نيويورك وميامي ويريد أن يدلي للسلطات الأمريكية بكل ما يعرفه عن المخابرات الكوبية والعمليات التخريبية. وهو مثل أسبلاغا وكثير من المنشقين الكوبيين الذين جاؤوا بعده، صار رودريغز لاهيرا يزدري كاسترو والنظام الذي جاء به.

ينتمي لاهيرا إلى أسرة ريفية فقيرة تعيش في منطقة أورينته Oriente عند الطرف الشرقي للجزيرة وتعلم في المدارس لنحو أحد عشر عامًا. يتبين من رسائله إلى زوجته لويزا Luisa التي تركها في هافانا بأنه كان أثناء دراسته ذكيًا ومبدعًا. بعض هذه المراسلات موجود في ملفات السي آي إيه التي كانت ذات حساسية عالية جدًا وقد رفعت عنها السرية في أواخر التسعينيات. وتكشف بتفصيل صيغ بأسلوب رشيق ورائع كل شيء يعرفه عن المخابرات الكوبية وكذلك العمل المحفوف بالأخطار الذي قام به لصالح السي آي إيه بعد انشقاقه. لا يوجد منشق مخابراتي من أي جنسية كان له تاريخ عمليات كشف عنها بالكامل كما لهذا الشخص.

لقد كان كما جاء في تقييم السي آي إيه لأدائه "جذابًا حسن المنظر ذكيًا وذا بصيرة ينظر في عواقب الأمور". وقد أثبت لاميرا بأنه "يتمتع بثقة بالنفس وشجاع، حاضر البديهة. وكان متفوقًا في أدائه في جميع المهام الموكلة إليه". ويتذكر أمريكي كوبي صديق له في تلك الفترة أنه كان "اجتماعيًا ولم يكن متفاخرًا". واشتد عوده ولخشوشن في حركة كاسترو الثورية التي انضم إليها عام 1957 حين كان في الواحدة والعشرين من عمره. وارتقى سلم الدرجات من مجند إلى رتبة ملازم، وكانت بداية عمله في عمليات التخريب داخل المدن وفي عمليات الدعاية المغرضة، وأمضى حكمًا بالسجن في أحد سجون باتيستا ثم ذهب إلى الجبال ليحارب الدكتاتور. وهناك انضم إلى هوبر ماتوس Huber Matos أحد قياديي الثورة الأكثر شعبية[4].

لكن ماتوس تخلى عن فيدل بعد تسعة شهور من انتصارهم، وذلك عندما انتقد النفوذ المتنامي للعملاء الشيوعيين في الحكومة الجديدة. قُدِّم الزاهد ماتوس إلى محكمة "غير شرعية" لا تراعي مبادئ القانون والعدالة وحكم عليه بالسجن لمدة عشرين عامًا. في هذه الأحداث تكونت جذور مشاعر لاميرا بالنفور والاغتراب. البطل الذي اقتدى به حارب إلى جانب كاسترو، لكن حربه هذه كانت من أجل كوبا حرة وديمقراطية. رحلت الدكتاتورية القديمة، ولكن بدأت تتشكل دكتاتورية جديدة. وكانت جريمة ماتوس الوحيدة أنه قال الحقيقة عن ازدواجية فيدل[5].

كان "لادي"، وهو الاسم الذي أطلقه تحببًا على رودريغز لاميرا أصدقاؤه الأمريكيون الجدد، قد خدم نحو تسعة شهور فقط برتبة ضابط أركان في المخابرات العامة عندما انشق. وكان قوي الملاحظة وفضوليًا ولديه ذاكرة حفظ قوية، وقد بدأ يخطط لمساعدة الأمريكيين وهو لم يمض بعد إلا وقتًا قصيرًا في المخابرات. دهش كل من استجوبه في السي آي إيه من ذلك الكم الكبير من المعلومات المفصلة التي جلبها معه. صدر نحو 320 تقريرًا استخباراتيًا كاملًا حول آلية العمل الداخلي للمخابرات الكوبية استنادًا لما أخبرهم به. أما المعلومات ذات القيمة العملياتية العليا فقد كانت أكثر كمًا.

لقد كان لادي أثمن استحواذ كوبي حظيت به السي آي إيه لغاية انشقاق أسبلاغا بعد ثلاثة وعشرين عامًا. أنا لم ألتقِ به، إنما عندما كنت أعمل محللًا حديث السن في الشأن الكوبي تكوّنت لدي معلومات عن تقاريره الخارقة، وكنت أعتمد عليها كما لو أنها كتاب مقدس. راي روكا Ray Rocca معاون جيم أنغلتون Jim Angleton في هيئة الاستخبارات كان محقًا عند وصف رودريغز لاهيرا بأنه "منجم ذهب عملياتي"[6].

الذخيرة الأم للأسرار الكوبية التي جلبها معه كانت لإطلاع السي آي إيه عليها فقط، ولكن ما إن وصل إلى أوتاوا لم ينتظر طويلًا، ذلك أن هارولد "هال" سوينسون Harold "Hal" Swinson، الضابط الطويل القامة، والرياضي الهيئة، في السي آي إيه وذو المظهر القيادي، والمشية الواثقة الخطو، كان على متن الطائرة التي أقلته من واشنطن حالما وصل خبر الانشقاق إلى مقر الوكالة. كان هذا الرجل المولود في بروكلين والماكر المتسم بالعنف والبالغ من العمر تسعة وأربعين عامًا رئيسًا لوحدة الاستخبارات المضادة الكبرى في هيئة الشؤون الخاصة SAS.

عمل لما يقرب من ربع قرن في هكذا عمل حيث ابتدأ عمله عنصرًا في مكتب التحقيقات الفدرالي قبل معركة بيرل هاربر. وكانت واحدة من أوائل مهامه كما تقول ابنته سالي البحث عن قواعد جوية يابانية سرية مشبوهة في باخا كاليفورنيا Baja California في شمال غرب المكسيك. يتقن التحدث بالإسبانية، فأوكل له المكتب فيما بعد منطقة نائية في الأرجنتين قبل أن يضم إلى فرقة مشاة البحرية عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية[7].

كان أول لقاء لسوينسون مع هذا الكوبي ليل 23 نيسان/أبريل. وكان تقريره التمهيدي المرسل إلى لانغلي في اليوم التالي إيجابيًا ومقتضبًا دون عواطف. وحيث إنه محام خريج من جامعة فوردهام Fordham فقد كان حذرًا محترسًا شكاكًا، تدرب على البحث عن رائحة خديعة أو غش، وقلق بشأن أسوأ الاحتمالات. يكره أن يرفع سقف التوقعات عاليًا في لانغلي، وفي بادئ الأمر لم يكن واثقًا بأنه يتعامل مع منشق حقيقي وليس عميلًا كوبيًا. لقد كان سوينسون

متنبهًا دومًا ويقظًا أكثر من ديز فتزجيرالد أو أي شخص آخر في هيئة الشؤون الخاصة إزاء هكذا احتمال[8].

أبلغ المقر الرئيسي بلغة برقية مختزلة بأن هذا الكوبي "متلهف ليكون مع الولايات المتحدة وللتعاون". وبأن "السلطات المحلية راغبة بالسماح له بذلك"[9]. وفي الأول من أيار/مايو وهو ما زال في أوتاوا ينتظر موافقة دائرة الهجرة أرسل عبر الحقيبة الدبلوماسية ثلاثة وعشرين شريطًا لمقابلة مسجلة إلى المقر الرئيسي. وبعد أن تم تفريغ المادة المسجلة إلى كتابة عادية شكلت هذه المقابلات أساس أرشيف كبير الحجم لرودريغز لاهيرا. ثم أضيفت آلاف الصفحات من تقارير إدارية وعملياتية ومعلومات وبرقيات من وإلى المحطات الميدانية التابعة للوكالة لتزيد الملفات المخصصة لهذا المنشق الجائزة انتفاخًا. وفجأة أُغرقت السي آي إيه بمعلومات من الداخل بعد أن كانت في بادئ الأمر في جهل مطبق إزاء الأفراد العاملين في المخابرات الكوبية وعملها وهيكلياتها[10].

في زمن لاحق قال سوينسون أمام لجنة تشرش للتحقيق بأن هذا الانشقاق كان بمثابة مستجمع للأفكار يمد النهر بالمياه. قبل ذلك التاريخ "لم نكن نعلم بأن ثمة مديرية للمخابرات العامة، كانت معلوماتنا مجتزأة". حتى ما بين الكوبيين في الجزيرة كما قال لادي لسوينسون "قليلون جدًا كانوا يعرفون شيئًا عنها أو حتى بوجودها". وقال بأنه كان يشار إلى جهاز التجسس والمستتر في كوبا بالرمز "M" فقط وليس باسمه الحقيقي[11].

والحق يقال إنه كان مستترًا بغطاء جيد جدًا، حتى إن الوكالة لم تتثبت من هويته. لم يكن لدى لانغلي أية شكوك بأن كوبا تدير عمليات استخبارية متطورة وبصنوف عدة ضد المصالح الأمريكية. وحتى بعد أن قدم رودريغز لاهيرا وصفًا جيدًا لمديرية المخابرات العامة فإن أقرب نقطة لهذا التوصيف استطاع أحد الوصول إليها لتحديد أصل ومنشأ الجهاز كانت بأنها تأسست "حوالي عام 1961".

كما أن غالبية منهجيات عملها كانت بعيدة عن تصور الوكالة. بدأ لادي يوضح مهام المخابرات الكوبية وبنيتها الداخلية وقيادتها وعملها الفريد في نوعه قبل مغادرته أوتاوا ليقيم في منزل آمن عند السي آي إيه في إحدى ضواحي فرجينيا. تحدث عن الطريقة التي بها يتواصل العناصر ويسافرون. تحدث عن عشرات من زملائه السابقين - وليس دائمًا بأسمائهم الحقيقية لأنهم جميعًا يستخدمون أسماء مستعارة حتى فيما بينهم. (كان اسمه هو فكتور.) كان يعرف إمكانات هذه المديرية المحدودة في تزوير جوازات السفر وغيرها من الوثائق وفبركتها، وأعطانا كنزًا من التفاصيل حول العمليات الكوبية التخريبية[12].

قدم لادي للوكالة توصيفًا مفصلًا لمخططات المقر المجهول سابقًا لمديرية المخابرات العامة التي تشغل كتلة بناء كاملة داخل مدينة محاطة بأسوار في ضاحية ماريانا و Marianao المغلقة لهافانا. ولأول مرة تتعرف السي آي إيه على الأجزاء الداخلية للمكونات العملياتية الثلاثة للجهاز المعادي. دائرتا "الشرعي واللاشرعي" صممتا وفق نمط قريب جدًا للنماذج المعتمدة في المخابرات الروسية KGB إنما كانت دائرة التحرير الوطني اختراعًا كوبيًا.

وهكذا تأكد سوينسون - المعروف في سجلات السي آي إيه التي رفعت عنها السرية باسم جوزيف لانغوش Joseph Langosch ويعرفه لادي باسم السيد سيفلي Mr Safely - بأنه يتعامل مع منشق حقيقي وصادق. ذلك لأن الأشخاص الأفضلين، مهما كانت جنسياتهم، قادرون على تهدئة المخاوف في غضون بضع ساعات. والشيء المفيد لرودريغز لاهيرا أنه لم يكن في يوم من الأيام عضوًا في الحزب الشيوعي الكوبي ولم يشارك في عمليات هددت حياة الأمريكيين. وجلب معه وثائق من مديرية المخابرات العامة تكشف الكثير من المعلومات.

ومع ذلك فقد جرى فحصه على جهاز كشف الكذب، وكان الكوبيون قد طوروا قبل سنوات مهارات من شأنها التغلب على جهاز كشف الكذب. سئل ستة وثلاثين سؤالًا، كان أحدها مصممًا بحيث يؤكد المسؤول بأنه ليس عميلًا مزدوجًا: "هل لديك أية مهام سرية لا نعرفها نحن؟" وأجاب عنها بصدق وفق

كل المعايير. كتب سوينسون إلى مدير الأمن في السي آي إيه "لا يوجد في ذهني أي شك" بأنه منشق صادق أو بأنه قد زودنا بمعلومات دقيقة وثمينة". بعد ذلك، لم تكن لدى أي قسم في السي آي إيه أية شكوك حيال كونه جديرًا بالثقة[13].

وسرعان ما بات هذا التحول السريع لرودريغز لاهيرا من عنصر كوبي إلى عنصر مخابرات أمريكي أمرًا رسميًا. وأُبرم عقد شفهي خُتم على ما يبدو بمصافحة. وبدأ يكسب 300 دولار أسبوعيًا، وقُدّمت له شقة مفروشة متواضعة[14].

وحول هذا الوقت تقريبًا سحب اسمه السري AMMUG عشوائيًا من قاعدة البيانات. لكن اختيار التسمية السرية كان لها في بعض الأحيان دلالة فيها شيء من الأذى والإزعاج الواضحين، ولعل ذلك في معرض تسلية ضباط الوكالة فيما بينهم، فهم الوحيدون الذين يعرفونها. فمثلًا، كان الاسم السري لفيدل AMTHUG، وراؤل كاسترو AMLOUT، وتشي غيفارا AMQUACK. أما مديرية المخابرات العامة فكان اسمها السري AMPOULA وهي كلمة إسبانية تعني Poppy "الخشخاش". وهنالك مئات من الأسماء التي تبدأ بالحرفين AM في مطلع الستينيات. فهذه السلسلة من الأسماء تشير إلى شيء أو شخص له صلة بالعمليات الكوبية[15].

في شهر آب/أغسطس 1964 وباستخدام اسمه الحقيقي جرى تعيين لاهيرا في مكتب JMWAVE. وبقي هنالك وعلى سجل الرواتب لبضع سنين أخرى يقوم بواجباته التي تضمنت فيما تتضمنه عمليات تجنيد ضد زملاء له سابقين. وحتى في ذلك الحين، وقبل سنوات من تجربة أسبلاغا في لندن، كان ذلك عملًا خطرًا بمواجهة عملاء للمخابرات العامة مسلحين وشديدي الانفعال. وقد مُنح لادي ثناء من الوكالة تقديرًا لـ "شجاعته" التي أظهرها في أسفاره، وكان من شأن هذا الثناء أن رفع من معنوياته وأرضى غروره الذي كان يتراجع في بعض الأحيان[16].

يفتح الانشقاق عند غالبية العملاء جرحًا لمدى الحياة. وهم جميعًا إلى حد ما وبصرف النظر عن جنسياتهم وخلفياتهم، يشكلون أمام أجهزة المخابرات التي تستقبلهم مشكلات مفزعة ومستمرة. قضايا التأقلم، والإحساس بالذنب والتغرب، وبالتالي الإحساس بالهجران تسهم جميعًا في خلق حالة من الألم والانزعاج العاطفيين. وبالنسبة لأولئك الذين يتركون عائلاتهم وراءهم قد يكون الألم ممضًا وموهنًا. وليس رودريغز لاهيرا بحالة استثنائية. بعد ما يقرب من ثلاثة شهور من الاستجواب، وعندما لم يكن يوجد شيء يمكن انتزاعه منه بدأ يتذمر بأنه مهمل وبأنه مهمش لا يستفاد منه. كوّن لنفسه قليلًا من الصداقات، وبقي مقربًا من هال سوينسون، الهادئ دومًا والأب المطمئن الذي كان يتشاور مع الكوبي ويشجعه في فترات يشعر فيها بالألم.

تم "إنهاء خدمته وديًا" بتاريخ الثلاثين من تشرين الثاني/نوفمبر 1967 وتلقى تعويض نهاية خدمة سخيًا. حتى إن الوكالة اتخذت عددًا من الخطوات المعقدة لتعيد له مبلغ 2540 دولار كان قد سرقها من مديرية المخابرات العامة. ووجد الموظفون الماليون المبدعون الذين يستمتعون بمواجهة تحدي شرعنة السرقة وسيلة ليسددوا له الضرائب الفدرالية المستحقة على هذا "الدخل" وكذلك الفوائد المترتبة عليها. وانتقل إلى ميامي ووجد لنفسه عملًا في شركة شحن، سائقًا يقود السيارات. فهو الآن مواطن أمريكي، يبدو أنه ترك وراءه للأبد هذين الفصلين من حياته العملية بالاستخبارات واختلط دون أن يعرفه أحد في الجالية الكوبية الأمريكية. تقول تقارير لم أتمكن من التحقق من صدقيتها بأنه توفي بعد ذلك بوقت قصير وهو لا يزال شابًا إلى حد ما.

* * *

قد تكون أسباب وفاته طبيعية. لكن موت صديقه ورفيقه في الوكالة ميغل روش Miguel Roche واسمه السري AMNIP-1 الغامض يشير مباشرة إلى الصفوف العليا في نظام كاسترو. كان روش محاربًا قديمًا، عمل وهو في سن المراهقة في خلايا سرية ضد باتيستا، ويمت بصلة قربى بعيدة مع بنييرو ذي

اللحية الحمراء الذي جنده للعمل في الشرطة والمخابرات وفيما بعد حماه عندما اصطدم مع عقائديين ثوريين متعصبين.

كان روش في الحادية والعشرين عندما رُفّع لرتبة ملازم وعُيِّن مسؤولاً للأمن الداخلي في إقليم كاماغوي Camagüey. ثم تولى إدارة شركة استيراد حكومية تُستخدم لأغراض المخابرات وربما كانت بيده مسؤولية عمليات قمار محلية. وهو سريع في العمليات الحسابية والتعاملات المالية، فلم يجد صعوبة في اللعب بالاعيب سوق العملة السوداء لما فيه فائدة النظام الجديد. ولو بقي في الجهاز الكوبي لكان قد وصل إلى أعلى المراتب، ربما لرتبة عقيد أو جنرال في المخابرات العامة[17].

تزايد استياؤه على نحو متدرج وذلك إلى أن التجأ إلى سفارة الإكوادور في هافانا في كانون الأول/ديسمبر عام 1961. ثم حصل فيما بعد على مرور آمن إلى البرازيل. وهنالك اتصل به مباشرة هال سوينسون وجاء به إلى الولايات المتحدة. وسرعان ما باتت المهمات الدولية الخطرة من اختصاصه. في منتصف حزيران/يونيو 1964 ذكر سوينسون في مذكرة تحفظ في السجل: "أوضحت لـ MUG بأنني في المستقبل القريب أريد له أن يتعاون مع روش لمعرفة أعضاء المخابرات الكوبية ... وقلت إن ذلك قد يكون ضروريًا ... للقيام برحلات إلى خارج الولايات المتحدة للاتصال بأشخاص لديهم اهتمام عملياتي قد يتم تجنيدهم أو انشقاقهم".

أصبح لادي وروش صديقين مقربين وكلاهما مقيم في ضواحي فرجينيا إلى الشمال من واشنطن قريبًا من مقرات السي آي إيه، وغالبًا ما يسافران معًا في عمليات مشتركة. كانا ثنائيًا يثير الإعجاب. ميغل سليل عائلة موسرة تعمل بالتجارة وفقدت كل شيء في الثورة هو الشريك الأكبر الواثق بنفسه والمهيمن. وهو بطوله البالغ خمسة أقدام وعشر بوصات ووزنه الذي يزيد عن مائتي رطل يعلو فوق لادي النحيل والقصير القامة.

اتصف روش بالذكاء والوسامة وقوة الإقناع، فهو اجتماعي بطبعه، وهو

عميل متجول بالفطرة، وسرعان ما كان في صميم مديرية المخابرات العامة. أخبرتني أرملته بأنه في السنوات العديدة التالية سافر كثيرًا إلى خارج البلاد وأحيانًا مرتين في الشهر يقوم بمهام كلفته الوكالة بها. وتتذكر بأنه سافر إلى أوروبا وكندا وأفريقيا والمكسيك وأمريكا الجنوبية. تؤكد السجلات التي رُفعت عنها السرية أن واحدة على الأقل من عمليات التجنيد الناجحة نجمت عن ذلك. فقد قام روش بتجنيد عميل يعرف باسمه السري CAPRICE-1 في عام 1964 ثم انضم إلى الوكالة رسميًا بعد سنوات. ولكن مع الأخذ بالاعتبار مدى عدوانية النظام الكوبي في رده على جهود روش يمكن القول بأن ثمة نجاحات أخرى أيضًا[18].

سافر روش في شهر حزيران/يونيو إلى مدينة مكسيكو ثم إلى سانتياغو في التشيلي ليلتقي مسؤولين في مديرية المخابرات العامة الكوبية يُعتبرون احتمالاً جيدًا للتجنيد لديه. لكن الموعد المحدد والمأمول في مكسيكو لم يحدث، إنما بعد وقت قصير جدًا التقى روش في بار أحد الفنادق في سانتياغو مع كوبيين اثنين أحدهما ضابط مخابرات معروف. كانت مواجهة متوترة عالية الأخطار حيث محاولات التجنيد تتطاير من كلا الجهتين. قيل لروش إن راميرو فالديز Ramiro Valdes وغيره من المسؤولين في هافانا يكنّون "له تقديرًا عاليًا" وأنهم "أسفوا لانشقاقه". أراد الكوبيون عودته إلى حظيرة مديرية المخابرات العامة بصفته عميلاً مزدوجًا ... أو هكذا قالوا. ولكن في إشارة إلى ما سوف يحدث بعد نحو ستة أعوام، فقد تلقى تهديدًا قاسيًا. أبرقت محطة السي آي إيه في سانتياغو إلى المقر بأن روش تلقى تحذيرات: "المخابرات الكوبية لديها أذرع طويلة وتستطيع قتله في أي مكان وزمان إذا كذب"[19].

يبدو أن هذا اللقاء كان مُجازًا ومسجلاً من قبل قيادات عليا في هافانا. الرئيس الكوبي الصوري أوزفالدو دورتيكوس Osvaldo Dorticos قال لمصدر في السي آي إيه: "أجل، نحن نعلم كل شيء عن محاولة روش "El Cojo" في التجنيد لصالح الأمريكيين ... نعرف كل شيء عن نشاطه". (تعني كلمة Cojo "الأعرج")؛ وروش يمشي بعرج ظاهر بعد أن قُذِف من النافذة الأمامية للسيارة

عندما كان يعمل مع المخابرات الكوبية في هافانا). وتعني عبارة الاهتمام العالي المستوى أن عمله لصالح السي آي إيه قد بات مثمرًا جدًا لذلك فهو مشبوه وهو مستهدف.[20]

لكن روش لم يرتدع وبقي على حاله يعمل وينتج ويتحدى حتى مماته. ولكن مع كل محاولة تقاربٍ مع كوبي كان يضع نفسه في خطر أكبر. فأصبحت الإضبارة السميكة التي تتضمن تقارير وسجلات عن أعماله مصدرًا لغضب متزايد في هافانا. فهو و"لادي" قد اجتازا الروبيكون مرتين (Robicon)، بمعنى أنهما مرتين لتخذا قرارًا خطيرًا لا سبيل إلى الرجوع عنه فهما انشقا وجاءا إلى العدو "الإمبريالي" ومعهما معلومات ثمينة وواصلا عملهما التخريبي والساخر من جهازهما السابق. وبحسب الأوامر الفيدلية التي لا تسامح هما يرتكبان جرائم كبرى. وضوعفت العقوبات على روش أضعافًا مضاعفة.

تلقى رسائل تهديد في منزله تدل على أن كاتبيها كوبيون. وجاءه التحذير: "نحن نعلم ماذا تفعل ... لهذا سوف نهتم بك بطريقة أو أخرى". ولا تزال أرملته تحتفظ بإحدى هذه الرسائل. كان روش في الحادية والثلاثين فقط وبصحة جيدة جدًا عندما سقط على الأرض أمام منزله في ضاحية فولز تشرش Falls Church بفرجينيا في ذلك اليوم من شهر أيلول/سبتمبر عام 1970. توفي قبل وصوله إلى مستشفى محلي. قالت لي أرملته بأنه في وقت سابق من ذلك اليوم كان في اجتماع عمل على مائدة الغداء بصحبة عنصر من مكتب التحقيقات الفدرالي في مطعم مكسيكي مع كوبي واحد أو أكثر يلفهما الغموض. كان ذلك قبل ساعات معدودة من وفاته. وبقيت أرملته لا تدري مع من اجتمع وما السبب، إنما لغاية هذا اليوم ليس لديها أدنى شك بأن المخابرات الكوبية دست السم له. وتشير تقارير التشريح بعد الوفاة إلى أنها محقة في شكوكها.

فحوص دم روش أثبتت أنه لم يتعاط الكحول. وكان النظام القلبي الوعائي عنده طبيعيًا عند الفحص. ولم تظهر لديه أية أعراض تشخيصية تدل على مشاكل في القلب أو الدورة الدموية. تقول أرملته "كان بصحة ممتازة حتى ذلك اليوم الذي توفي فيه. أما تقرير فحص السمية فقد ذكر بأن 90 بالمئة من

الهيموغلوبين في دمه ملوث. وقيل لي بأن مادة السيانيد قد يكون لها مثل هذا الأثر. ووجد التهاب شديد في جميع خلايا جهازه التنفسي. وقد قال طبيب التشريح المرضي لأرملة روش بأنه يعتقد بأن الأذى الذي أصابه "سببه سمّ غير معروف".

لم تجر الشرطة تحقيقًا في الحادث ولم تستطع السي آي إيه أن تفعل شيئًا بالرغم من قوة الشبهات التي تحوم حول عمل غير أخلاقي. إنما لعل الوفاة المبكرة لروش قد أقنعت الوكالة بأن من الضروري تزويد المنشقين الكوبيين من ذوي النجومية مستقبلاً بهويات جديدة ليعيشوا بأمان بعيدًا عن القتلة الذين يرسلهم كاسترو. إن العمل المضني الذي كان يقوم به رودريغز لاهيرا وروش عند محاولتهما تحريض عملاء المخابرات العامة الكوبية كان أشد خطرًا ممن كانا يظنان حينها.

* * *

كان من أعظم مساهمات رودريغز لاهيرا كشفه عن عمليات كوبا التخريبية. أوكلت إليه مهمة إدارة مكتب السلفادور في مقر مديرية المخابرات العامة مع أنه ليس لديه الخبرة أو التدريب الكافيين غير عمله بحرب العصابات.

كان هذا البلد الصغير في أمريكا الوسطى الذي تحكمه نخبة متماسكة من العسكريين الأثرياء يأتي في مرتبة متدنية في سلم الأولويات عند فيدل وبنييرو، هي أدنى من تصدر فنزويلا أو غواتيمالا حيث حروب المتمردين لها جذور عميقة. ولم تكن الثورة في السلفادور واعدة على هذا النحو، ففكر الكوبيون، وهم على حق في ذلك، بأن أي اضطراب هناك لن يحصل قبل سنين قادمة. ومع ذلك كان ثمة خلايا ماركسية صغيرة وزمر من الشباب المتحمسين لكوبا يتلهفون لحمل السلاح.

بذل لادي جهودًا جبارة لدعمهم قبل انشقاقه. تعاون مع المتدربين على قتال حرب العصابات ومع اللاشرعيين وأعضاء الحزب الشيوعي الذين تسللوا سرًا إلى هافانا. كان معلّمهم ومسهّل عملهم وسرعان ما أصبح خبير مديرية

المخابرات العامة المقيم في البلد. وتوسعت معرفته بعمل التجسس لتشمل عمل مركز مدينة مكسيكو الذي كان قناة عبور ودار مقاصة لمواطني دول أمريكا الوسطى الراغبين بالذهاب إلى كوبا.

كان انشقاقه بمثابة هدية ثمينة تقدم إلى خبراء الاستخبارات في لانغلي. وتعرّف إلى نحو 120 من المحاربين الطموحين و"اللاشرعيين" التابعين للمخابرات العامة من الذين يحملون ست جنسيات وجميعهم يعرفهم. كان يعرف سبعة منهم معرفة جيدة تمكنه من توصيف خصوصياتهم وسلوكياتهم ونقاط ضعفهم التي تجعلهم فريسةً سهلة أمام السي آي إيه لتجنيدهم أو، إن لم ينجح التجنيد، للإلغاء باعتبارهم ثروة كوبية. في منتصف حزيران/يونيو عام 1964 وردت ملحوظة في "تحليل لهدف عملياتي" تقول "نحن شرعنا بالعمل فعلًا". لكن لم تحدد ماهية هذا العمل[21].

واعتمادًا على ما ورد في تقارير رودريغز لاهيرا في بعض جوانبها فقد استطاعت الولايات المتحدة أن تسحق عمليات التمرد الوليدة في بضعة بلدان. والعمليات التي كان إحباطها أشد عنفًا وقسوة هي العمليات التخريبية الكوبية في السلفادور ونيكاراغوا. فقد مرر لنا لادي أسماء وأوصاف نحو خمسة وثلاثين سلفادوريًا يعملون مع المخابرات الكوبية، وغالبيتهم من خريجي الدورات التدريبية على حرب العصابات. وحدد لنا أسماء ثلاثة وعشرين متدربًا من نيكاراغوا. كان هؤلاء الذين كشفت أسماؤهم يشكلون إلى حد كبير كامل الطاقم الثوري المتدرب في هذين البلدين، وسوف تمضي خمس عشرة سنة أخرى قبل أن يتمكن المتدربون المدعومون من كوبا من إعادة تجميع أنفسهم والانطلاق في أعمال عصيان مسلح.

كان من أثمن ما قدم لاهيرا من معلومات يتعلق بشاب سلفادوري يُعتبر مهيِّجًا محتملًا للقلاقل والاضطرابات. روك دالتون Roque Dalton، مؤلف ما يزيد عن عشرة مجلدات من النثر والشعر، ولا يزال الشخصية الأدبية المبدعة في أمريكا اللاتينية وشهيد قضايا الثورة. وهو الشاعر الأكثر تكريمًا في السلفادور.

تم تجنيد دالتون في كوبا عميلًا للمخابرات العامة في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1963، وأعطي الاسم السري "مونتينيغرو [الجبل الأسود]". وكان رودريغز لاهيرا الضابط الذي يتعامل معه والذي رتب أمر تدريبه على الكتابة السرية والإرسال والاستقبال بالراديو بالإضافة إلى بعض الأعمال السرية الأخرى. وهو كغيره من أبناء جيله الكثر في أمريكا اللاتينية أتم دورات عدة في التدرب على حرب العصابات[22].

تلقى دالتون علومه الجامعية في التشيلي والمكسيك والسلفادور. وكان في الثامنة والعشرين من عمره عندما بدأ لاهيرا يصفه للسي آي إيه، وكان جذابًا يملك معلومات أساسية ما كان بنييرو نفسه ليقدر على ابتكارها. وطبقًا لسجلات السي آي إيه له "وجه مستطيل نحيل وعينان سوداوان وفي فمه سنان ذهبيان، شعره أسود يفرقه لجهة الشمال". الغريب في الأمر أن هذا التوصيف أغفل ذكر سمة أكثر تميزًا في شخصيته هي أنفه الطويل الذي يشبه أنف بينوشيو Pinocchio.

لا بد أن دالتون سيكون أكثر الأشخاص واعدًا من الذين تجندهم المخابرات العامة الكوبية في أمريكا الوسطى، فهو لائق بدنيًا وفتيّ وله كاريزما خاصة ويحبه الشباب والمفكرون السلفادوريون. وعندما تم استقراده كان من دون أدنى شك ذلك الصنف من الأبطال الرومانسيين القادر على قيادة تمرد في حرب عصابات على الطريقة الكوبية في تلك الجبال البركانية في بلاده. حتى إنه قد يكون تشي غيفارا السلفادوري الناجح[23].

لكن دالتون أحبط آمال الكوبيين. وتبين أنه لم يكن منذ البداية يملك الدافع القوي. "لديه ضعف نحو النساء والحياة الميسورة، والضعف من طبعه عمومًا". كما جاء في تحليل لنقاط ضعفه أجرته السي آي إيه. يقول رودريغز لاهيرا للسي آي إيه "دالتون ذكي، لكنه لم يبد رغبة حقيقية في التعلم أثناء تدريبه في كوبا".

أُعطي مبلغ 600 دولار لشراء جهاز راديو متطور عندما عاد سرًا إلى

السلفادور وطُلب إليه بأن يرسل رسائل مشفرة في يوم الاثنين الثاني من كل شهر. أما الترددات التي عليه أن يستخدمها فقد سُجِّلت على سبع قطع من شريط مصوّر مُصَغَّر (ميكروفيلم) أخفيت في تجويف داخل كعب حذائه. ولكن على الرغم من ذلك التدريب الواسع للتفاصيل، وآمال المخابرات الطموحة، لم يُجْرِ هذا الشاعر أي اتصال. ذكر سوينسون في أول تقرير بخصوص استجوابه أرسله من أوتاوا أن دالتون بعد أن عاد إلى بلاده "قام بزيارة قصيرة خاصة وصرف بسخاء على نفسه وأنفق كل ماله"[24].

جاء في تقرير للسي آي إيه أن لاهيرا يعتبر دالتون "المرشح الرئيسي لنقوم نحن بتجنيده" من بين كل الثوار الأجانب الذين استرعوا اهتمامه. وكان ثمة تكهنات بأن هذا "الموضوع لن يكون هدفًا يصعب استهدافه" ويقصد بذلك مقاربته وتجنيده ليكون عميلًا مزدوجًا ضد الكوبيين[25].

لكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا يعمل دالتون بمزيد من الدأب والمثابرة لصالح السي آي إيه فوق ما كان يفعله لصالح الكوبيين؟ لحظت هذه الخشية في القيود: "إن تقاعسه في الأداء لصالح المخابرات العامة ... قد يهدئ المخاوف حيال استخدامنا له". ولكن عند المقارنة تبين أن هذا الأمر لم يكن بذي بال. فالخشية هي أولًا وأخيرًا الدوافع. فهو مثل غيره من عناصر المخابرات العامة و"اللاشرعيين" كلهم وعلى مدى الأعوام ممن كانوا يقبضون فقط لقاء مصاريفهم وربما في بعض الأحيان مكافآت شرفية صغيرة. لذلك قد يكون تدفق جيد للدولارات الأمريكية إغراء جيدًا له ليلعب اللعبة المزدوجة.

وما لبثت الوكالة أن استنتجت بأن عضوية دالتون في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السلفادوري سبب كاف لإبقائه تحت الأنظار، "هذا يجعله هدفًا عملياتيًا لهذا السبب وحده". هذا وقد أوضحت مذكرة من المقر مؤرخة في تشرين الثاني/نوفمبر 1964 المجال الذي تطمح السي آي إيه لتحقيقه: "هدفنا من جعل دالتون مزدوج العمالة أن ينشق أو نلغيه". وواقع الحال أن لاهيرا وضابطًا في السي آي إيه – ربما هو سوينسون – استجوبا هذا الشاعر ولديهما التصميم على جعله ضد الكوبيين وذلك بعد اعتقاله وزجه في السجن

في السلفادور في وقت سابق من ذلك العام. كان "يرتعش كثيرًا" و "يتوسل" لإطلاق سراحه، يقدم الوعود بالامتناع عن العمل السياسي. وذلك كما جاء في تقرير ميداني للسي آي إيه أرسل برقيًا إلى المقر. إنما، وحتى بحضور الضابط السابق في المخابرات العامة المتعامل معه كان دالتون عنيدًا في إصراره على عدم ارتباطه بالمخابرات الكوبية. ولكن عند هذه المرحلة جفت المعلومات الواردة في السجلات التي رفعت عنها السرية. فإذا كان قد جند فيما بعد، وإذا تم إقناع دالتون بالتعاون مع الوكالة بأي شكل، فهذا ما لم تنكشف حقيقته بعد، وعلى الأغلب لن تكشف[26].

لقد كان في ظاهر الأمر ثوريًا نموذجيًا. عاش في هافانا وفي براغ لسنوات عدة بعد إطلاق سراحه من السجن، وفي أبعد الاحتمالات ظل اسمه في قيود المخابرات العامة بالرغم من إخفاقاته في عمله كعميل. نُشرت معظم كتاباته في هافانا وكان الناشر Casa de las Americas وهي الذراع الثقافي للحكومة وكانت دائمًا مرتبطة بالمخابرات.

عاد إلى السلفادور مجددًا في أواخر عام 1974 ليحمل السلاح ضد الحكومة، وكتب بعض شعره التعليمي سرًا هناك. فيما يلي بعض من قصيدته "العنف هنا Violence Here":

لن يكون العنف مجرد قابلة
تولّد التاريخ في السلفادور
بل سيكون أيضًا أمًا لشعب وليد[27].

كان دالتون في معظم الأحيان مركز اهتمام الدعاية الكوبية المتملقة، مُنح جوائز أدبية عدة وظهر في الندوات الدولية وبقي وضعه العام أمام الناس وعن قصد الشاعر المناضل. وبصرف النظر عن المظاهر كافة فهو مؤمن صادق بقضايا فيدل وعلى وجه الخصوص الحرب الثورية العنيفة في بلده.

ومع ذلك يظل الشيء الواضح والجلي في صالة مرايا الجاسوسية العالمية سرابًا. قد تكون لديه أسبابه الخاصة للتعاون مع السي آي إيه بطريقة أو أخرى.

فوالده مواطن أمريكي هاجر إلى السلفادور. وثلاثة من أشقائه مواطنون أمريكيون، يقال إن أحدهم حارب ضد اليابان في المحيط الهادي أثناء الحرب العالمية الثانية. لكن الظروف المحيطة بوفاة روك دالتون في شهر أيار/مايو عام 1975 عندما كان على وشك الاحتفال بعيد ميلاده الأربعين أبقت التكهنات حية بأنه كانت له في الواقع اتصالات من نوع معين مع السي آي إيه.

بعدما عاد إلى السلفادور انضم إلى حركة مقاومة ناشئة. لكنه سرعان ما دخل في نزاع حاد مع قادتها. أقاموا محاكمة ثورية سرية ووجدت المحكمة أنه مذنب بالعصيان والتمرد أو الخيانة. وأُعدم دالتون في اليوم نفسه في مدينة سان سلفادور ولم يعثر على جثمانه. لقد ابتعد كثيرًا جدًا عن مواهبه الأدبية وكان ضحية وهم بأن إلهتي الشعر والحرب الثورية قد تتعايشان معًا في سعادة. وكان شخصًا آخر من أولئك المعلونين الكثر الذين أصابتهم حمى الثورة في الستينيات، ضحية طوعية لتعويذات فيدل المريضة حول العنف الثوري.

أما أولئك الذين أصدروا حكم الإعدام فقد نشروا شائعات بأن هذا الشاعر يجب أن يقتل لأنه عميل للسي آي إيه. ربما حيكت هذه الإشاعة لتكون وسيلة تسوّغ أعمالهم، أو ربما هم على قناعة بأن الإشاعة صحيحة. لست أدري ما إذا كان القتلة قد فبركوا التهمة أم أنهم قدموا الأدلة. لكن المؤكد أن شيئًا ما لم يتسرب من أقبية السي آي إيه عن دالتون يمكن أن يعرضه للشبهة، فسجلات الأرشيف التي عثرتُ فيها على توصيف لاهتمام السي آي إيه العملياتي به لم تُنشر لغاية عام 1998[28].

من سخرية القول إنه يوجد احتمال جيد بأن القتلة هم أنفسهم كانوا ضحايا – لعملية خداع بارعة جدًا. إن كانت كذلك، فإن المرتكب المحتمل قد يكون تلك الطغمة الدكتاتورية العسكرية المتوحشة في السلفادور. فقد كان لدى الجنرالات والاستخبارات العسكرية ما يكفي من الدوافع لزرع أدلة كاذبة تؤكد ارتباط دالتون بالسي آي إيه. ولعلهم قدّروا بأنها قد تُحرج وتُعرقل حركة التمرد وتزيد في فرقة المسلحين وتضع واحدًا من قادتهم الأكثر شعبية في دائرة

الخطر المميت. ففي أمريكا اللاتينية إبان الستينيات والسبعينيات كان كل شيء مسموحًا به في حروب العصابات والحروب المضادة للتمرد.

ومع ذلك ثمة احتمال آخر: ربما كان الكوبيون مسؤولين عن إعدام دالتون. فهو هاو زئبقي، أساء استخدام وصاية المخابرات العامة، ولعله خدع كاسترو وبنييرو. إذا صح استنتاج المخابرات الكوبية بأن روك متورط سرًا مع السي آي إيه فلا شيء سيكون أشد تأكيدًا بأن ينتج عنه حكم بالإعدام. وحيث إنه "لاشرعي" للمخابرات العامة جيد التدريب فهو مستهدف بكل تأكيد كما استُهدف أسبلاغا وروش[29].

وتتعزز قوة هذا الاحتمال بحصول إعدام لاحق - ويبدو أنه بأمر من فيدل - لثائر سلفادوري بارز آخر. كان سلفادور كيتانو كاربيو Salvador Cayetano Carpio، المعروف بين إخوته باسم "مارشال Marcial" والـ "هوشي منه، لأمريكا الوسطى" كما يحلو له أن يتباهى، المتشدد الأقوى تصلبًا بين المحاربين. اتُّهم في عام 1984 باغتيال شنيع بأداة تكسير الثلج لـ "أنا ماريا" الاسم الحركي لمنافسته ونائبته السلفادورية. بعد حضوره جنازتها بوقت قصير في ماناغوا وُجد كاربيو ميتًا بطلق ناري في عاصمة نيكاراغوا حيث كان نظام ساندينستا الماركسي يحكم البلاد. وفُسِّر موته بحادث انتحار[30].

لكن خوان أنطونيو رودريغز منيير Juan Antonio Rodriguez Menier أحد المنشقين عن المخابرات العامة عام 1987 لديه اعتقاد آخر. فهو متأكد بان فيدل هو الذي أصدر أمر الإعدام. ويقول "أجرى كبار المسؤولين الكوبيين تحقيقًا" في ماناغوا بجريمة قتل أنا ماريا. وبحسب مصادر أخرى كان بنييرو واحدًا من هؤلاء المسؤولين الذين تولوا التحقيق، ويضيف منيير بأن فيدل "عندئذ أمر بإعدام الرجل المسؤول"[31].

واقع الحال أن كاربيو كان على خلاف مع الكوبيين بشأن الاستراتيجية السياسية والعسكرية. وقد اعترض على تدخلهم العدواني. ويقال اعتمادًا على مصدر موثوق بأنه قبل بضعة شهور من هاتين الجريمتين رد على فيدل

وتدخلاته المتنمرة قائلًا له "اذهب إلى الجحيم". وهذه عبارة ليست توبيخًا من النوع الذي يتحمله هذا الزعيم الكوبي المتعجرف. وقد جاء فيما كتبه جورج كاستانيدا وزير الخارجية المكسيكي السابق والخبير بشؤون اليسار الراديكالي في أمريكا اللاتينية قوله بأن كاربيو "كان يقاتل الكوبيين ... لشهور طويلة"[32].

وقد اعتاد فيدل أن يمارس نفوذًا يشبه النفوذ الكنسي على أفراد المقاتلين في حروب العصابات ليجرهم للعمل على طريقته. واللافت أنه في عام 1979 جاء بزعماء الفصائل المتناحرة إلى هافانا حيث صنع تحالفًا للمتمردين صارَ يعرف باسم جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني FMLN.

وحضر هذا الاجتماع خواكين فيلالوبوس Juaquin Villalobos، قائد أحد هذه الفصائل. وحكى لي كيف جرى استقبال مندوبين اثنين عن كل من الجماعات المتناحرة في مطار هافانا حيث كان في استقبالهم ضباط مخابرات كوبيون، وأخذوا بسيارات المرسيدس الليموزين كُلٌ على حدة إلى بيوت الضيافة. ثم اجتمعوا جميعًا معًا مع كاسترو في القصر الرئاسي، وحضر الاجتماع بنييرو. قال لي فيلالوبوس أثناء اجتماعنا في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2011 في تورنتو: "كانت المشكلة كاربيو، الذي تحدى فيدل، وكان يكثر الشراب". وتذكر محارب سلفادوري آخر فيما بعد قائلًا: "لولا الكوبيون، وبخاصة فيدل كاسترو، لما كان ممكنًا تحقيق الوحدة"[33].

بعد أن أتم بناء قدراتهم وفي العاشر من كانون الثاني/يناير عام 1981 وكان ذلك قبل احتفال تنصيب الرئيس رونالد ريغان في واشنطن استغل فيدل هذا الوضع وبدأ يتصرف من موقع القائد العام لحروب العصابات. ومن الغرفة الحربية في مديرية المخابرات العامة بدأ يرسل الأوامر إلى الوحدات المقاتلة حين بدؤوا يشنون ما كانوا يسمونه تفاؤلًا "الهجوم الأخير" للإطاحة بالحكومة العسكرية. وقد أخبرني ضابط مخابرات أمريكي سابق لديه معلومات مباشرة عن الدور الكوبي قائلًا: "هم [الكوبيون] كانوا يديرون كل شيء، يتلقون المعلومات عن العمليات والتحركات العسكرية السلفادورية ويتواصلون مع المتمردين. وكانوا على ثقة أكيدة بأن جبهة التحرير FMLN ستنتصر".

كانت الخطط قيد الإعداد منذ ما يزيد عن العام حيث تم تدريب وتجهيز ما يقرب من خمسمئة سلفادوري في كوبا. وتم تزويدهم بمئات الأطنان من الأسلحة التي كانت تنقل إليهم عبر نيكاراغوا. وعلى الأرض معهم كان ثمة مستشارون كوبيون من ذوي الخبرة الجيدة. كانت خطة فيدل الجريئة والمتهورة أن يقدم للإدارة الأمريكية الجديدة أمرًا واقعًا ثوريًا. اتسم القتال الذي استمر لأيام عدة بالوحشية لكن القوات العسكرية الحكومية دحرت هذا الهجوم[34].

غير أنني لم أجد دليلًا واحدًا يربط اسم فيدل في جريمة قتل كاربيو فيما عدا تأكيدات رودريغز منيير. لكن كل شيء آخر حدثني عنه هذا المنشق يبدو موثوقًا ويمكن الأخذ به. وحكايته عن موت كاربيو تنسجم مع سلوك فيدل المحب للعنف منذ أيام دراسته الجامعية ومع امتياز السيادة والسلطة الذي يستخدمه على المتمردين السلفادوريين. كان القتل والاغتيال والمحاولات التي يخطط لها ضد الأعداء والخونة ومن يخشى منافستهم سمات لأسلوبه في الحكم كما إلقاء الخطب أمام جماهير المستمعين. في سنوات حكمه التي امتدت لعقود كان فيدل يفوّض بإعدام أعداد كثيرة من المسيئين، وكان منهم اثنان من المخابرات في مناصب قيادية توفيا في ظروف غامضة، وربما بأوامر منه.

كان أحدهما بنييرو ذو اللحية الحمراء. يزعم مسؤول حكومي كوبي سابق له صلات جيدة وعمل بتعاون وثيق مع ضابط المخابرات هذا لسنوات عدة أن بنييرو قتل عام 1998 بأوامر من فيدل أو راؤل كاسترو.

كان بنييرو مثل كثيرين غيره في حاشية هذين الأخوين على مدى عقود من السنين، وقد ضلَّ عن سبيل مبادئهما الصارمة فأُبعد جانبًا. وكان "من المستحيل أن يتقاعد" كما قال لي مصدر معلوماتي. كان يعرف أكثر مما ينبغي، وكان يعمل على تأليف كتاب، وارتكب غلطة أنه أخبر الآخرين عنه. فعمله كله - على مدى أكثر من أربعين عامًا - كان في المخابرات ونَصْب المكائد والمؤامرات. كل شيء فعله كان بتفويض من فيدل أو راؤل في العمليات السرية الخفية في عشرات البلدان بقارات مختلفة. فما الذي يكتبه خلاف ذلك؟

في اليوم التالي لوفاته قام رجال الأمن بتفتيش منزله في هافانا "كما لو أنه منشق" أو متآمر و"يحتفظ بكل أنواع الأوراق"، حسبما قال لي مسؤول كوبي سابق يقيم الآن في فلوريدا. وقال أيضًا بأن "منزل بنييرو كان بكل تأكيد مجهز بأجهزة تنصّت"، وأنه كان يتكلم بكل حرية.

المرافق الشخصي لبنييرو ذي اللحية الحمراء الذي كان عميلًا مزدوجًا بصفة سائق كان أيضًا متأكدًا بأن رئيسه قُتل. يقال بأن بنييرو أصابه الإغماء وهو وراء مقود سيارته وهذا ما نجم عنه حادث لمركبة واحدة على أحد شوارع هافانا. نجا من الموت لكنه أصيب بجروح بسيطة وأُخذ إلى مستشفى تنفيذي حكومي حيث وضع تحت المراقبة. إنما قبل يوم واحد من هذا الحادث أصدرت وزارة النقل تعليماتها لسائقه بأن يأخذ إجازة من العمل: بنييرو سيقود السيارة شخصيًا. وأخبرني مصدر معلوماتي أن ذا اللحية الحمراء توفي إثر نوبة قلبية وهو في سريره بالمستشفى. تُذكّرني هذه القصة بالمشاهد المؤلمة في فيلم "العراب *Godfather*" السينمائي الذي، كما قال لي أسبلاغا، كان يُعرض في زمن عمله لأغراض تدريبية في مديرية المخابرات العامة.

* * *

كانت عمليات الاغتيال دومًا من اختصاص فيدل الشخصي. ولا يمكن القيام بأي عملية من هذا النوع دون أن يفوّض بها أو يساعد في التخطيط لها. أما وسائل تنفيذ هذا العمل الأكثر شرًا من الأعمال الكوبية السرية فكانت دومًا لامركزية وعالية التقسيم. فقد ارتكبت "الدائرة 13" المشؤومة في جهاز KGB الروسي في الخمسينيات والستينيات أعمال قتل الخونة فيما كان السوفيات يسمونه Wet operations (عمليات رطبة غير جافة). وعندما سألتُ أسبلاغا عما إذا كانت كوبا قد أسست شيئًا مماثلًا، ضحك وقال: "الروس في هذا المجال أكثر همجية". ليست الشكوك هي التي تهم فيدل وإنما ضرورة التفنيد والإنكار المحكم.

استخدم الكوبيون "لاشرعيين" تحت سيطرة المخابرات العامة ووكلاء من

جنسيات أخرى ليكونوا منفذين لعمليات القتل. وكانوا ينفذون بعض أكثر المهام حساسية في دول مختلفة، وبخاصة بحق أهداف ذات ظهور واسع وحماية جيدة. كانت فرق الموت هذه تتكون من إرهابيين وجماعات ثورية من أمريكا اللاتينية من الذين يدينون بالولاء لكوبا ويمكن الاعتماد عليهم، وهكذا تشتد قوة إنكار الشبهات بحسب درجات الاستقلالية. هؤلاء القتلة الاجانب بعد أن يتم اختبارهم جيدًا يتلقون التدريب في قواعد كوبية سرية حيث يتعلمون القتل بأسلوب العصابات، وعمليات شبه عسكرية منظمة وضربات كوماندوس وتسميم بارع متكتم.

أما في العمليات ذات الحساسية العالية وحين يكون المرغوب إنكارًا اكبر لأي اتهام فقد كان فيدل يعتمد على كوبيين تم فحصهم واختبارهم بدقة. يقول أسبلاغا كان فريق القتل المؤلف من أربعة أفراد يتصل حصرًا بفيدل في السبعينيات والثمانينيات. وقال أيضًا لا احد سواه كان يعلم بهؤلاء القتلة المحترفين، فيما عدا بعض الاستثناءات الضئيلة بمن فيهم وزير الداخلية خوزيه ابراهانتيز José Abrahantes. ليس ثمة شيء أشد خطورة من معرفة أسرار القائد العام الاكثر تجريمًا له. لذلك ليس غريبًا أن ابراهانتيز، مثل ذي اللحية الحمراء، توفي أيضًا في ظروف غامضة. ولم تحظ وفاته داخل زنزانة في السجن بعد خدمة طويلة للثورة إلا بسطور قليلة في الإعلام الرسمي. أثناء لقاءاتنا حدثني أسبلاغا عن اثنين من القتلة السريين عند فيدل. أحدهما، وكان يعرفه في الثمانينيات، كان يسمى تحببًا إل شيكيتيكو El-Chiquitico (الصغير). والآخر كان أيضًا يعرفه واسمه المستعار إل شاماكو El-Chamaco (الطفل). وفي واحد من لقاءاتنا المسجلة تكلم أسبلاغا عن فيدل فقال: "عندما يختار شخصًا ما يسلبه شخصيته ... يسيطر عليه ... ويتحكم به ذهنيًا. وهذا ما فعله لهؤلاء القتلة الاربعة". تقولبوا وغُسِلت ادمغتهم فباتوا، كما يعتقد أسبلاغا، آلات قتل تعمل بطاعة عمياء.

سألته أن يعطي أمثلة عن عملهم اليدوي ومنجزاتهم.

فقال "أراد فيدل أن يقتل أربعة جنرالات في بوليفيا متورطين بموت تشي

غيفارا". الجدير بالذكر أن المحللين العاملين في السي آي إيه توصلوا إلى هذا الاستنتاج قبل انشقاق أسيلاغا. قُتِل هؤلاء البوليفيون الأربعة - اثنان برتبة جنرال وثالث نقيب في الجيش والرابع فلاح - الذين ساهموا ماديًا في موت تشي. وضابط آخر برتبة جنرال اسمه رينيه بارينتوس René Barrientos، رئيس بوليفيا المحبوب عندما لقي غيفارا مصرعه، توفي بعد سنة ونصف في حادث تحطم طائرة مروحية لم تعرف أسبابه.

لم يكن العاملون في قسم التحليل بالسي آي إيه يعلمون شيئًا في أواخر الستينيات عن فريق كاسترو الشخصي للقتلة، وبصريح القول، لم يعرفوا شيئًا عن دوافعه للانتقام المميت. إنما عدد ونمط عمليات القتل لهؤلاء البوليفيين والدافع الواضح عند فيدل، والحرفية التي كانت تنفذ بها الإعدامات تشير كلها إلى تورط كوبي رسمي. فهذه لم تكن من نوع الوفيات الغامضة التي يمكن تفسيرها بنوبات قلبية أو انتحار. ونحن ليس لدينا أدنى شك بأن البوليفيين لقوا مصرعهم على أيدي قتلة عازمين على الثأر لغيفارا.

كان أونوراتو روخاس Honorato Rojas أول من قضى نحبه بعد بارينتوس، وهو رجل يعمل لكسب عيشه في الزراعة في الأراضي الخلفية حيث كانت حركة التمرد التي قادها غيفارا تقاتل للحصول على موطئ قدم. في بادئ الأمر قدّم روخاس مساعدة لعصابة من المحاربين بقيادة أحد مساعدي غيفارا، إذ وافق أن يكون دليلًا لهم في تلك الأراضي الشديدة التعقيد والتشابك. لكن ضابطًا في الجيش البوليفي أقنعه بأن يخون هؤلاء المتطفلين الغرباء القذرين والذين غالبيتهم كوبيون. في 31 آب/أغسطس عام 1967 قاد روخاس هؤلاء المحاربين إلى كمين عند تلاقي نهرين سريعي الجريان. قُتِل ستة من أفراد عصابة غيفارا على الفور وتم أسر الباقين. وكان بين هؤلاء عشيقة غيفارا، وهي امرأة أرجنتينية من أصول ألمانية تعرف باسمها الحربي "تانيا". كان هذا الكمين واحدًا من المناوشات الحاسمة في الصراع البوليفي غير المتكافئ تبعه بعد خمسة أسابيع أسر غيفارا وإعدامه[35].

واقع الحال أن خيانة روخاس كانت مفتاحًا لإخفاق العمل الثوري برمته،

والكمين الذي اختاره قضى على ثلث قوة غيفارا. أما بالنسبة لفيدل فقد كان هذا المزارع البوليفي سببًا جعله يتذكر أوتيميو غيرا Eutimio Guerra، الفلاح الكوبي الذي غدر به لصالح جيش باتيستا، وكان واحدًا من الخونة "الثلاث الكبار" الذين أدانهم على رؤوس الأشهاد في العام 1987. ففي تموز/يوليو عام 1969 دفع روخاس ثمن خيانته، مثلما دفعه غيرا منذ أكثر من عشر سنين. قُتل هذا الفلاح الأعزل على أيدي مهاجمين مجهولين زعموا أنهم أعضاء في جبهة بوليفية ثورية.

أما الهدف الثاني فكان روبرتو كوينتانيلا Roberto Quintanilla، وهو ضابط مخابرات عسكرية بوليفي، لعب دورًا جيدًا في إخفاق غيفارا. قُتل في ألمانيا عام 1971. لكن الضحية الأكثر شهرة كان الجنرال خواكين زنتينو Joachin Zenteno قائد كتيبة الجيش التي تعقبت غيفارا. قُتل بعيار ناري في باريس في أيار/مايو عام 1976 حيث كان سفيرًا لبلاده. وادعت مسؤوليتها عن الحادث جماعة تدعى "قوات تشي غيفارا" غير المعروفة سابقًا، ولم يُسمع بها بعد هذه الحادثة. وبعد أسبوعين فقط قتل جنرال آخر اسمه خوان خوزيه توريس Juan José Torres وهو ضابط أركان بوليفي قيادي كان قد صادق على أمر إعدام تشي غيفارا. وقد قتلته فرقة موت أرجنتينية. ولكن سرعان ما هدأ الحديث عن هذه القضايا[36].

كان الجنرال زنتينو لعنة مزدوجة عند فيدل. وقد عاونه في ملاحقته لغيفارا اثنان كوبيان في المنفى كانا يعملان بعقد مع السي آي إيه، وكلاهما من قدامى المحاربين في حروب خفية سابقة عبر مضائق فلوريدا. وهما معروفان جيدًا لدى المخابرات الكوبية. وقد اعترف فيلكس رودريغز في مذكراته بالمشاركة في مؤامرة لاغتيال فيدل عام 1961، ويعتقد بأنه مستهدف للقتل على أيدي كاسترو بعد إعدام غيفارا. أما غوستافو فيلولدو Gustavo Villoldo الكوبي الثاني المنفي ومستشار الجنرال زنتينو فقد نشر هو أيضًا مذكراته، وقال لي بأنه استُهدف للقتل في ثلاث مناسبات مختلفة من عملاء كوبيين وكان آخرها في عام 2003 أثناء زيارة قام بها إلى بوليفيا[37].

لا يوجد أدلة تشير إلى مشاركة الحكومة الكوبية في جرائم هؤلاء البوليفيين. هنالك احتمال بأن فرق الموت هذه جميعًا كانت تتصرف بصورة مستقلة عن هافانا، وكل حادثة منها كانت منفصلة تمامًا عن الأخرى. لقد كان الإرهابيون في أمريكا اللاتينية وأوروبا مسحورين بغيفارا الرمز وأرادوا الثأر له وربما تصرفوا من تلقاء أنفسهم. ولكن عند المقارنة يمكن القول إن مسؤولية كوبا في أربعة من هذه الحوادث في الحد الأدنى تبدو غير بعيدة الاحتمال.

غير أن الترتيب لإعدام المنشقين الفارين والخونة والأعداء الجديرين وحتى إعدام جنرال أجنبي بين وقت وآخر أمر عادي جدًا في عمل فيدل كاسترو وهو في قمة السلطة لما يقرب من خمسين عامًا. وكان استهداف رؤساء دول سابقين أو وهم على رأس عملهم عملًا أكثر جرأة.

وإذا رجعنا للتاريخ نجد أن أعمال قتل الملوك منذ العصور الوسطى وبدايات النهضة على يد زعيم وطني يخطط لقتل ملوك ورؤساء تنفيذيين من الأعداء أمر نادر الحدوث. بيل هارفي Bill Harvey، أحد العملاء الأسطوريين لدى السي آي إيه – الذي تآمر مرتين في مطلع الستينيات على قتل كاسترو مع عصابات المافيا – قال أمام لجنة تحقيق تشرش بأن الدكتاتور السوفياتي جوزيف ستالين ابتعد عن هذا السلوك الخطر: "لا أستطيع شخصيًا أن أجد وثيقة أو أن أدلي بشهادة عن حادثة اغتيال سوفيتي واحدة لزعيم دولة أجنبية"(38).

لكن فيدل طوال عهده في الحكم كان يلعب لعبة الانتقام بقواعده الخاصة. أربعة رؤساء قائمون على رأس عملهم أو سابقون في بلدان أمريكية لاتينية كانوا أهدافًا لعمليات كوبية "سوداء" جرى التخطيط لها بدقة بالغة. وهنالك احتمال لوجود عمليات أخرى من هذا النوع لم تترك أثرًا لها.

وقد أخبرتني مصادر واسعة الاطلاع في المنفى أن فيدل قد حدد سلفه الرئيس باتيستا هدفًا للإعدام منذ زمن طويل. هذا الدكتاتور العجوز الذي كان منفيًا في البرتغال وإسبانيا كان هدفًا في عام 1973 لمؤامرة كوبية جرى التدرب

عليها بشكل مفصل. فقد كان لدى فيدل دافع قوي. ففي منتصف الخمسينيات أمضى ما يقرب من عامين في أحد سجون باتيستا. وقد فوض الدكتاتور القيام بإعدام أعداد لا تحصى من مؤيدي كاسترو في أواخر الخمسينيات. وبعد انتصار الثورة وُضِع المئات من مناصريه أمام حائط الإعدام في رد انتقامي. ولو لم يهرب باتيستا في الوقت المناسب لكان بلا أدنى شك قد وقف أمام فرقة الإعدام[39].

لكن خطة فيدل لم تهدف إلى قتله أو اغتياله بل القبض عليه أو اختطافه حيًا. فهذه هي النسخة الكوبية للعدالة التي عوقب بها أدولف إيخمان Adolf Eichmann المجرم النازي الذي اختطفته الاستخبارات الإسرائيلية في الأرجنتين وأدانته في محاكمة صورية في القدس عام 1961. كانت قوة كوماندوس كوبية وعملاء المخابرات العامة على استعداد للقبض على باتيستا في مجمع سكني مسور قرب لشبونه حيث يقيم أو عندما يخاطر ويخرج من المجمّع. تقضي الخطة بتخديره وتهريبه إلى هافانا – ربما على ظهر مركب تجاري كوبي – حيث يتم عرضه وإهانته أمام محكمة ثورية وبالتالي إعدامه.

عرفت بهذه المؤامرة التي لم يعرف بها أحد سابقًا من منشق عالي المستوى من المخابرات العامة. ولأجل سلامته وسلامة أفراد عائلته سوف أدعوه فرنشيسكو كومبوستيلا Francisco Compostela. وهو يعيش اليوم في الولايات المتحدة بهوية منتحلة، وقد علم بمؤامرة لشبونه هذه من ضابط رفيع المستوى في المخابرات العامة على إطلاع بالتفاصيل. قال لي كومبوستيلا: "كانت الخطة جاهزة للتنفيذ. وكان لدينا فريق من 'اللاشرعيين' يقيمون في منزل آمن جاهزون للقبض على باتيستا وأخذه إلى كوبا ... أو قتله إن لم يمكن تنفيذ المؤامرة. كان مخططًا لها بدقة". ومن سخرية الأقدار توفي باتيستا لأسباب طبيعية أثناء إجازة كان يقضيها في منتجع إسباني في آب/أغسطس 1973 قبيل تنفيذ هذه العملية.

غير أن فيدل كان ينكر دومًا عزمه على الانتقام من سلفه. ففي خطاب ألقاه أثناء حملة لجمع الأموال في نيويورك في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1955،

أي قبل علم واحد من مغادرته المكسيك ليبدأ تمرده. قال أمام جمهور من المنفيين الكوبيين: "نحن لا نمارس أعمال قتل الطغاة"[40].

وبالطبع كان يقصد باتيستا. وفيما بعد اقتبس قولًا لبطل كوبي أثناء حروب الاستقلال في القرن التاسع عشر، ثم أضاف بمزيد من التفصيل: "الرجل الذي يعرّض نفسه للموت ويستطيع قتل خصمه في ميدان المعركة لا يستخدم وسائل غدر ومشينة للاغتيال"[41].

والإشارة إلى "ميدان المعركة" مفتاح لتفكير فيدل. فهذا هو المكان الذي يعتقد أنه قضى فيه سني مراهقته كلها. وعندما يرويها تبدو قصته الشخصية صراع حياة وموت طويل مع أعداء أقوياء مصممين على تدميره وتدمير عمله. لذلك كان تفضيله الدائم أن يمسك بزمام المبادرة ضدهم، وأن يكون في موقع الهجوم وألا يهادنهم أو يرحمهم. لذلك فإن "قتل الطغاة" مجرد شكل من أشكال عدة للقتل يؤمن بأنه مبرر – دفاعًا عن النفس، في الحرب، وعلى نحو أكثر دقة في الصراع الثوري. عندما يشكل العدو خطرًا داهمًا فالاغتيال مبرر – ليس فقط فيما يصفه بالحرب العادلة بل وأيضًا ضد زعيم أجنبي يعتبره شريرًا وبغيضًا.

ولعل مثال دكتاتور الدومينيكان المتوحش رافائيل تروخيلو Rafael Trujillo من الأمثلة الأولى. فقد كان هذا الدكتاتور حاكمًا مستبدًا بكل المقاييس من جميع وجهات النظر بما فيها وجهة نظر الرئيس جون كينيدي. فقد أمر تروخيلو بتعذيب وقتل جميع خصومه دون رحمة. وما سبب الحقد الذي يحمله فيدل إلا رعاية تروخيلو لمحاولة غامضة لانقلاب عسكري ضده في آب/أغسطس عام 1959. في ذلك الحين – وهو أول صيف يقضيه بعد سيطرته على البلاد – كان كاسترو ممسكًا بإدارة مجموعة من العملاء المزدوجين. لكن واحدًا من هؤلاء كان ينقل له دومًا معلومات عن مؤامرة تروخيلو[42].

وسرت شائعات على مدى السنين حول رغبة فيدل بالانتقام من أعدائه في الكاريبي. لكنني لم أكن على علم بأي دليل مقنع إلا مؤخرًا. وجاءتني المعلومات الجديدة من داريل ألاركون راميرز Dariel Alarcon Ramirez الذي لا يزال

معروفًا باسمه المستعار "بنيينو Benigno". هو جندي مشاة مخلص ووفي، قاتل إلى جانب تشي غيفارا في بوليفيا، وكان واحدًا من حفنة من الرجال الذين نجوا إثر الهزيمة، وتمكن بعد رحلة شاقة أضنته من الوصول بسلام إلى كوبا. لكنه فيما بعد انشق مثله مثل كثيرين غيره من ضباط المخابرات العامة ذوي الخبرة والتجربة. كانت لديه معلومات حقيقية حول محاولة اغتيال تروخيلو.

أخبرني بنيينو مؤخرًا: "أنا أعرف تلك المشاركة الكوبية المباشرة في محاولة اغتيال تروخيلو عام 1959". كان القائد المزعوم لهذه المحاولة الفاشلة محاربٌ بارز في حركة تمرد الأخوين كاسترو، وهو قومندان اسمه درمينيو إسكالونا Derminio Escalona. وأكد بنيينو أيضًا ما قاله لي أسبلاغا عن استهداف فيدل للبوليفيين الضالين المنحرفين[43].

ولكن بالنسبة لكاسترو لا يوجد هدف أكثر استحقاقًا بغضبه من اثنين من الحكام والطغاة المستبدين المعاصرين في أمريكا اللاتينية. وأيضًا كان الجنرال أناستازيو سوموزا ديكتاتور نيكاراغوا والجنرال أوغستو بينوشيه الرئيس التشيلي من 1973 وحتى 1989 مدرجين على قائمة فيدل للمطلوبين عاجلًا قبل آجل لسنوات عدة.

أما سوموزا، قائد الحرس الوطني في نيكاراغوا قبل أن يرث رئاسة البلاد عام 1967، فقد فعل الكثير جدًا ليحظى بغضب فيدل. عمل مع السي آي إيه وتعاون معها في تقديم قواعد تدريب وقاعدة جوية للواء خليج الخنازير عام 1961. وبعد سنتين سمح لجماعة مانويل أرتايم "المستقلة" في المنفى بالتدرب وشن هجمات تخريبية في الجزيرة من قاعدة على ساحل نيكاراغوا الكاريبي. وكما ذكرنا سابقًا علم فيدل بهذا كله من عميل كوبي مزدوج. وكان سوموزا من ذلك النوع من المحاربين المرتزقة الذين لا يمكن لكاسترو أن يغفر لهم.

قامت المخابرات العامة بأول محاولة جادة لاغتيال هذا الدكتاتور عام 1964. ولكن لم تنجح أي محاولة إلا بعد ستة عشر عامًا عندما تمكنت عملية كوماندوس من اغتيال قائد نيكاراغوا السابق. السيارة المدرعة التي كان ينتقل بها

في شوارع أسانسيون عاصمة الباراغواي احرقت تمامًا بهجوم بالبازوكا أُحسن التخطيط له في 17 أيلول/سبتمبر عام 1980.

كتب عن هذه الحادثة جورج ماسيتي Jorge Masetti – أحد فتية بنييرو – وهو في حقيقة الأمر ابنه بالمعمودية. كان ماسيتي ابن وسميّ زعيم محارب أرجنتيني قتل في المعركة وكان مقربًا من غيفارا. حذا ماسيتي الأصغر حذو أبيه وعاش أعوامًا محاربًا وعميلًا لدى المخابرات العامة. بعد انشقاقه وهروبه عام 1990 تحدث عن مقتل سوموزا. كان هجومًا بالغ الدقة تم التخطيط له والتدرب عليه حتى الكمال في قاعدة سرية في كوبا[44].

يقول ماسيتي، "جثا منفذ الإعدام على ركبته في وسط الشارع، والعيار الناري الذي أطلقه جاء في عين الهدف لكن القنبلة لم تنفجر. عندئذ، ووسط تبادل لإطلاق النار ... أعاد التلقيم وسدد طلقة ثانية قتلت سوموزا. عندئذ انسحب المقاتلون سريعًا حسب الخطة". كان ماسيتي يعرفهم جميعًا، فهم جماعة من الإرهابيين الأرجنتينيين، "لا شرعيين" عند المخابرات العامة، ذلك أنه كتب يقول: "كانوا رفاقي"[45].

بعد اغتيال سوموزا صعد بينوشيه إلى قمة قائمة فيدل للأشرار. كان قائد انقلاب أيلول/سبتمبر عام 1973 الذي أطاح بحليف كوبا القوي سلفادور الليندي الرئيس التشيلي أقل عرضة للهجوم من سوموزا المنفي. وربما كانت ثمة محاولات أخرى فاشلة لكن المحاولة التي اقتربت كثيرًا من النجاح حدثت في أيلول/سبتمبر عام 1986.

كانت عملية شبه عسكرية مشابهة لتلك التي نفذت بحق سوموزا. نفذت عند منعطف الطريق في أطراف العاصمة سانتياغو بترسانة من الأسلحة الثقيلة. اثنان من المنشقين الكوبيين – عميل رفيع المستوى سابق للمخابرات العامة اسمه خوزيه ماراغون، ولازارو بتانكورت وهو كوماندوس وهداف رقم واحد – يعرفان تفاصيل هذا الهجوم الذي خطط له بدقة بالغة. قالا لي بأن الدليل الكوبي كان معروفًا على نطاق واسع في دائرة مخابراتهم.

كان بتانكورت ملمًا جيدًا بهذه المحاولة الفاشلة لانها استعملت حالة

دراسية في التدريب على عمل الكوماندوس. فقد أعد مدربه عددًا من الإرهابيين التشيليين الذين نفذوا الهجوم. كانوا أعضاء في جبهة مانويل رودريغز الوطنية، وهي واحدة من الجماعات الإرهابية الأمريكية الجنوبية التي تستخدمها المخابرات العامة في عمليات خاصة يصعب اقتفاء أثرها إلى كوبا.

أثناء مرحلة التفجيرات في دورته التدريبية عام 1984 تم تعيين بتانكورت في بنتوسيرو Punto Cero وهي قاعدة عسكرية سرية في غوانابو Guanabo شرق هافانا. (تحمل الاسم نفسه للتجمع السكني لعائلة فيدل في خيمانيتاس لكنها واضحة ومميزة.) قال لي بتانكورت:

> "شرحوا لنا محاولة الاغتيال المنفذة بحق بينوشيه ولماذا فشلت. والسبب هو أن الإرهابيين التشيليين غيروا خطة الهجوم في آخر لحظة. كان ينبغي لهم أن يضعوا المتفجرات في الطريق الذي يسلكه موكب بينوشيه وعندئذ يستخدمون الأسلحة النارية للقضاء عليه. لكنهم بدلوها، فأطلقوا النار أولًا. قال مدرّبي لو أنهم فعلوا على الشكل الصحيح لكانت العملية ناجحة".

لم يشارك في هذه العملية شخص كوبي واحد. لكن أعمال التخطيط والتدريب كانت كلها تتم في قاعدة كوبية. وقدمت الفرقة الخاصة الكوبية أسلحة أمريكية مستعملة من أيام حرب فييتنام – على متن قارب من أسطول الصيد الكوبي – سلمت في بقعة منعزلة على الساحل الشمالي لتشيلي على المحيط الهادي.

وصفت جريدة الغارديان الصادرة في لندن هذا الهجوم بأنه "مسرحي سينمائي عند تنفيذه". تعرضت سيارة بينوشيه المدرعة لوابل من النيران، وارتجت ارتجاجًا عنيفًا بفعل انفجار قنبلة يدوية. يقال إن قاذفات بازوكا وصواريخ استخدمت في هذا الهجوم أيضًا. أما الدكتاتور الذي كان يرافقه حفيده فقد أصيب بجرح بسيط واستمر في عمله لثلاث سنوات أخرى رئيسًا لبلاده. قتل خمسة من مرافقيه وجرح أحد عشر آخرون. وبحسب ماراغون: "أما خطة الهروب فقد نفذت بنجاح". واستطاع المهاجمون الهروب والعودة بسلام إلى كوبا[46].

الفصل السابع

فم الأسد

ربما لم يُقدَّر للقصص التي رواها فلاديمير رودريغز لاهيرا وميغيل روش أن تخرج من إطار دائرة صغيرة في السي آي إيه - وربما باتت في دائرة نسيان الجميع تقريبًا - لو لم يسافر لادي إلى مدينة مكسيكو قبل شهر واحد من انشقاقه.

فقد ذهب إلى هناك بغطاء دبلوماسي من هافانا ليلتقي سرًا بمجموعة من قادة الحزب الشيوعي السلفادوري. انتظر حتى كاد ينفد صبره ليسمع كلمة المرور "موريسيو Mauricio" التي تجعله شخصًا موثوقًا به وبأنه ثروة كوبية. لكنهم لم يأتوا. هكذا يعمل العملاء الميدانيون في أغلب الأوقات: التخطيط لاجتماعات لا تتم، والانتظار لأيام في كل مرّة لمكالمة هاتفية في غرف الفنادق الرخيصة في مدن بعيدة.(1)

طالت إقامته في العاصمة المكسيكية من 14 وحتى 23 آذار/مارس عام 1964. وكانت أول زيارة له خارج كوبا، وكان من دواعي سروره أن يستفيد من هذه الزيارة لأقصى مدى على حساب المخابرات العامة. تم الترتيب للقاءات مع ثوار من نيكاراغوا، ومهام عملياتية أخرى نفذت، وفيما عدا ذلك اختلط مع زملاء له في المركز التابع للمخابرات العامة. يعمل هذا المركز خارج مبنى القنصلية لكنه قريب من السفارة وفي مجمع الكتل المربع في حيّ كونديزا Condesa

وسط المدينة. وبعد أن صار في أيدي السي آي إيه بعد شهر واحد اتخذت زيارته هذه أهمية جديدة حرجة.

كان من شأن ما لدى لادي من معرفة بأشخاص وإجراءات في هذا المركز ما جعله شخصًا ذا اهتمام دائم في التحقيقات الجارية في قضية اغتيال جون كينيدي. ولهذا السبب رُفعت السرية في التسعينيات عن ملفاته في السي آي إيه كافة، وذلك بموجب نصوص تشريعية لدى مجلس مراجعة سجلات الاغتيال الذي تأسس ليتاح للرأي العام الاطلاع على جميع سجلات الحكومة الفدرالية ذات الصلة بالاغتيال. وكان لرودريغز لاهيرا أهميته الخاصة لأنه هو ولي هارفي أوزوالد Lee Harvey Oswald كان يتعاملان مع ضباط الاستخبارات الكوبية ذاتها في مركز المخابرات العامة في مكسيكو.

ذهب قاتل كينيدي إلى القنصلية الكوبية في ثلاث مناسبات عندما كان في العاصمة المكسيكية في الفترة الواقعة بين 27 أيلول/سبتمبر والثاني من تشرين الأول/أكتوبر عام 1963 طالبًا الحصول على تأشيرة دخول إلى كوبا. وجاء لادي إلى هذا المركز بعد ستة شهور. وكان فعلًا على علم بعمليات هذا المركز بسبب عمله في المقر العام للمخابرات العامة. وكان مصدرًا للمعلومات فريدًا في نوعه ويمكن التعويل عليه بخصوص واحدة من أكثر القضايا إزعاجًا كانت قيد التحقيق لدى لجنة وارن Warren Commission. هل يمكن أن يكون للمخابرات الكوبية يد في اغتيال الرئيس؟ كان القاضي إيرل وارن Earl Warren وستة آخرون من وجهاء القوم الأمريكيين في المراحل المتأخرة من تحقيقاتهم في قضية اغتيال كينيدي عندما انشق لادي، وكانوا في مرحلة الاستعداد لإصدار تقريرهم المنحاز في شهر أيلول/سبتمبر المقبل. لكن السي آي إيه اعتبرت لادي مصدرًا حساسًا جدًا فأبعدته عن هيئة اللجنة. لم يُجْر أحد مقابلة معه، حتى ولم يره سوينسون. بل والأشد سوءًا أن المعلومات القيّمة التي جلبها معه ولها صلة بالتحقيق لم تذع كاملة ولم تحلل آنذاك. واللافت أن لادي كان على قناعة بأن فيدل كذب عندما أنكر على رؤوس الأشهاد أي معرفة بأوزوالد قبل حادثة الاغتيال في يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1963[2].

ففي خطابين ألقاهما في الأيام القليلة التي أعقبت اغتيال كينيدي أصر فيدل على قوله بأنه لا يعلم شيئًا عن القاتل. ومع حلول ليل اليوم الذي قتل فيه الرئيس، وفيه أقسم نائب الرئيس اليمين الدستورية خلفًا له كانت وسائل الإعلام الإخبارية تضج بالحديث عن قناعات أوزوالد الماركسية، وعن هروبه من الاتحاد السوفياتي وعن تعاطفه ونشاطه المؤيد لكوبا. فكان كاسترو يعلم أنه بحاجة لأن يستبق الاتهامات الحتمية بأن لكوبا ضلعًا في المؤامرة. لذلك تحدث عن أوزوالد مساء يوم 23 تشرين الثاني/نوفمبر وذلك من داخل ستوديو تلفزيون هافانا وكان واضحًا حين قال: "نحن لم نسمع به في حياتنا".

لقد قامر كاسترو وهو يعلم أن المخاطرة كبيرة. لا أحد قد يخالفه ويكون صادقًا. مجرد حفنة صغيرة من المسؤولين الكوبيين فقط لديهم المعرفة التي تدحض أقوال زعيمهم، ولكن من يجرؤ؟ لا أحد بالطبع يتوقع بأن لادي قد ينشق بعد شهور قليلة. وكما كان الحال في أمثلة مشابهة خلال السنين حيث كان الضغط شديدًا حسب فيدل أنه من خلال التهديد والوعيد والكلام الطنان والكذب المتقن وتكرار القول سوف يصدقه الآخرون. آلة الدعاية الحكومية – وحملات المخابرات النشيطة وإجراءاتها والتي تردد أصداء موقفه – جندت في الحال. كانت الكذبة تراجعًا مفهومًا وسط هذه الأزمة، لكنها كبرت وتضاعفت الشكوك: ما الذي يخبئه فيدل غير ذلك؟

في مطلع شهر أيار/مايو 1964 قدّم سوينسون ملخصًا مقتضبًا حول ما يعرفه لادي عن خديعة فيدل، مكثفًا هذه المعرفة بكلمات قليلة. ولم يضف هال أي تعليق عليها ولم يحاول الإضاءة على المعلومات. والغريب في الأمر أنه لم يعتبرها معلومات هامة، وليس ثمة دليل في السجلات المصنفة سرية بأن شخصًا ما داخل السي آي إيه يعلم شيئًا. لا أحد أخبر الاختصاصيين في الشأن الكوبي في مديرية تحليل المعلومات. ونتيجة لذلك لم يضمّن أسلافي تقريرهم أية تفاصيل في المطبوعات الاستخبارية السرية التي وضعوها من أجل قراء السياسات في واشنطن. إضافة لذلك فإن لجنتي التحقيق في الكونغرس في قضية اغتيال كينيدي وكذلك الباحثين المستقلين تجاهلوا جميعًا هذا الخروج عن

القياس. وهكذا تم وأد خديعة فيدل في أرشيف رودريغز لاميرا حيث بقيت دون دراسة وفحص - لغاية الآن.

* * *

كان لادي يعرف آلية عمل مركز مكسيكو معرفة جيدة. فهو بما فيه من عشرة ضباط قضايا في الحد الأدنى يعتبر أكبر مركز كوبي في العالم. ولدى السي آي إيه اعتقاد بأن البستانيّ الذي يعمل في الحديقة هو أيضًا عنصر استخبارات. وكشف لادي لنا أن المخابرات العامة وضعت عناصر لها في القنصليات الشديدة الازدحام في مرافئ فيراكروز Veracruz وتامبيكو Tampico على ساحل خليج المكسيك وفي ميريدا Merida أكبر مدينة في شبه جزيرة يوكاتان. فقد كان الكوبيون يتمتعون "بالكثير من حرية الحركة والعمل في المكسيك في تلك الأيام،" كما قال معاون هلمز للجنة تشرش[3].

وكان لادي يعرف أيضًا مانويل فيغا بيريز Manuel Vega Perez رئيس المركز البدين ومعاونه روغيليو رودريغز لوبيز Rogelio Rodriguez Lopez. كانا أبرع العاملين لدى بنييرو وأكثرهم شراسة واختارهما فيدل شخصيًا. وقد أبلغ مصدران مستقلاّن بعض ضباط السي آي إيه في شباط/فبراير 1964 أن هذين الاثنين خططا لمحاولة الاغتيال ضد أناستازيو سوموزا قائد الحرس الوطني في بلاده آنذاك. وكان مقررًا أن ينفذ المحاولة "لاشرعيون" من نيكاراغوا بتوجيه كوبي. لكنها فشلت، أو ربما لم يتم التنسيق لها - فالسجلات التي رفعت عنها السرية ناقصة - لكن ملاحقة المخابرات العامة القاسية لهذا العدد الأكبر تواصلت. ولا يمكن لفيغا ومعاونه لوبيز الادعاء بشيء من الفضل في قضية إعدام الدكتاتور السابق بعد سنوات عدة، ولكن لا بد من القول بأن جهودهما كان قد خُطط لها بشكل جيد[4].

حدد لنا لادي أسماء ضباط استخبارات آخرين في مركز مكسيكو. كان قد تعرف في هافانا إلى لويزا كالديرون Louisa Calderon، وهي فتاة شابة جذابة ومرحة ومفعمة بالحيوية والنشاط، قبل أن تنقلها المخابرات العامة إلى مركز

مكسيكو. رأى مسؤول رفيع المستوى في المديرية بالمقر العام "قضيتها حالة فريدة ومتميزة"، وكان لادي يعرف عنها ما يكفي، فوافق على قوله. الجدير بالذكر أنها دخلت في عزلة تامة فور سماعها نبأ اغتيال كينيدي. يقول لادي إنها عندما عادت إلى كوبا بعد بضعة أسابيع لتقيم فيها بشكل دائم استمرت بقبض "رواتبها بشكل نظامي من مديرية المخابرات مع أنها لا تقوم بأي عمل". كانت تعيش في حي راق في هافانا وهو يظن أنه قد يكون لها بعض التعاملات مع أوزوالد[5].

جاء في تقرير سوينسون أن لادي "لا يعرف معرفة شخصية" قاتل كينيدي مع أنه علم من فيغا كل شيء عن زيارة أوزوالد الثانية والثالثة إلى القنصلية الكوبية. وهذه معلومات يتذكرها كل من كان على مسافة قريبة تمكنه من الاستماع.

في عام 1978 مثلت سيلفيا ديوران Silvia Duran، موظفة الاستقبال المكسيكية الأصل في هذه القنصلية أمام هيئة اللجنة المختارة من مجلس النواب في الكونغرس المكلفة بالتحقيق في موت كل من الرئيس كينيدي ومارتن لوثر كينغ، وقالت إن أوزوالد كان يثير مشاهد غضب وصخب عندما رفضت القنصلية منحه تأشيرة الدخول. وهنالك ثمانية أشخاص آخرون – كان بينهم فيدل – ممن أجرى ممثلو اللجنة مقابلات معهم[6].

اثنان منهم تذكرا زيارة أوزوالد جيدًا. ألفريدو ميرابل Alfredo Mirabel، الرئيس الجديد للمركز الذي حل محل فيغا، وهو ضابط في المخابرات العامة، أبلغ اللجنة أن هذا الصخب الذي أحدثه أوزوالد استمر ما بين خمس عشرة إلى عشرين دقيقة. بينما قال موظف القنصلية الكوبي أوزيبيو ازكو Eusebio Azcue بأنه تجادل مع أوزوالد "بشكل عنيف وبانفعال". وقال: "لم يأتنا قط شخص بهكذا إصرار". وعندما رفضت القنصلية للمرة الثالثة منحه التأشيرة خرج أوزوالد وصفق الباب وراءه بثورة غضب[7].

كان أوزوالد حالة مربكة أمام الكوبيين. تذكرت ديوران كيف عمل جاهدًا

وهو يحاول إقناعهم بأنه "صديق" للثورة. ويقال إنه كان يتأبط أحد كتب لينين تحت ذراعه عندما جاء. وكان يحمل أيضًا رزمة من الرسائل والوثائق وقصاصات من الصحف وبطاقات عضوية. لكن أوزوالد لم ينضم يومًا للحزب الشيوعي الأمريكي، إنما أحضر معه وثائق تعريف مزورة مدعيًا أنه كان في السابق عضوًا. وأبرز للكوبيين ما يثبت أنه عضو يحمل بطاقة عضوية في جماعة "Fair Play" التي مقرها نيويورك لصالح اللجنة الكوبية. وهي جماعة يعرف مكتب التحقيقات الفدرالي FBI أن المخابرات العامة تمولها وتستغلها علمًا أن المسؤولين الكوبيين ينكرون ذلك[8].

حاول أوزوالد إنشاء فرع دون تفويض لهذه الجماعة في مدينة نيو أورليانز، لكن زوجته ماريا الروسية المولد وشخصية أ. ج. هيدل A. J. Hidell الوهمية هما العضوان الوحيدان. هيدل – واسمه يرن بإيقاع مماثل لفيدل – هو أيضًا الاسم المستعار الذي استخدمه أوزوالد لشراء البندقية التي استخدمها لقتل كينيدي. وقد تطوع نقيب في المخابرات العامة كان بين المسؤولين الذين راقبوا لجنة مجلس النواب الأمريكي أثناء زيارات قام بها مندوبو هذه اللجنة إلى هافانا ليقول إن حرف "أ" (A) في اسم هيدل هو اختصار لـ اليخاندرو Alejandro، الاسم الذي دعا به فيدل نفسه أثناء حركته التمردية. وعلّق هذا الكوبي على ذلك بقوله: "أظن أنه أحسن الاختيار". لكن كيف علم هذا النقيب معنى هذا الحرف، فهذا لم يفسره أحد[9].

فُتن أوزوالد بفيدل منذ أيام خدمته في أواخر الخمسينيات في المحطة الجوية التابعة لفرقة مشاة البحرية في إلتورو El-Toro في جنوب كاليفورنيا. وفي هذا المكان عينه، وقبل مناسبة عيد الميلاد عام 1958 تعرّف إلى نلسون دلغادو Nelson Delgado البورتوريكي المولود في بروكلين وعقد صداقة معه. كان دلغادو واحدًا من الأشخاص القلائل جدًا الذين قد يفكرون بأن يتخذوا شخصًا فظًا غير متزن مثل أوزوالد صديقًا له. قال أمام لجنة وارن للتحقيق: "بدأنا نتحدث ... ونتعرف إلى بعضنا جيدًا". لكن ما شد أحدهما للآخر هو ذلك الانجذاب الذي شعر به كل منهما نحو كاسترو وذلك الصراع في حرب

العصابات التي كانت في أسبوعها الأخير ضد باتيستا. قال دلغادو كان بينهما "مناقشات كثيرة حول كاسترو". وأن أوزوالد "بدأ فعلًا يضع الخطط ... كيف يذهب إلى كوبا ... وبدأ يتعلم اللغة الإسبانية ... وبدأ يسألني كيف يمكنه أن يساعد"[10].

وقال دلغادو وهو يستذكر تلك الأيام "لم أدر ماذا أقول له". لذلك "فإن أفضل طريقة أعرفها هي أن تتصل بالسفارة الكوبية ... وقلت له اذهب وانظر". اعتقد دلغادو أن أوزوالد ذهب واتصل بمسؤولين حكوميين كوبيين في قنصليتهم بلوس أنجلس. "وبعد فترة قصيرة من الزمن أخبرني بأنه على اتصال بهم ... كان يخبرني بأنه يوجد ثمة قنصل كوبي ... وأنه بدأت تصله هذه الرسائل". وفي وقت لاحق تذكر دلغادو بأن زائرًا مدنيًا زار أوزوالد في القاعدة البحرية ويظن انه كوبي. "أمضيا نحو ساعة ونصف من الوقت أو ساعتين يتحدثان". يبدو أن تقارير حول هذه الاتصالات المزعومة وجدت طريقها إلى ملفات مديرية المخابرات العامة بخصوص أوزوالد.

خُلع باتيستا من منصبه في الأول من كانون الثاني/يناير عام 1959، لذلك كان الأوان قد فات ليقوم أوزوالد بزيارته إلى كوبا ليقاتل بصفة جندي مشاة في حركة تمرد كاسترو. فتبلورت خطة بديلة. يتذكر دلغادو بأنهما فكرا في التطوع للقتال في حرب عصابات في بلدان كاريبية أخرى. وتحدثنا عن "كيف نريد الذهاب إلى كوبا و ... نَقود حملة عسكرية إلى بعض الجزر الأخرى ونحررها أيضًا". كانت هذه المغامرة في التظاهر بالشجاعة وحب القتال بالنسبة لدلغادو نوعًا من الفانتازيا الرومانسية الحالمة، لكنها عند أوزوالد تعكس حبه الحقيقي للعمل العسكري ورغبته بالتخلي عن أمريكا البرجوازية التي يزدريها. ففي تشرين الأول/أكتوبر عام 1959 هاجر إلى الاتحاد السوفياتي.

لكن حبه وافتتانه بفيدل وكوبا لم ينته. لاحظت مارينا Marina ذلك لأول مرة حين بدأت علاقتهما الغرامية في مينسك، عاصمة بيلاروسيا المستقلة اليوم. شعر أوزوالد بسخط شديد عندما أُنزل لواء من الكوبيين المنفيين تابع للسي آي إيه في خليج الخنازير. اصطحب مارينا لمشاهدة فيلم سينمائي سوفياتي عن

كوبا، وقال لها حينذاك بأنه يعتبر فيدل "بطلًا". وكتب المؤلفان جان دافيسون Jean Davison وغوس روسو Gus Rosso أنه كان يبحث عن طلبة كوبيين في مينسك[11].

ظهر في تكساس ولويزيانا بعد عودته عام 1962، وقد تزايد اهتمام أوزوالد ببطله. علّق صورة فيدل على جدار في شقته بمدينة نيو أورليانز. وفكر كثيرًا بأن يسمي أول طفل لم يولد بعد لهذين الزوجين فيدل. ولشدة غبائه حاول إقناع مارينا كي تساعده في لختطاف طائرة تقلهما إلى كوبا وذلك، كما تتذكر، لكي يحارب في سبيل "العم فيدل". قرأ الكثير جدًا من الدعايات حول معبوده، وبرع في تكرارها. وفي أعقاب اعتقاله وجدت من بين مقتنياته خطب كاسترو المترجمة وصوره وكتيبات وغيرها من المواد التي تمجد الثورة[12].

حاول جاهدًا في القنصلية بمكسيكو أن يقنع الكوبيين بصدق أحاسيسه الثورية، وأظهر لهم صورة له ضمن خبر نشر مؤخرًا قبل بضعة أسابيع في مدينته نيو أورليانز. فقد جرى اعتقاله إثر مشادة كلامية في الشارع مع كوبيين منفيين حين كان يوزع مناشير مؤيدة لكاسترو. تقول مارينا فيما تتذكره أنه كان يشعر بالفخر والزهو إزاء ذلك المشهد الذي تسبب به في الشارع وليلة الاعتقال الناجمة عنه. وقالت أمام لجنة وارن بأنه كان "يبتسم" عندما جاء إلى البيت في الصباح. وقالت "كانت دعاية" "أراد أن يُعتقل". وكانت تعتقد أنه بافتعاله هذه الواقعة سيكون لديه البرهان على نضاله ليقدمه إلى الكوبيين. لكنه عندما أدرك أن مندوبي السفارة لم يعجبهم ذلك كال لهم التهم والإدانات. هم مجرد "بيروقراطيين". وبالمقابل هو "دخل السجن دفاعًا عن الثورة الكوبية".

كان ولعه هذا قويًا على نحو خاص إبان شهور الصيف التي قضاها أوزوالد في نيو أورليانز قبل زيارته إلى مكسيكو. قالت مارينا أمام لجنة مجلس النواب "كان فيدل البطل الذي يحبه، وكان شديد الإعجاب به ... كان في حالة من المزاج الثوري ... وسيكون في غاية السعادة للعمل في سبيل قضايا فيدل كاسترو". أما فنسنت بوغليوسي الخبير في قضية اغتيال كينيدي فيقول: "كان معجبًا شديد الإعجاب ... وكان في حالة نفسية من المزاج الثوري ... يسعده أن

يعمل في سبيل قضايا فيدل كاسترو، إن حب أوزوالد الشديد وتفانيه وحماسته لكوبا لا تعرف حدودًا"[13].

لكن أوزوالد قال للكوبيين في مكسيكو إنه فر وعاش في الاتحاد السوفياتي لسنتين ونصف. وأنه ظهر في برامج إذاعية وتلفزيونية تحدث فيها عن إيمانه بالمعتقدات الماركسية وأعلن أيضًا أن "كوبا هي الدولة الأكثر ثورية في العالم اليوم". وتظاهر في شوارع مدينة دالاس حين كان مسكنه هناك وحمل لافتة من صنع يدوي كُتب عليها "ارفعوا أيديكم عن كوبا، عاش فيدل!" وربما حكى للكوبيين أنه علم بقصة طائرة التجسس من طراز U-2 التي رصدها أثناء خدمته العسكرية في قاعدة جوية أمريكية في اليابان.

هذا كله من شأنه أن يثير اهتمام المخابرات العامة به. لكن في اللغة العالمية للاستخبارات، كان أوزوالد متطوعًا كلاسيكيًا، منشقًا، حين جاء إلى القنصلية. أراد أن يكون مفيدًا لهذا الرجل ذي اللحية الذي يعبده. كان متلهفًا لحمل السلاح من أجل فيدل. سئلت مارينا عما إذا كان أوزوالد يتحدث كثيرًا عن الثورة الكوبية. فقالت: "أجل، عندما حصل أوزوالد على البندقية، أظن أن ذلك ارتبط في ذهني مع نوع ما للثورة"[14].

اشترى أوزوالد البندقية من طراز Monnilicher-Carcano لكي يستخدمها في اغتيال كينيدي في الثاني عشر من آذار/مارس 1963. واستخدمها للمرة الأولى وفي نيته الإجرام، وذلك ضد اللواء المتقاعد من الجيش إدوين ووكر Edwin Walker، اليميني المتطرف والمهيّج المناهض لكاسترو الذي كان يطالب كينيدي قبل أيام قليلة "بتصفية ذلك البلاء الذي حل على كوبا"[15]. والعيار الناري الذي أطلق على اللواء وهو جالس في مكتبه بمنزله بمدينة دالاس بعد حلول الظلام أخطأ رأسه بجزء من البوصة. لذلك يمكن القول إن مارينا التي تعرف زوجها حق المعرفة كانت محقة في قولها: غاية أوزوالد من شراء البندقية كانت تبني شخصية تكون جديرة بمحارب في حرب عصابات. ومن خلال قتله لووكر يكون كمن يساعد في قضية فيدل وذلك عبر التخلص من عدو للثورة. وعندئذ يصبح واحدًا من محاربي فيدل.

في رسالة بعث بها من الاتحاد السوفياتي إلى أخيه روبرت كتب أوزوالد يقول: "في حال وقوع حرب فسوف أقتل أي أمريكي يرتدي الزي العسكري دفاعًا عن الحكومة الأمريكية – أي أمريكي". وفي هذا السياق قال مايكل بّين Michael Paine، الشاب الذي كان يعرف القاتل في مدينة دالاس أمام لجنة مجلس النواب "يعتقد أوزوالد بأن الطريقة الوحيدة لتصحيح المظالم في المجتمع تكون من خلال ثورة عنيفة". وقال بّين أيضًا فيما بعد "أراد أوزوالد" أن يكون محاربًا ناشطًا في أي مجهود يقود إلى نظام عالمي جديد ... ليس ثمة شك في ذهني بأنه يعتقد بأن العنف هو الأداة الفعالة الوحيدة"[16].

التقطت مارينا بعض الصور الضوئية لزوجها وهو في الحديقة الخلفية للمنزل الذي استأجراه في دالاس قبل انتقالهما إلى نيو أورليانز. كان يتخذ وضعية المقاتل، يرتدي الأسود ويحمل بندقيته من طراز Mannlicher-Carcano. وعلى خصره مسدس في جرابه، وهو المسدس الذي استخدمه في قتل شرطي بمدينة دالاس اسمه ج. دي. تيبيت J.D. Tippit بعد أقل من ساعة من اغتيال كينيدي. يمسك بيده الإصدارات الحديثة لصحيفة *The Worker* الصادرة عن الحزب الشيوعي الأمريكي وصحيفة *The Militant* التروتسكية. فقد اشترك في كلا الصحيفتين قبل سنة واحدة. وهما وسيلته المفضلة لمواكبة أخبار كوبا.

يظهر وجهه في هذه الصور هادئًا ومصممًا مع ابتسامة رضًا حقيقية. تقول الباحثة بريسكيلا جونسون ماكميلان Priscilla Johnson McMillan في كتابها عن عائلة أوزوالد وهي تصف تعابير وجهه بأنها تدل على "اطمئنان رفيع". يبدو في مظهره شابًا أمريكيًا لا يختلف عن الآلاف من معاصريه الأمريكيين اللاتين المسجلين آنذاك في مدارس التدريب على حروب العصابات الكوبية، متلهفًا لحمل السلاح من أجل فيدل. بعد أيام قليلة من مقتل كينيدي قالت مارينا للجهاز السري بأن أوزوالد خطط لإرسال نسخة من إحدى صوره إلى صحيفة *The Militant* " ليثبت أنه مستعد لأي شيء ... حتى لو تطلب ذلك احتمال استخدام السلاح"[17].

كان الذهاب إلى كوبا في صدر أولوياته. فقد أخبر ديوران في القنصلية في مدينة مكسيكو بأنه أراد "أن يقضي بعض الوقت" في الجزيرة. وحين كان في الحافلة التي أوصلته إلى العاصمة المكسيكية تحدث مع أحد الركاب وأشار بأنه كان يخطط "لرؤية كاسترو". وقد استنتجت لجنة وارن بأنه في الأعم الأغلب "كان ينوي البقاء في كوبا". وقد ظنت مارينا ذلك أيضًا، ففي شهادتها قالت حين غادر إلى مدينة مكسيكو "يفضل دون شك أن يذهب ويعيش في كوبا ... وأنا بصدق لم أتوقع أن أراه ثانية". لقد كانت كوبا الثورة بنظر هذا الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا المدينة الفاضلة التي كان يحلم بها[18].

* * *

لم تبرز معرفة لادي بمركز مكسيكو وما يعرفه عن زيارات أوزوالد إلا عرضًا ولأول مرة في حديثه مع سوينسون. ولم تبد هذه التفاصيل بذات أهمية بنظر هال من حيث كونها معلومات عملياتية تراكمت لديه حول أعمال كوبا التخريبية في أمريكا اللاتينية. ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأ الآخرون يربطون النقاط ببعضها في مدينة مكسيكو. بعد نحو أسبوع من وصوله لفت لادي انتباه هيئة الاستخبارات المضادة بقيادة أنغلتون. قُدِّمت إحاطة حول هذه القضية إلى راي روكا Ray Rocca، رئيس قسم البحوث والتحليل آنذاك – وهو الذي وصف هذا القسم بأنه "مخبر الاستخبارات المضادة"[19].

كان كل من روكا وأنغلتون يساندان هلمز رئيس قسم ارتباط الوكالة مع لجنة وارن. بسبب تعاملهما المنتظم مع هيئة موظفي اللجنة كانا يعرفان ما لم يكن سوينسون يعرفه في بادئ الأمر، إذ لا يزال تشريح وتحليل مدة إقامة أوزوالد في المكسيك في صدر الأولويات. وقد تحدث أحد استشاريي اللجنة فيما بعد عن هذه المخاوف بدقة بالغة. كان التركيز ينصب حول ما إذا كان أوزوالد "مدفوعًا بـ أو جزءًا من مؤامرة كانت أصولها في كوبا، أم كان مع مؤيدي ومناصري كوبا". كان ثمة "قلق لا بأس به" كما قال، بخصوص هذا الاحتمال المزعج كثيرًا. وبدأت هيئة أنغلتون تتساءل وبيدها تقارير سوينسون الأولى عن

الاستجواب عما إذا كان لدى هذا المنشق الفار الجديد معلومات جديدة قد تورّط كاسترو[20].

ما كان لروكا المتشدد والصلب في مواقفه ليحب شيئًا آخر أكثر من هذا. كان رجلًا قصير القامة ممتلئ الجسم وقوي البنية، محترفًا فظًا، عمل في الوكالة منذ نشأتها عام 1947. وهو، "روك" كما يحب أن ينادى، خلافًا لرئيسه المباشر أنغلتون، بعيد الميل عن نبذ المؤامرات الوهمية واصفًا إياها بالرغوة الجوفاء التافهة أو الانكفاء في نوبات من جنون الارتياب فيتخيل عملاء KGB مختبئين في لانغلي. لكنه شديد الإخلاص لأنغلتون، ترك السي آي إيه التي أحبها تضامنًا مع رئيسه حين أجبر على الاستقالة عام 1974.

يوم الجمعة في الأول من أيار/مايو وضع روكا نحو عشرة أسئلة طلب إلى سوينسون أن يطرحها أثناء استجواب المنشق المستهدف. وكان الأكثر أهمية فيها ثلاثة أسئلة أراد أجوبة عنها وهي:

- هل كان لي هارفي أوزوالد معروفًا لدى أجهزة المخابرات الكوبية قبل 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1963؟
- هل كانت الأجهزة الكوبية تستخدم أوزوالد بأي صفة من صفات العمالة، أو بأي طريقة أخرى قبل 23 تشرين الثاني 1963؟
- هل أرسلت أي مادة مستفزة صنعتها الأجهزة الكوبية أو غيرها عن قصد وأرسلت إلى الولايات المتحدة للتشويش على التحقيقات في قضية أوزوالد؟[21]

كانت الإجابات التي وضعها سوينسون جاهزة لديه خلال أيام. لم يكن لادي يعرف ما إذا كانت المخابرات العامة قد استخدمت أوزوالد. أما بخصوص السؤال الثالث، فقد ذكر هال أن "الفبركة الوحيدة المحتملة التي يعرفها المصدر هي الرفض الواضح (من قبل كاسترو) ... لأي معرفة بأوزوالد". ولا يوجد أية تفاصيل ولم يطلب ذلك قط[22].

لكن التوترات داخل دائرة النخبة في لانغلي اشتدت بخصوص الجواب عن السؤال الأول الذي وضعه روكا. فقد ذكر سوينسون في تقريره أن لادي عرف أن أوزوالد زار القنصلية وأنه "كان قبل وأثناء وبعد الزيارات على اتصال مع"

مديرية المخابرات العامة. وهذا الزعم الخطير والخارق لم يوضح التوضيح الكافي. كان لادي يعتقد بوجود تورط كوبي مؤكد مع أوزوالد[23].

لو أن لجنة وارن أُبلغت بهذه المعلومات لكانت قد اندفعت بقوة نحو منطقة جديدة رهيبة. ولكانت احتمالات وجود مؤامرة كوبية مع أوزوالد قد حظيت بالمزيد والمزيد من الانتباه والعناية. حتى الدليل غير القاطع، بل والمؤشر - أو كما وصفه المحللون في السي آي إيه في تقرير حساس بـ "إلصاق تهمة" ليد كوبية في الاغتيال - قد يشكل انفجارًا في واشنطن لا يقل في أهميته عن الألعاب النارية التي تثير اهتمام الجميع في الرابع من تموز/يوليو[24].

وما كان لذلك أن يظل سرًا. فالكونغرس والرأي العام الأمريكي سوف يعرفون وسوف تسمع طبول الحرب. وسيكون القيام بعمل عسكري عقابي ضد كوبا أمرًا حتميًا. كانت السي آي إيه ترسل تقاريرها بانتظام حول زيارة قوة عسكرية سوفياتية مؤلفة من بضعة آلاف من الرجال لا تزال باقية في الجزيرة. ولم يكن ثمة أدنى شك لدى دوائر صنع السياسات في واشنطن بأن نزاعًا عسكريًا مع كاسترو قد ينفجر بسهولة ليصبح مواجهة أخرى بين القوتين العُظميين[25].

لكن أحدًا لم يكن أكثر قلقًا في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر 1963 من قادة كوبا. أخبر لادي في حديثه مع سوينسون كيف أن الجهاز التابع له صار في حالة إغلاق افتراضي عصر يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر بعد سماع أخبار اعتقال أوزوالد. وصدرت الأوامر إلى المراكز جميعًا بتغليف ما لديها من معلومات سرية، وفرز الملفات ذات السرية المطلقة وانتظار المزيد من المعلومات. عُلّقت أسفار ضباط المقار الرئيسية وإرسال الحقائب الدبلوماسية. وصدرت التعليمات للموظفين بالبقاء في مكاتبهم أو قريبًا منها وذلك "بغية سهولة الوصول إليهم". وعقد معاون بنييرو اجتماعًا مع ضباط ومسؤولي دائرة التحرير الوطني وطلب إليهم إعداد نظام للاتصالات المشفرة مع عملائهم في الدول الأخرى. وقد أبلغ جاسوس موثوق به في الحكومة الكوبية هذه الوكالة بأن الأوامر صدرت إلى البعثات الدبلوماسية في الخارج بأن تتأكد "من عدم وجود وثائق تثير أي شبهة

داخل المكان". وما يؤرق هافانا أن مراكز مديرية المخابرات العامة قد تكون مستهدفة من جانب السي آي إيه للدخول خفية[26].

وكعادته دائمًا كلما اشتدت الأزمات يلجأ فيدل إلى موجات الإذاعة. ألقى ثلاث خطب في الأيام التي أعقبت اغتيال كينيدي مباشرة. (النسخة الخطية لاثنتين من خطبه لا تزال موجودة خارج كوبا.) خطب في المرة الأولى لساعتين متواصلتين، وذلك من داخل استديو تلفزيون هافانا ليلة السبت الواقع في 23 تشرين الثاني/نوفمبر، أي بعد أقل من يوم واحد من مقتل كينيدي. آنذاك كان أوزوالد قد اتهم بجريمة قتل الرئيس والضابط تيبت Tippet.

فيدل معروف بحذره، وببلاغته في معظم الأحيان، حين يكون في حالة من القلق الشديد. ذكر الإيجاز اليومي للسي آي إيه Monday Morning CIA Daily Summary – وهو نشرة مكرسة لكوبا حصرًا – أن الخطاب يعكس "خوف كاسترو بأن تصبح سياسة الولايات المتحدة نحوه أشد قسوة". لكن صحيفة Central Intelligence Bulletin، وهي الصحيفة اليومية السرية للغاية للاستخبارات العالمية الموجهة لكبار صناع السياسات قدمت تغطية أكثر شمولية، ذكرت أن فيدل وصف حادثة الاغتيال بأنها "مؤامرة مكيافيلية خطرة ضد كوبا ... ويجب علينا أن نكون حذرين ويقظين ومتنبهين". وقال إن موت كينيدي لا يفيد إلا "اليمينيين المتطرفين والقطاعات الرجعية المتطرفة ... التي تحررت من كل قيد الآن داخل الولايات المتحدة"[27].

أما تشي غيفارا فقد عبر عن الذعر والتنبيه للأخطار في خطاب ألقاه في 24 تشرين الثاني/نوفمبر. قال محذرًا: "السلم في العالم سيكون مهددًا في السنوات المقبلة". والقوى "المجردة من الأخلاق والأشد ضراوة ووحشية والمحاربة" انطلقت من عقالها. وكما هو معتاد على اللجوء دومًا إلى فكرته المعهودة عنه أكد أن "الحراك الثوري في أمريكا اللاتينية وصل إلى ذروة جديدة ... والشعب سوف يغلب القوة بأي وسيلة تلزم". أما صحيفة "*Hoy*" الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الكوبي فقد قالت إن "مناورة قذرة" تجري حاليًا "تهدف إلى جعل كوبا مرتكب الجريمة". وهذا يلخص مخاوف القيادة[28].

ذكرت صحيفة *The CIABulletin* بأنه "فور إذاعة نبأ مقتل كينيدي" أمر كاسترو بإعلان "حالة تأهب عسكري دفاعي" في كامل الجزيرة. وقد علم المحللون بهذا الأمر من خلال اعتراضهم الاتصالات العسكرية والدبلوماسية الخارجية. ومع حلول ظلام مساء 22 تشرين الثاني/نوفمبر اتخذت وحدات الجيش والبحرية الكوبية مواقع استراتيجية حول هافانا والساحل الشمالي. وبحسب واحدة من هذه الاتصالات المعترضة كان فيدل "مذعورًا" بأن الولايات المتحدة قد تهاجمه[29].

عندما أذيع خطاب كاسترو الأول على الهواء كان أوزوالد لا يزال قيد الاستجواب والتحقيق في دالاس. فما الذي يمكن أن يقوله ويجعل الأمور أشد سوءًا بالنسبة لكوبا؟ وما الذي ستقوله موظفة الاستقبال المكسيكية لحكومتها عندما تحقق معها؟ وماذا سيظهر غير ذلك؟ الخيار الحكيم لفيدل أن ينتظر قليلاً قبل أن يلقي خطابًا؛ والخطب المدوية هي ما أدمن عليه مدى حياته. لكن أسبابًا عملية أجبرته على الظهور أمام الملأ أيضًا.

غير أن المسؤولين الكوبيين وكذلك إعلام الدولة لم يعرفوا ماذا يقولون بشأن هذا الاغتيال حتى تكلم كاسترو. لقد كان كينيدي عدو الثورة الذي يزدرونه ويخافونه وهو المتهم دومًا ويشتمونه بانتظام. فكيف يجب التعامل مع رئيس ميت وقاتله؟ أشار تحليل السي آي إيه إلى هذه المعضلة بقوله: كيف ستكون ردة الفعل إزاء الجريمة التي كان ضحيتها الهدف الأول للقدح والذم من هافانا". لهذا نرى الإعلام الذي تسيطر عليه الدولة امتنع عن التعليق بالمطلق وذلك حتى ظهر فيدل على الملأ وألقى خطابه[30].

كانت ردة الفعل الأولى عند بعض الكوبيين الاحتفاء بموت الرئيس. فقد ذكر مصدر في مكتب JMWAVE بالجزيرة أن اندفاعات عفوية في أماكن العمل وفي لجان الدفاع في الأحياء. وفي مدينة مكسيكو سمع الناس عميلة المخابرات العامة لويزا كالديرون تبتهج في حديث هاتفي سجّلته سرًا محطة تابعة للسي آي إيه، عندما أبلغتها فتاة لم يمكن التعرف عليها هذا الخبر بعد ساعة واحدة من الاغتيال وصاحت قائلة "يا له من خبر عظيم!" ثم أبلغت خطأ بأن "شقيق

كينيدي وزوجته أصيبا بجروح أيضًا". ضحكت كالديرون ومرة أخرى صاحت "يا له من خبر عظيم!" وقالت كان كينيدي "معتديًا عديم الأخلاق ومشؤومًا". قالت الفتاة على الطرف الآخر للهاتف بأن الرئيس أصيب بثلاث طلقات في الوجه، ورأت كالديرون أن هذا "عظيم"[31].

لم يكن فيدل يعلم شيئًا عن هذا الحديث آنذاك، لكنه عرف أنه يجب أن يخرج على الناس ويخطب ليؤسس لسياسة واضحة وقواعد إرشادية للدعاية. أصدر النظام أوامر حظرت "أي مظهر من مظاهر الفرح". وفي 23 الشهر حدد فيدل معايير جديدة كليًا لهذا الشعب الذي تعلم أن يكره كينيدي. فتكلم عن الرئيس المتوفى باحترام غير معهود، يشير إليه على الدوام بـ "الرئيس كينيدي". وقال "نحن دومًا نوقف المشاعر الحربية عند الموت. وننحني إجلالاً عند الموت، حتى لو كان عدوًا". لكن هذا ليس صحيحًا: فيدل لم يظهر أي لين أو تجمل بالصبر بعد موت أعداء آخرين، وفي بعض الأحيان، وكما ذكرنا آنفًا، حتى أولئك الذين ماتوا منذ عقود خلت.

وعلى مدى الأعوام الخمسين وحتى لحظة كتابة هذا المخطوط لم يتحدث فيدل قط مجددًا أو كتب كلمة ذم واحدة في كينيدي. بل عوضًا عن ذلك، كان يمتدح الرئيس في أغلب الأحوال وأحيانًا يطنب في مديحه هذا، فيبدو في ذلك واحدًا من حملة السيوف المتحمسين في كاميلوت Camelot(*) أو عند كاتب سير آخر لحياة البلاط. باتت ذكرى كينيدي هاجسه، يدعو عددًا من أفراد أسرته على التوالي لزيارة الجزيرة ويلتقي معهم مبديًا كل مشاعر اللطف والكياسة. هذا وقد أقام حفل عشاء سخي على نحو خاص على شرف جون كينيدي الابن في تشرين الأول/أكتوبر عام 1997 في هافانا. وفي ذلك كتب يقول: "اجتمعنا أصدقاء"[32].

في أعقاب حادثة الاغتيال لم يتحدث فيدل علانية عن أي صلة لأحد الأخوين كينيدي بمؤامرات اغتيال حيكت ضده. واقع الأمر أن الاستخبارات

(*) من قصص الملك آرثر في التراث الإنكليزي وهي المكان الذي اتخذ الملك آرثر فيه قصره وبلاط ملكه ـ المترجم.

الكوبية قد تتبعت خطوات ثلاث محاولات من مراحلها الأولية هي الأشد خطورة. وكان كاسترو يعرف أنه بؤرة التركيز في إدارة الرئيس كينيدي منذ ما قبل معركة خليج الخنازير، وأنه كان الهدف في خريف عام 1963 لجريمة ومؤامرة الانقلاب التي بنيت حول رولاندو كوبيلا Rolando Cubela. وكان فيدل يعلم أيضًا أن وزير العدل كينيدي هو القوة المحركة وراء هذه المؤامرة.

ولكن بعد موت كينيدي وضع كاسترو اللوم كله على السي آي إيه فيما حاكته من مؤامرات. وكان منطق الأحداث عنده سليمًا خلوًا من الأخطاء – وشفافًا. اتهام الأخوين كينيدي بالتورط في مؤامرات ضده يجعل الأمريكيين الذين يعبدون هذا الرئيس الشاب الشهيد أعداء له. وما هو أكثر أهمية أن فيدل كان يعلم أن فعل ذلك سوف يثير شبهات بأنه كان مدفوعًا للانتقام بالمثل.

وكان ثمة أيضًا أولوية أكثر إلحاحًا عندما خطب كاسترو يوم 23 من الشهر. فقد أراد أن يبعد نفسه عن أي صلة بأوزوالد. وفيدل يعرف جيدًا بأنه إن استنتج الرأي العام الأمريكي بأن القاتل تآمر بشكل أو آخر مع كوبا فإن بقاء ثورته ومستقبلها سيكونان في خطر عظيم. لذلك كان على إصراره المطلق بكل جلاء في كونه لا يعرف شيئًا عن قاتل كينيدي[33].

وتحدث القائد العام مجددًا عن حادثة الاغتيال في جامعة هافانا بتاريخ 27 تشرين الثاني/نوفمبر. بعد يومين اثنين ذكر الإيجاز اليومي الخاص بكوبا Cuba Daily Summary الصادر عن السي آي إيه بأن هذا الخطاب "كان دون أدنى شك دحضًا جيد الإعداد لأي تهمة بالتواطؤ بين نظام كاسترو وأوزوالد". وأضاف المحللون بأنه "لا يثبت ولا ينفي بأن لديه معرفة مسبقة بالمؤامرة"[34].

لكنه تبنى الموقف الذي سيتخذه هو ومؤسسات الدعاية الكوبية والذي سيدفعون به منذ تلك اللحظة فصاعدًا، فأعلن بصراحة وإصرار أن أوزوالد ليس الفاعل الحقيقي. قاتل كينيدي مات في ذلك الحين، قتل في مقر شرطة دالاس، وقتله رجل من الرعاع اسمه جاك روبي Jack Ruby. وبحسب كاسترو: "هذا

يوضح بأن الأشخاص الذين يتحملون ذنب وفاة كينيدي كانوا بحاجة للتخلص وبشكل عاجل من المتهم مهما كان الثمن"[35].

وكرر فيدل قوله بأنه لا يعلم شيئًا عن أوزوالد قبل الاغتيال. وفي معرض إشارته تحديدًا إلى زيارات القنصلية بمدينة مكسيكو - وكانت هذه الزيارات موضوع تغطية واسعة وشاملة في الإعلام - أصدر الرفض الثاني من سلسلة رفضه هذا. ومرة أخرى استخدم ضمير المتكلم بالجمع "نحن" كما هي عادته حين يقصد نفسه والحكومة معًا قال: "نحن لم نعرف شيئًا عن ذلك".

ثم مضى أكثر من ذلك في هذا الامتداد وقال: "وليس لدينا أي خلفية أخرى عن المتهم ... سوى ما نشر في الصحافة".

إذن هذه التفنيدات وما سبقها شكلت الآن الموقف الكوبي الرسمي. قادة الحكومة والمتحدثون باسمها يتمسكون به ولا يحيدون عنه. لكن لادي كان يعرف أكثر. كان في هافانا عندما ألقى كاسترو خطابه الأول والثاني، وربما سمعهما مباشرة عند إلقائهما. وكانت رغبته بالكشف عن أكاذيب فيدل أمام الاستخبارات الأمريكية واحدة من دوافع كثيرة لديه أصلًا للانشقاق والفرار إلى خارج كوبا[36].

أخبر سوينسون بأنه عندما وصل خبر الاغتيال إلى مديرية المخابرات العامة "صدرت تعليقات كثيرة بخصوص حقيقة أن أوزوالد كان في السفارة الكوبية". وسمع أيضًا رئيس مركز مكسيكو مانويل فيغا يتحدث عن زيارة أوزوالد له. وكان فيغا قد نُقل من مكسيكو في تشرين الأول/أكتوبر عام 1963 وعاد إليها لاحقًا لدورة عمل ثانية في منتصف نيسان/أبريل من العام التالي. تحدث فيغا حول ذلك مع لادي ونحو عشرة من الزملاء في مقر المديرية العامة بعد غداء أحد الأيام بعد الحادثة مباشرة[37].

يعتقد لادي أن فيغا رأى قاتل كينيدي في القنصلية. ويظن أن رودريغز لوبيز معاون رئيس المركز رآه أيضًا. فقد قال لادي لسوينسون "أشعر أنني متأكد" بأن فيغا قد يكون طلب الإذن من المقر العام لإصدار تأشيرة الدخول.

وثمة إجراء نموذجي معتاد أن يقوم ضباط المخابرات العامة بفحص ومعاينة المتقدمين بطلبات للحصول على التأشيرة. عندما التقى لادي بمندوبي لجنة مجلس النواب عام 1978 كشف لهم مزيدًا من التفاصيل التي لم تذكر أثناء جلسات الاستجواب مع سوينسون: ألا وهي أن المخابرات العامة عادة وعلى نحو رتيب تصوّر وتسجل المتقدمين بطلباتهم بشكل خفي مستتر في مركز مدينة مكسيكو[38].

ولدى إدلائه بشهادته أمام لجنة مجلس النواب كان لدى راي روكا هذا الانطباع عينه. فهو يعتقد أن جدالات أوزوالد مع الكوبيين حدثت في "مكاتب مديرية المخابرات العامة عينها، وبأن رئيس المخابرات العامة شخصيًا كان على مسافة تمكنه من الاستماع"[39].

والمؤسف أن تأكيد ذلك عن غير قصد جاء بعد أربعة عشر عامًا من مصدر غير متوقع. ضابط المخابرات العامة ألفريدو ميرابال Alfredo Mirabal، رئيس المركز الجديد، أقر أمام لجنة مجلس النواب أنه أعد تقريرًا عن أوزوالد ورفعه إلى المقر العام. فقد قال ميرابال بأن أزكو Azcue، القنصل الذي تصدى لأوزوالد، أعطاه "معلومات" عن هذا الزائر. والمؤكد أن ميرابال أُعطي جميع الوثائق وبطاقات العضوية وقصاصات الصحف التي جلبها أوزوالد معه. قال ميرابال إنها كانت من أجل "تقريري". يبدو أنه لم يدرك أنه بذلك كان يخالف ما قاله قائده العام منذ سنوات[40].

إذن ليس ثمة شك بأن المقر العام لمديرية المخابرات العامة الكوبية قد تلقى معلومات حول هذا الشاب الأمريكي الغريب الذي قَدَّم نفسه بأنه صديق محب للثورة. وما هو أكثر من ذلك أن تقرير ميرابال – الذي كتب على الأرجح بمساعدة فيغا – ذهب مباشرة إلى طاولة بنييرو بطريق رابط لاسلكي آمن. و"لادي" يعرف بأنه لا يوجد ضابط قسم في المقر العام مسؤول عن المكسيك كما كان الحال بخصوص السلفادور، لذلك لا يوجد وسطاء بين المركز وذي "اللحية الحمراء". شخصيًا. فالعمليات التي تدار من المكسيك وتطال ما يقرب من عشر دول في أمريكا اللاتينية هي بتلك الأهمية بنظر بنييرو وفيدل[41].

إضافة لذلك روى لادي لسوينسون ما ذكره كثيرون من المنشقين الآخرين بأن كاسترو كان يدفن نفسه مستغرقًا في دقائق العمليات الاستخبارية. فهو ووزير الداخلية راميرو فالديز اختارا شخصيًا غالبية ضباط المخابرات العامة المرسلين إلى أمريكا اللاتينية. يقول لادي بأن المسائل التي تبدو أمورًا روتينية "يتولاها عادة كاسترو". غير أن توسلات أوزوالد وهياجه في القنصلية ارتفعت كثيرًا فوق المعتاد. ولا شك أن تقرير ميرابال قد وصل إلى فيدل[42].

* * *

وقد تبين لنا أن لادي ليس المصدر الاستخباري الأمريكي الوحيد الذي يمكن الوثوق به والذي تحدث عن معرفة فيدل بزيارة أوزوالد إلى القنصلية. ففي أواخر أيار/مايو عام 1964، وبعد أسابيع قليلة من استجواب سوينسون لرودريغز لاهيرا قام بزيارة كاسترو في هافانا جاسوس أمريكي تحت غطاء سري عميق يعمل لصالح مكتب التحقيقات الفدرالي. وقد أخبره فيدل بأنه أُبلغ فعلًا بزيارة أوزوالد.

"رجالنا في المكسيك أعطونا التفاصيل في تقرير كامل حول طريقة تصرفه عندما جاء إلى سفارتنا". أوزوالد لم يعنّف ويوبّخ الكوبيين فقط عندما رفضوا منحه التأشيرة. وهو لم يعمل فقط على صفق باب السفارة وراءه.

بل وبحسب فيدل هدد بقتل كينيدي[43].

لم يتخيل كاسترو أنه كان يبوح بأسرار في ذلك اليوم الربيعي إلى واحد من أفضل جواسيس أمريكا إبان الحرب الباردة. جاك تشايلدز Jack Childs، هو في الواقع الشريك الأصغر مع أخيه موريس Morris في عمليات تجسس كانت تجري على مدى ثلاثة وعشرين عامًا ضد المستويات العليا في الاتحاد السوفياتي وحلفائه الشيوعيين. موريس، الأخ الأكبر والأكثر تعقلًا وتفكيرًا وثقافة من أخيه بدأ عمله في مطلع الخمسينيات عندما استطاع الفوز بالحظوة عند خروتشيف ومن بعده لدى بريجينيف ويوري أندروبوف وغيرهما من أعضاء المكتب السياسي السوفياتي. ومن حيث كونهما يحظيان برعاية وحماية هؤلاء

العمالقة الشيوعيين طوّر الأخوان تشايلدز علاقات ثقة مع فيدل و"هوشيه منه" ورؤساء شيوعيين في أوروبا الشرقية. وبمساعدة زوجتيهما شكل الأخوان تشايلدز شبكة تجسس عائلية عُرفت باسم أوبريشن سولو Operation Solo.

ولد الأخوان موريس وجاك في عهد روسيا القيصرية وهاجرا وهما طفلين مع عائلتهما إلى شيكاغو حيث انضما إلى الحزب الشيوعي الأمريكي وهما في العشرينيات من عمريهما. ارتقى موريس سريعًا في المراتب الحزبية واختير لدراسة الأعمال التخريبية والخفية في مدرسة لينين بموسكو. وهناك تم تجنيده للعمل في الاستخبارات السوفياتية. بعد ذلك عمل لسنوات طويلة وبشكل أساسي بصفة "وزير خارجية" في الحزب الأمريكي، وكان محبوبًا يلقى الاحترام والترحيب من جانب زعماء الأحزاب الشيوعية الحاكمة. قام موريس بزيارة كوبا والاتحاد السوفياتي والدول التابعة له زهاء اثنتين وخمسين مرة وعاد إلى البلاد ولديه معلومات عظيمة القيمة قدمها إلى مكتب التحقيقات الفدرالي. رشح نفسه للانتخابات عن الحزب الشيوعي لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة عن ولاية إلينوي عام 1938.

لكن الشقيق الأصغر جاك هو من أصبح عميلًا أمريكيًا أولًا. جعله ضباط التحقيقات الفدرالية FBI في شوارع مدينة نيويورك. وكان يبتسم ساخرًا عندما يقتربون منه بحسب دراسة تعريفية قام بها جون بارون John Barron، ويقول مستهزئًا بهم "أين أنتم أيها الفتية طوال السنين، لين بحق الجحيم؟" وقد تم تجنيده بسهولة. وأخبرهم "لم أؤمن قط بشيء من هذا الهراء الشيوعي". لكن جاك منح وسام "الراية الحمراء" عام 1975 مكافأة من القيادة السوفياتية على جهوده، وهو واحد من الأوسمة الرفيعة التي تُمنح عند القيام بواجب محفوف بالأخطار. والولايات المتحدة لا تريد أن يتفوق عليها أحد فكرمته بعد وفاته بمنحه ميدالية الأمن القومي عام 1988[44].

كان جاك متأجج النشاط، يحب المجازفة، وربما بسبب التماثل بين شخصيته وشخصية فيدل انسجم الاثنان معًا. قال للضباط المتعاملين معه في مكتب FBI: "أنا أصلًا رجل أحب المغامرة. إذا خيّرت بين أن أدخل المنزل من

الباب الأمامي أو الزحف عبر نافذة خلفية فإنني أختار النافذة لأنها أكثر إثارة". استخدم القادة السوفيات جاك وسيطًا موثوقًا مع كاسترو. وخططوا لاجتماع على مائدة عشاء في موسكو لتعريف الرجلين ببعضهما في أيار/مايو 1963 أثناء زيارة فيدل الأولى إلى الاتحاد السوفياتي. وكان اللقاء ناجحًا حتى إن جاك دعي مرة أخرى للاجتماع به ثانية.

بعد سنة واحدة، وأثناء زيارة أخرى إلى موسكو، رسم جاك خطته لأول زيارة يقوم بها إلى كوبا. وقبل مغادرته استمع إلى إحاطة موسعة قدمها مسؤول له حزبي سوفياتي. وقيل له لا تثق براؤل روا Raul Roa. "عندما صار وزيرًا للخارجية كنا على ثقة أكيدة بأنه سوف يذهب مباشرة إلى وزارة الخارجية الأمريكية". لقد كان جهاز KGB واسع الاطلاع. لقد حاولت السي آي إيه حقًا أن تجنِّد "روا" في تشرين الأول/أكتوبر عام 1962، حين حصلت أزمة الصواريخ، لكنه رفض هذه المفاتحات. وأشير إلى جاك عوضًا عنه بأن يتعامل مع مسؤولين كوبيين اثنين هما شخصان شيوعيان من أنصار موسكو في دائرة فيدل المصغرة. وقُدِّمت له نصيحة حكيمة حول التعامل مع كاسترو. ففي ذلك الحين، كان القادة السوفيات قد تعلموا الدرس الصعب[45].

"الرفيق فيدل رفيق حساس جدًا. علمتنا تجربتنا معه أن نحدثه بعناية بالغة ... لقد تعلمنا أنه توجد أوقات لا نتحدث فيها معه، ذلك أنه رجل له أمزجة عدة. إذا كان مزاجه حسنًا يستمع إليك ويوافقك الرأي. ولكن إذا كان المزاج سيئًا فإنه يقطِّب ويتجهّم ويصرخ. لا تزال ذكريات رسالة كاسترو الهرمجدونيّة حيّة في ذاكرة الكرملين. هذا وقد جاء فيما كتبه جاك لاحقًا أنهم "يعتمدون عليّ للذهاب إلى هناك وأتحدث مع كاسترو بالمنطق"[46].

غادر موسكو في الثامن عشر من أيار/مايو 1964 في رحلة جوية مباشرة إلى هافانا على طائرة الخطوط الجوية أيروفلوت Aeroflot. "عند أول وصولي كان طلبي أن أرى فيدل قبل أي شيء آخر". هذا ما سجله جاك في رسالة مطولة إلى غاس هول Gus Hall رئيس الحزب الشيوعي الأمريكي. ولكن كما هو الشأن حتى مع الضيوف الأكثر تميزًا اضطر للانتظار. هي ممارسة عادية عند

فيدل، فهو يعامل زواره بهذه الطريقة، ويجعلهم في حالة من القلق والتوتر، لا يدرون هل سيتنازل ويستقبلهم أم لا. ولكن في نهاية المطاف يدخل دون سابق إنذار عند منتصف الليل أو بعده. وقد جاء فيما سجله جاك: "لم أجرؤ أن أغادر المنزل خوفًا من أن تفوتني فرصة لقاء فيدل".

وأخيرًا، "في الليلة العاشرة وقبيل ساعات معدودة من مغادرتي جاء ليراني. وقد استقبلني استقبالاً حسنًا ورحب بي بحرارة". رافقه في هذه الزيارة رينيه فاليخو Rene Vallejo، طبيب درس في الولايات المتحدة، وهو طبيب فيدل الخاص ومترجمه ومساعده. كتب جاك إلى هول يقول: "كانت تحياتي وسلاماتي إلى كاسترو مؤثرة وفاعلة. وقد أعجب بها". قَدَّم إلى فيدل صنارة ومعدات صيد السمك باهظة الثمن وهدايا من هول. وكان بينهما انسجام ممتاز[47].

أراد كاسترو أن يعرف كيف يؤسس لاتصالات أفضل بين هافانا والحزب الأمريكي. وسأل جاك عما يعرفه هو ورفاقه الشيوعيون عن الجالية الكوبية في المنفى. "قلت له إن معرفتنا ضئيلة ... هم يتجولون في الشوارع يثرثرون وينشرون الشائعات". وافقني الرأي مستخدمًا عبارته المفضلة الساخرة: "هم لا شيء سوى مجموعة جراثيم"[48].

عندئذ، وعلى نحو مفاجئ من دون توقع على ما يبدو طرح فيدل سؤاله على جاك: "هل تعتقد أن أوزوالد قتل الرئيس كينيدي؟"

ورد فيما كتبه جاك: "وقبل أن أجيب قال 'لا يمكن أن يفعلها وحده. أنا على يقين من ذلك. كان ثمة اثنان أو ثلاثة رجال على الأقل هم فعلوها، وعلى الأرجح ثلاثة'".

ثم أضاف شارحًا "بعد اغتيال الرئيس مباشرة" قام هو وعدد من الرماة المهرة الكوبيين بإعادة تمثيل المشهد. واستخدموا بنادق مشابهة للبندقية Mannlicher-Carcano مزودة بمنظار، وبحسب رواية جاك "أطلقوا النار على الهدف في ظروف مماثلة ومن الارتفاع نفسه والمسافة نفسها". وكتب جاك مقتبسًا قول كاسترو "وبعد أن سددنا وحددنا المسافة وضغطنا على الزناد

انطلقت الرصاصة، بعدئذ يتعين على الرامي الماهر أن يعيد ضبط المنظار، ويعيد تلقيم البندقية، وعندئذ يكون قد أضاع ثواني قيّمة". ثم استنتج فيدل بأنه "من المستحيل" على رجل واحد أن يطلق النار ثلاث مرات بمثل هكذا تتابع[49].

وقدم أيضًا ملاحظات مماثلة في خطاب ألقاه في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر، يزهو بخبرته في الرماية الماهرة ويستخدم بنادق بمناظير. لقد رتب لتمرين مجال الرمي هذا على نحو تظهر فيه سمة الاستعجال. وبعد خمسة أيام من اغتيال كينيدي أقنع نفسه بأن أوزوالد لا يمكن أن يكون قد أطلق ثلاثة عيارات نارية بسرعة، اثنتان منهما بدقة بالغة من نافذة مستودع كتب تكساس. كانت أمنية ترضي النفس، فهو بحاجة لأن يتخلص من قصة أوزوالد التي أقضّت مضجعه بأي وسيلة. بيد أن هذا التمرين في الرماية لا يشبه ما حصل فعلًا يوم وقع إطلاق النار في مدينة دالاس.

مدير مكتب التحقيقات الفدرالي ج. إدغار هوفر J. Edgar Hoover أبلغ لجنة وارن أن خبير الأسلحة النارية في مكتبه أجرى أيضًا اختبارات وقرر "أن من الممكن إطلاق ثلاث طلقات من ذات النوع من البنادق والمناظير كالتي استخدمها أوزوالد في غضون خمس إلى ست ثوان وهي ما تحقق". وأصبح هذا هو استنتاج اللجنة أيضًا وأدى إلى حكم "الطلقة الواحدة" في شأن الاغتيال الذي أثار جدلًا واسعًا. وفي وقت لاحق أجرى المؤلف جيرالد بوزنر Gerald Posner مقابلة مع خبير الأسلحة النارية لدى مكتب التحقيقات الفدرالي والذي أكد بأن "الرمي ببندقية ذات منظار تلسكوبي لا يحتاج لأي تدريب مطلقًا". وأي تعديلات وضبط بعد كل طلقة ليس ضروريًا. إذن كان كاسترو مخطئًا أو أنه يكذب، ولكنه لهذا اليوم لم يغير موقفه[50].

لكن كاسترو لم ينته من حديثه من طرف واحد. بل مضى ليقول لهذا الأمريكي ماذا كان صراخ أوزوالد عندما ثار واهتاج في القنصلية الكوبية. من المفترض أن ذلك كان متضمنًا في التقرير الذي بعثه ميرابال وفيغا إلى بنييرو برقيًا. فقد قال فيدل بأن "أوزوالد اقتحم السفارة وطلب تأشيرة الدخول وعندما رفض طلبه خرج وهو يقول 'سأقتل كينيدي لهذا السبب'"[51].

تضمنت رسالة جاك إلى هوفر هذه المعلومات فقط. وكتاب جون بارون عن عملية "أوبريشن سولو" لا يضيف شيئًا آخر. وقد قمت بمراجعة مجموعتي موريس تشايلدز وجون بارون في دائرة أرشيف هوفر بجامعة ستانفورد ولم أجد مزيدًا من التفاصيل.

غير أنني اكتشفت مؤخرًا وثيقة من وثائق مكتب التحقيقات الفدرالي FBI رُفعت عنها السرية حديثًا لدى دائرة الأرشيف الوطني. تقرير بالغ السرية من مكتب FBI في نيويورك إلى هوفر مؤرخ في 12 حزيران/يونيو عام 1964 تضمن معلومات إضافية مقدمة من جاك. قال كان كاسترو "في مزاج حسن جدًا" ولم يكن تحت "تأثير المشروب الكحولي" عندما اجتمعا. وتحدث فيدل "بلغة إنكليزية ضعيفة" وقيل لهوفر بأنه "لا يوجد شك حيال دقة ما قاله (لأن) المخبر أشار إلى أنه دوّن ملاحظات في الوقت الذي كان كاسترو يتحدث، وأنه كتب فورًا ما كان يعتبره مهمًا"[52]. وذكر جاك فيما كتبه، متظاهرًا بعدم معرفته بأن فيدل قد أنكر علمه بأي شيء بخصوص أوزوالد قبل حادثة الاغتيال، بأن "كاسترو تلقى المعلومات حول مجيء أوزوالد إلى السفارة الكوبية في المكسيك بتقرير شفهي من 'رجاله' في السفارة تلك أنه، كاسترو، قد أُبلغ بها على الفور". أما التقرير الميداني فقد أضاف بأن "كاسترو لم يشارك بأعمال مسرحية أو خطابية" وأكد بأنه "كان يتكلم على أساس الوقائع التي قدمها له موظفو السفارة الذين تعاطوا مع أوزوالد، ويبدو أنهم قدموا تقريرًا كاملًا ومفصلًا"[53].

أما القول بأن جاك أعاد تكرار القصة بدقة فهذا أمر لا يمكن الطعن به. فقد أخبرني آي. سي. سميث I.C. Smith وهو مسؤول رفيع المستوى في مكتب التحقيقات الفدرالي ومتقاعد وكان ضالعًا في عملية "أوبريشن سولو Operation Solo" أن جاك "رجل يغالي في المجازفة، لكن ذلك لا يتنقص من جودة تقاريره" وبأن "أحدًا في مكتب التحقيقات الفدرالي لم يتهمه بالتجميل والتزيين". ومع أنه لا يوجد لدي شك إزاء صدق وصحة تقارير الأخوين تشايلدز فإن مذكرات جاك عن اجتماعه مع فيدل لم تحظ إلا باهتمام ضئيل جدًا

طوال السنوات الخمسين التي مضت على الاجتماع. ومع ذلك فهي تقدم دليلاً قاطعًا بأن فيدل كان يكذب في شأن أوزوالد منذ تاريخ 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1963.

بتاريخ السابع عشر من حزيران/يونيو 1964 لخص هوفر اجتماع جاك مع كاسترو في رسالة بالغة السرية رفعها إلى كبير المستشارين القانونيين للجنة وارن. لكنه لم ينقل إلا الحد الأدنى من جوهر قصة جاك. مدير مكتب التحقيقات الفدرالي – الذي منذ بداية تحقيقاته تمسك بالاستنتاج بأن موت كينيدي لم يكن نتيجة مؤامرة – كان متفهمًا ما ذكره جاك في تقريره.

فقد جاء في الرسالة أن فيدل فقط كرر ما قاله في خطابه بتاريخ 27 تشرين الثاني/نوفمبر ولكن، والحق يقال، كان خطابه ذلك يختلف جوهريًا عما سمعه جاك. لم يقل كاسترو شيئًا في خطابه عن تهديدات أوزوالد أو عن تمرين مجال الرمي. وقدَّم هوفر توصيفًا لجاك بأنه "مصدر سري قدَّم معلومات موثوقة"، وليس بأنه جاسوس أمريكي غير عادي كان يقدم تقارير منذ سنوات عدة تتضمن تحليلات استراتيجية بالغة القيمة. لقد صيغ تقرير جاك ليبدو وكأنه سمع من شخص آخر ما ذكره هوفر، ولم يضمّن شيئًا من معلومات تؤكد ما قدمه المكتب الميداني في نيويورك منذ أيام معدودة.

لهذا لا عجب ألّا تعير اللجنة اهتمامًا إلى رسالته. وفيما بعد قال اثنان من كبار الموظفين بأنهما لا يتذكران بأنهما شاهداها، وكذلك تحدث ماكون المدير السابق للسي آي إيه مع أحد الصحفيين في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1976 قائلاً له إنه لم يرها أيضًا. في جوهر الأمر يمكن القول إن هوفر قد همّش أفضل دليل يثبت بأن كاسترو كان يكذب ويخفي معلومات ذات أهمية بالغة أمام التحقيق. لو كان مكتب التحقيقات الفدرالي أكثر عونًا في تقديم المعلومات لاتضحت أكاذيب فيدل أمام المحققين في جريمة الاغتيال ولأثارت الشكوك حول أشياء أخرى قد يكون يخفيها[54].

في كتابها الصادر عام 1983 عن أوزوالد والذي يشكل إسهامًا كبيرًا لكل

ما كُتب عن اغتيال كينيدي تقول المؤلفة جين دافيسون Jean Davison مستشهدة بمصدر جيد هو الصحفي البريطاني كومر كلارك Comer Clark الذي يزعم أنه سمع رواية مماثلة تقريبًا لرواية جاك من كاسترو في تموز/يوليو 1967.

في هذه النسخة يُنقل عن كاسترو قوله عندما كان أوزوالد في القنصلية أعلن أنه "يريد العمل لدينا" وأن "يحرر كوبا من الإمبريالية الأمريكية". وأيضًا، كما قال فيدل، أوزوالد هدد بقتل كينيدي. لكن بعض المؤرخين يقللون من أهمية هذا الصحفي وذلك أنه نشر روايته للحادثة في صحيفة معروفة بحبها لإثارة الاحاسيس ولأنه أيضًا كتب فضائح بأسلوب تجديفي بحق آخرين. ومع ذلك توصلت المؤلفة دافيسون لاستنتاج بوجود "أسباب جيدة عدة" تدعو للاعتقاد بأن روايات المصدرين يمكن الاعتماد عليها. ليس أقلها التناسق القريب من الكمال بينهما[55].

سأل مندوبو لجنة مجلس النواب فيدل عن رواية الصحفي في نيسان/ أبريل 1978 في هافانا. فهذه القصة يسهل تفنيدها، بل إن تفنيدها أسهل من معلومات "أوبريشن سولو"، لكن الأخوين تشايلدز ما زالا يقدمان معلومات قيمة من داخل الكتلة الشيوعية، وبقيا تحت غطاء شديد. ولم يمكن استخدام رسالة هوفر إلى لجنة وارن، التي لم ترفع السرية عنها كاملة إلا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1993. ولم يكن أمام محققي الكونغرس أي خيار سوى الاعتماد حصرًا على التقرير الأقل جدارة بالثقة من هذين التقريرين.

وفيدل الذي لا تخونه الكلمات أنكر ما نُقل عنه بخصوص أوزوالد أو الاجتماع بالصحفي البريطاني. "أنا على ثقة أكيدة بأن هذه المقابلة لم تحدث. هذا سخف. أنا لم أقل ذلك. هذا كذب من رأسه حتى أخمص قدميه". وليس من سبيل لتفنيد ما قاله فيدل، فالصحفي توفي قبل ذلك[56].

عُقد الاجتماع مع أعضاء وموظفي لجنة مجلس النواب في مكاتب فيدل بهافانا وبدعوة منه. لبى الامريكيون الدعوة وراعوا مشاعره ولم يطرحوا أسئلة شديدة القسوة أو يلحوا كثيرًا كما هي عادتهم في جلسات الاستماع بواشنطن

مع شهود يجلسون هدفًا سهلًا أمامهم وأمام هجومهم ونقدهم. جلس فيدل ومعه جماعته من المتملقين من خبراء المخابرات العامة الذين يساعدونه في إجاباته. بدا أن أحدهم كان جيد الاطلاع بخصوص قصص اغتيال كينيدي ووصفها بأنها تلميع لمؤامرة أمريكية. ومنذ ذلك التاريخ لم يشكك أحد بفيدل بخصوص كلمات أوزوالد لدى مغادرته القنصلية.

أزكو وميرابال، الكوبيان اللذان أقرا بتعاملهما مع أوزوالد، كانا مصرين على إنكارهما. قال ميرابال إن هذه المزاعم "سخيفة كلها ... لا تصدق". وفي إشارته إلى الولايات المتحدة قال أزكو: "إنه لمن السخف بمكان أن نحاول الدخول إلى فم الأسد". أما موظفة الاستقبال المكسيكية فقد التزمت بالخط الكوبي الرسمي زاعمة بأنها لا تتذكر أي أقوال تهديدية صدرت من أوزوالد.

ولكن لا ينبغي اعتبار هؤلاء أكثر صدقية من جاك تشايلدز. ميرابال – المعروف بين زملائه باسم "أولوغيو" Eulogio – كان ضابطًا في المخابرات العامة له خبرته وتجاربه. ولادي دبّر عمليات تخريبية كوبية في السلفادور بالتعاون معه عند زيارتهما لمركز مدينة مكسيكو. وفي تقرير لعميل السي آي إيه عام 1960 ورد وصف أزكو بأنه "معاد بصورة عمياء للولايات المتحدة"، وشهادته مشكوك بها لسبب آخر. فقد أصر على أن الرجل الذي تجادل معه في القنصلية لم يكن أوزوالد بل شبيهًا به ومحتالًا. وأعرب عن "يقينه المطلق" بهذا. كان أزكو يقدم بعضًا من تعليمات النظام من خلال طرح واحدة من الشائعات المضللة التي اعتاد مروجو الدعايات تكرارها دومًا وبلا نهاية[57].

* * *

لقد فعل إدغار هوفر ما بوسعه ليسدل الستار على التحقيقات في جريمة الاغتيال. كانت وجهة نظره مع حلول حزيران/يونيو 1964 أن إنتاج لجنة وارن يجب أن يصل إلى نهايته. وريتشارد هلمز، "الرجل الذي يحفظ الأسرار" كما وصفه كاتب سيرته توماس باورز Thomas Powers، كان حريصًا على إطفاء أنوار المنزل.

يبدو أن اعتقاد لادي بلن فيدل قد كتب بشأن أوزوالد اعتُبر داخل السي آي إيه بأنه أمر لا يترك تبعات. فقد خضع تقريره للفلترة والاختزال من أجل موظفي لجنة وارن. وكذلك الأمر بخصوص لويزا كالديرون الوقحة الكارهة لكينيدي التي أُهملت. قيل للجنة وارن بأنها ضابط في المخابرات العامة، ولم تبلّغ عنها بأي معلومات أخرى. ربما كان ممكنًا أن يزداد الاهتمام بها وبالتحقيق معها لو أن اللجنة قد زُوِّدت بخلاصات عن أحاديثها الهاتفية. بعض الدارسين لقضية الاغتيال يعتبرون واحدًا من هذه الأحاديث، وهو حديث مع شخص من النكور بعد أربع ساعات تقريبًا من وفاة كينيدي، بندقية دخانية مصوبة مباشرة نحو مؤامرة كوبية، هذا المتحدث سأل كالديرون عما إذا سمعت بما وقع في مدينة دالاس.

فأجابت: "أجل، بالطبع. علمت به قبل كينيدي تقريبًا"[58].

يشير هذا الحديث الهاتفي إلى أن لديها معرفة مسبقة بالاغتيال. بعدئذ تابع محققو مجلس النواب هذا الاحتمال بقوة ولكن لم يتوصلوا لشيء. ولم تكن كالديرون موجودة للمثول أمام اللجنة في هافانا، إلا أنها أنكرت أي معرفة مسبقة بأوزوالد في بيان خطي قدمته الحكومة الكوبية. لكن يمكن تفسير ملاحظتها الغريبة بطرق ووسائل شتى. ومع ذلك انتقدت اللجنة في تقريرها الختامي السي آي إيه لحجبها وثائق عن لجنة وارن[59].

كان ثمة موضوع آخر في محادثة كالديرون تلك نفسها، لكنه لم يحظ بالاهتمام سابقًا، وهذا ما يدعو للدهشة. هذا الشخص المتحدث مع كالديرون وفي إطار الحديث عن أوزوالد، قال لها:

"أوه، بالمناسبة، هو يعرف الروسية معرفة جيدة، وهذا الشخص أيضًا ذهب مع قوات كاسترو إلى الجبال أو أراد أن يذهب، أو شيئًا من هذا القبيل"[60].

ولم يبد أن كالديرون تفاجأت، ثم غيّر المتحدث موضوع الحديث سريعًا. يبدو أن الإشارة هنا تذكّر بخدمة أوزوالد في فرقة مشاة البحرية في جنوب

كاليفورنيا. يجدر التذكير هنا بأنه التقى دبلوماسيين كوبيين – أو على الأرجح ضباط استخبارات – في لوس أنجلس عام 1959 حين كان لديه أمل بالتطوع للقتال إلى جانب فيدل. وثمة احتمال بأن يكون هذا المتحدث مع كالديرون من المخابرات العامة أيضًا، وبأنه قبيل هذا الحديث الهاتفي، قد راجع سجلات أوزوالد في هافانا. لكن هذا الحديث لكالديرون لم يقدّم إلى لجنة وارن.

تبين لاحقًا أن هذه المعلومات وغيرها مما أغفل هي في الحد الأدنى ما أخفاه هلمز والسي آي إيه. ولم يتحدث أحد بهذا الإغفال حول مؤامرات الاغتيال في عهد الرئيس كينيدي ضد كاسترو، أو تلك الحرب السرية الشرسة ضد كوبا التي لم يشنها مركز JMWAVE. وما هو أشد سوءًا، وأيضًا ظل طي كتمان شديد، هو تلك المؤامرة البالغة السرية مع رولاندو كوبيلا التي تصادفت مع وفاة كينيدي.

لو أن هلمز أخبر لجنة وارن بما يعرفه هو وديز وبوبي كينيدي أفضل من أي شخص آخر، ذلك بأن لدى كاسترو دافعًا قويًا للتآمر على حياة جون كينيدي، لكانت التحقيقات في قضية الاغتيال قد اتخذت منحى آخر.

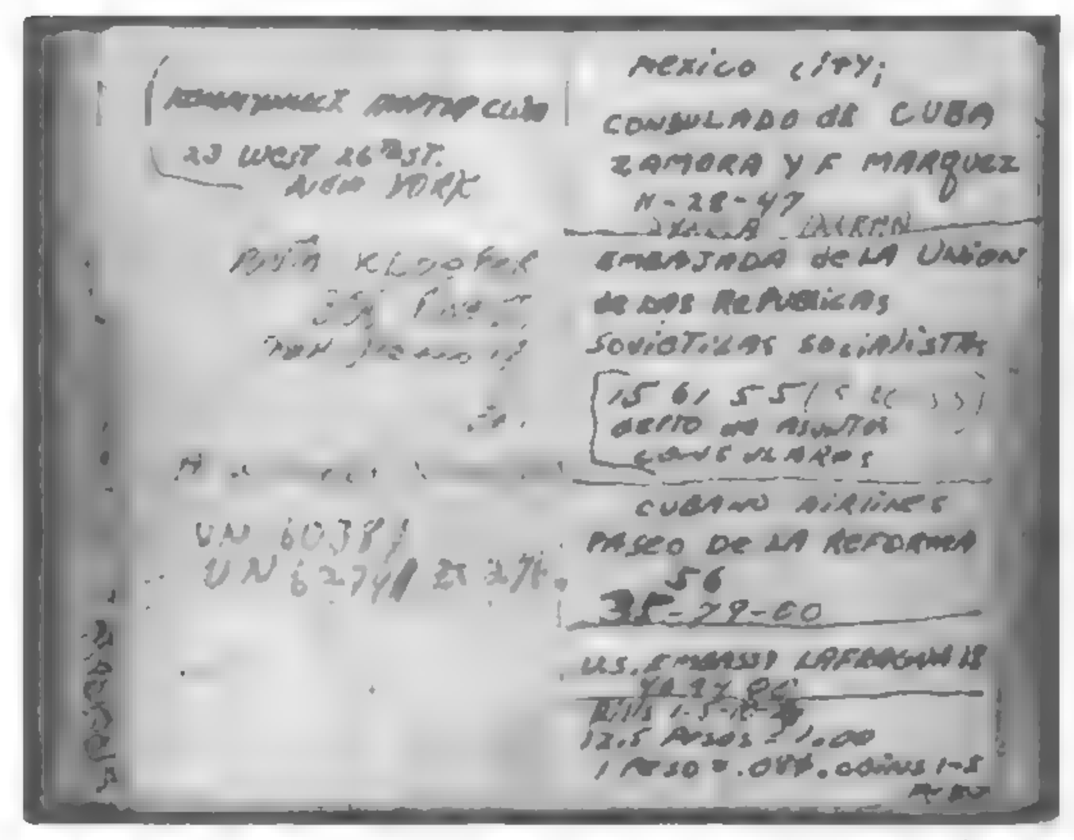


لطالما أراد لي هارفي أوزوالد حمل السلاح من أجل فيدل والثورة الكوبية منذ أيام خدمته في المارينز في أواخر خمسينيات القرن الماضي. كان كاسترو بالنسبة لأوزوالد شخصيةً بطوليةً .. كان يسعده العمل من أجل قضيته، وذلك حسب ذكريات زوجته مارينا. في هذه الصورة التي التقطتها مارينا في الفناء الخلفي العائد لشقتهما المستأجرة في دالاس عام 1963، يُظهر أوزوالد نفسه كرجل مقاتل في سبيل قضية. قتل أوزوالد عنصراً من شرطة دالاس يدعى ج. د. تيبيت، بالمسدس الذي يحمله على خصره. واستخدام البندقية لاغتيال الرئيس كينيدي.

الصورة مأخوذة بإذن من الأرشيف الوطني



تم العثور على الراديو "السياحي" ذي الموجه القصيرة، والذي كان أوزوالد قد حصل عليه في الاتحاد السوفياتي، في داخل غرفته المستأجرة في مدينة دالاس بعد اعتقاله. ويُعتقد أنه كان يستمع بانتظام إلى راديو هافانا الذي يبثّ باللغة الإنكليزية خطابات تعبوية مثيرة. وفي أغلب الظن أيضاً، أنه استمع، من ضمن أشياء أخرى، إلى خطاب فيدل الغاضب والتحريضي في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1963، الذي اتهم فيه وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA بالضلوع في مخطط لتغيير نظام الحكم في البلاد وبعمليات تجسُّس وانقلابات.



23 WEST 26th ST.
NEW YORK

MEXICO CITY;
CONSULADO DE CUBA
ZAMORA Y F MARQUEZ

EMBAJADA DE LA UNION
DE LAS REPUBLICAS
SOVIETICAS SOCIALISTAS

CUBANA AIRLINES
PASEO DE LA REFORMA
56
35-79-00

U.S. EMBASSY LAFRAGUA 18

12.5 PESOS = 1.00

تم العثور أيضاً على دفتر أوزوالد الجيبي الخاص بالعناوين ضمن حاجياته. وتُظهر هذه الصفحات أنه احتفظ برقم هاتف سيلفيا دوران، عاملة الاستقبال في القنصلية الكوبية في مكسيكو سيتي. وإذا كان قد اتصل برقمها في الأيام التي سبقت الاغتيال مباشرة، فهذا يشير إلى احتمال أنه تكلم مع عميلة الاستخبارات الكوبية لويزا كالديرون، والتي لم يتم استجوابها أبداً بشأن أوزوالد.

الصورتان مأخوذتان بإذن من الأرشيف الوطني

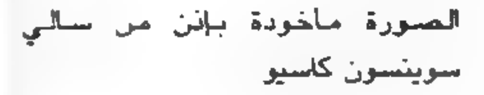


التحق صامويل "سام" هالبرن، من مدينة نيويورك، بوكالة الاستخبارات الأمريكية CIA في العام 1947 بعد خدمته في سيلان في مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS أثناء الحرب العالمية الثانية. كان صامويل الداعم الأساسي لكل من بيل هارفي وريتشارد هلمز وديز فتزجيرالد، حيث لم يُبد أي تحفُّظ أثناء الإدلاء بشهادته حول الحروب الكوبية التي حدثت في أوائل ستينيات القرن الماضي. وحين سُئل تحت القسم، "عندما قُلت التخلص منه [كاسترو]، هل تعني قتله؟" أجاب "نعم سيِّدي".

الصورة مأخوذة بإذن من عائلة هالبرن



انضمّ هارولد "هال" سوينسون إلى قوة المهمات الخاصة W التابعة لبيل هارفي في تشرين الأول/أكتوبر 1962، وذلك بعد عام تقريبًا من تاريخ التقاط هذه الصورة. وفي فترة لاحقة، وحين كان على رأس فريق ديز فتزجيرالد لمكافحة التجسُّس، تنازع مع مدير عمله. وفي العام 1976، أدلى هارولد بشهادة قال فيها إنه اعتبر خطة كوبيلا "خطيرة وغبيّة.. ومليئة بالترهات". وقد اعتقد أنه كان هناك سبب كاف "للشكّ بكفاءة أملاش"



الصورة مأخوذة بإذن من سالي سوينسون كاسيو



تجنّب ريتشارد ماك غارا هلمز التورط بكارثة خليج الخنازير التي حدثت في نيسان/أبريل عام 1961، لكنه كان متورطًا بشكل لاإرادي في إدارة المرحلتين الثانية والثالثة للحملات السرية ضد كوبا. وقال في شهادته إن عمليات التجسُس السرية في وكالة الاستخبارات الأمريكية، والتي ترأسها من عام 1962 إلى العام 1965، كانت موجّهة "بكامل طاقتها تقريبًا" لخلع كاسترو. "فالاخوان كينيدي" كانا يريدان الإطاحة بكاسترو بأي ثمن، على حدّ قوله



مسدس غروزا "ثندرستورم" الصغير الحجم والخاصّ بعمليات الاغتيال. وهو مسدس ذو فوّهتين، كاتم للصوت، يمكن حمله بيد واحدة نظراً لصغر حجمه في أيلول سبتمبر 1988، أمر كاسترو عملاء الاستخبارات التابعين له بالحصول على مسدس من جهاز الاستخبارات السوفياتية KGB، لكي يُستخدم في عملية اغتيال فلورنتينو أسبلاغا المُخطِط لها وقد قام كاسترو بعد ذلك شخصياً بإدارة عملية الاغتيال الفاشلة بكل تفاصيلها.

الصورة من مجموعة ماكسيم بوبنايسر

الفصل الثامن

ضربة السوط

بدا رولاندو كوبيلا Rolando Cubela في نظر السي آي إيه الاحتمال المثالي لاغتيال فيدل كاسترو. فهو شاب، لائق بدنيًا، ومتآمر اختبرته المعارك، وقد قَتَلَ بدم بارد في السابق. لكنه خلافًا لمعظم المسؤولين الكوبيين الذين يعملون تحت أنظار الأجهزة الأمنية الشكاكة سُمح له بالسفر بحرية خارج البلاد حيث يسهل ترتيب الاجتماعات المحظورة مع ضباط الوكالة المتعاملين معه. كان يستخدم منزلاً على الشاطئ قريبًا من المنزل المخصص لفيدل في منتجع فاراديرو Varadero الذي يبعد قرابة ساعتين إلى الشرق من هافانا. من هذا المكان ستكون ضربة بسيطة على الرمل أو على موجة بحر تأتي من حيث لا يتوقع الزعيم الكوبي أو رجال أمنه.

كوبيلا، الطبيب والبطل الثوري الجريح، جال في الصفوف العليا للهرميتين المدنية والعسكرية. عندما التقيته في ميامي في صيف عام 2009 لنتحدث عن مآثره وأعماله البطولية أراني بكل فخر واعتزاز ندبة طويلة قوسية الشكل تمتد من كتفه الأيمن وعلى طول زنده. أصيب بها أثناء واحدة من المعارك الفاصلة في الشهور الأخيرة من حرب العصابات. قال لي إنه فقد الثقة بفيدل في تلك الأيام. تبيّن ملفات السي آي إيه التي رفعت عنها السرية أنه في آذار/مارس 1959 – أي بعد ثلاثة شهور من النصر – كان كوبيلا يعبّر لأصدقائه سرًا عن الرغبة في قتل كاسترو[1].

كان كوبيلا واحدًا من أرفع اثنين مرتبة في مديرية الطلبة الثورية، وهي أصلًا المنافس لحركة 26 تموز/يوليو التي شكلها الأخوان كاسترو. وقد دُمجت المنظمتان بعد سقوط باتيستا، وفاز عدد قليل من قادة المديرية بمناصب هامة في النظام الجديد مع أن التوترات بين الجماعتين تبقى دومًا جرحًا لا يندمل. كان كوبيلا أول رئيس لاتحاد الجامعات لكنه لم يعط منصبًا بمسؤوليات وثقة أكبر، لا في قيادة الجيش ولا في إدارة جهة حكومية.

كان يعرف الأخوين كاسترو معرفة جيدة وبخاصة راؤل. وكان الأخوان يحترمان ويجلان سجله البطولي لكنهما يحذران بل يخشيان سحره ووسامته وطبيعته الفروسية. عندما تنفرج شفتاه عن ابتسامة تدل على هوى ونزوة ويمشي تيهًا وفخارًا يبدو بكل المقاييس الوغد الذي يحمل المفاجآت. كان كوبيلا "رجلًا غريبًا" بحسب أقوال أول ضابط في السي آي إيه تولى أمره، هو متقلب الأهواء سريع الاهتياج ومثير للغضب. أما نستور سانشيز Nestor Sanchez آخر ضابط تعاطى معه وعرفه جيدًا فيتذكر بأنه "مزاجي حساس وزئبقي".

أما قصة حياته من الناحيتين البيولوجية والنفسية المحفوظة في الوكالة فتقدم وصفًا غريبًا "لكلامه الفظ". وقد وصفه تحليل لخط يده في الكتابة بأنه "داهية، ماهر، لاعب أدوار، أناني، ومتكبر". وذكر أيضًا بأنه "يستطيع ممارسة آليات خداع مختلفة بطريقة عالية المهارة". و "لم يجد بعد المضمار الملائم". يعتقد بعض ضباط الوكالة في الستينيات والسبعينيات أن دراسة الخط تساعد في تقييم العميل. وقد تبيّن أن هذا التقرير يؤكد اعتقادهم هذا[2].

قال لي كارلوس تيبيدينو Carlos Tepedino، وهو بائع مجوهرات كوبي مهاجر وشريك كوبيلا في التآمر مع السي آي إيه، في ميامي بأن صديق عمره لم يثق البتة بفيدل لكن الزعيم الكوبي "كان يتعاطف معه كثيرًا". لكن تيبيدينو عرض قائلًا ربما كان ذلك لأن "رولاندو يتحدث دومًا بصراحة ومباشرة وفيدل يحب ذلك". قد يكون الأمر كذلك لكن التاريخ الكوبي المعاصر مليء بقصص مسؤولين أكثر ذكاء من كوبيلا وتحدثوا بصراحة أكثر من اللازم مع القائد العام وطُردوا بعيدًا. كوبيلا يصغر كاسترو بسبع سنين وكان الأثير لديه في مديرية

الطلبة، وقد يكون السبب في ذلك أنه الأكثر طواعية والأكثر ضعفًا أمام سحر فيدل وقوة إقناعه. والحق يقال إنهما يتشاطران صلات أُلفة يصعب فهمها ليس أقلها ميول مرضية متشابهة للعنف.

في تشرين الأول/أكتوبر عام 1956 نفذ كوبيلا واحدة من أشد عمليات الاغتيال شؤمًا وسوء سمعة في التاريخ الكوبي، وذلك في ساعات ما قبل الفجر من يوم أحد هادئ. فقد كانت مجموعة من ضباط الشرطة والجيش، بعضهم يصطحبون زوجاتهم، يشربون ويقامرون في نادي مونتمارتر الليلي الأنيق بهافانا. ولدى خروجهم من النادي قوبلوا بوابل من نيران كثيفة لا تعرف الرحمة. لقي مصرعه على الفور عقيد هو رئيس المخابرات العسكرية لدى باتيستا. وعقيد ثان مع زوجته وامرأة أخرى أصيبوا بجروح. "نساء تنزف دمًا أو غاصت في ذهول وارتباك يمشين باضطراب وترنح إلى ردهة النادي حيث لجأن بسبب خوفهن"، بحسب وصف مؤرخ بارز شهير. ووسط هذه الفوضى والتخريب هرب كوبيلا وشريكه من خلال هذا الملهى إلى بر الأمان[3].

وفي عام 1963، كان كوبيلا أفضل مرشح لدى الوكالة لإتمام مهمة قتل أخرى، وهي مهمة فشلت في الكثير من المرات. تقرير المفتش العام بتكليف من هلمز عام 1967، وقد رفعت السرية عنه الآن كاملًا، تضمن توصيفًا لتاريخ قذر لمؤامرات الاغتيال التي حاكتها السي آي إيه ضد كاسترو. جرت أولى هذه المحاولات خلال الشهور الأخيرة من إدارة الرئيس أيزنهاور، ولم تبتعد كثيرًا عن المخبر السري. طبيب في السي آي إيه اسمه إدوارد "ماني" غون Edward "Manny" Gunn أخذ إجازة وابتعد عن قَسَم ابقراط الطبيب وصمّم سلاح جريمة، وهو ستة أقراص دواء مميتة.

يجب أن تتحقق في هذا السم شروط صارمة، وذلك بأن يكون آمنًا عند التعامل به، ثابتًا ومستقرًا، قابلًا للانحلال بالسوائل، يصعب اكتشافه وسريع المفعول. وأخذ في هذه الدراسة سم المحار – المستخدم عادة في أقراص الدواء المستخدمة في الانتحار، ويعطى أحيانًا للجواسيس ذوي المكانة العالية. كما أُخذت في هذه الدراسة البكتيريا المسبِّلة. ولكن وقع الاختيار أخيرًا على مادة

botulism [التسمم الناشئ عن تناول لحم أو سمك فاسدين] وذلك بعد اختبار ناجح على القرود وخنزير غينيا في حقول التجارب[4].

عندما أجريت مقابلة مع الطبيب غون بعد سنوات تذكر مؤامرة أخرى كانت تركز على خمسين سيجارًا باهظ الثمن أضيفت إليها كمية ضئيلة من هذا السم المميت نفسه. وقد غلفت بعناية بورق السوليفان ووضعت على نحو أنيق جدًا في صندوق مزخرف حمل اسم ماركة شهيرة عالميًا، هي الماركة التي يعتقد أنها المفضلة عند فيدل. ولكن لم يجدوا وسيلة لإدخالها مباشرة إلى أيدي فيدل دون أن يصاب بخطر التسمم عدد من الأشخاص الأبرياء. وبعد سبعة أعوام وجد الطبيب غون بمحض الصدفة واحدًا من هذا النوع من السيجار في الصندوق الحديدي داخل مكتبه، يا له من تذكار غريب! وكان السم لا يزال محتفظًا بقوته وفاعليته لقتل شخص قد يضعه بين شفتيه الرطبتين[5].

هذا وكان ثمة مؤامرتا قتل أخريان – تم العمل عليهما بالتعاون مع شركاء من المافيا – في السنوات الأولى لحكم الرئيس كينيدي. تم التخطيط للأولى بحيث تأخذ سبيلها للتنفيذ مع الهجوم على خليج الخنازير وبحيث يقطع رأس النظام وتبذر بذور الفوضى في الوقت الذي تقوم فيه كتيبة الكوبيين المنفيين بالنزول إلى الشاطئ. أما الثانية، بعد عام واحد، فقد جمعت معًا عددًا من الشخصيات النابضة بالحيوية والمقتبسة عن فيلم سينمائي للعصابات من أيام الحظر وتحريم المسكرات(*). وكان أكثرها سحرًا شخصية عميل السي آي إيه الأسطوري بيل هارفي Bill Harvey. والمحاولة التي خطط لها تدور حول مطعم في فندق عرف عن فيدل أنه يرتاده كثيرًا، حيث يتناول شرابه المفضل "الباتيدوس Patidos" وهو مزيج كوبي مكثف من الحليب مع البيض.

بعد اثنين وعشرين عامًا كشف المزيد من التفاصيل عن هذه المؤامرة عندما تحدث عنها راميرو فالديز الذي كانت ولايته الأولى في وزارة الداخلية من عام 1961 وحتى 1968. فقد قال في حوار مع صحفي أمريكي إن هذه الأقراص

(*) في بداية الثمانينيات – المترجم.

قد خُزِنت في ثلاجةٍ بحيث يخرجها عامل المطعم. ويفترض أن هذا العميل المافياوي الموثوق سوف يدسها في كأس شراب كاسترو عندما يأتي إلى المطعم. لكنها تفتت أو لعلها انفجرت عندما أخرجها هذا العميل من الثلاجة. فقد أعصابه وتبخرت المؤامرة. ومع ذلك، يقول فالديز إن هذه المؤامرة كانت الأكثر قربًا من قتل فيدل من كل المؤامرات التي حاكتها السي آي إيه ضده[6].

لم يعط فالديز مزيدًا من التفاصيل عن هذه الحادثة، ولكن يتضح مما يتذكره أن رجال الأمن الكوبي كانوا يتابعون المؤامرة وعلى الأرجح بمساعدة عميل مزدوج. كانوا يعرفون عن هذه المؤامرة أكثر مما تعرف السي آي إيه نفسها. وأضاف فالديز معلقًا بأن فيدل الزعيم الذي يعجبه كثيرًا كان موهوبًا بشكل غير طبيعي ولديه حاسة شم قوية لمثل هذه التهديدات وبأنه خلق ولديه استشعارات مضادة للاستخبارات. "لديه أنف يشم المهالك والأخطار". بدا فالديز وكأنه يريد القول بأن فيدل نفسه علم بالمؤامرة ودحرها.

لكن بيل هارفي، الذي لا يقل عنه موهبة، أحس باليد الخفية للمخابرات الكوبية في إحباط مؤامرة مشروب خليط الحليب. عندما قام موظفو مجلس الشيوخ بمقابلته وطرح أسئلة عليه في منزله في إنديانابوليس عام 1975 حيث يقيم بعد تقاعده. قال: "حيث إننا ندرك قدرات جهاز أمن كاسترو ... أعتقد – واعتقدت آنذاك – انه يمكن القول إن ثمة اختراقًا". وحكمه هذا يجب أن يؤخذ على محمل الجد[7].

كان ثمة مؤامرات أخرى ومكائد عجيبة، بعضها لم يكتشف إلا بعد سنين. يتذكر لاري هيوستن Larry Houston مستشار الوكالة القانوني أن بندقية قنص متطورة جدًا قد تركت داخل السفارة الأمريكية بهافانا بعد قطع العلاقات الدبلوماسية. ويعتقد أن المقصود بهذه البندقية محاولة اغتيال فيدل. لكن الحكومة السويسرية تولت مسؤولية مبنى السفارة، ما جعل هيوستن يقول متمسكًا برأيه "إن ذهبوا إلى علّيّة المبنى فسوف يعثرون عليها". من جهة أخرى يتحدث كوبيون منفيون يعملون في مكتب JMWAVE عن مؤامرات أخرى تمت حسب اعتقادهم برعاية كاملة من الوكالة. لكنها جميعًا أخفقت لأن قاتلًا واحدًا لا يستطيع الاقتراب من الهدف المسيّج بحماية كثيفة[8].

لكن مؤلفي تقرير الاغتيال لم يستطيعوا تحديد أي مستوى تفويض كانت هذه المؤامرات. ومع ذلك أحسوا بأنهم مجبرون للتأكيد "على مدى إحساس ضباط الوكالة المسؤولين بضغط إدارة الرئيس كينيدي الشديد بأن يفعلوا شيئًا بخصوص كاسترو ونظامه". لم يكن هارفي في حالة من الحذر والاحتراس عند إدلائه بشهادته في مجلس الشيوخ. كان على يقين بأن مؤامرة شراب خليط الحليب "تمت الموافقة عليها كاملة، من حيث المبدأ على الأقل، من قبل البيت الأبيض في عهد الرئيس كينيدي". وأكد جازمًا بأنه ما كان له أن يمضي بها لو لم تكن كذلك. فقد قال وهو لا يزال تحت اليمين: "كان واحدًا من أول أولويات الإدارة الإطاحة بنظام كاسترو وتدميره"[9].

كان هارفي المتقد حماسة والعنصر السابق في مكتب التحقيقات الفدرالي واحدًا من أفضل ضباط الاستخبارات المضادة الذين عملوا في هذه الوكالة. كان ينظر إلى الدور ويعيشه مع أن تفسيره له لا يحمل شبهًا مع نظرة أنغلتون الصامت العقلاني. له شارب نحيل والمسدس لا يفارقه لكنه طلق اللسان. يقول عنه سام هالبرن، وكان رئيس أركانه، إنه "رجل رائع، يحب المرء أن يعمل لديه ... إذا لم يكن لديك مانع بأن ترى مسدسًا محشوًا مصوبًا نحوك"[10].

اعتاد هارفي أن يحمل سلاحًا على جانبه مستترًا حتى إنه دخل البيت الأبيض ومعه سلاحه، علمًا أنه أوضح فيما بعد أنه حرص على الكشف عنه لدى الجهاز السري قبل الاجتماع بالرئيس كينيدي في المكتب البيضاوي. هذا وقد تحدث معي أحد معاصريه عن ذكرياته معه، فتذكر ما لديه من طاقة نشيطة ومتهورة، وكيف أنه كان "دومًا في اهتياج وثورة". لكنه بنظر هلمز الذي يعرفه حق المعرفة "كان فظًا صريحًا مرتفع الصوت" ... لا يدعي أنه "رجل لكل الفصول"[11].

تولى إدارة عمليات كوبا لمدة عام تقريبًا وذلك حتى حدثت أزمة الصواريخ، وكان راشدًا عالمًا بما فيه الكفاية ليختار اسمه المستعار. فاختار، وليام ووكر William Walker، وأطلق على هيئة موظفيه الكبيرة تسمية "قوة المهام الخاصة W" متخيلًا نفسه ذلك الحاكم وقاطع الطريق في ولاية تينيسي

لما يعد منتصف القرن التاسع عشر الذي أعجب به كثيرًا. قام ووكر بغزو نيكاراغوا وحكمها لفترة وجيزة، حيث تباهى بعرض شعاره ورمزه الذي ابتكره لنفسه فإنه الرئيس المعين ذاتيًا وذلك قبل أن تعدمه فرقة الموت.

لم يكن طموح هارفي أن يكون زعيمًا لكوبا الحرة، بل كان بعيدًا جدًا عن ذلك، لكن الإطاحة بكاسترو هي المهمة التي عمل لأجلها بعزيمة وتصميم محمومين وذلك إلى أن اصطدم مع بوبي كينيدي. كان هارفي يرثي للأخوين كينيدي ولم يخف إزدراءه. وكانت المواجهة الأخيرة بينه وبين وزير العدل قوية الانفجار حتى إن هلمز أجبر هارفي على تولي مهمة خارجية، وهي جيدة، لكنها أبعد ما تكون عن واشنطن[12].

* * *

عندما خلف ديز فتزجيرالد هارفي في كانون الثاني/يناير عام1963 وغيّر تسمية هيئة موظفيه تجددت المؤامرات لقتل كاسترو، وسرعان ما كان التركيز على رولاند كوبيلا. فهو بخلاف ما كان عليه عناصر المافيا القتلة والمنفيون في ميامي الذين لا همّ لهم إلا التذمر والتشكي فقد تطوع للقيام بهذا العمل. في بعض الأحيان كان يلح على الوكالة الإسراع بهذا العمل. لكنه بدا في صيف وخريف عام 1963 أكثر إصرارًا: فهو سيقوم باغتيال كاسترو بدعم أو بدون دعم أمريكي[13].

كان صديقه تيبيدينو قد رتب له موعدًا للالتقاء مع ضابط في السي آي إيه في آذار/مارس 1961. تُبين سجلات الوكالة التي رفعت عنها السرية أن بائع المجوهرات هذا كان "حلقة الاتصال منذ مدة طويلة"، فقد تعرّف إلى الضابط الذي يعمل في الخفاء في هافانا قبل أن يغادرها إلى المنفى. واستمر بعمله لسنوات عدة في كونه الحلقة التي لا يمكن الاستغناء عنها بين كوبيلا والوكالة. في عام 2009 قدم هذا الرجل، تيبيدينو، البالغ من العمر أربعة وثمانين عامًا، هذه الخدمة لاجلي، حيث رتب لي لقاء مع كوبيلا في محله الأنيق لبيع المجوهرات في منطقة Coral Gables في ميامي.

في عام 1961 كان لدى بائع المجوهرات حساب يجب تصفيته مع ثورة فيدل: فقد صادر النظام محله الأكثر أناقة في هافانا – وجميع محتوياته الثمينة. وكان يأمل بأن يقنع صديقه القديم كوبيلا لينضم إليه في المعارضة، إما من خلال انشقاقه أو في تآمره وهو في موضعه. اجتمع الكوبيان مع ضابط السي آي إيه في وقت متأخر من الليل في مشرب Skyroom في فندق هيلتون كونتيننتال في مدينة مكسيكو. استخدم رجل السي آي إيه مقاربة كلاسيكية في محاولة تجنيده، وهي مقاربة أثبتت نجاحها مع المئات من الكوبيين. وحذّر من سرعة قيام كاسترو بفرض الأيديولوجية الماركسية وتوجه كوبا نحو الاتحاد السوفياتي. وقال لي مستذكرًا ذلك اللقاء: "وأخبرني أن في كوبا تسللًا شيوعيًا كبيرًا وأن الشعب الكوبي مقبل على اعتماد النظام الشيوعي. لكنه لم يقتنع ورد عليه بتلك المواقف المتشددة المؤيدة للثورة. كانت بداية لا تبشر بالخير ولم يكن ثمة أي اتصال آخر على مدى خمسة عشر شهرًا[14].

يبين الملف المتضمن سيرة حياة هذا الكومندان والذي رُفعت السرية عن قسمه الأعظم وجود شكوك غير محسومة بشأن كوبيلا منذ البداية. وكان يستحيل رسم خط مستقيم عبر ماضيه الذي يحمل تناقضات. كانت ثمة تقارير تدل على تضارب وتقلب وحماقات في حياته الخاصة. عنيد، متصلب في رأيه، ويصعب التنبؤ بما سيفعله. أما هلمز، الذي كان على اطلاع كامل بعملية كوبيلا ويوافق على كل خطوة هامة تتخذها هذه العملية قدمًا، فقد أقر في مذكراته بأن هذا الكوبي "كان بعضًا من مقدار غير معروف".

كان يبدو مع فيدل وضده في آن، عدوًا وصديقًا للأمريكيين، وقاتلًا لا يعرف الرحمة ومع ذلك تابعًا مطواعًا. هنالك مؤشرات كثيرة على أنه كان على خلاف شديد مع كاسترو وتشي غيفارا. ومع ذلك، بعد أن تولى مسؤولية اتحاد الطلبة ذهب إلى أمريكا اللاتينية بهدف تشجيع الجماعات الراديكالية. في أيار/ مايو 1960 ذكرت السفارة الأمريكية في تقرير لها أنه كان "لعبة يستخدمها النظام ببراعة"، يحرّض على "التظاهر ضد الأمريكيين" في جامعة هافانا وفي الوقت عينه يقوم بتخويف الطلبة المناهضين للشيوعية. كان يتجول مسلحًا داخل

الحرم الجامعي – مواليًا مُلتحيًا مخلصًا للثورة. ونال المديح والثناء من النظام لسلوكه "المجيد ألف مرة". وقررت محطة ميامي أنها لا تريد التعامل معه حين أعطت رأيها "بسمعته البغيضة"[15].

لكن مما لا شك فيه أن الجواسيس والعملاء المرشحين يتم تجنيدهم بسبب ما يعرفونه، ومن يعرفونه، ولقربهم من الأسرار والقادة. لذلك وبتشجيع من تيبيدينو تجدد الاتصال، وتولى مسؤوليته ضابط جديد لا يزال معروفًا باسمه المستعار فقط وهو "وذرباي" Weatherby. وقد وصفه تيبيدينو لي بأنه حديث السن، لطيف جدًا، أحمر شعر الرأس، وأفصح لي عن اسم آخر غير الاسم الذي يتخذه لنفسه. في صيف عام 1962 رتب "وذرباي" لسلسلة من الاجتماعات مع كوبيلا في باريس وفي ثلاث عواصم اسكندنافية. يجتمعان في غرف بالفنادق أو في سيارات مركونة وفي معظم الأحيان يقوم تيبيدينو بالترجمة. في هلسنكي "استخدمنا المراقبة المضادة" كما قال "وذرباي" أمام لجنة تشرش للتحقيق "ولم يكن ثمة أي دليل على أن أحدًا يتبعنا"[16].

لكن الأمر كان مختلفًا بعد أسبوعين في باريس حيث كأن الأمن الفرنسي يراقب كوبيلا. ولعل السبب في ذلك أن كوبيلا كان يتحدث بحرية أكثر مما ينبغي أو يتصرف على نحو يثير الشبهات أو لأن اسمه ظهر على لائحة أسماء من تجب مراقبتهم. كان "وذرباي" متيقنًا بأن ذلك لم يكن مصادفة غريبة. غير أن محطة باريس هدّأت من مخاوف نظرائهم الفرنسيين موضحة أن الاتصالات مع كوبيلا تهدف إلى مساعدته على الانشقاق. لم يحدث ضرر، لكن الحادثة نفسها تدل على أن رقابة المخابرات الكوبية كانت تتابع كوبيلا. كل كوبي معتمد في سفارة باريس كان إلى حد ما من ضباط المخابرات[17].

أعرب كوبيلا أثناء لقائه مع وذرباي عن رغبته بالانشقاق، لكنه في تناقض مع هذه الرغبة حاول أن يقنعه بضرورة القيام بإجراء مميت ضد كاسترو. يقصد بذلك أنه هو الرجل المؤهل لهذا العمل. وتم إبلاغ المقر العام بأنه ليس على استعداد "للمجازفة بحياته من أجل أي عمل صغير، بل هو يريد دورًا كبيرًا حقًا يضطلع به. ويفضل عملًا يتسم بالعنف". الحالة المتردية في كوبا

يمكن حلها "بضربة كبرى واحدة". وقال كوبيلا بكل وضوح وجلاء بأنه يريد الإطاحة بالنظام. وقال للضابط المسؤول عنه بأنه يشعر "بنوع من الاستعجال" للبدء بالتآمر على قتل كاسترو[18].

ابرق وندرباي إلى المقر العام واصفًا كوبيلا بأنه "انفعالي جدًا" وعاطفي وشديد المزاجية، وليس جديرًا بالثقة بعد". فكر بالانتحار منذ عام. واقترح إجراء فحص كشف الكذب "قبل استخدام هذا الشخص ... وباريس هي الفرصة الأفضل". لكن كوبيلا تراجع، رافضًا بسخط الجلوس إلى هذا الجهاز. وهذا رد فعل طبيعي لما كانت الوكالة تسميه ترميزًا "الارتعاش"، لكن قلما تسمح الوكالة بهكذا رفض دون الطعن به. إنما في هذه الحالة غير العادية فاز كوبيلا، يبدو أن هذه المسألة لم يجر الحديث عنها ثانية. فهو شخص واعد أكثر كثيرًا مما يمكن معاداته[19].

كان وندرباي يعلم جيدًا بأن هذا الكوبي قد "يشكل له مشكلات صعبة في السيطرة في أي موقف عملياتي". فقد قال في شهادة أدلى بها بعد سنين كنا نشعر بقلق في كثير من الأحيان "حيال ما يبدو لنا فقدان الإحساس بالأمن بحسب المعنى الكلاسيكي للعميل". وكان يخشى بأن يسترعي كوبيلا المفكر كثيرًا انتباه المخابرات الكوبية. لقد سُمح له "بالكثير من الخصوصيات في المزاج والحماقات التي قد لا يمكن السماح بها للقادم الجديد". وكانت هذه مخاوف خطيرة، ومن النوع الذي يسبب عادة تأجيل عملية ما أو إلغاءها. والوكالة لم تستطع دون أن يكون لديها نتائج كشف الكذب أن تحدد ما إذا كان كوبيلا جديرًا بالثقة. ولم يكن بيدها وسيلة للتيقن من هو المسؤول حقًا في هذه العلاقة الثلاثية الجوانب: كوبيلا، أم وندرباي، أم تيبيدينو الحاضر دائمًا وأبدًا.

ومع ذلك، وعلى الرغم من العديد من المخاوف المشروعة، وبعد يوم واحد فقط من أول لقاء جمع كوبيلا مع وندرباي صدرت موافقة عملياتية مؤقتة في الثاني من آب/أغسطس عام 1962. وبات تجنيد كوبيلا عنصرًا هامًا في السي آي إيه أمرًا رسميًا وأصبح يحمل اسم أملاش AMLASH[20].

مكث مدة طويلة في فرنسا في صيف ذلك العام وتلقى فيها تدريبًا متخصصًا. كان في جزء منه طقسًا للإطلاق في العمل وتنصيبه في صفوف العمل السري. وفي القاعدة العسكرية الأمريكية التي تبعد بضع ساعات نحو الجنوب من باريس التحق بدورة تدريبية قصيرة في المتفجرات البلاستيكية. وفجر عبوة صغيرة، ونفذها بنجاح. كان ونرباي أخبر بأنه يريد تفجير مصفاة النفط الكوبية، وساور المقر العام اعتقاد بأن من الممكن تدريبه لقتل فيدل بقنبلة يمكن وضعها بمكان جيد. وحقيقة الأمر أنه أعرب عن اهتمام بالمتفجرات الصغيرة وتفجيرها عن بعد[21].

وفي باريس تدرب كوبيلا لمدة خمس ساعات على الكتابة السرية وأُعطي المواد التي تمكنه من الاتصال سرًا عندما يعود إلى الجزيرة. وقد أشار ضباط المحطة بأنه كان "تلميذًا نجيبًا ويعتقد بأنه سوف ينفذ التعليمات بالطريقة الصحيحة والملائمة". لكنهم كانوا مخطئين. ذلك أنه في وقت لاحق أعرب عن تذمره بأن هذا النظام بطيء ومرهق وأرسل رسالة واحدة فقط. وزعم بأنه لا يوجد شيء هام يستحق إرسال تقرير بشأنه[22].

غير أن هلمز اعترف بأن كوبيلا لم يرقَ ليكون إرسال تقرير بشأنه مصدرًا لمعلومات عظيمة القيمة. تقاريره "تثير الاهتمام" لكنها "لا تكشف عن أشياء عظيمة الأهمية". فمثلًا، كان كوبيلا يعلم من فيدل نفسه وقبل خمسة عشر يومًا مقدمًا، أن الزعيم الكوبي سوف يقوم بزيارة إلى الاتحاد السوفياتي في ربيع عام 1963 وهي أول زيارة له. ومع ذلك لم يبلغ الوكالة بذلك. فهذه المعلومة هي عينها ما كانت السي آي إيه تريده وقد حثته على تقديم تقرير بشأنها. ولأن كاسترو كان يخشى من محاولة اغتيال فقد احتفظ بهذه الخطط طي الكتمان فيما عدا قلة قليلة من المقربين. وهكذا بقيت مرحلتا الرحلة الجوية الطويلة عبر المحيط الأطلسي مغلفة بسرية تامة حتى انتهت. وقد قال فيدل بعد عودته إن السبب في ذلك هو أننا نعيش على بعد 90 ميلًا من الإمبريالية الأمريكية". كان يحس بقلق شديد إزاء مؤامرات الاغتيال، وعلى ما يبدو، كان كوبيلا يحاول حمايته مع أن أحدًا داخل السي آي إيه لم يفكر هكذا آنذاك[23].

كان ينبغي أن تثير التطورات الأخرى بعض الشبهات لتحرك رايات إنذار حمراء داخل لانغلي. كان كوبيلا يحيا حياة بذخ وإسراف في وقت كان فيه الاقتصاد الكوبي ينحدر لولبيًا للحضيض، ولم يكن أحد يعرف كيف يحصل على هذه الأموال. ذكر عنصر مقيم في الجزيرة في تقرير كتب بالحبر السري في تشرين الأول/أكتوبر عام 1962 أن كوبيلا ينفق مالًا كثيرًا. ورغم أنه يعمل في مستشفى بهافانا بالحد الأدنى من الأجر فإنه ليس له ممارسة طبية خاصة. وقد ذكر بعض من يعرفونه بأن له مصدرًا مجهولًا للدخل. سافر إلى بلدان في القارات الأربع عندما كانت الوكالة تحتضنه دون مقابل – ومكث في فنادق من طراز رفيع، ويقضي إجازاته في المنتجعات الأوروبية ويتعامل اجتماعيًا مثل رجل أعمال برجوازي عند كل محطة يتوقف فيها. كان تيبيدينو قد أخبر وذرباي بأن كوبيلا يحب ارتياد النوادي الليلية. وبينما كان كوبيون آخرون لديهم تجارب ثورية مماثلة يتنقلون في البلدان سرًا ليقاتلوا إلى جانب ثوار أجانب كان هو يعيش حياة بذخ يتنقل من بلد إلى آخر مثل هاوي الفنون[24].

إنها حقًا حالة غير عادية، وبسبب ذلك لا يمكن لضباط السي آي إيه المتعاملين مع العملاء أن يسمحوا بها. وكانت تسترعي الاهتمام الذي تستحقه. يقول وذرباي بهذا السياق إنه يشك بأن يكون بيل هارفي قد قرأ تقارير مصدر معلوماته عن لقاءات هلسنكي مع أن رئيس قوة المهام الخاصة "W" قد أحيط علمًا بها. لقد كان هارفي يشارك بقوة في كل عملية واعدة بخصوص كوبا، وكان يتعرض لضغط شديد من بوبي كينيدي فلا يمكن أن تفوته أي فرصة. لكن قد يكون السبب في تكتمه بعض الشكوك القوية حيال ما قدمه كوبيلا من صدق دون زيف. وكان هارفي غير راغب في المزيد من الإفادة منه ومع ذلك كان يتعرض لضغط سياسي شديد بأن يتخلى عن هذه القضية[25].

كان الحل يتمثل في ترك القضية تهزل وتذبل. كان وذرباي يتعامل مع ثلاثين عميلًا في آن، وكان ضابطًا برتبة متدنية لا تسمح له بالإلحاح على توصياته ومقترحاته. يتحدث الإسبانية قليلًا ومعرفة كوبيلا باللغة الإنكليزية

ليست أفضل. وللمفارقة كان هذا الضابط الشاب الذي يهتم بقضايا فوق طاقته يعد عملية كوبيلا "واحدة من العمليات الواعدة جدًا ... إن تبلورت"[26].

* * *

كان من مهام ديز فتزجيرالد أن يجعلها تتبلور. عندما تولى مسؤولية عمليات كوبا اتخذ التخطيط لقتل فيدل صفة استعجال أقصى. قال سام هالبرن في شهادته بأنه في تلك المرحلة، "مطلع عام 1963"، صدرت إليهم الأوامر "بتقديم بعض الأفكار حول قتل كاسترو". عندما ألح عليه سناتور أثناء جلسة الاستماع، ومتحدثًا تحت اليمين، قال هالبرن بأنه على ثقة بأن هذا الطلب صدر عن المكتب البيضوي. "وبرأيي جاء من السلطات العليا ... لا أعتقد بأن السيد فتزجيرالد يأتي به من داخل رأسه ... فهو ليس ذلك النوع من الرجال الذي يقوم بأي نشاط، وبخاصة نشاط بمثل هذه الحساسية، دون أوامر من الجهات العليا"[27].

كان ديز يعرف الرئيس معرفة جيدة وكان على قاعدة أول اسم لدى وزير العدل. كانا يلتقيان في أيام نهاية الأسبوع في مرتع للخيول في فرجينيا، وكان فتزجيرالد يأتي إلى مكتبه صبيحة الاثنين "مشحونًا"، كما يقول هالبرن، متحفزًا للشروع في عملية جديدة ضد كاسترو. وقد يقول لكبار موظفيه: "رأيت بوبي في ميدلبرغ. وإليكم ما يتعين علينا أن نكثفه في عملنا للشهر القادم". وخلص هالبرن إلى القول إن لبوبي تأثيرًا سيئًا على ديز، يعزز فيه غرائزه السيئة. وديز لم يشكك يومًا بالأهمية البالغة للمهمة الملقاة على عاتقه، المتمثلة في أن تخليص كوبا من كاسترو يشكل الأولوية التي تعلو فوق كل أولويات الإدارة.

لم يكن الرئيس ذلك الشخص الذي يتقبل التعايش السلمي مع كوبا. وبالمثل لم يكن فيدل ليهتم بإنهاء الدعم العنفي للثوريين في هذا الإقليم أو وضع حد لهذه المناهضة للأمركة أو إنهاء تحالفه العسكري مع الكرملين. العداوة بين الرجلين تعود بتاريخها لحملة انتخابات الرئاسة عام 1960 عندما وجه كل واحد منهما للآخر سيلًا عرمًا من النقد اللاذع. وكان الفشل الذريع في خليج

الخنازير نقطة الانحدار السابقة، إنما كانت العلاقات تدنو كثيرًا من حضيض جديد. في خطاب ألقاه في قاعة Orange Bowl في ميامي بُعَيْد عيد الميلاد لعام 1962 لمّح كينيدي إلى المزيد من السياسات الحربية التي سوف يتبعها.

وعندما تحدث أمام جمهور يحتفي بالإفراج عن ألف وخمسمئة من المحاربين في خليج الخنازير من السجون الكوبية لوّح الرئيس براية الحرب التي رفعوها عاليًا عندما نزلوا إلى الشاطئ الكوبي. وقال بصوته المدوّي: "أؤكد لكم أن هذه الراية سوف تعود إلى هذا اللواء في هافانا الحرة". وهتف الجمهور تحية له بصوت هادر، كما ألقت جاكي كينيدي خطابًا دافئًا بلغة إسبانية اتسمت بإيقاع مرح.

كانت مناسبة مثيرة للجالية في المنفى، إلا أنها أثارت غضب فيدل. بعد أسبوع واحد نظم مناسبة تفوقت على تلك الفعالية وبزتها في ساحة الثورة Revolutionary Plaza بهافانا. ألقى خطابه أمام جمهور يقدر بعشرات الألوف، ووصف كينيدي بأنه "قرصان ومغامر ... لا أحبه ولا أثق بالإمبرياليين".

بلغ الحقد بين الرجلين مرحلة جديدة من الشدة. وصار التقارب بينهما احتمالًا أكثر بعدًا من أي مرحلة سابقة. تخليص كوبا من كاسترو هو الأولوية التي لا تعلو عليها أولوية أخرى في أمريكا، في حين كانت أولوية فيدل نشر الثورة العنيفة في جميع أرجاء أمريكا اللاتينية. والضغط يتزايد على فتزجيرالد.

لم يحصل أي اتصال مع كوبيلا المحتال منذ الصيف المنصرم، لهذا فعل ديز ما بوسعه لاستنباط مخططات للقضاء عليه ثبت أنها أكثر سذاجة من مؤامرات السيجار المسموم أو مزيج الحليب المسموم. لكن فكرته السيئة السمعة، والتي تخلى عنها سريعًا بدت للعاملين معه فكرة تشبه كأس شراب مسكر لولا أنها خطرت له ذات صباح وهو يحلق ذقنه. أراد أن تعمل "دائرة الحيل القذرة" في الوكالة – وهي قسم الخدمات الفنية – على تصميم محارة بحرية متفجرة لا ينفذ إليها الماء.

كاسترو غطاس ماهر. وهذه المحارة – التي يجب أن تصمم على نحو

جذاب استثنائي تلفت اهتمامه - تزرع تحت الماء قريبًا من ساحل كوبا الشمالي حيث يكتشفها. وعندما ينتزعها من أرض البحر "تنفجر بوجهه"، كما قال هالبرن فيما يستذكره. كان نيز مفتونًا بالفكرة كثيرًا حتى إنه جاء إلى المكتب ذات يوم يحمل كتبًا عدة حول الرخويات التي تعيش في البحر الكاريبي، وألح على الفنيين في الوكالة بأن يصنعوا له نسخة منها. لكن هالبرن ومعه آخرون اعتبروا محارة متفجرة فكرة سخيفة حتى لو أمكن صنع هكذا متفجرة، أقنعه بالتخلي عنها.

لكن نيز الذي لا يردعه شيء أعمل فكرة ثانية. فكر في وضع شرائط لمواد سامة وإلصاقها على الجانب الداخلي لملابس غواص والعمل على ترتيب ما لإيصالها إلى فيدل. وقد قال أحد واضعي تقرير المفتش العام في شهادته: "أعتقد أن المادة كانت نوعًا من الفطر يسبب مرضًا يضعف الجسم ويوهنه ... وقد حصلوا على الملابس المطلوبة وأشربوها بتلك المادة". وتذكر هلمز بعضًا من التفاصيل الأكثر غرابة. فقد فكر أيضًا بإدخال جراثيم السل في "جهاز تنفسي" ورش مادة الفطر الذي يتسبب بالإصابة بداء فطرية مادورا (قدم مادورا) "Madura foot" على الجانب الداخلي لملابس الغطاس. "كانوا يطلعون كل يوم بفكرة رعناء" كما ذكر في شهادته لاحقًا "لكنها كلها لم تحظ بالموافقة". وعلى أية حال كان من شأن الأحداث الجارية أن أدركت هذه الفكرة وتجاوزتها. فقد قرر محام أمريكي فاوض لأجل إطلاق سراح أسرى معركة الخنازير ومن تلقاء نفسه بإهداء فيدل طقم سباحة نظيفًا وصحيًا على أكمل وجه. ولكي يترك أثرًا طيبًا في نفس كاسترو كذب وقال بأنه ابتاعه من محلات أبركومبي وفيتش Abercombie & Fitch[28].

في الثالث من نيسان/أبريل تلقى فتزجيرالد أوامر بالمسير من البيت الأبيض. فقد أصدر الرئيس ووزير العدل تعليماتهما إلى السي آي إيه "بدراسة جميع الاحتمالات الممكنة للقيام بعمل هجومي" ضد كوبا. كان ذلك بداية الفصل الثالث، ويريدونها أن تكون، مرحلة الذروة في الحرب السرية الأمريكية. طلب الرئيس برنامج عمل سري جديد يتسم بـ "سياسة وأموال دون حدود". صار

ديز الآن على اتصال كثير التواتر مع الأخوين كينيدي، وكان أملهما الجديد الأخير في التخلص من كاسترو[29].

وسرعان ما وثب كوبيلا إلى حالة من الأهمية الأكبر فأصبح صمام الأمان في خطة ديز السرية في العمل على تحفيز انتفاضة عسكرية ضد الأخوين كاسترو. سوف توكل إلى هذا الكوبي مهمة تجنيد ضباط مرموقين في المؤامرة. وبمساعدة السي آي إيه يقوم هؤلاء باغتيال فيدل ويشكلون شرارة انطلاق انقلاب عسكري. وكانت هيئة الشؤون الخاصة SAS تعمل في الوقت عينه على مسار مواز مع بعض العسكريين الآخرين المستائين من النظام، عرفت هذه العملية بـ AMTRUNK (trunk = دائرة اتصال هاتفي دولي). وحصل سريعًا إجماع في الرأي حول الخطة الجديدة في الربيع، ومع حلول أواخر حزيران/ يونيو، وبموافقة الرئيس، كان كل شيء تقريبًا في ترسانة SAS وترسانة محطة JMWAVE وقد عبئ دعمًا للخطة.

لم ينجح شيء آخر. كانت الهجمات التخريبية على الساحل وبرنامج الرفض الاقتصادي برغم عدوانيته على حالها، لا تشكل أكثر من مضايقات تعرقل بدلًا من أن تساعد، فكان من شأنها أن عززت التزام الكرملين بتقديم مساعدات سنوية تقدر بمليارات الدولارات وكذلك عززت موقف فيدل وقاعدته الصلبة. كانت محاولات الاغتيال السابقة سخيفة. وكذلك الدعاية والعمل الخفي مهما كان خياليًا ليس لهما أثر مديد. الجماعات المنفية غير منظمة ومخترقة من جانب المخابرات العامة الكوبية وتناثرت في فصائل متحاربة. وقد لخص تقرير عن تقديرات إدارة الاستخبارات القومية الوضع القائم بالقول: لا المعارضة الداخلية ولا المصاعب الاقتصادية سيجعلان نظام فيدل ينهار. في مطلع عام 1963 كان كاسترو بما لديه من مؤسسة عسكرية أكبر من السابق وأشد قوة أكثر صلابة وأشد عودًا وأفضل حصانة من أي وقت مضى[30].

أما الشيء الذي لم يجربه الأمريكيون من قبل فهو الحض على القيام بانقلاب عسكري بقيادة بطل حقيقي من أبطال الثورة. ولم يجدوا مرشحًا لذلك حتى في صفوف من هم أقل رتبة وصفوف من لا يبدون واعدين، وذلك قبل

مجيء كوبيلا واعتماده تحت اسم AMLASH. كان ديز على يقين بأنه يسير على المسار الصحيح وبأنه سوف ينجح حيث أخفق كل من بيل هارفي وديك بيسل Dick Bissel الذي لم يفلح في التخطيط لغزو خليج الخنازير. هو من سوف يكون المنتقم من كاسترو، والضابط الآمر الذي تعينه إدارة الرئيس كينيدي لحرب سرية أنعشت وتجددت. ورث ديز عن هارفي مؤسسة ضخمة لها سمعتها ومكانتها فكان في عجلة من أمره ليضع بصمته عليها وليتحرك للأمام سريعًا.

شكل هيئة أركان من كبار الموظفين ومن الطراز الرفيع. بقي بروس تشيفر Bruce Cheever نائبه ومعاونه. وجاء بـ إد ماريليوس Ed Marelius ليكون رئيسًا "للاستخبارات الخارجية"، أو الجمع الخفي للمعلومات. وعلى رأس فرع الحرب النفسية والعمل الخفي الضخم وضع سيمور بولتن Seymour Bolten – الذي دارت الإشاعات حوله بأنه واحد من الضباط الشباب الذين عملوا افتراضيًا على تأسيس الحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا الغربية بعيد الحرب العالمية الثانية. وتولى آرت مالوني Art Maloney مسؤولية فرع العمل شبه العسكري الذي ينسق عمليات التخريب والكوماندوس الأخرى مع محطة JMWAVE. كما تولى هال سوينسون قيادة فرع الاستخبارات المضادة الذي يضم خمسة وعشرين أو ثلاثين قسمًا. وفي رأي رئيس هيئة الأركان سام هالبرن: "كان هؤلاء جميعًا من الشخصيات ذات القدم في الوظيفة ويتمتعون باحترام الجميع ... لا يأخذون شيئًا من أحد ويسيطرون على سفينة مُحكمة الإغلاق جدًا"[31].

وهم معًا المسؤولون عن الكثير من النجاحات المنجزة في العمل التجسسي ضد كوبا، حتى في الاختراقات إلى داخل دائرة أسرة الأخوين كاسترو. خوانيتا Juanita، إحدى شقيقاتهما، عملت سرًا لصالح السي آي إيه في هافانا قبل فرارها إلى الولايات المتحدة عام 1964. وبحسب روايتها هي المطبوعة والمنشورة قامت بتجنيدها زوجة السفير البرازيلي في هافانا، والتي كانت تعمل لصالح السي آي إيه. وفرد آخر من عائلة كاسترو، الأخ الأكبر

رامون، كان أيضًا على تواصل مع السي آي إيه لخمس أو ست مرات في الحد الأدنى، وبرأي تيد شاكلي كان قريبًا جدًا من الانشقاق أيضًا والفرار[32].

وكان الطبيب الشخصي والدائم لوالدة الأشقاء كاسترو وبعض بناتها مصدرًا للمعلومات. هذا الطبيب واسمه برناردو ميلانيس Bernardo Milanes، المعروف داخل الوكالة بـ AMCROAK (نقيق الضفدع croak)، تم تجنيده في كانون الأول/ديسمبر عام 1963 في العاصمة مدريد. آنذاك، كان هو وآخرون غيره يخططون لمحاولة اغتيال كاسترو. عرف فيدل وراؤل منذ طفولتهما وقدم للوكالة بعضًا من التحليلات الأولى والمفيدة جدًا عن شخصيتيهما ونفسيتيهما.

لكن فيدل المعروف بشكه بالجميع لم يكن يثق بأحد، حتى بوالدته لينا روز غونزاليس Lina Ruz Gongalez وربما لديه سبب لذلك. فقد قالت لميلانيس أنها تعتبر فيدل المسؤول عن "القتل بالجملة والقمع الحاصلين" في كوبا. قبيل وفاتها في تموز/يوليو عام 1963 أسرت لينا أيضًا له بأن لدى مرافقيها الخصوصيين أوامر بأن يخبروا فيدل عن كل شخص يزورها وكل شيء تقوله[33].

تحدث الدكتور ميلانيس مع الضباط المتعاملين معه عن حقد فيدل الذي لا يهدأ ضد الرئيس كينيدي. في شهر كانون الثاني/يناير من عام 1963 التقى بكاسترو في منزل والدته لينا حين جاءها للعناية بها بعد إصابتها بأزمتين قلبيتين. تفاصيل روايته هذه تضمنها تقرير موسع أرسل إلى السي آي إيه. "بابتسامة ساخرة على وجهه" سأل فيدل هذا الطبيب عن "رأيه في" كينيدي. وقد أجاب الطبيب بأن كاسترو كان على الأرجح ينقص من قدر وأهمية عدوه وبأن كينيدي لم يكن بالتأكيد "الرجل الأمّي والأبله كما وصفه فيدل". ضحك فيدل ورد على الطبيب متهكمًا، وقال بأنه "هو من سيدمر كينيدي". ثم أشار كاسترو بيده بحركة بذيئة يقصد بها الحط من قدر الرئيس[34].

الجراءة هي القاعدة في العمليات الموجهة ضد كوبا. وكان العناصر يقومون بمحاولات تجنيد هادئة لبعض كبار المسؤولين في حكومة كاسترو.

وحتى لو كانت فرص النجاح ضئيلة جدًا قد يفتضح أمر المسؤولين أثناء هذه العملية، وعلى الأقل سوف يتعرضون لمضايقات أو ربما يظهرون بمظهر المرتاب أمام استخبارات بلادهم المضادة. فقد جرت محاولة لمقاربة الرئيس الصوري أوزفالدو دورتيكوس Osvaldo Dorticos بنيويورك في تشرين الأول/أكتوبر عام 1962. فغضب واهتاج، وتسبب بحدوث مشهد خشن بحسب ما جاء في سجلات السي آي إيه وطلب "إخراج العنصر الذي حاول تجنيده بالقوة من الفندق". وكذلك الأمر، رفض رئيس بلدية هافانا وقادة بارزون آخرون مغامرات مماثلة. ولكن، هنالك كثيرون غيرهم ممن أُعطوا أسماء سرية في سلسلة الأسماء التي تبدأ بالحرفين AM ويعملون جواسيس لصالح السي آي إيه[35].

* * *

أصبح سام هالبرن بعد تقاعده من العمل المؤرخ غير الرسمي للحروب الكوبية في أوائل الستينيات. فهو من مواليد بروكلين وخريج سيتي كوليج City College في نيويورك ومحارب شارك في الحرب العالمية الثانية في مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS. عندما عمل مع فتزجيرالد كان واحدًا من أربعة رجال لديهم معرفة واطلاع كاملين على خطة كوبيلا. تكمن أهمية وقيمة هالبرن في واقعيته التي تنم عن ذكاء وفي صراحته التي تأبى الكتمان، وهو مستعد دومًا لتوجيه اللوم المؤدب إلى رؤسائه إذا عبروا الخط نحو دائرة السخف والبعد عن العقل. شهاداته التي أدلى بها تحت اليمين في الكونغرس بخصوص كوبيلا هي الرواية الأكثر صدقًا والأكثر ثقة لكل ما حدث. ففي ثلاث مقابلات مطولة، رفعت السرية عنها جميعًا الآن، وأضاف لها فيما بعد مزيدًا من التفاصيل والمادة سرد فيها تاريخًا شفهيًا عن عمليات هيئة الشؤون الخاصة SAS[36].

كلف هالبرن بعض موظفي هيئة SAS للعمل مع المحللين في وكالة استخبارات الدفاع لدراسة قيادة كوبا العسكرية. وأراد ديز قوائم بأسماء كل أولئك الذين قد يكونون معارضين للأخوين كاسترو أو غير الراضين عنهما. كان يأمل بأن يعرف شيئًا عن حلقات ضعف في السلسلة القيادية والعداوات والتوترات بين القادة. وقد تم وضع دراسات مفصلة للسير الذاتية لمئة وخمسين

ضابطًا في مطلع تشرين الثاني/نوفمبر، فكان خمسة وأربعون منهم محط اهتمام خاص ليكونوا قادة لانقلاب عسكري محتمل[37].

سُرّ ديز بهذا التقدم ولكن لم يعرف الكثير عن المؤسسة العسكرية لكاسترو. فهي دون شك أقوى مؤسسة في الجزيرة، ومغلقة بضبابية ثورية مثلها مثل مديرية المخابرات العامة. فالقوات المسلحة كانت آنذاك وستبقى معزولة تمامًا عن أعين المتطفلين من الخارج ونفوذهم. لكن المحللين الأمريكيين عبر استخدام طائرات U-2 للتصوير ووسائل فنية أخرى لجمع المعلومات استطاعوا وضع تقييم لنظام المعارك الكوبية. واستطاعوا أيضًا أن يحصوا ما لدى راؤل من دبابات وعربات مدرعة، ويتتبعوا تاريخ السلاح الجوي وسلاح البحرية المتنامي، ويقدروا عديد القوات. ولكن في عام 1963 لم يكن ثمة معلومات موثوقة عن الأوضاع والعلاقات داخل القيادة العليا. لم ينشق ضابط برتبة عالية منذ الشهور الأولى للثورة، ولن ينشق أحد خلال السنوات الأربع والعشرين التالية.

غير أن الأمريكيين قللوا من قدرة راؤل القيادية وقدراته التنظيمية، وكان ثمة أشخاص داخل هيئة الشؤون الخاصة SAS – ومنهم ديز – يعتقدون خطأ بأن المؤسسة العسكرية الكوبية هدف سهل. القسم الأعظم من القادة العسكريين هم من الذين خاضوا حرب العصابات، رجال بسطاء غير متعلمين ويعتقد بأنهم تنقصهم البراعة. لكنهم جميعًا تقريبًا مخلصو الولاء للأخوين كاسترو، ومحاربون خبرتهم المعارك ولا يحبون الأمريكيين. وكانت الاستخبارات العسكرية الكوبية واسعة الانتشار وتتقن فن تصيد الضعفاء والمتشككين. وليس سهلًا إنشاء عصبة تتولى أعمال القتل والإجرام في صفوف فريق ضباط الجيش القريب من الأخوين كاسترو. ورغم كل الدراسات والتعلل بالآمال داخل لانغلي لم تقدّر الوكالة قوة الماكينة العسكرية الكوبية الهائلة حق قدرها.

حتى إنه لم يكن معلومًا لديها بشكل كاف تلك النوايا والقدرات المتطورة. ففي كانون الأول/ديسمبر أنهى المحللون العسكريون في السي آي إيه تقييمًا شاملًا للقوات المسلحة التي يقودها كاسترو. وكان من بين أحكامها الأساسية الهامة حكم يقول: "الكوبيون يفتقرون إلى القدرات اللازمة لإقامة جسر جوي أو

بحري للقيام بعمليات عسكرية بعيدًا خارج البلاد". وهذا التقييم لا بد أنه كان مطمئنًا لصنّاع السياسة وسط المدينة. ولكن، وقبل ثلاثة شهور فقط، ودون أن يدري هؤلاء المحللون، تمكنت قوة كوبية كبيرة تتضمن كتيبة دبابات وكبار الضباط ونحو سبعمئة من جنود المشاة المتطوعين من الوصول إلى الجزائر بحرًا لتقاتل ضد جارتها المغرب. وكان الضابط الكوبي قائد الحملة من قدامى المحاربين المتلهف للوصول سريعًا للقتال في تلك الصحراء الرملية بشمال أفريقيا وهو من الضباط الذين وردت أسماؤهم بالقائمة القصيرة لمتعاونين مفترضين لأجل انقلاب عسكري مع كوبيلا[38].

وافق فيدل بما عُرف عنه من سرعة الحسم خلال ساعة واحدة من تلقيه طلب رئيس الجزائر الثوري لتقديم العون العسكري. وكانت تعليماته إلى القائد الميداني بأن يضع نفسه بتصرف الجزائريين "في الذهاب إلى أي مكان يريدونه ومتى أرادوا ذلك". كانت هذه الحملة أولى مغامرات كوبا الجريئة والعديدة في أفريقيا. لكن الكوبيين في هذه الحالة وخلافًا للحالات الأخرى، لم يحاربوا، فقد أبرمت الجزائر اتفاق هدنة مع الملك المغربي[39].

إن جميع الدروس والعبر والاستنتاجات التي استطاع المحللون في المقر العام أن يستنبطوها حول المؤسسة العسكرية ظهرت على صفحات الإيجاز اليومي الخاص بكوبا Cuba Daily Summary. إضافة لذلك فقد كُلف مكتب "التقييمات الوطنية" الموقر بمهام مماثلة مرات عدة أيضًا، وأعطى تنبؤات عن كوبا خلال النصف الثاني من عام 1963 أكثر عددًا من أي فترة أخرى. وكانت الفكرة الرئيسية المحورية في جميع هذه التقارير تتركز على مدى اعتماد النظام على "شخص كاسترو" وبالتالي ما مدى ضعفه. وكان عنوان واحدة من هذه التقييمات العديدة الناظرة للأمام والتي تركزت على السؤال الذي يحتل قمة أجندة ديز فتزجيرالد هو "كوبا بلا كاسترو". وقد جاء رأي هؤلاء الدارسين أن الاحتمال الأقوى هو أن قادة كوبا بعد فيدل سيلتفون حول راؤل كاسترو، الوريث المعين. وكانوا محقين بذلك، طبعًا. فهذا ما حدث بعد ثلاثة وأربعين عامًا من تلك الدراسة[40].

في منتصف نيسان/أبريل أعدوا تقريرًا بعنوان EYES-ONLY كان بالغ السرية وخصيصًا للمدير. فقد طُلب إلى أربعة خبراء كبار أن يعطوا رأيهم حول خطة ديز الجديدة بخصوص انقلاب عسكري. هم جميعًا من ذوي الاختصاص بالشأن السوفياتي، ولهذا كان جل تفكيرهم يدور حول كيف سيكون رد الكرملين على تلك الضغوط العدائية السرية والتي تتصاعد ضد كوبا. ذكروا في تقريرهم أن القادة السوفيات يدركون بأن "الولايات المتحدة غير متصالحة" مع نظام كاسترو، و"مع تصاعد الأحداث" قد يتزايد اعتقادها بأن هذه الإدارة "لا يمكن حضها" على تركه يعيش[41].

فكان رأيهم أن خطوة خروتشيف الأولى ستكون على الأرجح الاتصال مباشرة مع كينيدي – وربما من خلال "الخط الساخن" الذي أنشئ بينهما إثر أزمة الصواريخ – ليهدد برد شديد وقاسٍ دفاعًا عن كوبا. وكما قال رئيس الوزراء السوفياتي ذات مرة، يحاول الإمبرياليون خنق الطفل الماركسي في مهده. وقد ضمّن المحللون تقريرهم بأن السوفيات "في تعبير مسرحي عن غضبهم" قد يسقطون طائرة U-2 الاستطلاعية فوق كوبا بالرغم من وجود احتمال كبير جدًا برد عسكري أمريكي انتقامي. كانت تلك العبارات صدى يحمل مآسي ذكريات تذكّر بأن ضعف المواجهة مع كاسترو بقيت حتى بعد انقضاء ستة شهور على ذلك النزاع النووي الحاصل في تشرين الأول/أكتوبر عام 1962. لا بد أن ماكّون قد تحدث عن تلك التحذيرات المتجهمة مع البيت الأبيض ومع فريق الأمن القومي[42].

أُعد تقرير تنبؤي مرافق بعد بضعة أيام يعطي تقديرات لنحو عام فقط في مستقبل كوبا. وقد خلص إلى استنتاج مفاده أن "النظام في ذلك الحين سيكون أكثر ثباتًا وقوة من أي وقت مضى". ولكن لا بد أن استنتاجات أخرى قد دعمت تصميم فتزجيرالد للمضي قدمًا ببرنامجه. اعتقد المحللون أن "عددًا يقل كثيرًا عن نصف الشعب الكوبي" يؤيدون النظام. وما هو أشد قربًا مما يرغبه ديز أن المحللين توقعوا بأن مقاومة شعبية قد تستفز نشوء حالة للفئوية داخل القيادة. وربما يوجد "انشقاق في الجهاز الأمني وفرار لعناصر مسلحة"، مع أن هذا

الأمر بعيد الاحتمال. فهذه التنبؤات والأحكام وبما فيها من كفاءة - وربما إغراءات - من شأنها أن تسهم في الحصول على موافقات من المستويات العليا لخطة ديز الحربية[43].

بهذا افتتح مذكرته إلى هلمز وماكون في منتصف آذار/مارس. وفُتح أيضًا ملف جديد في هيئة الشؤون الخاصة SAS بعنوان "انشطار النظام". كتب ديز يقول: "ستأتي الفائدة الحقيقية عندما نتمكن من الوصول إلى ... شخصيات عسكرية هامة [تم إعدادهم] للتخلص من كاسترو وبطانته القريبة". والفكرة التي نضجت في تشرين الثاني/نوفمبر في منزل آمن بباريس بدأت تتجسد. ولكن لم يكن ثمة نية بإعادة نظام يشبه نظام دكتاتورية باتيستا السابق. النظام الجديد بعد كاسترو سيكون نظامًا تقدميًا اقتصاديًا واجتماعيًا، مناهضًا للكاستروية والشيوعية. وكتب أيضًا، لن يكون متوقعًا من الحكومة الجديدة "أن تعيد عقارب الساعة للوراء". فهو يعرف أن الرئيس كينيدي شديد التصميم على ذلك[44].

سيحتاج كوبيلا والمتآمرون معه ضمانات أمريكية عالية المستوى. إذا أخفقت محاولتهم الانقلابية أو إذا هددت القوات السوفياتية المتمركزة في الجزيرة أن تتدخل، فسوف ينالون اعترافًا أمريكيًا وربما دعمًا عسكريًا. سوف يتم احتضان قادة الانقلاب حتى لو كانوا سابقًا من الموالين لكاسترو وأيديهم ملوثة بالدماء. ومع تطور الخطط أضيفت بنود خاصة لإدخال "فريق خاص" سرًا ليكون حلقة وصل مع قادة الانقلاب. وسيبقى عناصر السي آي إيه والعملاء العسكريون داخل كوبا لتنسيق أي تدخل عسكري قد يلزم للقضاء على كاسترو نهائيًا[45].

وقد أبلغ ديز أيضًا كلًا من ماكون وهلمز بأن هيئة الشؤون الخاصة SAS تفكر حاليًا بأفكار بخصوص "استخدام كامل سلسلة عمليات الخدع والعمليات السوداء والفنية المتطورة" بهدف زيادة فرص نجاح الانقلاب. وبحسب وثائق السي آي إيه التي رفعت عنها السرية "تم تنفيذ عدد من العمليات اللاعنفية". استهدفت إحداها المؤسسة العسكرية الكوبية واعتمدت في الحد الأدنى على إعلان صادر عن راؤل كاسترو في مطلع نيسان/أبريل. في أمر غير عادي صدر وجرى تداوله على

نطاق واسع كان موجهًا إلى جميع العسكريين الكوبيين يحذرهم من عدم الانسياق وراء أوامر يتلقونها بخصوص سرقة أسلحة وذخيرة من مستودعات المؤسسة العسكرية "وبذريعة تبدو نبيلة في ظاهرها" لإرسالها إلى ثوار في أمريكا اللاتينية. كانت السي آي إيه تتعرض لضغط متزايد من وزير العدل لتقديم دليل ملموس عن تهريب أسلحة كوبية. وقد أنحى راؤل باللوم على السي آي إيه والبنتاغون لمحاولة خلق حادث جرمي قد يستخدم ذريعة لعمل عسكري عقابي[46].

خلال الشهور الستة الأولى لرئاسته لهيئة الشؤون الخاصة SAS حضر فتزجيرالد اجتماعات عدة للمجلس الاستشاري الأعلى للبيت الأبيض الذي أقر الأعمال السرية. وكان بوبي كينيدي يحضر هذه الاجتماعات مرارًا، وأحيانًا الرئيس – الذي يشار إليه تجملًا في محاضر الاجتماعات بـ "السلطة العليا" – يحضرها أيضًا. وسواء حضر أم لم يحضر، فقد كان دومًا مشاركًا في تفاصيل التخطيط السري بحق كوبا. قال سام هالبرن في مقابلة مع الهيئة مستنكرًا تدخلات الاخوين كينيدي: "لقد كان كينيدي شديد الدقة في التفاصيل". وفي معرض مغالاته في توضيح فكرته قال هالبرن متذمرًا بأن كلا الشقيقين كينيدي يتدخلان دومًا في التخطيط لعمليات التخريب المنطلقة من محطة JMWAVE حتى إنهما يريدان أن يعرفا "ما نوع شرائط ربط الأحذية التي يستخدمها الرجال؟ وما درجة ميلان الشاطئ؟ ... وما نوع الرمال الموجودة هناك؟" وفي واقع الحال كان الرئيس يوافق مسبقًا على كل عملية تخريب. وفي بعض الأحيان يراجع الخرائط والرسوم لما يجري التخطيط له ويتابع النتائج أولًا بأول. وفي اجتماعات قليلة كان يلح على هجمات أكثر وأكثر تخريبًا. وقد نجح كينيدي في أزمة الصواريخ من خلال إدارته لكل تحرك في السياسة الأمريكية وإشرافه على كل التفاصيل، لذلك سوف يتغلب على كاسترو بهذه الطريقة عينها[47].

لم يكن كينيدي غير راغب في الموافقة على مبادرات أخرى تتسم بالبسالة والإقدام حتى لو أدت إلى معاداة الكرملين. ففي التاسع من نيسان/أبريل، على سبيل المثال وقّع على خطة دعائية – هي واحدة من اثنتين متماثلتين – لتحريض الكوبيين في الجزيرة على مهاجمة الجنود السوفيات[48].

* * *

مع حلول منتصف حزيران/يونيو كان كينيدي قد اعتمد القسم الأكبر من خطة عمل هيئة الشؤون الخاصة SAS. وقد تضمنت هذه الخطة البنود الستة نفسها التي راجعها معه ديز في 12 تشرين الثاني/نوفمبر في غرفة مجلس الوزراء في البيت الأبيض. حجر الزاوية في هذه الخطة استخدام كوبيلا للتحريض على التمرد داخل المؤسسة العسكرية الكوبية.

ولكن لم يكن يوجد أي اتصال مع كوبيلا منذ اجتماعه مع "وذرباي" في أوروبا في العام المنصرم. وكل ما هو معروف عن تفكيره الراهن قد تعرض للفلترة من خلال تيبيدينو في معمله للمجوهرات وصالة عرضه في وسط منهاتن. كان تيبيدينو المعروف آنذاك باسمه السري AMWHIP متلهفًا لعودة اتصال كوبيلا مع الوكالة. وأدرك فتزجيرالد وهلمز بأنه حالما يتم ترتيب ذلك فإن ضابطًا أكثر خبرة وأعلى مرتبة من "وذرباي" سيتولى أمر التعامل معه.

كان نستور سانشيز Nestor Sanchez، الذي يتكلم الإسبانية جيدًا، فهي لغته الأم وخدم سابقًا في قسم شؤون كوريا والشرق الأوسط، يدرس كوبيلا جيدًا. وقلما أتيحت له الفرصة ليتحدث بلغته الأم قبل أن ينضم إلى هيئة الشؤون الخاصة SAS في شباط/فبراير 1963. ولم يكن مجرد فأل حسن أنه ابتعد عن أي ارتباط بحادثة خليج الخنازير. والحق يقال إن هلمز الذي تولّد لديه إعجاب بسانشيز قد نصحه بالإبحار بعيدًا عما كان يتوقع له أن يكون كارثة. كان يرى في سانشيز شابًا واعدًا له مستقبل جيد في الوكالة، وكان يرى فيه الرئيس المستقبلي لقسم عمليات أمريكا اللاتينية(49).

ساد الاعتقاد لدى كل من تيبيدينو وكوبيلا بأن سانشيز آت من بورتوريكو، وذلك إلى أن صُوّبت لهما معلوماتهما. حقيقة الأمر أن مسقط رأسه كان في بلدة ماغدالينا Magdalena بولاية نيومكسيكو، ونشأ وترعرع في مزرعة كبيرة منعزلة. والده واحد من عشرة أطفال، جميعهم من الذكور، هم أحفاد الإسبان والباسكيين الأوائل الذين استقروا في تلك المنطقة. تلقى سانشيز علومه

في جامعة جورجتاون والتحق بالسي آي إيه عام 1951 حين كان عمر هذه الوكالة أربعة أعوام. غير أن كوبيلا وتيبيدينو لم يجدا فيه ما يعجبهما، علمًا أنهما كانا يحدثانني بدفء عنه وعن "ونرباي" واثنين آخرين من الضباط. ربما يكون مرد ذلك أن سانشيز كان أكثر تطلبًا ويشدد الضغط على كوبيلا كثيرًا ليحسم أمره ويتحدث عن نواياه.

التقيا للمرة الأولى في الخامس من أيلول/سبتمبر عام 1963 في بورتو أليغري Porto Alegre، المدينة الأكثر أوروبية من كبريات المدن البرازيلية، وتقع على شاطئ بحيرة مترامية الأطراف في ولاية ريو غراند دوسول Rio Grande do Sul الجنوبية. كان كوبيلا في تلك المدينة المندوب الكوبي الرسمي في منافسة رياضية. وقد عرّف وذرباي كلًا منهما للآخر في منزل آمن وحاول أن يتيقن بأن عملية الاستلام والتسليم سارت سيرًا حسنًا. ثم وقف يراقب سانشيز وهو يتولى المسؤولية[50].

قال كوبيلا بأنه أتم مؤخرًا تدريبًا عسكريًا لتسعة شهور ثم ذهب لقضاء الإجازة مع فيدل في منزلين متجاورين على الشاطئ قرب فاراديرو Varadero. عرض عليه راؤل منصبًا تافهًا بموقع ضابط معلومات في الجيش في أحد الاقاليم فرفضه. وحتى تلك اللحظة لم تكن لديه فرصة ليعهد إليه بمنصب قيادي في الجيش. لكنه في الحد الأدنى توجد لديه إمكانية الاقتراب من الأخوين كاسترو وكبار الضباط العسكريين. وهو يرتدي الزي العسكري رسميًا. وقد زعم النظام في وقت لاحق بأنه سُرّح من الجيش في ذلك الوقت تقريبًا "بسبب عدم الانضباط". لكن ذلك كان معلومات كاذبة. فقد ظهرت صورة ضوئية له وهو بزيه العسكري ويبتسم ابتسامة عريضة مع ثلاثة من الضباط القادة المعروفين أثناء العرض العسكري الذي أقيم في الأول من أيار/مايو عام 1963 في هافانا[51].

كان سانشيز في أحسن الحالات حائرًا يشعر بشعور مزدوج حيال هذا الشخص الذي عُهد به إليه. أبرق من قاعدة الوكالة في بورتو أليغري إلى ديز قائلًا: "إن AMLASH مغرور، طفل مدلل وشكس، يسبب مشكلة في السيطرة". إنما وحيث العين ترى الإمكانات أكثر مما ترى النواقص فقد اختتم برقيته بالقول

بأن "مشاعره ضد النظام مخلصة وهو أساسًا أمين وصادق". كان اقتراحًا بعيدًا عن التأييد الحاسم بالمضي قدمًا على الرغم من تحفظات خطيرة. وبفعل ضغط شديد من ديز تراجع عن مخاوفه. فالمهمة أكثر أهمية من ذلك بأشواط والفرصة التي أتاحها كوبيلا غير مسبوقة، ولا يمكن التخلي عن هذه المهمة لمجرد شكوك ضعيفة ووهمية.

ومع ذلك، لا يوجد احتمال واحد بإمكانية تعليم كوبيلا التعليم الكافي للتواصل باستخدام الموجة القصيرة ذات الاتجاه الواحد OWVL أو الكتابة بالحبر السري التي رفضها سابقًا. فإذا كان داخل كوبا يستحيل التواصل السري دون وجود وسطاء. سوف يحتاج للعون، كما قال سانشيز، من عميل إسناد يمكن أن يعززه وينظم أموره، سيحتاج إلى شخص يكون "المؤتمن المتين في الداخل يدفعه إلى الأمام ويكون الخادم الراعي". كان ذلك اعترافًا مذهلًا بمدى ضعف اعتماد الأمريكيين على كوبيلا. لكن الحافز الذي دفعهم للإيمان به كان عالي المنسوب[52].

في برقيته ذكر سانشيز أن كوبيلا حدثه عن طريقتين لا ثالث لهما "لإنجاز التغيير" في كوبا، إما "بعمل من الداخل" أو غزو أمريكي. ومع ذلك قال سانشيز في شهادته عام 1975 بأنه لم يكن ثمة حديث عن الاغتيال. كان بمواجهة استجواب متواصل من لجنة مجلس الشيوخ ومع ذلك أصر على موقفه: أنه وجه أسئلة كثيرة إلى كوبيلا حول الأوضاع والمواقف داخل المؤسسة العسكرية، ومن هم الضباط المستعدون للمشاركة في المؤامرة. فقال "انصبّ اهتمامي على من يعرفه وما رأيهم بالنظام". ولم يقدم تفسيرًا للعبارة "عمل من الداخل"[53].

كان سانشيز في هذا الصدد، كما في تقاريره الأخرى عن كوبيلا، يلجأ لأسلوب "الكلام اللطيف" أو أنه كان ببساطة يسهو عن المادة الأكثر إثارة واهتياجًا. كان يفعل ما الذي يريده ديز فتزجيرالد: أي لا يترك أثرًا على ورق، ولا يترك قيدًا جرميًا بخصوص التخطيط لعملية اغتيال. عندما اجتمعتُ بسانشيز في محل إقامته بعد التقاعد قريبًا من منتجع كامب ديفيد الرئاسي في آب/ أغسطس عام 2008 قال لي إنه كان يتحدث في هذه القضية مع رئيسه المباشر

فقط، "وليس مع أي شخص آخر". وقال "لا أحد آخر كان يعلم بها. كان ديز يقول لي دومًا 'أنت وأنا فقط'، ولا تحدّث أحدًا بالأمر!" وقد أخبره فتزجيرالد أيضًا بالابتعاد عن أي تسجيل خطي صريح بخصوص التخطيط لاغتيال فيدل. لهذا السبب نجد أن التقارير عن اجتماعات سانشيز مع كوبيلا ضئيلة جدًا ولا تتضمن أي أذى أو ضرر.

وكان سانشيز يصر دومًا بأن الرجل الذي يتعاون معه على نحو وثيق هو رجل موثوق، لم يكن كوبيلا عميلًا مزدوجًا أو طُعمًا، وهذه العملية لم تتعرض لأي اختراق من قبل المخابرات الكوبية. وأخبرني سانشيز بأنه لم يشك يومًا بصحة ما قدمه كوبيلا من معلومات. وعندما ألححت عليه شعر بالاستياء.

قال بصوت عال يميل بجسده نحوي، وتوهج وجهه غضبًا: "أنا لم أشك يومًا بأن كوبيلا كان رجلًا سيئًا، وهو لم يكن كذلك".

ووافق على قوله هذا كل من وذرباي وهلمز وفتزجيرالد وهالبرن. ناقشت هذا الأمر مرارًا مع هالبرن وكان ثابتًا على موقفه. لم يكن ثمة أسباب حقيقية برأيه تدعو للاشتباه بأن كوبيلا كان تحت سيطرة المخابرات العامة الكوبية أو بأن العملية قد افتُضح أمرها. وقال لي: "لم يكن AMLASH يومًا عميلًا مزدوجًا مهما اتسع خيال أي شخص"[54].

وكالمعتاد، كان هلمز أكثرهم إدراكًا لدقائق الاختلافات. في مذكراته ألمح إلى شكوك بخصوص كوبيلا عندما تحدث عن المعضلة المأزق التي كانت جاثمة بكل ثقلها على صدره حين أشار: "أمام الغضب العارم الذي لا يلين من البيت الأبيض لم أفكر بالتخلي عن شخص كنا مقتنعين بأن لديه إمكانية الوصول إلى كاسترو وكان على ما يبدو عازمًا على اقتلاعه من منصبه"[55].

ولكن برغم شكوكه التي أقضت مضجعه فقد شعر هذا الأستاذ في الجاسوسية العارف والذكي بأن لا خيار أمامه إلا أن يظل صامتًا ووفيًا لطلبات الاخوين كينيدي. وقال أمام لجنة مجلس الشيوخ إن كوبيلا "مناسب كما القفاز لليد" لأغراض هذه الإدارة[56].

الفصل التاسع

عمل عظيم الشأن

تواصلت الاجتماعات بشكل متقطع بين نستور سانشيز ورولاندو كوبيلا في مدينة بورتو اليغري على مدى أربعة أيام في مطلع أيلول/سبتمبر. وباتا أكثر معرفة ببعضهما ولو على نحو مربك. لم يكن سانشيز متنكرًا بل استخدم اسمه المستعار نيكولاس سانسون Nickolas Sanson، وأراد لكوبيلا أن يدعوه باسم "نيك". ومع ذلك لم يستطع هذا الكوبي أن يشعر بالارتياح مع هذا الضابط الجديد، كما كان يشعر نحو وذرباي، أو حتى تطوير علاقة وئام وألفة حقيقية[1].

كانا يركزان على أولوية ديز فتزجيرالد المزعجة: ألا وهي التعرف إلى ضباط كوبيين كبار قد يقومون بانقلاب عسكري. قدّم كوبيلا أسماء نحو اثني عشر مرشحًا، ولكن كما هو حال معرض الأنذال لمتآمرين محتملين لم يكن واحد منهم أهلًا للمهمة. كانوا موالين للأخوين كاسترو، ولا يجمع بينهم قاسم مشترك، ولم يكن واحد منهم من أصدقاء كوبيلا المقربين الذين يسرّهم تنفيذ طلبه. هم جميعًا إلى حد ما كانوا من الضباط الأركان الذين يعملون في المكاتب. وكان منهم قائد شاب واحد له مركز قيادي في وحدته، وكان من أصدقاء كوبيلا وندمائه في جلسات الشراب والصخب وقد ينقلب ضد فيدل. لكن ليس الآن. وهو القومندان نفسه الذي ترأس بعد شهر واحد الحملة الكوبية إلى الجزائر[2].

رأى كوبيلا أن ثمة آخرين غير راضين عن الثورة لكنهم ليسوا على

استعداد للكلام أو حتى للقيام بعمل ضد الثورة. الجميع يخافون من فيدل، كما قال كوبيلا، كما أن لهذا الزعيم قوة خارقة للطبيعة. وهنالك مرشح آخر غير محتمل ويقيم في مزرعة منعزلة حيث يُشْغل نفسه بتربية مجموعة من الكلاب وتدريبها على القتال وقرر اعتزال السياسة. وهنالك شخص أكثر شهرة اسمه خوزيه رامون فرنانديز José Ramon Fernandes ووُصف خطأ بأنه مناوئ للشيوعية. ولكن بعد نصف قرن تقريبًا كان لا يزال في أحضان الأخوين كاسترو وفي منصب قيادي في الحزب الشيوعي، ونائب رئيس مجلس الوزراء.

والواقع أن كوبيلا في أدائه الأول أمام سانشيز بدا مخيبًا للآمال لجهة كونه قائدًا محتملًا للانقلاب وأيضًا لجهة كونه مصدرًا استخباريًا مفيدًا. غير أن تلك لم تكن الصفات المطلوبة أكثر من غيرها في لانغلي، ذلك أنه لم يكن ثمة شك بخصوص أوراق اعتماده قاتلًا محترفًا لا يعرف الرحمة. إنما أمام الضغوط للمضي قُدُمًا في خطة الإطاحة بكاسترو بدا كوبيلا المرشح المثالي، والمجند الأول في شبكة آخذة بالانتشار من عملاء كوبيين يحتفظون برتبهم العسكرية العالية، وكان بطلًا حقًا من أبطال الثورة. فإذا كان المأمول أكبر مما استطاع أداءه حتى الآن فالمسؤولية تقع على كاهل سانشيز ليقولبه ويحرضه[3].

عُقد آخر لقاء بينهما في البرازيل يوم الأحد، الثامن من أيلول/سبتمبر. ودون أن يدري أحد في السي آي إيه علم فيدل بكل شيء دار بينهما آنذاك. كان عملاء المخابرات العامة يخبرون المقر العام بأن كوبيلا دخل وخرج من قبضة السي آي إيه، يلتقيان في منزل آمن، ويتحدثان عن أي من الضباط العسكريين الذين يمكن إغراؤهم بالانشقاق. وعرف فيدل أن الأمريكيين كانوا يلاحقونه خلسة من جديد. كما كان على علم بالمؤامرات السابقة إذ كانت الاستخبارات المضادة تعلمه بآخر التهديدات. وقد كشف عن ذلك هو نفسه في نيسان/أبريل عام 1978 عندما استقبل في هافانا وفدًا من لجنة مجلس النواب كانت تحقق بعمليات الاغتيال.

"على مدى ثلاثة أعوام كنا نعلم بوجود مؤامرات علينا"[4].

لكنه لم يحدد على وجه الدقة ما الذي يقصده. إنما لا فرق عنده إذا كان الأمريكيون يخططون للاغتيال أم للانقلاب. هذا تمييز إنما لا أهمية له. مصيره سيكون واحدًا أيًا كانت الحال. أي شخص لديه فهم بتجربة كوبا يدرك أن اسم فيدل كاسترو مرادف للثورة. هما مرتبطان معًا برباط لا ينفصم، يعيشان معًا أو يموتان معًا. هكذا كان الحال منذ أن أطلقت الرصاصات الأولى على دكتاتورية باتيستا في تموز/يوليو عام 1953. ومنذ توليه مقاليد السلطة لم يجرؤ كوبي واحد أن يتحدى هيمنة فيدل ويفلت من العقاب.

وإذا كان قد نجا من الخيانة الأولى لمحاولة انقلاب رعتها أمريكا، وحتى المحاولة التي تسببت بوقوع العديد من الإصابات، فهو لن يستسلم. سوف يجمع حوله أكبر عدد ممكن من الأتباع، ويتراجع إلى الجبال عينها في إقليم أورينته Oriente حيث شن حرب العصابات ويقوم بهجوم مضاد فإما أن ينتصر ثانية أو يموت وهو يحارب. الشهادة عنده أفضل من عار الأسر أو النفي.

لكن فيدل لا ينوي أن يواجه أيًا من هذه المصائر. منذ طفولته المضطربة كان يقاتل أعداءه بلا هوادة ويتآمر عليهم ويستغلهم ويشوه سمعتهم بأي وسيلة ممكنة. وهو يمسك بزمام المبادرة، ينتهز كل فرصة تتاح له وبحذق ومهارة يقوم بحركة مفاجئة ويراوغ أو ينافق ويسلك سبيل الرياء. فهو يحسب كل حركة بمهارة المقامر الذكي الذي ينظر إلى الأفضليات وبعين المحتال يحسب الأخطار والمنافع. وهو لا يرحم ولا يلين ويجعل أعداءه الأجانب في عتمة لا يعرفون شيئًا. وعلى مدى ما يقرب من خمسة عقود في الحكم لم يهدد أحدًا منهم بعبارات محددة وملموسة. فالتهديدات والإنذارات تجعلهم في حالة تيقظ وتأهب، وتقلل من فرص قدراته على تقديم المفاجآت.

أما الأخبار التي وصلته من بورتو اليغري فقد أغضبته ونبهته. أدرك الآن وعلى نحو قاطع وأكيد أكثر من ذي قبل أن الأخوين كينيدي لن يهادناه. وكانت واشنطن دومًا تتجاهل المجسات التي يمدها لها في إشارة بأنه على استعداد لمحادثات ثنائية قد تخفض التوترات. وتحدث عن مشاعره الحقيقية التي يفكر بها حيال ما واجهه في هافانا مع عضو سابق في الكونغرس الأمريكي زاره في

أوائل تشرين الأول/أكتوبر وذلك بعيد اجتماعات سانشيز مع كوبيلا في بورتو أليغري. فقد قال: "نحن لا نثق بالرئيس كينيدي ... ونعرف المخططات التي تنفذها السي آي إيه"[5].

وقد قال شيئًا من هذا القبيل علانية مرة واحدة في السابق. ففي خطاب ألقاه في نيسان/أبريل 1963 بمناسبة ذكرى معركة خليج الخنازير قال أمام حشد كبير من المواطنين بلغ تعداده عشرات الألوف من الكوبيين في ساحة الثورة Revolutionary Plaza بهافانا: "دأبوا في الآونة الأخيرة على تأكيد ضرورة قتل قادة الثورة". كان توقيت هذا الخطاب متوافقًا مع بدء عمل السي آي إيه في رفع وتيرة ترسانتها من البرامج السرية وبعيد اجتماعات كوبيلا مع وذرباي في أوروبا. كان العملاء الكوبيون المزدوجون "واللاشرعيون" وعناصر الاختراق يبلغون فيدل بكل شيء. وربما كانت تأتيه أخبار من عميل متفوق "سوبر" في مكان ما في الصفوف العليا في إدارة الرئيس كينيدي. وحيث إنه علم بالأمور في حينها وبما أنه أكثر خوفًا على حياته من أي وقت مضى منذ عشية خليج الخنازير فقد قرر أن يفعل شيئًا غير مسبوق.

مساء يوم السبت السابع من أيلول/سبتمبر حضر حفل الاستقبال الذي أقامته سفارة البرازيل في هافانا بمناسبة عيد الاستقلال. لم تكن هذه المناسبة من الفعاليات التي يحرص على حضورها، ولم تكن العلاقات مع البرازيل وثيقة إلى هذا الحد، ولكن ثمة أشياء أراد لها أن تظهر في السجلات العامة. أومأ إلى دانييل هاركر Daniel Harker، المراسل الصحفي الأثير لديه في الخدمات البرقية، ومال بجسده إلى الأمام قليلًا وتحدث بطريقة سريعة دون أن يقاطعه أحد في حديث طويل ملتهب العاطفة. مراسل صحفي مجهول الاسم يعمل لدى وكالة الصحافة الدولية المتحدة UPI شارك في هذا اللقاء أيضًا ووصف فيدل وهو "ينفث دخان سيجاره وهو جالس في كرسي مريح"[6].

غير أن ما سجّله هاركر هذا الصحفي الكولومبي المولد والذي يتقن الإسبانية ويراسل وكالة أسوشيتد برس حظي بأوسع انتشار. وصل إلى نيويورك في اليوم التالي ونشر في نسخ مختلفة من كبريات الصحف اليومية الأمريكية

صباح يوم الاثنين في التاسع من أيلول/سبتمبر. وكانت العناوين جميعًا متماثلة "كاسترو يحذر الولايات المتحدة"[7].

وجاء على الصفحة الأولى من صحيفة *Miami Herald*: "سوف نرد العنوان، فيدل يحذر الولايات المتحدة". أما "لوس أنجلس تايمز" فقد اختارت العنوان: "كاسترو يحذر الولايات المتحدة من التدخل في كوبا". وكان عنوان "شيكاغو تريبيون": "كاسترو يحذر الولايات المتحدة من مساعدة أعدائه". أما في مدينة نيو أورليانز حيث يُعَدّ لي هارفي أوزوالد قارئًا منتظمًا للصحف فقد نشرت صحيفة *Times Picayune* الخبر على الصفحة السابعة. وكان العنوان: "كاسترو ينتقد بقوة غارات تشن على كوبا ويقول إن قادة الولايات المتحدة متورطون بمساعدة المتمردين".

وقد نقلت معظم الصحف أخبار تهديدات فيدل مشبهة إياها بقعقعة السيوف: "نحن مستعدون لمحاربتهم وللرد عليهم بالمثل. وعلى قادة الولايات المتحدة أن يعرفوا بأنهم إذا كانوا يساعدون في مخططات إرهابية للقضاء على زعماء كوبيين فهم أنفسهم ليسوا آمنين ... قادة الولايات المتحدة سوف يتعرضون للخطر إن عملوا على مساعدة أي محاولة للتخلص من زعماء كوبا".

كانت كلمات فيدل لاهبة وغير مسبوقة. كان هذا الزعيم الكوبي يرسل إشارات بأنه يعرف ما الذي يناقشه سانشيز وكوبيلا، وربما كانا يجتمعان في البرازيل عندما حضر كاسترو إلى السفارة البرازيلية في كوبا. ولعل اختياره بأن يوجه هجومه هذا من هناك لم يكن محض مصادفة.

ربما ظن فيدل أن كينيدي والسي آي إيه قد يرتدعان عن المضي قدمًا بمؤامراتهما بحقه حين يجري التحذير بهذه الكلمات. ولعله حسب أيضًا أنه يجدر به أن يظهر للجميع بأنه يضع يده على كل فرصة قد تتاح له لكسب إغاثة من هجوم خفي آخذ بالاشتداد. وربما يخشى أعداؤه بأن يكون لديه الدافع والقدرة على اجتراح مؤامرات انتقامية ضد قادة أمريكيين.

نقل هاركر عن كاسترو قوله: "تؤمن السي آي إيه وغيرها من الحالمين

فيما يتمنونه من حصول تمرد مسلح ... لكن يمكنهم الاستمرار في أحلامهم إلى الأبد". وكان أشد قسوة في وصفه لكينيدي من أي وقت مضى. فالرئيس، كما قال، "خائن" ويتبع "سياسات كثيرة التغيير" حيال كوبا. وهو قميء، معتل العقل ... وهو باتيستا عصره". وكان كينيدي وكذلك باري غولدووتر، السناتور الجمهوري، الطامح الرئيسي لأن يكون مرشح حزبه في الانتخابات الرئاسية في العام التالي، موضع سخريته وتهكمه، إذ وصفهما بأنهما من "السياسيين غير الشرفاء والمبتذلين".

لقد كان راي روكا على حق حين استنتج فيما بعد بأن هذه المقابلة "شكلت محاولة أكثر من عادية" يقوم بها كاسترو "لإيصال رسالة مسجلة إلى الولايات المتحدة". فقد دأب فيدل في السابق على إدانة كينيدي وشجبه والسخرية منه مرات كثيرة، لكنه لم يكن قط بمثل هذه السُّميّة والحقد والعداء. كانت المرة الأولى، حسب علمي، والوحيدة – التي يهدد بها بصراحة القول قادة أمريكيين. ولأنه ردد هذه التهديدات وأكدها بأساليب شتى فلا يمكن أن تكون زلاتَ لسان[8].

لكن اللافت في هذا كله أن كلماته القاسية والفظة لم يكن لها صدى في دوائر السياسة الأمريكية. صحيفة الواشنطن بوست اليومية الأوسع انتشارًا في العاصمة لم تشر إليها. وصحيفة نيويورك تايمز، الصحيفة التي يقرؤها معظم المسؤولين الحكوميين بواشنطن نشرت تقريرًا موجزًا عنه نقلًا عن وكالة UPI في الصفحة التاسعة. إنما لم تنشر شيئًا عن التهديدات. وكذلك الأمر في صحيفة واشنطن إيفننغ ستار الأقل انتشارًا التي نشرت جزءًا كبيرا مّن تقرير هاركر إنما وأدت تهديدات فيدل في الثلث الأخير من معالجتها هذه على الصفحة الأخيرة. أما قراء فيدل المقصودين فلم يكن لديهم وصول سهل لسهامه من قوسهم.

أربعة رجال فقط في السي آي إيه – هلمز وفتزجيرالد وهالبرن وسانشيز – كانوا على معرفة كاملة بمؤامرة كوبيلا. ولم يكن أمامهم سوى وصل النقاط. فقد قال سانشيز بأنه لم يعلم بمقالة هاركر إلا في وقت متأخر كثيرًا. ويبدو أنها لم تصل إلى انتباه هلمز أيضًا. لكن سام هالبرن، بالمقابل، قال إنه علم بما

قال فيدل في حينه: "سمعنا تلك التهديدات ضد الرئيس". لذلك فمن المفترض أن يكون ديز فتزجيرالد أُبلغ بها أيضًا. ومع ذلك، فقد قال هالبرن بأنه لم يخطر ببال أحد في الوكالة بأنه يمكن أن يكون ثمة صلة بين انفعالات فيدل في السابع من أيلول/سبتمبر واغتيال كينيدي بمدينة دالاس بعد أحد عشر أسبوعًا. لا أحد داخل السي آي إيه بحث وتقصّى هذا الاحتمال. ومع ذلك، كما ذكر هالبرن: "لعلنا نحن لم نعط كاسترو الكثير من هذا الفضل"[9].

واللافت أيضًا أن أحدًا خارج هيئة الشؤون الخاصة SAS لم يدرك ضخامة ما قاله فيدل. لا بد أن معظم قراء الصحف رأوا من المقابلة التي أجراها هاركر مجرد مغالاة مفرطة، عملًا معتادًا من كاسترو. وبما أن المحللين في السي آي إيه لا يعرفون شيئًا عن مؤامرة الاغتيال فلم يجدوا ما يدعوهم ليولوا أهمية لهذه القصة. وكذلك الأمر لدى اختصاصيي الدعاية الذين يتابعون الخطاب الكوبي من دائرة أخرى في الوكالة. ولم يرد ذكر لهاركر في تقرير المفتش العام الشامل. ويبدو أن الجهاز السري لم يبلّغ بأي تهديدات ضد الرئيس. ولا أعتقد بأن لجنة وارن قد أُبلغت بها عندما بدأت تحقيقاتها بعد بضعة شهور من حادثة الاغتيال[10].

المرة الوحيدة التي سئل فيدل عن هذه المقابلة كتابة كانت عام 1978 أثناء لقائه مع وفد من لجنة التحقيق التابعة لمجلس النواب. كانت مقابلة هاركر واحدة من أولى القضايا التي أثيرت في هذا اللقاء. وكان فيدل ماهرًا متقنًا فن الدفاع عن النفس:

"أنكر أن نيتي ... كانت تحذير الحكومة بأننا نعرف بأن تلك المؤامرات على حياتنا ... قد تصبح ذات أثر ارتدادي على القائمين بتلك الأفعال، لكنني لم أقصد التهديد"[11].

وسواء كان تهديدًا أم تحذيرًا أم التماسًا – وفي الواقع كانت كل ذلك معًا – فقد أراد فيدل خلاصًا من العدوان الأمريكي المتزايد في عدوانيته. وهو لم يشعر بكثير من القلق إزاء انقلاب عسكري منظم. فهو وراؤل انتقوا شخصيًا

جميع قادة الفرق في الجيش وكبار موظفي وزارة الدفاع. وهم جميعًا من الموالين المخلصين. وكاسترو يعرف كوبيلا جيدًا وهو على يقين بأنه لا يستطيع تنظيم أو قيادة تمرد عسكري. وموقعه بمنصب قومندان ليس إلا منصبًا شرفيًا. هو في الهامش من القيادة، غريب وغامض.

لكن الاغتيال شيء آخر. ليس للانقلاب فرصة في النجاح إلا إذا قُتل الأخوان كاسترو في أول ضربة صاعقة. وكان فيدل كثير القلق حيال هكذا سيناريو دائمًا. حتى في عام 1963، وحيث إنه رئيس الدولة الأفضل حماية في العالم، لم يكن قط واثقًا بأنه سيتلقى تحذيرًا في الوقت المناسب حين يأتي القاتل المقبل. وكان يعرف أن بعضًا من مؤامرات السي آي إيه ضده كان بارع التصميم والإبداع وإن أُفشلت. وكان أخشى ما يخشاه هو خديعة لا يتوقعها أحد، صاعقة تأتيه على نحو غير متوقع قد يجربونها في لحظة تالية. فما عدد الآخرين الذين انطلقوا وغايتهم قتله؟ قليلون كما تبين لاحقًا.

كان منهم ماريو سالاباريا Mario Salabarria، وهو من عناصر في المنفى معروف داخل الوكالة باسمه السري AMTURVY-13. عدو شرس لفيدل منذ حروب العصابات في الجامعة في أواخر الاربعينيات، وعمل بمهمة محددة بديلًا لرئيس الشرطة السرية قبل فراره إلى ميامي. وفي صيف عام 1963 سعى للحصول على أسلحة ودعم من محطة JMWAVE لاغتيال عدوه القديم. وقد جاء في ملف للوكالة رفعت عنه السرية أنه في تشرين الأول/أكتوبر أعطي "بضعة مسدسات ومواد للتخريب". غير أن وثيقة أخرى تضيف بأن "قضية سالاباريا تتضمن اعتبارات معينة للاستخبارات المضادة". أما المحللون داخل السي آي إيه فيقولون لقد بدا على الأرجح أن المخابرات العامة الكوبية تتابع عن كثب مؤامرة AMTURVY وغيره منذ البداية. وبدا كما لو أن نصف عدد المنفيين في كوبا يخططون للقضاء على كاسترو[12].

في خريف عام 1963 كان فيدل على يقين بأنه يواجه خطرًا أكيدًا وآخذًا بالانتشار يهدد وجوده. وقد أشار إلى ذلك منشق سوفياتي في مذكراته. كان مسؤولون كبار في الكرملين ممن يتعامل معهم يعتقدون بأن كاسترو "خائف

جدًا" من كينيدي. ربما يقول قائل إن هذا أمر مبالغ فيه، وإن كان بنسبة ضئيلة. وفي نيسان/أبريل عام 2009، أي بعد عام واحد من ابتعاده عن رئاسة كوبا، كتب فيدل افتتاحية في الصحيفة قال فيها بأن من بين الرؤساء الأمريكيين العشرة الذين واجههم كان كينيدي مصدر خوفه الأكبر. تعكس هذه العبارة على وجه الدقة الهواجس التي كان يحس بها في عام 1963[13].

لقد كان كينيدي بحقٍّ العدو الأكثر مهابة. فقد قال جاك بيل Jack Bell الصحفي الذي تربطه صداقة مع الرئيس في مقابلة روى فيها تاريخًا شفهيًا بأن لدى كينيدي "شعورًا بأنه يستطيع الفوز على أي شخص على هذه الأرض". وهذا الشعور عينه هو الشغل الشاغل عند فيدل. فهو يدرك أنه بسبب الإهانة التي لحقت بكينيدي في خليج الخنازير وأزمة الصواريخ سيبقى على الدوام عدو الرئيس الذي لا يمكن الصفح عنه. وكان على قناعة أيضًا بأن الأخوين كينيدي قادران على فعل كل شيء للإطاحة به من السلطة[14].

* * *

كان ديز فتزجيرالد في عجلة من أمره كعادته. ويقع البنتاغون على بُعْد خمسة عشر ميلًا من موقع لانغلي بمحاذاة نهر البوتوماك قريبًا من حدائق جورج واشنطن. وكان سائقه الذي يلتزم الجانب الأيسر من الطريق يعرف أنه يتجاوز حدود السرعة المسموح بها. وكان ديز يحب قيادة السيارة على هذه الطريق عندما يذهب صباحًا إلى عمله بعد إجازة نهاية الأسبوع في منزله الريفي. يتذكر هالبرن كيف أنه دومًا يضغط بقدمه على "أرضية السيارة" حين كان يذهب معه بتلك السرعة بسيارته الفولكسفاكن الخُنْفساء، ويقول: "حين يصل إلى هذه الطرق السريعة، فهو خطير جدًا". (لدى ديز سيارة جاغوار أيضًا، لكنها تدخل الورشة مرارًا)[15].

بدأ الاجتماع مع رؤساء هيئة الأركان المشتركة عند الساعة الثانية من يوم الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر. وكان فتزجيرالد قد عقد لقاءً تشاوريًا قبل شهرين مع أميرالات وجنرالات أربعة نجوم هم الأعلى مرتبة في الدولة لهذا

الغرض نفسه: مراجعة برنامج العمل السري، لا سيما خطة انتفاضة عسكرية. ففي ذلك الاجتماع الأول أراد أن يكون الضباط على علم بأنه حالما تنطلق شرارة الانقلاب قد يلزم تدخل عسكري أمريكي لتعزيزه. وينبغي على البنتاغون أن يبدأ العمل على خطط طوارئ بالتعاون مع هيئة الشؤون الخاصة SAS. وعاد ديز ليقدم إحاطة لهؤلاء الرؤساء مجددًا حيث إن احتمالات الإطاحة بكاسترو بدأت تتضح[16].

كان فتزجيرالد رجلًا يتقن فن المسرح ومقنعًا قوي الإقناع في دور الجاسوس "المتفوق" المبتهج، وصوته الجهوري المدوي المشوب بأرستقراطية تتردد أصداؤه في قاعة المؤتمرات. قلما يجتمع ضباط البنتاغون الأعلى مرتبة مع تنفيذي في السي آي إيه وربما لم يجتمعوا سابقًا. فهذا ليس من مسؤوليتهم العادية. لكنه اجتمع بهم مرتين، بصفته ممثلًا للرئيس مكلفًا بقضية حرب كوبا التي يعرفون جميعًا أنها في صدر أولويات البيت الأبيض.

قال ديز إنه الآن يملك تفويضًا أقوى من السابق للمضي قدمًا بالسلسلة الكاملة للعمليات السرية. واحتمالات النجاح تُظهر تحسنًا مستمرًا. وأبلغهم – بأمل أكثر منه عن اقتناع – بأن قبضة فيدل على السلطة أخذت بالتراجع منذ اجتماعهم الأخير. وبدأت هجمات التخريب المنطلقة من محطة JMWAVE وغيرها من الهجمات التي يشنها بشكل مستقل منشقون في الجزيرة تعطي نتائج جيدة وتلحق إصابات. وأتى أيضًا على ذكر غارات تشنها طائرات خفيفة على أهداف كوبية، وهذا ما أنكر حدوثه تيد شاكلي. وكان ديز متأكدًا بأن الاضطرابات آخذة بالتزايد. وسيسقط فيدل في المستقبل القريب[17].

كل هذه الأشياء لا صلة لها من قريب أو بعيد بما كتبه المحللون، ولا يتطابق قط مع النقاط التي تكلم عنها فتزجيرالد في مجلس الأمن القومي بعد ستة أيام في البيت الأبيض. وبما أن وزير العدل كان حاضرًا في ذلك اليوم فقد كان ديز أكثر حذرًا متوخيًا ألا يرفع عاليًا مستوى التوقعات بموت كاسترو الوشيك. كان متفائلًا وربما متباهيًا قليلًا، مع رؤساء الأركان المشتركين. لعله أراد أن يبدو مستبدًا مسيطرًا على أعلى ضباط الأمة مقامًا ومرتبة في هذه

الغرفة. وقد كتب المؤلف إيفان توماس Evan Thomas واصفًا فتزجيرالد بقوله إنه حتى في اجتماعات البيت الأبيض حول السياسات كان في كثير من الأحيان "غير متحفظ ومزهوًا بنفسه وواثقًا". وكان يعامل كبار مستشاري الأمن القومي لدى الرئيس كما لو أنهم مساوون له "ويهمل الآخرين"(18).

كان ديز مرحًا نشيطًا وفي بعض الأمور عالمًا بالغيب أمام رؤساء الأركان. فقال محذرًا بأن كاسترو "ربما يتخذ إجراءات يائسة" عندما يتدهور وضعه. كان يقصد بقوله تحديدًا أن العنف والتخريب في أمريكا اللاتينية قد يشتد ويتزايد. ولم يخفِ قلقه بأن القوات الجوية والبحرية الكوبية قد اكتسبت الكثير من القوة بمساعدة السوفيات حتى إن سفن السي آي إيه التي كانت تنقل رجال الكوماندوس والمخربين من فلوريدا باتت عرضة لخطر متزايد. فقد زود الاتحاد السوفياتي كوبا بست سفن مطاردة للغواصات واثني عشر زورق توربيد. والمئات من جنود البحرية تلقوا تدريباتهم للعمل عليها في الاتحاد السوفياتي. لذلك فقد تحتاج محطة JMWAVE لدعم عسكري طارئ إذا حاول الكوبيون اعتراض السفينة *Rex* والسفينة *Leda* وغيرهما من السفن الكبيرة في أسطول شاكلي(19).

وربما أضاف ديز إلى قوله بأن فيدل قد يقمع بشدة وقسوة المعارضة الداخلية إذا خشي بأن موقعه أخذ يضعف. لا أحد في واشنطن يعلم شيئًا عن الرسالة الهرمجدونية المؤرخة في تشرين الاول/اكتوبر عام 1962، ولكن هنالك الكثير من الأمثلة الأخرى المعروفة عن وحشية كاسترو وضراوته في القمع. إذا كان ديز يعلم حقًا بمقابلة هاركر فإنه مضى دون رادع بكل ما لديه من طاقة في الحديث عن مؤامرة AMLASH وآخرين غيره، ولو بنظرة يقظة حذرة إلى فيدل المنتقم الذي لا يمكن لأحد أن يتوقع ما سيفعل.

في البنتاغون أبلغ الحاضرين بأنه "يحقق نجاحًا كبيرًا في التقارب مع أشخاص عسكريين قد ينشقون عن كاسترو". فهنالك ما لا يقل عن عشرة من القادة العسكريين رفيعي المستوى "يتحدثون مع السي آي إيه" كما ادعى. غير أن السجلات التي رُفعت عنها السرية تشير إلى أنه بالغ في العدد بمقدار النصف، وليس واضحًا ما إذا كان يقصد أن العدد يتضمن بعضًا من الضباط

الاثني عشر الذين تحدث كوبيلا عنهم مع سانشيز في بورتو أليغري، وإن كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أن ديز تجاهل كون ذلك التقرير عديم الفائدة. لكنه اعترف بأن الأعضاء المحتملين لهذا الانقلاب لم يتحدثوا بعد مع بعضهم. أما كوبيلا، الذي شكل الحلقة السحرية المفقودة التي تجعل ذلك يحدث فلا يمكن الكشف عنه. لا أحد في وزارة الدفاع يعرف بأنه يتحدث مع الوكالة.

ومع ذلك ثمة شيء آخر كشف ديز النقاب عنه في ذلك اليوم ولا يمكن لأحد أن يخطئ فهمه. فقد أخبرهم أنه درس "بالتفصيل" محاولة فالكيري Valkyrie لعام 1944 التي قام بها ضباط عسكريون ألمان منشقون لاغتيال هتلر. فقد قال بأنه كان يبحث عن سابقة بأمل أن "يتوصل إلى مقاربة". لكن المؤامرة فشلت عندما انفجرت قنبلة وضعها أحد المتآمرين قريبًا من الفوهرر فأصيب إصابة خفيفة جدًا على إثرها. أراد ديز أن يتعلم من الأخطاء الواقعة لكي يتأكد من نجاح عملية مماثلة ضد كاسترو. لكن السجل الوحيد لهذه المناقشة والذي أمكنني العثور عليه هو محاضر اجتماعات البنتاغون التي سجلها ضابط هناك. وأي شيء آخر قد تكون هيئة الشؤون الخاصة قد جمعته في شأن خطط مماثلة لمؤامرة هتلر فقد اختفى أو ربما بقي محفوظًا في خزائن السي آي إيه[20].

ولكن مهما كثرت محاولات ضباط الوكالة للإقلال من أهمية جانب الاغتيال من المؤامرة فقد أكد ديز أن هذا الجانب هو الزناد الذي يطلق رصاصة البدء بالانقلاب. وفي شهادتيهما أمام الكونغرس أصر كل من هلمز وسانشيز بأنهما بالتعاون مع كوبيلا إنما يعملان من أجل انقلاب وليس مؤامرة اغتيال. وأكدا بأن الأولى قد تنتج الثانية بسهولة، إنما تغيير النظام هو الهدف وليس قتل كاسترو. واعترف سانشيز بعد الضغط والإلحاح بأن الانقلاب سيكون بدون شك مليئًا بالفوضى: أي، سيكون فيه إطلاق نار وسفك دماء، ويموت أشخاص. إنما الجريمة، كما أصر، ليست الهدف. ووافق هلمز على ذلك في مذكراته[21].

غير أن هالبرن الذي يعرف قضية AMLASH حق المعرفة مثل غيره لم يحاول البتة أن يخفي غرضها الحقيقي. فقد أقر في مناسبات عدة أن كوبيلا هو المقصود باغتيال فيدل. ففي مقابلة له عام 1988 قال هي عملية الاغتيال

الوحيدة التي كنت "مشاركًا فيها مباشرة". وفي لحظات اعتراف أخرى - في شهادات أدلى بها في الكونغرس وفي شهادات خطية تحت اليمين - جرّد القصة من كل ما لحق بها من مزاعم وادعاءات. في عام 1975 سأله أحد أعضاء مجلس الشيوخ عما إذا كان لدى السي آي إيه "بطاقة بيضاء لإزاحة السيد كاسترو بأية وسيلة، إما الإطاحة به أو قتله؟" أجاب سام بعد أداء القسم: "أجل، سيدي"، أما واضعو تقرير المفتش العام عام 1967 في قضية الاغتيال والذين أجروا مقابلة مع هالبرن وفتزجيرالد وسانشيز وغيرهم فقد استنتجوا أيضًا بأن الاغتيال هو الهدف[22].

عُمِّمت مسوّدة خطة الانقلاب التي وضعها ديز والتي تضمنت تفاصيل دقيقة على دوائر السياسات في شهر تشرين الأول/أكتوبر. وحيث إنها صُنِّفت تحت عنوان "سري للغاية - حساس" فقد اطلع عليها مسؤولون لا يتجاوز عددهم العشرين. فالهدف هو ضمان أن يأتي بعد فيدل حكومة مقبولة ومناوئة للشيوعية، حتى لو لزم الأمرُ تدخلًا عسكريًا أمريكيًا ضخمًا. وقد وصف هذا الاحتمال بعبارة "إنقاذ الثورة". وكان المتوقع أن يقوم كوبيلا والمتآمرون معه بالإعلان عن حكومة مؤقتة حالما يتم قتل فيدل أو الإطاحة به و"بالهرم الأعلى في القيادة الكوبية". لكن العبارة التجميلية التي استُخدمت كانت "تعطيل". لا شيء في الخطة يسمح بالقبض على فيدل حيًا. وحالما يكتسب المتمردون زخمًا ويسيطرون على جزء من الأرض يصدر الاعتراف الدبلوماسي الأمريكي وكذلك الدعم والتأييد[23].

وقد كُلِّف مكتب "التقديرات" في السي آي إيه بمهمة دراسة احتمال قيام الكرملين بردة فعل. فمن الطبيعي أن يكون ثمة مخاوف من احتمال اندلاع مواجهة أخرى مع دولة عظمى في كوبا، وبخاصة إذا تورطت في الأمر قوات أمريكية. وجد ديز تشجيعًا في جواب المحللين الذين استنتجوا بأنه "لا يوجد شيء تقريبًا يستطيع السوفيات أن يفعلوه في كوبا نفسها ليؤثر في مسار الأحداث". قد تتعرض العلاقات مع الولايات المتحدة لضربة مؤثرة لأن كوبا الماركسية تعد مستقرًا سوفياتيًا هامًا على عتبة الباب الأمريكي، ولكن لا يوجد تبعات خطيرة حقًا.

وحتى لو تعثرت محاولة الانقلاب بمواجهة مقاومة شرسة من كاسترو والموالين له فإن من المرجح أن يبقى آلاف من العسكريين السوفيات في الجزيرة بعيدًا عن الصراع. وقد أضاف شيرمان كنت Sherman Kent رئيس مكتب التقديرات الاستخبارية قوله: "إن بقاء السوفيات دون تدخل قد يكون أقل إحراجًا لو تمت تصفية فيدل من البداية". وربما سمع أو اشتبه بسماع همس في صالة طعام تنفينية بأن خطة كهذه جارية على قدم وساق[24].

* * *

كان شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1963 شهر اللاعودة عند ديز. تسارعت خطوات أنشطة العمل لأجل انقلاب في ظل مجهود دولي أطلق عليه الرمز السري MHAPRON. الغاية منه تنسيق عمليات ذات أنواع عدة، وجميعها تركز على تفتيت المؤسسة العسكرية الكوبية. فكانت هيئة الشؤون الخاصة SAS في لانغلي ومحطة JMWAVE، وفرع كوبا الكبير في محطة مدينة مكسيكو المكونات التي تشكل القوائم الثلاث لحامل عمليات ممولة بسخاء[25].

وكانت محطة إذاعة سرية أحدثت مؤخرًا باسم "صوت الجيش الثائر" تبث لست أمسيات أسبوعيًا من جزيرة سوان Swan. وأما برامج هذه الإذاعة كما تشير وثيقة من وثائق السي آي إيه "فتهدف إلى حث وحدات الجيش على الاتحاد والانتفاضة بانقلاب عسكري". كان العسكريون من المستمعين يتلقون ضمانات بأنهم إن ثاروا فسوف يتلقون الدعم الأمريكي دون أي اعتبار لمدى وثوق علاقتهم بالنظام. كانوا يسمعون الحث والتشجيع بأنه آن الأوان لتعود الثورة إلى القيم الديمقراطية التي حارب قدامى الجيش الثائر من أجلها قبل أن يغدر بهم فيدل من خلال تبنيه المبادئ الشيوعية[26].

ارتفعت وتيرة عملية AMTRUNK كثيرًا في خريف ذلك العام. وتم تجنيد رامون غوين Ramon Guin زميل كوبيلا سابقًا في النضال ضد باتيستا وذلك داخل الجزيرة وعلى يد عميل اختراق تابع للوكالة. وأطلق عليه الاسم السري AMTRUNK - 10. وكان المؤمل من تجنيده أن يتعرف على عسكريين ساخطين

على النظام ويُجنِّدهم لكي ينضموا إليه وبالتالي يرتبطون مع كوبيلا ضمن ثورة جيدة التنسيق. ومع أن وثائق اعتماد غوين الثورية والعسكرية كانت رديئة ومهلهلة – فهو لم يسبق له أن تولى قيادة عسكرية أو منصبًا حكوميًا هامًا، وكانت له صلات ضئيلة جدًا مع دوائر الأخوين كاسترو – فقد أصبح الرئيس الصوري غير المتوقع لهذه العصبة الثانية.

أعجب كوبيلا بهذا الرجل غوين وأبدى استعداده لضمه إلى حلقة التآمر. لكنه أفضى إلى سانشيز ببعض مخاوفه حيال "الحالة العصبية" لصديقه ومشكلة المشروب عنده. هذا الشخص البالغ ثلاثة وثلاثين عامًا من العمر كان العنصر الأضعف من كوبيلا في التدبير والحض على الانقلاب. وبتاريخ التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر لم يحدث أي تقدم. قامت محطة JMWAVE بتزويد غوين براديو OWVL. وسئل عما إذا تم تجنيد متآمرين محتملين آخرين، فلم يجدوا منه جوابًا[27].

ولكن لا بد من القول إن كلًا من ميامي ولانغلي لم تكونا متحمستين لمشروع AMTRUNK منذ البداية. فقد قال شاكلي محذرًا المقر العام إن لهذا المشروع "احتمالًا عاليًا للإخفاق". لكن اعتراضه هذا رفض، فقد حظي المشروع بدعم حماسي من البيت الأبيض. كما أن الرئيس نفسه اقتنع بما قاله له صديق صحفي بارز بأن ما لديه من اتصالات لدى الكوبيين من كلا الجانبين لمضيق فلوريدا تسعفه في تحقيق شرخ في المؤسسة العسكرية الكوبية. وقد جاء في مراجعة نقدية للعملية أجرتها الوكالة عام 1977 أن "ثمة ضغطًا يمارس على السي آي إيه من 'سلطة عليا'". وكذلك أظهر تحليل متأخر لهذه العملية بعض التكهنات بأن هذا الصحفي كان يتعامل بازدواجية، فينقل كل شيء لكاسترو[28].

شعر شاكلي بالصدمة حين اكتشف أن عملية AMTRUNK كانت في حقيقة الأمر عملية خداع وطعم تديرها الاستخبارات الكوبية. ووافقه الرأي فتزجيرالد وهلمز دون تردد، علمًا أنهما لم يكن لديهما خيار سوى الاستمرار والمضي في طريق وصفته الرئاسة بأنه طريق مسدود. وأخيرًا ثبتت أقوال شاكلي: فقد خلص تقرير للوكالة عام 1977 إلى الاستنتاج بأن "هذه الفعالية

تبدو غير آمنة ومصيرها الفشل منذ البداية". كانت واحدة من عمليات كثيرة بارعة لعملاء مزدوجين تنفذها المخابرات العامة ضد الوكالة، وبتخطيط لا يدانيه شك من قبل فيدل شخصيًا[29].

لكن في ميامي كان شاكلي ينفذ دوره في إبقاء مرجل الانقلاب على نار هادئة. كوّن صداقة مع آل برت Al Burt محرر شؤون أمريكا اللاتينية في صحيفة "ميامي هيرالد"، وسهّل له الالتقاء مع منشق كوبي هام وجديد. كان رونالدو سانتانا Ronaldo Santana ضابطًا برتبة نقيب في المخابرات الكوبية، وهو الناجي من عملية الإنزال عام 1956 عندما شن فيدل حرب العصابات، وهو من قدامى المحاربين في التمرد الحاصل فيما بعد. ففي منتصف تشرين الأول/أكتوبر نشر بيرت سلسلة من المقابلات الخاصة بصحيفته. وقد نقل عن سانتانا الذي كان منعزلاً "داخل مخبأ في ميامي" قوله ما بدا وكأنه نص كتبه ديز فتزجيرالد: "هنالك رجال داخل كوبا ينتظرون فرصة" للتحرك ضد النظام. "هم من داخل جيش الثوار والحكومة. وعندما يجدون شيئًا صلبًا متينًا يلتفون حوله، سوف يقاتلون"[30].

في تلك الأثناء كان أسطول محطة JMWAVE يعمل على نحو أكثر هجومية في المياه الكوبية وحولها. وارتفعت حدة غارات الكوماندوس وعمليات التخريب والتسلل. ازدادت أعداد الإصابات في الجزيرة من المدنيين ومن الميليشيا. وكان الاقتصاد الكوبي في حالة متردية جدًا. وفي أثناء شهر تشرين الأول/أكتوبر تزايد شعور كاسترو بالغضب تزايدًا متسارعًا. وكذلك تزايدت مخاوفه بأن قاتلًا مجهولاً قد يدنو منه كثيرًا وينجح في تحقيق مقصده.

وهذا هو عين ما كان نستور سانشيز يأمل في تحقيقه عندما جلس مع كوبيلا مجددًا، إنما في باريس هذه المرة، بتاريخ الخامس من تشرين الأول/أكتوبر. اجتمعا في منزل جميل عائد لجون نيفيل "رد" ستنت John Neville "Red" Stent الضابط الكبير في السي آي إيه والمقيم في باريس. يقيم ستنت في ضاحية سان كلود الراقية القريبة من فرساي. وقد سبق لكوبيلا أن جاء إلى هنا ربما دعي أيضًا للصعود إلى العليّة ليشاهد مجموعة ستنت الرائعة لتماثيل

صغيرة للجنود صنعت من معدن الرصاص. وكان كوبيلا عمومًا يشعر بارتياح أكبر من بورتو أليغري، بل وفي حالة وصفها سانشيز متفائلًا بأنها حالة "اعتراف". لكن هذا الكوبي المتردد كعادته كان أيضًا ينفعل ويحتد ويحرن[31].

وما زال كوبيلا يرفض الاستعانة بمهارات الكتابة السرية التي تعلمها، وكان كما وصفه سانشيز في برقيته إلى فتزجيرالد "غير مهتم بمهام غير ذات أهمية". وقد خطط سانشيز لتزويده بدلًا من ذلك بتجهيزات اتصالات OWVL، لكنه استنتج بأن كوبيلا سيرفضها أيضًا. وهكذا بقيت دون حل مسألة هامة جدًا حول كيفية قيام هذا العميل النجم بالاتصال الآمن مع الوكالة حين يرجع إلى كوبا لتنظيم الانقلاب. ولعلها كانت السبب الرئيسي الذي جعل فتزجيرالد، في خطط الطوارئ، يدخل بنودًا بخصوص "فرق خاصة" تتسلل إلى كوبا وتتولى مهمة الاتصالات بين قادة الانقلاب والوكالة.

وصل كوبيلا إلى مفترق طرق. ظل لما يزيد عن عام يثرثر ويهذر بأنه يريد القيام بمهمة تاريخية تتمثل بقتل كاسترو. وهو الآن تحت ضغط بالالتزام بخطة محددة. وفي رده على ذلك، أخذ يرفع سقف الرهان مصرًا على ضمانات بأن يؤخذ على محمل الجد في واشنطن، ومن فم أعلى المسؤولين في الإدارة. أبرق سانشيز إلى ديز قائلًا إن كوبيلا "مكتئب كثيرًا"، يعتقد بأن قيمته وقدرته على تغيير مسار تاريخ كوبا لا تقدّر حق قدرها. وطمأنه سانشيز بأن "قضيته تلقى الاعتبار والدراسة من أعلى المستويات". وهو بالطبع يقصد بوبي كينيدي، واستطرادًا الرئيس، وربما قال لكوبيلا ذلك على وجه الدقة.

عندما التقيت بسانشيز في صيف عام 2008 لنتحدث في موضوع كوبيلا أخبرني بأنه اجتمع على انفراد في عام 1963 مع وزير العدل حيث جرى نقاش في موضوع عمليات كوبا. بعد انقضاء أعوام كثيرة منذ إحالته إلى التقاعد من السي آي إيه وبعد فترة وظيفية أثناء رئاسة ريغان بمنصب مسؤول مدني رفيع المستوى متخصص بشؤون أمريكا اللاتينية رفض سانشيز التحدث في مسائل كان يعدها سرية ولا تزال. ومع ذلك أقر بأنه التقى مع بوبي كينيدي في منزل كينيدي Hickory Hill القريب من مقر السي آي إيه العام. قال سانشيز بأنه ذهب

إلى هناك "في مناسبات قليلة". لكنه لم يخبرني كم مرة ولم يعط تفاصيل عما دار من حديث[32].

ولكن ليس من العسير إعادة إنشاء ما جرى. كوبيلا هو مسؤولية سانشيز الرئيسية والحصرية تقريبًا، وليس ثمة شك بأن وزير العدل كان يحاط علمًا في هذه الزيارات عن حسن سير العملية. ومن المرجح ألا تكون محادثاتهما محصورة بقضية كوبيلا، وربما طلب فتزجيرالد إلى سانشيز أن يناقش مسار العمل في مجالات أخرى من برنامج كوبا الواسع الطيف. وكان سانشيز، الوسيط الموثوق في بعض عمليات السي آي إيه الأكثر حساسية من كل ما سبق ونفذته الوكالة يقول أثناء اجتماعاتنا تطوعًا بأن "ديز فتزجيرالد وبوبي أرادا حقًا القضاء على نظام كاسترو".

ثمة برقية ختامية تلخص ما جرى أُرسلت إلى ديز في أعقاب اجتماع الخامس من تشرين الأول/أكتوبر بباريس، كان موضوعها قريبًا جدًا من كل شيء قاله سانشيز مسجلًا يقر فيه بأنه كان ضالعًا في مؤامرة اغتيال. كتب يقول بأنه حين كان وكوبيلا يغادران منزل "ستنت" أعرب كوبيلا مجددًا عن رغبته بالعودة إلى كوبا "للقيام بهذا العمل العظيم الشأن". وعلى الرغم من كل الشكوك ورايات الإنذار الحمراء بخصوص وثوقية كوبيلا فقد غدا أمل إدارة الرئيس كينيدي المشرق في قطع رأس نظام كاسترو. أما كل هذا الحذر وصوابية الرأي فقد أودت به رياح الكاريبي[33].

وفي باريس حيث لا يزال سانشيز التقى أيضًا مع تيبيدينو بتاريخ العاشر من تشرين الأول/أكتوبر وصباح الحادي عشر أيضًا. ونقل هذا الجوهري آخر ما يفكر به كوبيلا – مطالب جديدة – تكونت في الأيام التي أعقبت الاجتماع بمنزل ستنت. هذا التحول الجديد والمدخل الذي فُسِّر في برقية سانشيز إلى المقر العام بتاريخ الحادي عشر هو أن كوبيلا يطلب الاجتماع بمسؤول رفيع في الإدارة – وليس أي مسؤول. "هو يفضل GPFOCUS". وهذا هو الاسم السري في الوكالة لروبرت كينيدي. كان وزير العدل متورطًا حتى الأعماق في عمليات هيئة الشؤون الخاصة SAS، حتى إنه لا بد من وجود طريقة آمنة جدًا عند الإشارة إليه في الاتصالات.

ذكر سانشيز أن كوبيلا يريد ضمانات بوبي الشخصية بدعم أمريكي "لأي نشاط يقوم به" ضد كاسترو. والدليل مقنع وهو اسم تجميلي للاغتيال[34].

وجد إيفان توماس وهو يبحث في سيرة حياة روبرت كينيدي أن هذا الوزير تلقى اتصالاً هاتفيًا من فتزجيرالد في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر. كان ديز وبوبي يتحدثان مرارًا عن عمليات كوبا، لذلك يصعب على المرء أن يتصور أنهما لم يبحثا في طلب كوبيلا للاجتماع به في هذا الحديث الهاتفي. وقد سُئل هلمز أثناء إحدى جلسات الاستماع لشهادته في مجلس الشيوخ عما إذا كان ديز قد قدّم إحاطة إلى بوبي بخصوص طلب كوبيلا. وكان الجواب المحترس "لكنت ظننت أنه فعل". أما شهادة سانشيز فتدل على أنه "افترض بأن كينيدي قد أحيط علمًا بها[35].

كان "ترتيبًا قذرًا" هذا ما قاله هلمز أمام لجنة تشرش، مشيرًا إلى ضلوع وزير العدل في أنشطة السي آي إيه الخاصة بكوبا. وأضاف بأن الرئيس أراد لبوبي "أن يكون ضالعًا في هذه الأمور". وقد جرى تكليف ضابط واسع الخبرة للعمل لدى بوبي حصرًا، اسمه شارلي فورد Charlie Ford، واسمه السري روكي فيسكاليني Rocky Fiscalini، وقد أجرى اجتماعات خطرة بالنيابة عن وزير العدل مع رجال عصابات من المافيا الدولية يفترض أنهم ما زالو نقاط اتصال مفيدة في كوبا. فكان فورد يجلس إلى جانب سانشيز في مكتب صغير في مقر هيئة الشؤون الخاصة SAS، لكن أحدًا منهما لم يناقش الآخر في عمله[36].

غير أن بوبي كينيدي يحتفظ بعلاقات خارج الخط مع عدد من المناضلين الكوبيين في المنفى. ويزور ميامي ليشجعهم ويحرضهم ويضغط على العاملين في محطة JMWAVE. وفي هذا كتب هلمز يقول: "كان ذلك انتهاكًا سافرًا للأمن، ومثيرًا للمتاعب بنظام العمليات". ولكن لا يوجد مجال للالتفاف حول تدخلات بوبي. عمله الهاوي في التجسس كان يتخذ أحيانًا تحولات غريبة. عنصر الاختراق الذي تسلل إلى كوبا وجند رامون غوين للانضمام إلى عملية AMTRUNK قال إن بوبي فوّضه - ومن طرف واحد على ما يبدو - بأن

"يقدم مبالغ كبيرة من المال" لأي ضابط كوبي طيار يبدي استعدادًا للفرار مع طائرته "الميغ" النفاثة المقاتلة[37].

سألتُ كوبيلا عندما التقيته في ميامي عن سبب طلبه الاجتماع مع وزير العدل. فقال لأنه يعرف أن كينيدي "يستطيع أن يعطيني كل المواد التي أريدها وأحتاجها للإطاحة بكاسترو". ولم يكن دور بوبي غير المناسب له سرًا في ميامي أو في هافانا أو في لانغلي، إنما كان طلب كوبيلا طلبًا مستفزًا على غير المعتاد. واستشارة وزير العدل يعني الاجتماع مع "الأنا الثانية" للرئيس، المستشار والمؤتمن الأكثر ثقة على الأسرار. وهو أيضًا مساو للاجتماع مع الرئيس التنفيذي نفسه. وقد قال دين راسك Dean Rusk وزير الخارجية في مقابلة خاصة يروي فيها تاريخًا بأن بوبي في مجال السياسة الخارجية "كان يتبع بكل دقة تعليمات الرئيس ... وهو لا يتصرف بحرية". وقال آخرون ممن عملوا مع هذين الشقيقين الشيء نفسه. كان كوبيلا يقصد توريط الأخوين كينيدي في مؤامرة غايتها بطريقة أو أخرى أن ينجم عنها موت فيدل كاسترو[38].

كان سانشيز يضغط بقوة لأجل هذا الاجتماع. فقد أبرق من باريس إلى فتزجيرالد قائلًا إن الجواب الذي يحصل عليه كوبيلا "قد يكون نقطة حاسمة في علاقتنا". وأية أسباب تعطى لإحباط عقد هكذا اجتماع "لن يرضى بها AMLASH ... ويجب أن نكون على أهبة الاستعداد لمواجهة هذا الطلب". كان سانشيز ضابطًا صلبًا، سريع الانفعال، ويعرف أن ما يقترحه شيء غير عادي بكل المقاييس وخطر. والعملاء، حتى أفضلهم وأكثرهم ثقة وائتمانًا، قلما يتبعون الطريقة التي يقدم بها كوبيلا مطالبه.

وبقي هذا الكوبي مقدارًا مجهولًا في المعادلة كما اعترف هلمز نفسه في مذكراته. أقر سانشيز بكل تلك "التداعيات والأخطار والمشاكل" المترافقة مع تعريض الأخوين كينيدي لما يمكن أن يكون بسهولة عملية عميل مزدوج كوبي. ومع ذلك فقد أوصى بأن يولى طلب كوبيلا "أعلى اعتبار"[39].

وكان ضمنًا يحض على الموافقة، وذلك بأن يتشاور ديز مع كينيدي. كان سانشيز على قناعة أكيدة بأنهم كانوا عند خط فاصل وأنه بدون لقاء يجمع كوبيلا مع وزير العدل فإن كوبيلا سوف يغضب ويتخلى عن علاقته مع الوكالة. ظن سانشيز، أو لعله أراد الاعتقاد بأن المنافع المتوقعة من اللقاء تفوق أخطارًا لا بأس بها. وهو مثل هلمز وفتزجيرالد كان يشعر بثقل ضغوط بوب كينيدي لتحريك المؤامرة قُدُمًا[40].

* * *

بينما كان سانشيز يتشاور مع كوبيلا في باريس كان ملايين الكوبيين يعانون من تبعات أسوأ كارثة طبيعية تحدث في تاريخ هذه الجزيرة الحديث. إعصار فلورا Flora القوي ضرب الجزيرة أول مرة صباح يوم الجمعة الرابع من تشرين الأول/أكتوبر، ثم واصل تخريب المناطق الشرقية لأربعة أيام ونصف اليوم. وتواصلت رياح بقوة الإعصار وأمطار لم نشهد مثيلًا لها تهطل متواصلة دون توقف. وقد وصفت السي آي إيه في تقديراتها الاستخبارية المخصصة حصرًا للعاصفة بأنها "أسوأ عاصفة تضرب كوبا"[41].

وتحول إعصار فلورا إلى حلقات دائرية شيطانية ذات قوة عظيمة تدور بدوامات ثابتة لأربع عشرة ساعة فوق منطقة كبيرة واحدة مسطحة وتغمرها الفيضانات. وقد قال خبراء الأعاصير في ميامي بأنهم لم يسمعوا بشيء يشبه هذا الإعصار. وقال فيدل: "جاءت موجة مَدِّية شديدة الارتفاع ليس من البحر بل من الجبال". أكثر من ألف ومئة شخص لقوا مصرعهم في إقليم Oriente وحده، وعشرات الآلاف باتوا بلا مأوى وأراضٍ زراعية شاسعة غمرتها مياه الفيضانات. مدينة ماياري Mayarí القريبة من مسقط رأس فيدل مُسِحت بكاملها عن وجه البسيطة. وقد قيل إنه هو نفسه كاد يغرق وهو يحاول الخوض في نهر هائج قريب منها. ومع أن الإعلام الكوبي تحدث كثيرًا ممتدحًا فلاحًا من المنطقة أفلح في إنقاذه من الغرق، فإن فيدل لم ينكر ذلك قط بسبب حرصه على عدم المساس بصورته بأنه ليس ضعيفًا[42].

أشرف شخصيًا على أعمال الإغاثة، أقام مخيمات مؤقتة في الريف ونظم الموارد الضئيلة وبأسلوبه المتغطرس كان يواسي عائلات الضحايا. عرضت إدارة الرئيس كينيدي تقديم مساعدات إغاثية عبر الصليب الأحمر، ولكن بسبب توتر العلاقات رفضها كاسترو واصفًا هذه المساعدة بالنفاق الداعر.

قال بصوته المدوي عبر تلفزيون هافانا: "يشرفنا ألا نقبل بها". وأصدر بيانًا أعرب فيه عن شديد غضبه وقال: "إن أعداء وطننا لا يخفون بهجتهم ... آلام الفقراء سبب لبهجة أعداء الشعب الحاقدين"[43].

وازداد غضبه بسبب عدم وجود فترة سكون فيما اعتبره حكم الرعب الذي تقوده السي آي إيه، حتى في الوقت الذي كان فيه الملايين ممن تأثروا بإعصار فلورا يحزنون على موتاهم ويكافحون للحصول على الغذاء والمأوى. والحقد الأمريكي في رأيه لم يكن يومًا أكثر لا إنسانية وسخرية.

"هم كلبيون(*)، وقحون، وكاذبون بلا خجل ... ويحاولون الإفادة من جراء الإعصار".

وهو يقصد بكلامه هذا كينيدي والسي آي إيه وعملاء بعقود من الكوبيين المنفيين، وهو لا يبالغ. وفي الأسابيع التي شهدت توترًا عاليًا في أعمال تنظيف ما خلفه الإعصار كان ثمة هجمات منسقة يقصد بها رفع شدة التوتر في الجزيرة وتهيئة الأجواء لانقلاب عسكري.

وحدثت أول مواجهة دموية بعد يوم واحد فقط من تحوّل اتجاه إعصار فلورا إلى الشمال مبتعدًا عن الجزيرة. تسلل رجال السي آي إيه الكوماندوس من البحر وقتلوا اثنين من المدنيين عندما فشلت مهمة التخريب التي جاؤوا لأجلها. وفي خطاب إذاعي وجهه إلى الأمة زعم فيدل "أن خمسة من الأفراد السبعة الذين شاركوا ألقي القبض عليهم"[44].

وقال فيدل بصوت عال وغاضب: "كان ثمة نشاطات قامت بها السي آي

(*) الكلبي cynic: واحد من مجموعة فلاسفة اليونان الأقدمين يؤمن بأن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها ويعبر عن موقفه هذا بالسخرية والتهكم - المترجم.

إيه ومناهضون للثورة بعد الإعصار". وبتكشيرة ألم وازدراء ضرب بقبضة يده على الطاولة في ستوديو التلفزيون.

"كانوا يضمرون أوهامًا بأن هذا هو الوقت ... ومباشرة فكروا بالغزو ... هيا اهجموا"[45].

كان ذلك اعترافًا بأنه كان خائفًا، يدرك بأنه يبدو كبيرًا في أنظار الأمريكيين. كان المعجبون به يقولون مرارًا بأنه طوال عمله العام كان لا يعرف الخوف، لم ترفّ له عين ولم يرتعد في مواجهة الخطر. إنها أسطورة مجّدته دون وجه حق. ففي شهر تشرين الأول والثاني/أكتوبر ونوفمبر عاش في رعب مما كان يحضّر الأمريكيون لفعله.

ومع تقدم سير مؤامرة AMLASH وجّهت السي آي إيه ضربة أخرى في وقت متأخر من ليل 21 تشرين الأول/أكتوبر وتحديدًا بعد ساعات من غروب القمر. كانت المهمة التخريبية في مكان بعيد على الساحل الجنوبي الغربي من الجزيرة مثل كثير غيرها من المهام والغارات لكنها انتهت إلى مأساة. كانت القوات العسكرية الكوبية قد نصبت كمينًا وتنتظر القادمين المتطفلين. أُلقي القبض على أربعة من الضفادع البشرية من الكوبيين في المنفى عندما وصلوا إلى الشاطئ. وستة آخرون انطلقوا من السفينة الأم التابعة للسي آي إيه وركبوا قاربًا ثانيًا تعرضوا لإطلاق النار من طائرة كوبية وزوارق الدورية، ولكن تمكنوا من النجاة ووصلوا بالتالي إلى بنما[46].

ووسط هذه الفوضى أطلقت الطائرات النفاثة المقاتلة الكوبية النار على سفينة تجارية ترفع علم ليبريا تحمل على متنها معدن البوكسايت الخام من جامايكا، تصادف وجودها قريبًا من السفينة الأم التابعة للسي آي إيه والتي كانت متخفية تحت ستار أنها سفينة أبحاث مائية. وشكل هذا الحادث خبرًا ترددت إذاعته لأيام عدة. نفت إدارة الرئيس كينيدي علمها بأي شيء، ولكن تعين على هلمز أن يوضح ويفسر الخلل الحاصل لكبار المسؤولين في واشنطن. وتعين عليه أن يعترف بأن المخابرات الكوبية اخترقت ما أسماه "لجنة

الاستقبال" لمصادر الوكالة في الجزيرة. واحد أو أكثر كانوا عملاء مزدوجين. وقال نصب الكوبيون فخًا لرجال الكوماندوس القادمين. هذا وقد ذكر السجل الخاص بهذا الاجتماع والذي رفعت عنه السرية بأن العملية هي الرقم 3105 وهي في منزلة عالية في تسلسل غارات الكوماندوس في عهد الرئيس كينيدي[47].

كان الضرر الذي أصاب عمليات الوكالة جسيمًا. طارت الأغطية وفُقدت العناصر الماهرة وخُطفت المعدات ولم تعد الطرائق السرية المعمول بها في السي آي إيه سرية وخفية على أحد. سفينتان هما المعوّل عليهما – *Rex* و*Leda* – كُشف أمرهما في الصحافة، التي ذكرت بأنهما سُحبتا من الخدمة، لكن الأسوأ أن قدرة الوكالة على العمل السري في الجزيرة قد كشفت وافتضح أمرها. شعر فيدل بما يشجعه بفعل هذا التقدم الذي أحرزته قواته الخاصة بحق العدو[48].

كان يعالج موضوعي السي آي إيه وما خلفه الإعصار في آن معًا. وبدا في هذه الأسابيع الصعبة من شهر تشرين الأول/أكتوبر في كل مكان. وبينما كان ينسق كل خطوة من خطوات الحكومة لما بعد العاصفة كان يتولى شخصيًا قيادة المخابرات وقوى الأمن التي فاجأت المتسللين من عناصر السي آي إيه وعناصر البحرية وسلاح الجو المقبوض عليهم والذين حاولوا مصادرة أو إغراق سفينة السي آي إيه الأم. وكان الحاضر دومًا في إذاعة وتلفزيون كوبا. الخطاب والعمل المهتاج هما الدواء الشافي له عندما يكون متوترًا. وهو عمومًا يقوم برد انتقامي بذات النوع موجهًا ضرباته في كل اتجاه. في ذلك الوقت عينه أرسلت كوبا "فرقة أفريقيا" الأولى إلى الجزائر. وخطب راؤل أمام المتطوعين المغادرين بتاريخ التاسع من تشرين الأول/أكتوبر، قائلًا لهم إن "بلدًا شقيقًا يتعرض لعدوان من قوات إمبريالية رجعية"[49].

وفي هذه الأثناء فرض فيدل بنييرو بتسريع أعمال التخريب المسلحة ضد عدد من الدول. عملية فلورا، وهي إنزال قوات على ساحل جمهورية الدومينيكان بعد انقضاء أيام معدودة على الإعصار فلورا، أدخلت رجالًا مسلحين قادمين

مباشرة من معسكرات تدريب الكوماندوس الكوبية. وحركة تمرد لا زالت في مرحلة التكوين شنت عمليات وسط جبال الشمال الغربي من الأرجنتين بمشاركة كوبية. وإن نمت وكبرت فإن تشي غيفارا يعتزم السفر إلى بلده الأصلي لينضم إليها، لكن خطة بوليفيا وضعت في وقت لاحق. أما المنشق المستقبلي فلاديمير رودريغز لاهيرا – واسمه السري AMMUG – فقد اجتمع مرات عدة مع بنييرو في مقر المخابرات العامة لتنسيق شحن متفجرات إلى شيوعيين في السلفادور. وكان أحد كتب غيفارا التي تدافع عن التمرد المسلح ينشر على نحو بارز في الإعلام الرسمي. حيث يقول في كتابه هذا "يجب علينا ألا نخاف من العنف"، فهو "القابلة التي تولّد مجتمعات جديدة"[50].

لكن الهدف الواعد أكثر من غيره كان فنزويلا. جاء في أحد التحاليل التي أجرتها السي آي إيه أنها هي البلد الوحيد الذي تنتظر منه كوبا "نصرًا ثوريًا وشيكًا". تلقت جبهة حرب العصابات اعترافًا دبلوماسيًا افتراضيًا عندما فتحت مكتب ارتباط رسمي لها في هافانا. وكرس الإعلام الكوبي اهتمامًا غير عادي للمحاربين متهمًا كينيدي بالتخطيط للتدخل بالقوة العسكرية. وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر قامت سفينة كوبية معارة إلى المخابرات العامة بتسليم ثلاثة أطنان من الأسلحة والذخائر على شاطئ بعيد على ساحل فنزويلا. ودفنت في الرمال بنادق نصف آلية ومدافع هاون وبنادق دون ارتداد ومواد تدميرية. لكن صياد سمك من أهالي المنطقة اكتشف هذه الأسلحة في ولاية Falcon في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر قبل أن يصل الثوار إليها. وهكذا صارت لحكومة بتانكورت التي يسعى فيدل للإطاحة بها اليد العليا[51].

ونسب الفضل أيضًا للسي آي إيه. ففي شهادته أمام مجلس الشيوخ أشار هلمز إلى أن الصياد الذي اكتشف الأسلحة كان يعمل خفية لديها. ولا شك أن النجاح المتحقق بمواجهة المخابرات العامة هو نتيجة عمل استخباري مضن، ومجهود مشترك قامت به الوكالة والأمن الفنزويلي بالتعاون مع عميل اختراق داخل حركة حرب العصابات. وقد أخبرني اثنان من المنشقين الكوبيين أن عميل السي آي إيه – فرنشيسكو كربالو باشيكو Francisco Carballo Pacheco

واسمه الحركي (el-Espia Pachero) – هو نفسه الذي كان يعمل في قسم الخرائط بالجيش الكوبي وفيما بعد كشف أمر الإنزال الذي قامت به مجموعات المحاربين في أيار/مايو 1967 في ماشوروكوتو Machurucuto وقد أفشى سر هذا الهجوم أيضًا.

أما الخطوة التالية فتمثلت بإثبات أن مصدر الأسلحة هو كوبا. ففي الإيجاز اليومي Daily Summary ذكر محللو السي آي إيه كيف أن المخابرات الكوبية قد عملت على طمس جميع أرقام التسلسل وأسماء الماركات والطرازات من جميع الأسلحة. ومع ذلك وباستخدام أحماض خاصة تمكن فنيو الوكالة من "إبراز الأرقام والدريئات" لثلاثة منها. فكانت المعلومات التعريفية مطابقة لأسلحة يعلمون أنها سُلّمت إلى كوبا من بلجيكا في عامي 1959 و1960. واستنتج المحللون وجود "برهان أكيد" بأن الأسلحة "جاءت من كوبا"[52]. أما هلمز فيذكر في مذكراته أنه أخذ واحدة من البنادق نصف الآلية المصادرة ليريها لروبرت كينيدي. "وبعد نصف ساعة كنا في البيت الأبيض نجيب عن أسئلة الرئيس". وبعد انتهاء الأسئلة أعاد هلمز السلاح إلى حقيبة السفر القماشية التي بها جاء بالسلاح. ويتذكر فيقول في مذكراته: "وعندما التفت الرئيس ليصافحني قلت 'أنا مسرور جدًا أن الجهاز السري لم يكتشف أننا جلبنا هذه البندقية إلى هنا'. وأشرق وجه الرئيس، تبسم وهز رأسه قائلًا 'أجل، هذا يعطيني شعورًا بالثقة'". وبعد ثلاثة أيام رحل كينيدي في ذلك الموكب الذي لقي فيه مصرعه في شوارع دالاس[53].

* * *

ومضت سنون عدة، وشيئًا فشيئًا ظهرت حقيقة صدق ولاءات رولاندو كوبيلا. بدأت الدلائل تتراكم حول ازدواجية ولائه منذ منتصف الستينيات، والآن، وبما علمته من منشق كوبي واسع الاطلاع ووثيقة ظلت مهملة لمدة طويلة يمكنني القول بشكل قاطع بأنه متآمر مع فيدل.

جاءت التلميحة الأولى من كاسترو نفسه. في الثاني من أيار/مايو عام

1966 اجتمع مع مراسل صحيفة نيويورك تايمز هربرت ماثيوز Herbert Mathews الذي لا تزال وثائقه المتعلقة بهذا الحوار طي الكتمان ولم ترفع عنها السرية إلا بعد انقضاء سنين عدة. فقد نقل ماثيوز عن فيدل قوله: "كوبيلا رجل ضعيف ومن النوع عصبي المزاج تعهدوه بالرعاية لكنه لم يحصل على الوظائف التي يظن أنه يستحقها وكان له رفاق سوء"[54].

وتحدث ماثيوز أيضًا مع وزير الداخلية راميرو فالديز في اليوم التالي، فقال هذا الأخير إن كوبيلا "قد أُنزلت مرتبته إلى مشرف على التعليم الطبي في مشفى كبير بهافانا، وأدرك أصدقاؤه انزعاجه وطبيعته العصابية، لذلك كان تحت المراقبة"[55].

هذا وقد تحدث فالديز بشكل قاطع عن كوبيلا بعد تسعة عشر عامًا، وتحديدًا في الخامس من حزيران/يونيو عام 1985، وذلك في لقاء مع صحفي آخر زاره. "أجل لدينا معلومات عن سفره للخارج وأنه أجرى اتصالات مع السي آي إيه وبأن لديه مهمة باغتيال فيدل. نحن نعرف كل هذا". يبدو أن هذا الاعتراف، الذي حفظ داخل مجموعة التراث الكوبي في جامعة ميامي Cuban Heritage Collection، لم يحظ باهتمام باحثين سابقين[56].

ولكن كيف عرف فالديز بمخطط الاغتيال، ومتى كشف أمره؟ هل كان ثمة مخبر مقرب من كوبيلا؟ هل يمكن القول إن بائع المجوهرات الماهر تيبيدينو عميل مزدوج؟ هل كان كوبيلا نفسه يتصل بالمخابرات الكوبية وربما منذ أول اجتماع له مع ضابط في السي آي إي في مدينة مكسيكو؟ سئل "وندرباي" حول هذا الاحتمال الأخير من قبل لجنة تشرش. فقال: "من الممكن دومًا أنهم كانوا يشتبهون بأمره، أو يعرفون ذلك ... لكن هذا لا يجعله عميلًا مزدوجًا". لعل كوبيلا كان آنذاك مهذارًا كثير الكلام، وينفق الكثير من المال ويقضي إجازاته بسخاء ويحاول إبراز نفسه فبات تحت رقابة المخابرات العامة.

في أيار/مايو عام 1997 كان ريكاردو آلاركون Ricardo Alarcon أول مصدر موثوق يقدم الإجابة عن هذه التساؤلات، وآلاركون هو رئيس الهيئة

التشريعية الكوبية الصورية المعروفة باسم "الجمعية الوطنية والذي بقي في منصبه هذا لأطول مدة ممكنة. كان آلاركون مقربًا كثيرًا من كوبيلا عام 1960 عندما كان الاثنان معًا في أعلى موقعين في اتحاد طلبة جامعة هافانا. سأله المؤلف ريتشارد ماهوني Richard Mahoney عن كوبيلا في حوار جرى بينهما في هافانا، فقال "يمكن القول إن كوبيلا هو نبتة كاسترو"[57].

ولكن في ربيع عام 2011 تكونت لدي قناعة أخيرًا بأن آلاركون كان مصيبًا. ففي تلك الوقت اجتمعت مع ميغيل مير Miguel Mir وهو منشق آخر عن المخابرات العامة ويقيم في الولايات المتحدة. التحق بالمخابرات العامة عام 1973 حين كان في السادسة عشرة من عمره، ثم خدم على فترات مختلفة في فرق الأمن الشخصي لفيدل وراؤل وفالديز. وشق طريقه وارتقى مختلف المناصب الموثوقة، ما جعله قريبًا بشكل يومي من القيادة العليا. كان مير من عام 1986 وحتى عام 1992 الحارس الشخصي الرئيسي لفيدل وضابط أمنه.

أثناء السنة الأولى لعمله في هذا الموقع وبرتبة ملازم في المخابرات العامة خدم مير أيضًا كرئيس للقيّمين على المحفوظات العسكرية والأمنية الحساسة. وكان منصبه "المؤرخ العسكري لأمن فيدل كاسترو الشخصي". أخبرني أنه من موقعه هذا كان الحارس الأمين على سجلات النظام لوثائق تاريخية جديرة بالتنكر تتعلق حصرًا بالقائد العام. وكانت تحفظ في قبو سري داخل منشأة عسكرية قرب هافانا.

قال لي: "قرأت وثائق هنالك تتعلق برولاندو كوبيلا تؤكد أنه كان عميلاً مزدوجًا". وهي تعود في تاريخها إلى الفترة الممتدة بين عامي 1961 وحتى 1963. وكان ثمة آلاف الصور الضوئية والسجلات المتعلقة بفيدل. فهذا الأرشيف الذي أسسته مساعدة كاسترو وعشيقته لفترة من الزمن سيليا سانشيز Celia Sanchez، إحياء لذكراه. وقال: "إنه سجل يتضمن جميع محاولات اغتياله. ولهذا السبب هي محفوظة ولم تتلف".

ليس ثمة ما يدعوني للشك في ما قاله لي مير عن هذه وغيرها من

الأمور الاستخبارية الحساسة. ما رآه في الأرشيف يدل دلالة واضحة على أن كوبيلا قد أُرسل في مهمته هذه في آذار/مارس 1961 بمدينة مكسيكو، وأخذ يقدم تقاريره حول كل ما يدور في اجتماعاته مع ضباط السي آي إيه إلى فيدل وإلى مديرية المخابرات العامة.

حتى إنني اكتشفت مؤخرًا أدلة أكثر إقناعًا عن لعبة كوبيلا المزدوجة. فقد اعترف كارلوس تيبيدينو أثناء فحص كشف الكذب في آب/أغسطس عام 1965 أن كوبيلا "لديه صلات قوية جدًا مع المخابرات الكوبية وربما يتعاون معهم بطرق شتى". ولديه "اتصالات يومية معهم ... ويتعاون معهم بشكل وثيق ... يعرف ما يجري داخل الدوائر الاستخبارية". وما هو أشد سوءًا أن تيبيدينو قال بأن كوبيلا أخبر "الجميع" عن علاقته مع السي آي إيه، و"الجميع يعلم". وكما كان ظن هال سوينسون لم يحاول كوبيلا مرة واحدة أن ينظِّم "مؤامرة للإطاحة بكاسترو، وليس لديه أية مخططات أو أتباع قد يتعاونون معه لتحقيق ذلك". وقال تيبيدينو بأن "هكذا جماعة ليس لها وجود". لقد كان AMLASH يلعب بهؤلاء الضباط من السي آي إيه طوال الوقت"[58].

أُبلغت لجنة تشرش بنتائج هذا الاستجواب وقد تضمن تقرير اللجنة الختامي المؤرخ في نيسان/أبريل عام 1976 بعضًا من محتوياته. لكن اعترافات تيبيدينو المثيرة للفزع لم تحظ بالمزيد من الاهتمام. وحتى يومنا هذا لم يستشهد بها أحد على أنها إثبات يؤكد ازدواجية كوبيلا وتعاونه مع المخابرات الكوبية، وبالتالي مع فيدل شخصيًا. تقرير كشف الكذب المؤلف من تسع صفحات لم ترفع عنه السرية إلا في عام 1998، ومن ثم حُفظ في ملفات "الأرشيف الوطني" وسط ما يقرب من خمسة ملايين صفحة لسجلات تتعلق باغتيال كينيدي. وبالتالي غاب في دائرة النسيان إلى أن استرعى انتباهي في تشرين الأول/أكتوبر عام 2011[59].

ولكن لماذا كل هذا الإصرار من ضباط السي آي إيه العارفين بالقضية وحتى وفاتهم بأن كوبيلا كان عميلًا سريًا موثوقًا حتى بعد ظهور نتائج فحص كشف الكذب لتيبيدينو وكتابتها في أيلول/سبتمبر عام 1965؟ المعروف أن

نسخة من هذا التقرير قد أرسلت إلى المقر العام لضباط عمليات كوبا. ومع ذلك تجاهله كل من هلمز وهالبرن وسانشيز – أو هم لم يبلّغوا به. ولم يُسألوا عنه أثناء إدلائهم بشهاداتهم أمام لجنة تشرش، وكذلك الأمر لم يُسأل عنه أي من سوينسون وشاكلي ووذرباي وغيرهم من ضباط السي آي إيه. أضف إلى ذلك أن نتائج كشف الكذب لم تُذكر في تقرير المفتش العام عام 1967 حول مؤامرات الاغتيال.

هل في هذا تغطية مقصودة؟ هنالك احتمال بأن المعلومات تدل على التورط بارتكاب جريمة، وأنها تحرج كثيرًا أولئك المتورطين. لو علم أحد بها من خارج السي آي إيه واقتنع بأن كوبيلا كان يتعاون منذ أمد بعيد مع المخابرات الكوبية لأثيرت مخاوف خطيرة حول احتمال أن تكون الحكومة الكوبية ضالعة في مقتل كينيدي. وعلى أية حال، يبدو أن اعترافات تيبيدينو قد وضعت على الرف عام 1965 على أمل ألا نضطر يومًا ما لتفسيرها.

الفصل العاشر

عقول العظماء

كان ديز فتزجيرالد يتوق للعب دور جريء في عالم التجسس والتآمر الذي يحبه، أو كما يسمونه تجملًا العالم الممتلئ بالمغامرات المثيرة، لكنه كان مديراً تنفيذيًا برتبة تمنعه من أن يخرج إلى الشارع ويقوم بعمل ضابط عادي. لكن كوبيلا قدّم له هذه الفرصة والمناسبة ليقوم بدور الرائد في واحدة من تلك الألاعيب الأكثر تهورًا في تاريخ السي آي إيه. فقد قرر ديز أن يذهب إلى باريس ويقدم نفسه إلى كوبيلا بأنه الموفد الشخصي من بوبي كينيدي.

أراد أن يعرف هذا الكوبي عن كثب ويتأكد مما كان يسمعه من سانشيز. الفضول المعتلج في نفسه وكذلك كبرياؤه دفعاه بقوة كبيرة. يقول بيل هود Bill Hood، المؤلف المشارك في كتابة قصة حياة هلمز وهو من قدامى الضباط في السي آي إيه، كان ديز "متهورًا وشديد الثقة بنفسه لدرجة أنه حاول أن يجري بنفسه تقييمًا لكوبيلا. فهو يعتقد أنه أكثر علمًا من غيره، وأنه على استعداد للمجازفة في هذا السبيل".

لكن تيد شاكلي، الذي استشاره ديز، نصحه بألا يذهب، فالوضع أكثر خطرًا لشخص في مكانته وشهرته. وكذلك الأمر، كان هال سوينسون شديد القلق. فهو يعرف أن المخابرات الكوبية قد أصبحت أفضل من السابق. قال هال: "ربما أنا أفضل معرفة من غيري، وكان رفضي وعدم موافقتي على ذلك قويًا

جدًا. وديز فتزجيرالد يعرف ذلك جيدًا وآثر ألا يبحث الأمر معي". وهكذا استبعد ديز هذا الخبير في الجاسوسية المضادة والأكثر معرفة وأهلية في تحذيره من الأخطار[1].

لكن الصوت الأكثر أهمية كما هو متوقع – صوت بوبي كينيدي – هو الذي رجح الكفة. خطة الانقلاب العسكري المحفوفة بالمخاطر تتوقف على كوبيلا، فهو الذي لا يمكن الاستغناء عنه ولا بد من تشجيعه وتحفيزه. ولهذا وافق هلمز وعَينه على الحتميات السياسية أكثر مما هي على الأخطار العملياتية. "وافقتُ على ذهاب ديز إلى باريس والالتقاء بالكوبي تحت أي ستار رفيع المستوى قد يخطط له"[2].

وكان لدى فتزجيرالد خطة رديفة في حال رفض كوبيلا الاجتماع مع أحد غير وزير العدل. وكانت السي آي إيه على استعداد لنقل كوبيلا بالطائرة من قاعدة جوية أمريكية في فرنسا مباشرة إلى الولايات المتحدة. ولن يلزم جواز سفر أو أي وثيقة أخرى. وستقدم له "معاملة وإقامة من الدرجة الأولى". بحسب ما جاء في وثيقة رفعت عنها السرية لدى هيئة الشؤون الخاصة SAS. فربما يؤخذ كوبيلا عندئذ إلى مكان مثير للإعجاب حيث يلتقي سرًا مع بوبي كينيدي. ويبدو من المحال أن توضع على الورق خطة بهذه الأهمية دون موافقة وزير العدل[3].

والغريب في الأمر أن ثمة سابقة من هذا النوع. أوليغ بنكوفسكي Oleg Penkovsky، واحد من أكثر عملاء الاختراق أهمية في تاريخ الاستخبارات الغربية، قدم معلومات عن برامج الصواريخ السوفياتية ومؤامرات الكرملين السياسية. وكان عقيدًا في الاستخبارات العسكرية، لكنه خلافًا لكوبيلا، كان جاسوسًا أكثر خبرة وموثوقًا. فهو أيضًا كان يلح على الاجتماع بمسؤول أمريكي رفيع جدًا آملًا بأن يكرّم على شجاعته وللفرصة التي أتيحت له للعمل والضغط في سبيل اتباع سياسات في أمريكا أشد قسوة ضد السوفيات. وقد وافق بوب كينيدي على اجتماع سري. لكن ما يؤسف له أن بنكوفسكي اعتقل بموسكو في تشرين الأول/أكتوبر عام 1962 وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه قبل أن يتمكن أحد من تدبير شيء آخر.

أما فيما يتعلق باجتماعه هو شخصيًا فقد خطط فتزجيرالد لعرض يمكن وصفه بأنه مستوحى من فيلم سينمائي كلاسيكي من هوليوود. لقد أراد لهذا اللقاء أن يعقد في موقع فخم يبهر الأبصار حيث يكون كوبيلا وسانشيز ينتظران دخوله المهيب. وصدرت التعليمات لمحطة باريس بأن تحرص على جعل كوبيلا يشاهد وصوله فيدرك أهمية فتزجيرالد وأنه وجيه أمريكي عالي المقام. وأراد ديز أن يكون مجيئه إلى مكان اللقاء بسيارة ليموزين كاديلاك يقودها ببطء سائق يكون ضابطًا في الوكالة يرتدي زيًا مميزًا. وأمر بنشر فريق رقابة مضادة في الحي. وفي حال عدم مراعاته لما يكفي من الزخارف والتزيينات لإثارة إعجاب كوبيلا فقد أمر محطة باريس بأن "تتخذ ما أمكنها من أعمال لجعل الاستقبال رائعًا ومثيرًا قدر الإمكان"[4].

ولا بد أن هذه المحطة قد قدّمت بعض المقترحات المفيدة، ذلك أن سانشيز أبرق بتاريخ 21 تشرين الأول/أكتوبر قائلًا: "عقول العظماء تفكيرهم متطابق ... الخطة الحالية لإطلاع ديتولد Dainold ("الاسم الحركي لفتزجيرالد) في موضوع اجتماعه مع AMLASH بتاريخ 29 تشرين الأول/أكتوبر" ما بين الخامسة والثامنة مساء. وسافر ديز دون تنكر مستخدمًا الاسم المستعار جيمس كلارك، وكما يقول هلمز مستنكرًا "لم يهتم بإضافة مزيد من الثبوتيات المؤكدة لعلو المستوى أكثر من مظهره وإظهار ثقته بنفسه كما هو مقترح"[5].

وصل إلى باريس صباح ذلك اليوم. وعقد الاجتماع مع كوبيلا كما هو مخطط له، وقد أضيفت بعض الأمور ارتجالًا. ولم يكن ديفيد لوكس David Laux ضابط السي آي إيه المفترض أن يقود السيارة الليموزين وراء المقود ولم يكن مرتديًا الزي المطلوب. بل قاد سيارة لإيصال ديز وصفها بـ "سيارة بيجو قديمة وهالكة". وقال لوكس: "لا أنكر أننا قمنا بأية أعمال خاصة تفاديًا للمراقبة، كما لم نشغل أنفسنا بموضوع المراقبة". وحيث إنهما كانا متأخرين قليلًا فقد كانا في عجلة من أمرهما. وقد هنأ ديز السائق لوكس على براعته في المناورة وسط زحام فوضوي في ساعة الذروة المسائية، كما لو أنه شخصيًا يقود سيارته بعنف هجومي قائلًا له: "إذا قررت أن تترك العمل في الوكالة تستطيع أن تجد

عملاً لك بسهولة كسائق سيارة عامة في باريس". وقد أخبرني لوكس أن فتزجيرالد "كعادته كان دومًا مرتاحًا ومفعمًا بالثقة بالنفس"[6].

عُقد الاجتماع في منزل رد ستنت Red Stent. لكن كوبيلا في حديثه معي لم يتذكر أنه شاهد وصول ديز لكنه تذكر بأنه كان يشعر بالإعجاب والرضا بأنه فعلاً التقى مسؤولاً أمريكيًا رفيع المستوى ومقربًا من وزير العدل، وما زال يعتقد بعد انقضاء السنين والأعوام أن فتزجيرالد يمت بصلة قرابة نسب إلى آل كينيدي. نقل ديز له-التزام بوبي بالعملية عن اقتناع وعن حماسة واندفاع وبأسلوب رفيع. وقال لي بأنه لا يتذكر ما إذا كان رأى رسالة شخصية من كينيدي. ولكن بالنظر لاهتمام وزير العدل المتهور بالقضية فربما عرض ديز عليه وأراه رسالة تشجيع موقعة[7].

جلس الاثنان غير الراغبين ببعضهما – عميل فيدل المزدوج الأول والبديل النائب عن بوبي كينيدي – جنبًا إلى جنب. وتولى سانشيز مهمة الترجمة، ولدى عودتهما إلى المقر العام بعد أسبوعين أعد المذكرة لأجل القيود. وهي الوثيقة الوحيدة الباقية التي تشكل رواية متعاصرة مع ما قد حصل. أبلغ ديز محدثه كوبيلا بأن إدارة الرئيس كينيدي تدعم انقلابًا عسكريًا يطيح بدكتاتورية كاسترو. وقُدِّمت ضمانات أكيدة وصارمة: "الولايات المتحدة على استعداد لتقديم كل مساعدة قد تلزم لأي مجموعة مناهضة للشيوعية" تنجح في "تعطيل عمل القيادة الكوبية الحالية". المعنى الضمني لهذا القول بأن الانقلاب سيكون دمويًا وبأن فيدل سوف يلقى مصرعه. ولكن في شهادته أمام مجلس الشيوخ بعد اثني عشر عامًا أقر سانشيز على مضض بأن كوبيلا تحدث ذلك اليوم عن "النيل من القيادة أولاً"[8].

السجل الوحيد هنا يأتي من فتزجيرالد نفسه وذلك عبر مقابلات أجريت عام 1967 مع المفتش العام للسي آي إيه. فقد كشف ديز آنذاك بأن كوبيلا "تحدث مرارًا وتكرارًا عن الحاجة إلى سلاح اغتيال". فقد أراد الحصول على بندقية عالية التطور مزودة بمنظار أو أي سلاح آخر يقتل به كاسترو عن بعد. وأضاف سانشيز إلى ذلك قوله بأنه طلب قنابل يدوية وسلاحًا أصغر حجمًا

يحمل باليد مثل قنيفة أو مسدس يطلق سهمًا مسمومًا. لكن ديز أصر وأخبر كوبيلا بعدم رغبته في المشاركة بخطة قتل[9].

غير أن ماني غون Manny Gunn الطبيب المطواع الذي صدرت إليه الأوامر بصنع سلاح للاغتيال يتذكر الحادثة هذه بشكل مختلف فيقول إن فتزجيرالد كان يعرف ما المقصود به – "لكنه لم يرد أن يعرف". في شهادته الخطية المحلفة وافق سام هالبرن على ذلك، فالسلاح قد صنع "استجابة لإلحاح AMLASH في الحصول على وسيلة ليكون قتل كاسترو بداية للانقلاب"[10].

لم يُلزم فتزجيرالد بالكلام عن هذه العملية بحديث مسجل. ولم تتح له الفرصة للتوفيق في التناقضات بين ما قاله للمفتش العام وكل ما كشفت عنه الوثائق التي رفعت عنها السرية. فقد وضع تقرير المفتش العام واستكمل في أواخر شهر أيار/مايو عام 1967. وتوفي ديز بعد شهرين أثناء مشاركته في مباراة لكرة المضرب في طقس حار حارق في ضيعته بفرجينيا، وهذا ما أنقذه من مهانة عذاب الاستجواب تحت القسم بخصوص كوبيلا وأي سوء في الفهم حصل بينه وبين الأخوين كينيدي. ولم يعرف شيء من ملفات فتزجيرالد الشخصية الباقية لدى هيئة الشؤون الخاصة SAS، ناهيك عن أن أية ملاحظات كتبها هو أو مقابلات أخرى أجراها مع المفتش العام قد أتلفت بأمر من هلمز. لقد كان الظن آنذاك أن كل شيء له صلة بـ AMLASH ومغامرته يجب أن يدفن في أعماق أرشيف السي آي إيه، مغلفًا بمغلفات بنية اللون ومختومًا بشرائط سوداء لتبعد عنها تطفل موظفي الملفات، وتبقى بعيدًا عن ضوء النهار[11].

بقي ديز حتى وفاته واثقًا كل الثقة بأنه لو لم يُقتل جون كينيدي فإنهما معًا سوف يطيحان بكاسترو. في شهر آذار/مارس عام 1964، وكان فتزجيرالد قد عُيّن في منصب جديد رئيسًا لقسم نصف الكرة الغربي. سافر إلى بوينس أيرس في جولة تشمل الكثير من مواقع السي آي إيه المتقدمة ضمن منطقة نفوذه التي توسعت. عن هذه الجولة كتب ضابط شاب اسمه جوزيف بيركهولدر سميث Joseph Burkholder Smith مقيم في العاصمة الأرجنتينية بعد سنوات

من انقضائها. ففي حديث حواري وجلسة إحاطة في المحطة تحدث ديز عن كوبا وعن JMWAVE.

قال لهم: "أستطيع أن أؤكد لكم أننا كنا قد تخلصنا من كاسترو قبيل حلول عيد الميلاد الماضي، لو بقي جاك كينيدي حيًا". سأله سميث بإلحاح: "ماذا تعني بقولك 'تخلصنا منه'". فجاء الرد "أقول وأعني بأنه لن يظل على رأس عمله في هافانا". ويحكي لنا المؤلف إيفان سميث قصة مماثلة. تراهن ديز رهانًا وديًا مع مسؤول في البيت الأبيض بتاريخ 13 تشرين الثاني/نوفمبر أي بعد أسبوعين فقط من اجتماعه مع كوبيلا في باريس. راهن بـ 50 دولارًا مقابل اثنين لواحد نسبيًا بأن كاسترو سوف يرحل قبل الانتخابات الرئاسية لعام 1964. لقد كان لديه ملء الثقة بهذا العميل المفترض[12].

لقد قام كوبيلا بدوره المزدوج على نحو شديد الإقناع. ويمكن القول إن هذه القضية كانت تعالج في هافانا بعناية وحرص شديدين كما في لانغلي. والمرجح أن فيدل هو الذي أوقع كوبيلا بالفخ منذ البداية ثم تولى إدارة العملية كما كان يفعل في العديد من قضايا العمالة المزدوجة. ومن طبيعته أن يجعل كوبيلا يطلب اجتماعًا مع بوبي كينيدي لعله كان يتوقع أن يرفض طلبه، كما كان من المفترض أن يرفض. ولكن عندما حل ديز بديلًا عنه في سان كلود Saint Cloud حصل فيدل على البرهان الأخير حول إمكانية استغلال السي آي إيه ووزير العدل بالخبرة الفائقة. عندئذ كان كاسترو على ثقة بأنه يملك السيطرة الكاملة وعلى كلا جانبي العملية.

كان ثمة بضعة عملاء كوبيين مزدوجين أرسلوا إلى السي آي إيه قبل كوبيلا، لكنه هو وفي بعض الجوانب كان القدوة للعديد من العملاء الذين جاؤوا بعده. كانت تذبذباته ومراوغاته في جزء منها صفات كامنة لديه تعكس خصوصيته، لكنها أيضًا ابتكارات مسرحية يستخدمها ليحصل على فائدة عملياتية. وفي هذا المعنى، كان السلف الأول للعميل المزدوج "روبرت" الذي قدم نفسه على أنه متمرد وغريب الأطوار حين عمل لدى الوكالة في الثمانينيات، ولعميل آخر مزدوج قام بدور الشخص البسيط الساذج. وعندما كشف أسبلاغا

أمرهم، تحدثت عنهما الصحافة والإعلام في كوبا تحيي أصالتهما. فالسلوك الشاذ يكون دومًا مضادًا للحس البدهي للعميل أو الجاسوس، لكنه عند الكوبيين هام جدًا للنبوغ في مهنتهم.

يروي أسبلاغا دعابة توضح تفاخرهم بمهارة منهجياتهم. فيقول كان ثمة كوبي غني عجوز يحب المشاكسة والخصام. وقد توفي. لكنه قبل وفاته اجتمع مع منفّذ وصيته ووصف له بالتفصيل الممل كيف ينبغي أن تكون جنازته. نوع معين من الزهور، وغيره لا. الموسيقى والموكب الجنائزي يجب أن يكونا كما يصفه على وجه الدقة. وسمّى له المرافقين وحملة النعش، وما الذي يجب أن يلبسوه. وقدم له الكلمة التأبينية والمأتم. ولم يترك العجوز شيئًا للصدفة أو لأهواء الورثة. وأخيرًا قال له منفّذ الوصية بعد أن نال منه الغضب ما ناله: "ولكن لماذا؟ لماذا نهتم بكل هذه الأشياء؟ سوف تكون ميتًا". فضحك العجوز وقال "para joder"، عبارة يمكن ترجمتها على نحو تقريبي "لمجرد أنني أريد إزعاجهم".

وظل كوبيلا يعمل بمواجهة السي آي إيه التي لم تشتبه بشيء لمدة سنتين ونصف أخريين، يغري آخرين بالخيانة ويغدر بهم. وفي اجتماعاته الدورية مع سانشيز كان يواصل الضغط دون نجاح للحصول على العون لقتل قادة كوبيين، ولعل السبب في ذلك أن فيدل يريد أن يعرف ما إذا كان ليندون جونسون Lyndon Johnson أيضًا يريد قتله. وعمل كوبيلا، وهو لا يزال معروفًا باسمه الداخلي AMLASH مع مانويل أرتايم Manuel Artime زعيم واحدة من منظمات المنفيين "ذات الاستقلال الذاتي" التي شكلها بوبي كينيدي، متظاهرًا أيضًا بأنه يخطط لقتل فيدل.

في حزيران/يونيو عام 1965 وقبل شهرين فقط من التحقيق وفحص كشف الكذب حيث أدين تيبيدينو أغلقت السي آي إيه هذه العملية نهائيًا. ثم جاء دور فيدل ليرفع من منسوب تمثيليته. اعتقل كوبيلا ورامون غوين – واسمه الداخلي AMTRUNK-10 – في كوبا في آذار/مارس عام 1966 وقدما للعدالة. وحكم عليهما بالإعدام، ولكن خلال أيام معدودة أمر فيدل بتخفيف الحكم إلى

المؤبد. وفي قضية كوبيلا، فقد وصف هو بأنه قام بعمل شهم نفذه بحق بطل من أبطال الثورة ضل الطريق. لكنه لم يدخل قائمة فيدل "لكبار الخونة". حاول كاسترو تفسير لينه هذا في خطاب معقد ألقاه في جامعة هافانا لكن كلماته بدت زائفة[13].

لم ينكر فيدل شيئًا عن سانشيز وعن بورتو اليغري أو اجتماعه مع فتزجيرالد في سان كلود أو أي من مؤامرات الاغتيال في عهد الرئيس كينيدي. ولمدة تسعة أعوام أخرى لم يتحدث النظام بشيء عن تلك المؤامرات. وقضى كوبيلا أكثر من اثني عشر عامًا في السجون الكوبية، لكنه كان دومًا السجين موضع الثقة الذي يمنح امتيازات خاصة. يقال إنه كان مخبرًا ويتمتع بحرية الخروج من أحد السجون. وخدم بصفة طبيب داخل السجن له امتيازاته. وكانت عائلته تزوره باستمرار ويعيش حياة جيدة[14].

قد يبدو احتجاز عميل مزدوج بارز أمرًا يصعب تفسيره للوهلة الأولى. ولكن كان من الضروري تثبيت القصة. إطلاق سراحه بعد إدانته بالخيانة أمر يتعذر تسويغه والدفاع عنه، ويبدو مؤكدًا لما هو معروف الآن عن خيانته. وكان ما يؤرق كاسترو أن سرّهما لن يكون آمنًا فيما لو أطلق سراحه. فقد يتعرض لمضاعفة ثلاثية من السي آي إيه كما يحصل في بعض الأحيان أو يجري حديث فضفاض وربما يقوم بائع المجوهرات تيبيبينو بإغواء صديقه ليصبح معارضًا حقيقيًا. ولكن تبين لاحقًا أنه لا حاجة لكل هذه المخاوف. هذا العميل السابق AMLASH الذي يعيش الآن خارج بلاده لم يتراجع عن التمسك بكل الأكاذيب عن حياته المزدوجة[15].

* * *

علم فيدل بتفاصيل اجتماع القمة في سان كلود خلال ساعات. الفخ الذي نصبه بعناية أطبق وأغلق. فالآن لديه عصفور باليد، وهو دليل قاطع من أعلى المستويات في الحكومة بواشنطن بأن الأخوين كينيدي والسي آي إيه يخططون ويتآمرون لقتله. علم بأن رشقات العيارات النارية ستكون مصوبة عليه.

وحيث إنه كان قلقًا وممتلئاً بالنشاط فقد انتقل مجددًا إلى حالة الهجوم. كان غاضبًا بحق وأراد للعالم كله ولكل شخص له أهميته في القيادة الكوبية أن يعلموا بأن الحرب مع الأمريكيين قد بلغت مرحلة جديدة من الخطر. ففي خطاب عنيف مطول متلفز في الثلاثين من تشرين الأول/أكتوبر – بعد يوم واحد من اجتماع ديز مع كوبيلا – أخذ يهاجم ويقرّع السي آي إيه. وحضر هذا الخطاب داخل استديو التلفزيون جميع مستشاريه الأمنيين والاستخباراتيين ورهط من مسؤولي النظام البارزين في إشارة تدل على القوة والتضامن. وتحدث بكل ما يعرفه عن كامل نطاق الخيانات والغدر الأمريكي. وقال إن السي آي إيه تنفذ عمليات "تخريب وتجسس وانقلابات وغير ذلك من الجرائم المماثلة" ضد كوبا[16].

أخذ يتكلم بنبرة تتبدل بين غضب ظاهر ورضا عن اعتداد بالنفس، يدين ويشجب المخربين والجواسيس والكوماندوس لكنه لم يتوان عن التفكير على نحو رئيسي بالقتلة وهو جالس وأمامه جدول مليء بالأدلة والقرائن التي تثبت وجود مؤامرة جديدة لتهريب السلاح والمتفجرات إلى كوبا ليستخدمها المنشقون. صواعق تفجير ونخاثر وقنابل يدوية خبئت في علب من الصفيح مخصصة للفواكه والخضار أرسلت بالطائرة إلى هافانا يحملها شخصان يحملان الجنسية الكندية زعم كاسترو أنهما من عملاء السي آي إيه[17].

أما التغطية الإعلامية الكوبية لهذا العرض فقد أضاء على علبة ملونة من الصفيح مخصصة للفواكه كتب عليها "كونسروة قنبلة فاكهة". لكن الكلمة عينها هي التسمية المتأنقة لثمرة البابايا التي لها معنى غير محتشم في اللهجة المتداولة في الشارع. يفترض أن هذه "القنبلة الفاكهة" قد عبأتها شركة متخصصة اسمها سبوني Siboney في ميامي. لكن علب الصفيح كانت ثقيلة جدًا بما فيها من مواد متفجرة أظهرت إحساسًا بالفكاهة جميلًا جدًا نالت إعجاب حتى نظرائهم من المخابرات العامة الكوبية[18].

بعد ثلاثة أيام، وتحديدًا في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر حصل مشهد إعلامي آخر تضمن ثلاثة من رجال الكوماندوس التابعين للسي آي إيه وقد تم

اعتقالهم عند محاولتهم الفاشلة للنزول على البر الكوبي في 21 من الشهر المنصرم. لكن فيدل لم يظهر هذه المرة بل أوكل الإجراءات لقومندان في الجيش وثلاثة من ضباط الأمن الشباب الذين أجروا التحقيق القضائي معهم على الهواء مباشرة. عندما وجد هؤلاء أنهم أمام خيار الاعتراف بكل شيء أو الوقوف أمام فرقة الإعدام أظهروا تعاونًا مع المحققين متطوعين بإعطاء تفاصيل حول عمل السفن التابعة للسي آي إيه وعمل المتسللين[19].

أحد هؤلاء المحققين النخبة، الملازم خوان أنطونيو رودريغز منيير Juan Antonio Rodriguez Menier ارتقى بعدئذ في المناصب وأصبح رئيسًا لمركز المخابرات العامة في بودابست وبالتالي شعر بتغير في الميول. وكما أشرنا سابقًا، هرب في عام 1987 – ذلك العام الذي يمكن وصفه بالمدمر لكوبا، إذ شهد الكثير من الانشقاقات – وحصل على اللجوء إلى الولايات المتحدة، حيث لا يزال يعيش بهوية جديدة[20].

الجمهور الهدف في كل هذه العروض محلي. فقد أراد فيدل تعبئة وتحفيز الدفاعات الكوبية. عملت وزارة الداخلية على تقوية وتدعيم البوابات الأمنية ورفعت فاعلية الرقابة بمواجهة كل تهديد للقيادة يمكن تخيله. وبدأت محطة JMWAVE تتلقى تقارير من الجزيرة تفيد بتزايد أعمال القمع الأمني، وبحسب أحد المصادر، هي الأسوأ منذ ما قبل حوادث خليج الخنازير. وبات القادة لا يفكرون إلا بأعمال التخريب العشوائي التي يقوم بها منشقون وبتزايد هذه الغارات على السواحل. وبدأت القوات المسلحة تستخدم حوامات سوفياتية الصنع حصلت عليها مؤخرًا للدفاع في مواجهة هذه الغارات. في تقرير تقييمي صدر في أواخر عام 1963 ذكر المحللون من السي آي إيه أن القوات المسلحة قد حققت "قدرة قتالية بمستوى أعلى" من أي وقت مضى[21].

ووصلت الاستعدادات العسكرية إلى مستويات غير مسبوقة. في أقل من أسبوعين بعد خطاب كاسترو أعلن راؤل أول استدعاء للخدمة العسكرية أثناء الثورة. الشبان بعمر السادسة عشرة والرجال حتى الخامسة والأربعين من العمر أخضعوا لخدمة عسكرية إلزامية لمدة ثلاث سنوات. وذكر المحللون في الإيجاز

اليومي الخاص بكوبا الذي يصدره السي آي إيه تفاصيل تقرير غير مؤكد لأحد العملاء بأن فيدل قام بزيارة طارئة إلى الاتحاد السوفياتي في وقت ما من منتصف تشرين الثاني/نوفمبر ليجتمع سرًا مع خروتشيف. لكن هذه الشائعة في حدها الأدنى تعكس تزايد التوتر والقلق في الجزيرة[22].

كان الحشد العسكري ردًا على التهديد الأمريكي. وكانت ثمة حاجة لهؤلاء المجندين في الخدمة العسكرية لتقوية القوات المسلحة وللتدرب على المعدات العسكرية السوفياتية التي بدأت تتدفق إلى البلاد. تضمنت هذه المعدات – حمولة تسع سفن كاملة من المواد العسكرية في عام 1963 – نحو 700 دبابة و 20,000 ناقلة جنود و 700 مدفع مضاد للطائرات وأكثر من 100 طائرة ميغ، 41 طائرة منها من الطراز الأكثر تطورًا. وبدأت بالنشوء مؤسسة عسكرية مقتدرة وحديثة، بعديد من الجنود بدأ يتزايد ليصبح ثاني أكبر قوة عسكرية بعد البرازيل في أمريكا اللاتينية. كانت تقديرات محللي السي آي إيه أن القيادة العسكرية شديدة الولاء للنظام. وذكروا أيضًا أن حملة التطهير قضت على "العناصر المناوئة لكاسترو". ولم يكن ثمة فرصة لـ"شعور بالاستياء واسع الانتشار"، ذلك أن احتياطات قد اتخذت "لضمان الوثوقية السياسية للضباط حتى لو كان ذلك على حساب الكفاءة العسكرية"[23].

لقد كان المحللون على حق. لو أنهم استشيروا حول جدوى انقلاب عسكري بقيادة رولاند كوبيلا لأعربوا عن عميق شكهم بنجاحه. لكنهم لم يعلموا شيئًا عن العميل الذي أعطي الاسم السري AMLASH أو عن آمال فتزجيرالد الكبيرة المعلقة عليه. كان بمقدورهم أن يقولوا لديز بأن كوبيلا ليس واحدًا من أرفع ثلاثة أو أربعة قياديين في النظام كما ساد الاعتقاد لدى هيئة الشؤون الخاصة SAS. كانوا يعرفون أنه لم يكن قائد جند ولا يحترمه معظم زملائه. لو أنهم استشيروا لأعطوا رأيهم بأنه ليس قائدًا محتملًا لحكومة تأتي بعد رحيل النظام[24].

والحق أيضًا أن كوبيلا لم يتظاهر بأنه يحقق أي تقدم. بعد انقضاء أكثر من أسبوعين على اجتماعه مع فتزجيرالد في باريس كانت هيئة الشؤون الخاصة

SAS لا تزال تحاول معرفة ما إذا كان كوبيلا قد جند شخصًا آخر أو أكثر في هذه الخطة. والظاهر أنه لا يوجد أحد، وهو يتذمر مجددًا. فالدعم الموعود من السي آي إيه لم يُقَدَّم. ومن نيويورك جاء تقرير من تيبيدينو بأن كوبيلا غاضب لأنه لم يتلق بعد ذلك "الحل النهائي الموعود به". ومرة أخرى كان يتصرف بأسلوب فظ ووقح، وفي الوقت نفسه يقول للسي آي إيه ما تريد أن تسمعه عن خطة الاغتيال. وقال تيبيدينو "إن لم يحصل كوبيلا على ما يريد فسوف يشعر بالضجر والملل"[25].

وما كان لهما أن يقلقا أو ينتظرا طويلًا. فكل ما طلبه كوبيلا سيقدم له. في 19 تشرين الثاني/نوفمبر صدرت التعليمات إلى محطة JMWAVE بأن تخبئ بعض الأسلحة على الساحل الكوبي وقد تضمنت بنادق مزودة بمناظير وقنابل يدوية ومسدسات حربية. وكما قيل، أراد كوبيلا سلاح اغتيال صغير وخفيف – سلاحًا يستطيع أن يستخدمه ضد فيدل من مسافة قصيرة وهذا ما يسمح له بفرصة معقولة للهروب الآمن. وبدأ ماني غون Manny Gunn بالعمل على تصميم سلاح للاغتيال يكون الأكثر مدعاة للضحك والاستغراب في تاريخ التجسس الحديث[26].

لكن الوقت قصير. كان سانشيز يعتزم الذهاب إلى باريس في غضون بضعة أيام ليقدم الجهاز إلى كوبيلا الذي نفد صبره والذي يعرف أنه سيعود قريبًا إلى كوبا. فالفكرة تقضي بأن يضع هذا السلاح في جيبه وبحيث لا يثير شكوكًا. وكانت النماذج لا تزال قيد الاختبار ولم يتبق سوى يوم أو بعض يوم لموعد مغادرة سانشيز، لذلك فإن أي شيء يمكن صنعه لا يمكن إرساله إلى باريس بأمان كما كان سانشيز يفضل. وعمل ماني غون جاهدًا وبدأب طوال النهار والليل، أتلف بعض النماذج التي كانت غير عملية قبل أن يتوصل إلى سلاح رأى أنه قابل للعمل[27].

كان السلاح قلمًا Paper Male Pen عادي المنظر، إنما بدل خرطوشة الحبر جُهز بمحقنة قابلة للسحب. وما على كوبيلا إلا أن يشتري زجاجة من مادة Black Leaf 40، وهي مادة سميّة شائعة تستعمل في المنازل، عندما يعود

إلى كوبا، ويملأ بها الحجرة الداخلية للقلم. ويمكن شراء هذا السم دون وصفة طبية، والعبوة تحمل صورة الجمجمة السوداء والعظمتين المتعارضتين إشارة لخطورة المادة[28].

بعد حشو الجهاز يصبح كل شيء سهلًا. قال سانشيز: "اضغط على الزر فتخرج الإبرة". لا يقوم كوبيلا بعمل أكثر من مجرد إحداث خدش بسيط في بشرة كاسترو وكمية قليلة من المادة مميتة، أو هكذا كان الرأي داخل السي آي إيه. الطرف المعدني المستدق لهذا "القلم" كان بالغ الدقة حتى إن فيدل لن يحس به. ولن يكون الخدش أكثر قابلية للملاحظة من خدش بسيط تحدثه ياقة القميص المنشاة على الرقبة. وقال هالبرن قد يستطيع "كوبيلا النجاة به"[29].

نقل سانشيز سلاح الجريمة من واشنطن بعد أن وضعه في جيب الصدر من بذلته. وفي وقت متأخر من عصر يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر اجتمع هو وكوبيلا وحدهما في منزل آمن في باريس. كانا في ذلك الحين قد اجتمعا معًا لساعات كثيرة العدد، لكن لم تنشأ بينهما ألفة حقيقية كما يحدث عادة في علاقة الضابط المسؤول والعميل. وفي لقاءاتي العديدة بعد عقود من السنين مع كل واحد منهما على انفراد لم أستطع أن أنتزع من أي منهما كلامًا مقبولًا وسائغًا بحق الآخر. عندما حاورت سانشيز وسمعت منه إصراره بأن كوبيلا كان مصدرًا جيدًا وموضع ثقة تساءلت في نفسي عما إذا كان حقًا يؤمن بذلك[30].

وقد أخبر سانشيز كوبيلا أين يجد مخبأ الأسلحة وأعاد عليه أسئلته حول من هم الذين قد ينضمون إلى هذه المؤامرة. لا شيء في السجلات المتاحة يشير إلى أن أيًا من سانشيز أو فتزجيرالد قد راودته شكوك بشأن المؤامرة التي كانا يعتقدان بأنها تقترب من نهايتها. في برقيته التي قُرئت بعد وفاته والتي صيغت كلماتها بعناية كبيرة لاستبعاد أي ذكر للقلم المحشو بالسم أو لغرضه حاول سانشيز أن يكون متفائلًا. كان يشعر بالتشجيع ذلك أن "تفكير كوبيلا العملياتي بدا الآن أقل ضبابية من السابق". ومع ذلك لم تؤسس للآن وسائط اتصالات آمنة. وما هو أكثر أهمية، كما قيل للمقر العام، أن كوبيلا كان "عازمًا كل العزم على المضي بمخططاته لإحداث انقلاب في البلاد"[31].

ولكن قبل أن يبدأ سانشيز بعرض هذا القلم قال لكوبيلا إن فتزجيرالد قد أسهم في صياغة الخطاب الذي ألقاه الرئيس كينيدي قبل أربعة أيام. لقد كان هذا الخطاب آخر خطاب هام يلقيه كينيدي في شأن السياسة الخارجية، وبالتالي فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية. وقد ذكرت صحيفة "ميامي هيرالد" أن الرئيس قوطع ثلاث مرات بهتافات تحييه خلال الخطاب الذي استغرق خمسًا وعشرين دقيقة، وكان ذلك عندما يتكلم عن السقوط الحتمي لفيدل كاسترو[32].

تضمن خطاب كينيدي رسالة ضعيفة الإخفاء موجهة إلى كوبيلا وحلفائه المفترضين. فاللغة التي يزعم ديز أنه أدخلها في الخطاب يقصد بها تأكيد الدعم الأمريكي للمتآمرين. يبدو أن هذا الأسلوب الرئاسي غير العادي قد تمت الموافقة عليه بعد الاجتماع المخصص للشأن السياسي والمنعقد برئاسة كينيدي في قاعة مجلس الوزراء بالبيت الأبيض في 12 تشرين الثاني/نوفمبر. وقد لحظ اثنان من كبار أعضاء هيئة الشؤون الخاصة SAS وسجلت ملاحظتهما عصر ذلك اليوم بأن "الرئيس سوف يؤكد أهمية ازدياد المقاومة الداخلية ... التي تقود إلى انقلاب عسكري". وبعدئذ كانت هيئة الشؤون الخاصة SAS مسرورة بالنتائج. وساد الاعتقاد في لانغلي بأن الخطاب قد عزز مواقف المتآمرين في العمل لأجل انقلاب عسكري. "والذين إليهم وجهت هذه الملاحظات"[33].

أما المستمعون على شاطئ ميامي فقد سمعوا كلامًا غير واضح بشأن كوبا. كاسترو "خان الأهداف الحقيقية للثورة". وبأنه "قاد عصابة صغيرة من المتآمرين الذين سلبوا الشعب الكوبي حريته". وبأنه "سلّم استقلال وسيادة الأمة الكوبية إلى قوى خارجية". وأن كوبا باتت "ضحية استعمار خارجي، وسلاحًا ... لإخضاع الجمهوريات الأمريكية الأخرى". كان الخطاب الأعنف والأكثر شمولية ضد كاسترو وسياساته من كل ما ألقاه كينيدي من خطب في عهد ولايته.

وما كان أكثر استفزازًا في خطابه وعدُه بأنه حال عودة السيادة إلى كوبا "فسوف نمد يد الصداقة والمعونة إلى كوبا التي سيكون لإرادة شعبها القول الأول والأخير في تشكيل مؤسساتها السياسية والاقتصادية". وفي معرض

إشارته إلى دكتاتورية كاسترو قال الرئيس: "لا ينبغي لأي كوبي أن يشعر بأنه قد خُدع". هذا وقد قال كوبيلا حين التقينا في ميامي بأنه لا يتذكر شيئًا عن هذا الخطاب. غير أن سانشيز أبلغ المقر العام بأن كوبيلا شعر بالسرور والفرح "عندما قرأ نسخة" و"أحس بسرور أكبر عندما علم أن السيد كلارك" – اسم فتزجيرالد الحركي – قد أسهم في إعداده(34).

وقد أوجزت مصادر البيت الأبيض هذا الخطاب لتخرج منه حدثًا إخباريًا هامًا. فقد أُبلغ الصحفيون أن كلمات كينيدي بمثابة دعوة للشعب الكوبي للتخلص من فيدل. وفي اليوم التالي أصدرت صحيفة "ميامي هيرالد" قولها بأن "كينيدي يعطي الأمل للكوبيين المنفيين في فلوريدا ... بقوله إن الوقت ليس ببعيد عندما تتحرر بلادهم ويستطيعون العودة إلى وطنهم". وكتب آل بيرت Al Burt، الصحفي في هذه الجريدة والمقرب من تيد شاكلي، بأن كلمات كينيدي "بدت مناشدة إلى العناصر داخل كوبا ... بل دعوة إلى الشعب الكوبي للإطاحة بالأخوين كاسترو". أما صحيفة "دالاس تايمز هيرالد" فقد قالت "كينيدي ذهب بعيدًا ليدعو الشعب الكوبي للإطاحة بكاسترو ووعدهم بالدعم إن فعلوا".

وفي هذه النسخ عينها الصادرة في 19 تشرين الثاني/نوفمبر نشرت الصحافة في مدينة دالاس تفاصيل دقيقة جدًا عن مسار موكب الرئيس بعد ثلاثة أيام. وفي تلك اللحظة علم لي هارفي أوزوالد لأول مرة أن كينيدي سوف يمر أمام نوافذ مستودع كتب تكساس Texas Book Depository حيث يعمل. كان مقررًا أن يقوم كينيدي بزيارة مدن عدة في ولاية تكساس لتعزيز فرص فوزه في الانتخابات المقرر إجراؤها في السنة التالية.

كان النهار قد انقضى في باريس عندما أخرج سانشيز القلم من جيب سترته. وبهذا تكون جميع طلبات كوبيلا قد تحققت. لكن هذا السلاح لم يكن واحدًا من إنجازات ماني غون الدقيقة والأكثر براعة، إذ قال سانشيز لي مستذكرًا قوله بازدراء: "لم يكن بتلك الروعة". ووافقه كوبيلا الرأي حالما بدأ سانشيز شرحه حول كيفية استعماله: "أراني إياه، ولم أقبله". ولكن أحدًا من هذين الاثنين لا يتذكر ماذا حل بهذا القلم. قال كوبيلا بأنه متأكد بأنه لم يحتفظ به،

وبذلك يناقض ما جاء في تقارير الحكومة الكوبية بأنه ألقى به في نهر السين بعد اللقاء[35].

يستعيد كوبيلا ذكرياته فيقول: اللقاء "انتهى على نحو مفاجئ وبمكالمة هاتفية". كان فتزجيرالد على الخط. صوته مختلف قليلًا، العواطف تغلب تكلفة العظمة والمهابة. فقد أبلغ سانشيز أن الرئيس قد اغتيل في مدينة دالاس[36].

سمع ديز هذا الخبر العاجل حين كان يستضيف على الغداء دبلوماسيًا أجنبيًا في City Tovern، النادي التاريخي في حي جورجتاون بمدينة واشنطن. وهو دائمًا مضيف سخي واجتماعي وكوبا هاجسه الرئيسي، لذلك من الصعب أن يتخيل المرء بأن كاسترو ليس طبقًا أساسيًا على مائدة الحديث عصر ذلك اليوم. وانفض اللقاء على الفور وهرع موظفو الوكالة عبر نهر البوتوماك إلى المقر العام الذي يبعد مقدار ربع ساعة فقط. كان عليهم أن يرسلوا برقيات إلى المحطات الميدانية مع أنهم لا يدرون بعد ماذا سيكتبون.

واجتماع باريس أيضًا انفض فجاة. قال سانشيز إن كوبيلا تأثر بشكل واضح لدى سماعه الأخبار من دالاس. ولدى خروجهما وفي سيرهما في تلك الليلة الباريسية سأله مرافقه الكوبي: "لماذا تحدث هكذا أشياء للأشخاص الطيبين؟" لعله كان رد فعل مخلص، ولكن حيث إن ازدواجية هذا الرجل ومخططاته باتت اليوم معروفة، يصعب علينا أن نصدق بأنه لا يشاطر كاسترو كرهه لكينيدي. وقوله هذا هو على الأرجح مثال آخر لمهاراته في الأداء المصقولة جيدًا[37].

وثمة رد فعل آخر من هالبرن كان نذيرًا بسوء وعلى نحو مستمر. عندما انبعث تقارير عن اعتقال أوزوالد واختفائه وعدم معرفة أحد عنه شيئًا قال سام هالبرن لزميل له في هيئة الشؤون الخاصة SAS وبمجرد سماعه النبأ "آمل ألا يكون هذا الفتى متورطًا بكوبا بطريقة أو بأخرى".

كان فيدل في منزله على شاطئ فاراديرو Varadero عندما سمع نبأ اغتيال كينيدي. وهو أيضًا كان يستضيف مأدبة غداء على شرف ضيف أجنبي رفيع المستوى. كان جان دانييل Jean Daniel، كبير مراسلي الأسبوعية

الباريسية التقدمية L'Express، وأحد أبرز أعضاء فريق الصحافة الفرنسية، في زيارة لهذه الجزيرة من أواخر تشرين الأول/أكتوبر. وهو وكاسترو كانا في ذلك اليوم معًا ولمدة يومين.

يستذكر جان ذلك اليوم ويقول كان ثمة نحو اثني عشر شخصًا – هو وزوجته ميشيل، وفيدل، وتسعة أو عشرة أشخاص كوبيين آخرين – يتحلقون حول مائدة غير رسمية عندما رن جرس الهاتف. كان رئيس كوبا الصوري يتحدث على الهاتف من هافانا ليعلن النبأ. كان الخبر أوليًا، وقد وصل إثر سماع أول نبأ عن إطلاق النار يُبث على الأثير الامريكي. وقد سمع الآخرون فيدل يقول: "ماذا؟ أهي محاولة اغتيال؟"[38]

يذكر دانييل وزوجته أن كاسترو بدا مصدومًا حقيقة. وتتذكر زوجته أنه أراد أن يعرف من فوره من هو نائب الرئيس، كما لو أنه على يقين بأن كينيدي لن ينجو. وسرعان ما جاء الخبر بأن الرئيس قد فارق الحياة، وأعرب فيدل عن انزعاج شديد. "يتعين عليهم أن يعثروا على القاتل سريعًا، وإلا سوف تترقبون وترون، سوف يحملوننا المسؤولية"[39].

ولكن يصعب تفسير سبب قوله هذا. الوسائط الإخبارية لم تعلن بعد آراء أوزوالد الماركسية وإعجابه بكوبا ورحلته إلى مدينة مكسيكو. ربما ظن كاسترو أنه عرضة للاتهام بسبب كل ما قاله من خطاب غاضب بحق كينيدي، وعلى وجه الخصوص تلك المقابلة التي كال فيها تهديداته وأجراها معه الصحفي دانييل هاركر قبل نحو أحد عشر أسبوعًا. وربما تذكر أيضًا تهديدات أوزوالد بقتل كينيدي حين غادر قنصلية كوبا في المكسيك. ولكن بافتراض أن ما قاله لي أسبلاغا عن معرفة فيدل المسبقة بالاغتيال صحيح، فإن ثمة أشياء كثيرة معروفة في هافانا بل وأكثر مما جرى الاعتراف به[40].

* * *

المعروف أن ضباط الاستخبارات وحفظ النظام في كل مكان يشككون كثيرًا بالمصادفات، التي يغلب عليها طابع التلاقي الغريب. ومع ذلك التصادف الذي

يبدو في ظاهره بريئًا قد يكون مخططًا له بدافع خفي. لقد رتب فيدل أمر حفل الغداء في فاراديرو بعناية شديدة ولديه التوقع بأن جان دانييل سوف يكتب واحدة أو أكثر من مقالاته الواسعة التداول.

وقد نشرت اثنتان منها دون تأخير في الأسبوعية *New Republic* الهامة جدًا في نيويورك. كانت الأولى رواية شاهد عيان بعنوان "عندما سمع كاسترو النبأ". ولأن كاتب المقالة مفكر أوروبي له سمعة لا يرقى إليها شك فلن يسأل أحد أين كان كاسترو عندما لقي كينيدي مصرعه. لن تكون ثمة تكهنات بأنه ربما كان في مقر المخابرات العامة مع بنييرو ذي اللحية الحمراء، أو في غرفة الحرب في وزارة الدفاع التي يرأسها راؤل. ولكن سواء كان هو المخطط لها أم لم يكن فقد شكل غداء فاراديرو العذر المثالي الذي يؤكد بُعْدَه عن مكان الجريمة. وقد قال لصحفي أجرى مقابلة معه عام 1984: "كان واحدة من تلك المصادفات التاريخية التي لا يمكن تصديقها"[41].

وتبين أيضًا أن زيارة دانييل كانت أكثر حظًا لفيدل بسبب مصادفة أخرى. ففي اليوم الذي وقع فيه اغتيال كينيدي كان الفرنسي يقوم مقام مبعوث غير رسمي للرئيس لاستشراف آفاق تحسين العلاقات. ولم يكلف كينيدي أحدًا غيره بهكذا مهمة. ولا يتوقع أن ينجم عنها شيء، ذلك أن الفجوات بين البلدين لا يمكن جسرها. ورغم ذلك، قدمت هذه المحادثات التي امتدت على مدى يومين حيث كان اجتماع دانييل الأول مع كاسترو في هافانا وفيما بعد في فاراديرو عذرًا مثاليًا آخر عن بعده عن مكان الجريمة لا يزال الجميع يصدقه حتى هذا اليوم. وبعد مقتل كينيدي مباشرة بدأ فيدل والإعلام الكوبي وماكينة استخبارات المخابرات العامة يروجون لأسطورة التقدم الحاصل بمساعدة دانييل على طريق مصالحة أمريكية كوبية تاريخية.

اجتمع دانييل مع الرئيس كينيدي في المكتب البيضوي في 24 تشرين الأول/أكتوبر. وكان الرئيس، في مزاج جيد، يُكثر من الكلام، وقد قدم ضيفه للسيدة الأولى ثم تحدثا أحاديث ودية حول السياسة الفرنسية. ودخل في الموضوع سريعًا وقال: "أود أن أتحدث معك عن كوبا".

كان يعرف أن دانييل يعتزم السفر إلى الجزيرة ويجري حوارًا مع كاسترو، وكانت ثمة أشياء يريد لفيدل أن يعرفها. أوضح كينيدي بأنه يأمل بأن يتشاور مع دانييل ثانية لدى عودته إلى واشنطن ليعرف ردود كاسترو. وقال: "إن حديثنا سيكون أكثر إمتاعًا عندما تعود". كان هذا النوع من التواصل عبر قناة خلفية أسلوبًا نموذجيًا لحل المشكلات لدى كينيدي. وربما أخبره أخوه بوبي بأن فتزجيرالد سوف يجتمع مع كوبيلا بعد بضعة أيام، ولعله أراد أن يستطلع الخيار الدبلوماسي قبل فوات الأوان[42].

كان يأمل أن يزوده هذا الفرنسي الذكي الشديد الملاحظة ببعض التوضيحات والتحليلات، وملاحظات حول شخصية ودوافع وسيكولوجية الزعيم الذي يعتبره الأكثر مراوغة وخداعًا من أي زعيم آخر على المسرح العالمي. وقد أخبرني دانييل عندما التقينا بعد سبعة وأربعين عامًا بأنه يعتقد بأن لدى كينيدي سببين رئيسيين لاعتماده رسولًا. فقد اعتقد أن الرئيس بدأ يشك بالسياسات العدائية التي اتبعها تجاه كوبا وبأنه "يريد سبيلًا للخروج". إضافة لذلك، كان كينيدي في حيرة من أمره إزاء كاسترو. وكان الفضول متبادلًا. فقد قال دانييل: "كان كل من كاسترو وكينيدي متعطشين ليعرف كل منهما الآخر. هما مفتونان ببعضهما"[43].

غير أن هذا المسعى الهادف للوصول إلى أسماع فيدل بقي سرًا في واشنطن. كان كينيدي يعرف بأنه إن تسربت كلمة واحدة منه فسوف يستغلها ضده خصومه الجمهوريون وستشكل فائدة عظمى لهم. سوف يتهمونه باللين مع خصمه الرهيب. كتب جيمس رستون James Reston الصحفي في نيويورك تايمز صديق كينيدي بأنه، فيما يتعلق بكاسترو فإن "غرائز الأمة الطبيعية ضد الرئيس. وكوبا قريبة جدًا". غير أن كينيدي، بسبب إحساسه الشديد بالمخاطر السياسية، أخفى الأمر حتى عن مستشاريه المقربين جدًا. فلا الناطق الصحفي باسم البيت الأبيض ولا مستشار الأمن القومي عرفا بهذا اللقاء إلا بعد وفاة الرئيس[44].

وقد سمح كينيدي بإجراء اتصالات أخرى مؤقتة وغير رسمية مع كاسترو.

ولم يثمر منها إلا واحدة فقط. جيمس دونوفان James Donovan، المحامي المهذار من نيويورك، وعلى مدى ما يزيد عن عشر لقاءات، استطاع أن يرتب للإفراج عن كوبيين في المنفى أسروا أثناء معركة خليج الخنازير في كانون الأول/ديسمبر عام 1962. وفي هذا الوقت نفسه تقريبًا أجرى مفاوضات لاستعادة ثلاثة من ضباط السي آي إيه تم سجنهم بعد أن قُبض عليهم بالجرم المشهود وهم يضعون وسائل تنصت في هافانا عام 1960. بعد الانتهاء من هذه المفاوضات ذكر دونوفان بأن فيدل يريد إقامة حوار لتخفيف حدة التوتر، وكان متلهفًا للحصول على فرج وارتياح من الحملات الأمريكية الكثيفة ضده[45].

أشار كاسترو بطرف خفي إلى اهتمامه هذا طوال القسم الأعظم من عام 1963 وبأساليب مختلفة. فقد اتصلت زوجة سفير هولندي سابق في هافانا مع السي آي إيه. وادعت أن فيدل: "يعمل يائسًا لأجل تقارب وذلك بسبب الفوضى الاقتصادية في كوبا". وكما أعد ريتشارد هلمز ستة تقارير رفعها عملاء وجميعها يشير إلى اهتمام كوبا بالحوار. وقد جاء في أحد هذه التقارير بأن كاسترو يشير إلى رغبته بعلاقات أفضل بسبب ضغط من الزعيم السوفياتي خروتشيف. وقال المصدر بأنه كان فقط يتبنى موقفًا تصالحيًا "حاليًا". كما اتخذت مقاربات أخرى عبر صحفية أمريكية تدعى ليزا هوارد Lisa Howard، كان دونوفان قد عرّف كاسترو عليها، وعبر وليام أتوود William Attwood المعتمد سفيرًا للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة. ولكن أيًا من هذه القشات في مهب الريح لم تفض إلى مفاوضات ولا إلى توقف العدوان كما كان فيدل يرغب[46].

جرى أول لقاء لدانييل مع كاسترو ليل العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر في هافانا. فقد كتب يقول "إنني عمليًا فقدت كل أمل، عندما جاء فيدل إلى الفندق حيث أقيم وذلك في أمسية كنت أظنها موعد مغادرتي". وصل كاسترو المعتاد على نشاطه الليلي إلى فندق Havana Libre – هلتون هافانا سابقًا – الواقع عند منعطف شديد الازدحام بين الشارعين (L) و(23) في حي فيدادو Vedado القديم قبل ساعتين من انتصاف الليل. وكانت سرية أمنه الشخصي في

نشاط متزايد بسبب ما يعرفونه من مؤامرة الاغتيال. كان يرافقه ما بين ثمانية إلى اثني عشر رجلًا مسلحًا حينما ذهب. وكان من مرافقيه شخص واحد يعد له وجبات طعامه ويقدم الطعام له حتى في المطاعم[47].

تحدث كاسترو ودانييل لست ساعات داخل حجرة هذا الرجل الفرنسي. كانا جالسين وجهًا لوجه عبر طاولة صغيرة، وفيما بعد جلسا معًا على السرير. وفي بعض الاحيان يجلس كاسترو على ذراع الكرسي ويداه في حركة متواصلة. وحيث إنه كان على علم بأن كوبيلا في طريقه الآن للقاء سانشيز في باريس حيث من المحتمل أن يستلم سلاح الجريمة، فلا بد أنه كان يتساءل في مكنون نفسه عما إذا كان دانييل قد جلب معه إنذارًا بالحرب من البيت الأبيض. فما النفاق الذي يسوّق له كينيدي الآن؟

كانت الرسالة في بادئ الأمر تصالحية. قال دانييل إن كينيدي يريد لفيدل أن يعرف بأنه يتعاطف مع الأهداف الأصلية للثورة وبأنه يأسف لدكتاتورية باتيستا. فالحاكم الفاسد ذو الصلات مع المافيا قد جسد جميع الآثام السيئة التي ارتكبتها الولايات المتحدة في تعاملاتها مع أمريكا اللاتينية. وطلب كينيدي إلى دانييل أن ينقل إيمانه بأنه لا توجد دولة عانت من الذل والاستغلال مثلما عانت كوبا قبل كاسترو. كان تلك مقدمة بارعة ترضي غرور كاسترو وتفسيره للتاريخ[48].

وتذكر دانييل أثناء لقائنا معًا في نيويورك أن كينيدي طلب إليه نقل فكرتين هامتين. فقد أراد أن يطمئن كاسترو بالقول "أنا لا أهتم بالشيوعية. ولدي علاقات جيدة مع تيتو في يوغوسلافيا ومع سيكو توريه في غينيا ... أنا لدي عدو واحد فقط. هو الشيوعية داخل الاتحاد السوفياتي وحلفائه". وتذكر دانييل أن كينيدي أضاف قائلًا: "لا أبالي إن بقي كاسترو شيوعيًا". والرئيس قد يتعامل مع كاسترو إذا كان مستقلًا عن موسكو وتوقف عن التدخل في أمريكا اللاتينية. وقد عبر عن هذه الأفكار نفسها في خطابه المعروف باسم خطاب شاطئ ميامي". وقال: هذه هي المشاكل الوحيدة. "وطالما كان هذا صحيحًا فلا شيء ممكن. وبدونها كل شيء ممكن"[49].

كان كينيدي يفكر بتيتو بصورة رئيسية. فهذا الزعيم اليوغوسلافي قطع علاقته بالاتحاد السوفياتي عام 1948 وأعلن أنه ماركسي مستقل. وفيما بعد كان أحد مؤسسي كتلة دول عدم الانحياز وحافظ على علاقات ودية مع كل من واشنطن وموسكو. وأعاد كينيدي إلى ذهن دانييل أثناء اجتماعهما في المكتب البيضوي بأنه استقبل تيتو قبل ثلاثة أيام. "هنا" في الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض. "وكانت محادثاتنا إيجابية جدًا".

فهل يمكن إقناع كاسترو بطريقة ما بأن يصبح تيتو منطقة الكاريبي؟ لقد كان هذا الاحتمال موضوع تفكير كينيدي والشغل الشاغل له لما يزيد عن عام. ففي حزيران/يونيو 1962 تحدث مع هربرت ماثيوز Herbert Mathews حول كيف يمكن لكاسترو "أن يصبح تيتو". وتتذكر هذا الصحفي أن كينيدي قد راقته هذه الفكرة وأراد أن يعرف "ما الذي يمكننا نحن أن نستخدمه طعمًا له". سيكوتوري الشيوعي غير المنحاز، رئيس غينيا هذه الدولة الصغيرة الواقعة على الساحل الغربي لأفريقيا نموذج آخر لما كان كينيدي يفكر به[50].

ولكن لا أحد يفهم فيدل جيدًا يعتقد بأنه يمكن أن "يصبح تيتو". كبير مستشاري كينيدي لشؤون أمريكا اللاتينية ومساعد وزير الخارجية إدوين مارتن Edwin Martin، وهو من بيروقراطيي السياسات الدهاة ولديه فهم عميق لكاسترو، حذر قبل بضعة شهور بأنه لا سبيل إلى جعل فيدل يغير لونه، فهو "ثوري صادق" كما قال مارتن أمام مجموعة العمل السياسي الرفيعة المستوى، ولا توجد "أية إمكانية" بأن ينشق عن المعسكر السوفياتي. وإن قدر له بأن يقترب أكثر من الولايات المتحدة فسوف يكون ذلك لأسباب تكتيكية وعابرة. "لن يبقى جاهزًا". وهذا يعني ضمنًا أنه رجل لا يمكن الوثوق به. فهو سوف ينكث عهده في أي صفقة قد تفيده من جراء امتيازات أمريكية. وعلاوة على ذلك، وكما قال مارتن، كيف يمكن للولايات المتحدة أن تحل محل الاتحاد السوفياتي في كونه المحسن الاقتصادي البار لكوبا؟ فقد بلغت المساعدات السنوية نحو خمسة مليارات دولار[51].

كانت الاستخبارات بجميع فروعها تفكر تفكيرًا متماثلًا. فقد صدر في

تقرير تقييمي في حزيران/يونيو عام 1963 للاستخبارات الوطنية إقرار بوجود "مؤشرات متفرقة عن اهتمام" لدى فيدل بعلاقات أفضل. إنما هي واحدة من بدائل عديدة كان يفكر بها. فقد جاء قول المحللين بأنه كان مدفوعًا لذلك بأمل تخفيض خطر تدخل الولايات المتحدة وكسب الوقت لتوطيد دعائم النظام. لكن لدى هؤلاء المسؤولين عن هذا التقرير معرفة ضئيلة جدًا عن حرب السي آي إيه الخفية، إنما كانوا على حق في نسبهم اهتمام كاسترو بالحوار إلى خوفه من تزايد سرعة العدوان الامريكي[52].

ومع وصول الساعات المتأخرة من الليل في فندق Havana Libre إلى نهاياتها تبين بوضوح أن إدوين مارتن والمحللين على صواب في تقديراتهم. فقد وقعت محاولة انفتاح كينيدي من خلال دانييل على آذان صم. فيدل لن يصبح تيتو آخر أو سيكوتوري آخر. وهو لن يكف عن دعم ومؤازرة مقاتلي وثوار أمريكا اللاتينية. منذ بضعة أسابيع خلت قال لماثيوز مراسل نيويورك تايمز: "بالطبع نحن نقوم بأعمال تخريب وتدريب مقاتلين ودعاية! ولماذا لا؟ هذا عين ما تفعلونه لنا"[53].

لن يتخلى كاسترو مطلقًا عن المعتقدات الماركسية أو عن التحالف مع موسكو. وقال محتدًا لدانييل: "لا أريد مناقشة علاقتنا مع الاتحاد السوفياتي. فأنا أجد هذا الأمر غير لائق". الثورة وأيديولوجيتها غير قابلة للإلغاء وكراهية فيدل للولايات المتحدة لا سبيل إلى تغييرها. وقال لدانييل بأنه وكوبا يجب "القبول بهما كما هما". وهذا خطه الأحمر ولم يتغير قط طوال سني وجوده في السلطة.

وبحسب هذا المنطق فإن أي تنازلات تقدمها كوبا في سبيل تحسين العلاقات ستكون تكتيكية وعلى الهامش. هافانا لن تشعر أبدًا بالالتزام نحو تقييد سياساتها الخارجية الثورية أو دعاياتها المغرضة والسامة المناوئة لامريكا. الثورة غير قابلة للإلغاء. وستواصل دعمها لأمثالها من الثوار في أمريكا اللاتينية وفي أي مكان آخر. ولن يدفع بنس واحد تعويضًا عن ممتلكات أمريكية مصادرة في كوبا. والقوة العسكرية السوفياتية الكبيرة ستبقى في الجزيرة. وحتى لو تحسنت

العلاقات فإن المخابرات الكوبية ستواصل استهداف صناع السياسة في واشنطن والمنفيين في ميامي وستقوم بحملات عدائية ناشطة ضد المصالح الأمريكية.

كان تمسك فيدل القوي والصلب بمعتقداته الأساسية ظاهرًا بجلاء في مناسبات عدة سابقة. ففي خطاب بمناسبة الذكرى السنوية بتاريخ 26 تموز/ يوليو قال بصوته الجهوري أمام حشود ضخمة تجمعت في ساحة الثورة Revolutionary Plaza: "ماذا يريدون؟ هل يريدوننا أن نقدم بعض التنازلات الأيديولوجية؟ لن نفعل ... وعليهم أن يتفاوضوا مع الحكومة الكوبية الماركسية اللينينية". وكان الروائي البريطاني غراهام غرين، صاحب رواية *Our Man in Havana* – وهي كوميديا سوداء حول نقاط ضعف عملاء المخابرات – حاضرًا في تلك المناسبة. وقد أعجب كثيرًا بقدرة فيدل على إضحاك الجماهير وتثقيفهم عقائديًا في آن. يقول غرين فيما كتبه عندما ذكر كاسترو خليج الخنازير جثا "شاب كوبي على أطرافه الأربعة أمامي وأطلق صوتًا يحاكي صوت الخنزير"[54].

كانت كراهية الإمبريالية تكلل الموقف الاستراتيجي الذي التزمه فيدل لما يتبقى من حياته. بعد ثلاثة وعشرين عامًا قام آرثر شليزنغر Arthur Schlesinger المؤرخ والصديق الملازم لكينيدي ومساعده في البيت الأبيض بزيارة إلى كوبا وأجرى محادثات مع كارلوس رفائيل رودريغز Carlos Rafael Rodriguez الذي كان آنذاك الشخصية الثالثة من حيث قوة نفوذها في هذا النظام. وسمع من رودريغز قوله: "نحن نريد علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة، لكن كلمة 'طبيعية' لا تعني بالضرورة 'ودية'، نريد التعايش معًا على قاعدة الاحترام المتبادل". وهذا بالطبع ترجمة جديدة لعبارة قالها فيدل سابقًا: "اقبلونا كما نحن"[55].

وقد رفض كاسترو على مدى سنين دعوات جادة ممن لا يقل عن أربعة رؤساء أمريكيين لاحقين. والسبب دومًا هو نفسه، لا يتغير. العداء لأمريكا المسيطر على نظرة فيدل للعالم. فهو يسعى دومًا للظهور بمظهر العظمة على المسرح العالمي، يسعى للشهرة والقوة والمجد بأنه قائد قضايا الثورات في

أمريكا اللاتينية والعالم الثالث. كانت رؤيته تعكس موقف المحارب، والرغبة بمحاكاة الفاتحين والأبطال الذين أحبهم وأعجب بهم منذ طفولته: الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون. وكما قال فيدل في خطاب له ألقاه في كانون الثاني/ يناير عام 1963: "يا سيد كينيدي هنالك الكثير من الدماء بيننا"[56].

فكانت المواجهة الدائمة مع الولايات المتحدة ذريعة شرعية يتذرع بها في سبيل طموحاته العملاقة. كان فيدل يعرف أن ليس بمقدوره أبدًا أن يكون الشخصية التي تسمو فوق الوجود المادي على المسرح العالمي إذا كان بنظر الآخرين مغلولًا ومقيدًا بالولايات المتحدة. فهذا الصراع الطويل مع القوة العظمى، أمريكا، الذي يشبه صراع النبي داود مع جالوت الطاغية هو صراع حتمي وذلك إلى أن يأتي رئيس في المستقبل يقبل به وفق شروطه.

* * *

لو ترك الأمر له لتحدث طوال الليل في لقائه هذا في فندق Havana Libre، لكن جان دانييل كان متعبًا جدًا. وعندما أرجأ حديثهما كان ذلك بناء على تفاهم بأن يعود فيدل بعد الفجر ليصحب دانييل وزوجته إلى فاراديرو. وفي صباح اليوم التالي كان هو شخصيًا يتولى قيادة سيارة الجيب باتجاه الشرق ولمسافة خمسة وسبعين ميلًا على طول الساحل الشمالي حتى وصلا إلى المنزل على الشاطئ. الحراسة الأمنية مشددة. وفي هذا يقول المنشق رودريغز منيير بأن كاسترو في تلك الأيام كان يخرج في جولاته على الطرقات بمرافقة سيارة شاحنة تحمل أجهزة اتصالات وشاحنة أخرى تحمل مدفعًا 35 مم للحماية من احتمال حصول هجوم من الجو[57].

واستمر الحديث حول كينيدي لما تبقى من النهار واليوم التالي. ومع رفض كاسترو لاقتراح كينيدي بخصوص تيتو تكون مهمة هذا الفرنسي قد انتهت جوهريًا. وظل كينيدي كل تلك الأيام الباقية له قبل وفاته في المأزق نفسه مع كاسترو كالسابق. ولن يكون ثمة مخرج من صراعهما المميت. وربما لن يحصل أي تلاق في الأفكار فيما لو انتخب كينيدي لولاية ثانية عام 1964. لم

يكن لدى أي من الرجلين نية للتوصل إلى تسوية لقضايا ذات أهمية كبرى.

ومع ذلك تواصلت تلك الأسطورة التي تحكي عن مناورات كل من كاسترو وكينيدي ضد بعضهما في خريف عام 1963. يؤكد مؤرخون ومحللون بارزون بأن الزعيمين كانا قبل حادثة الاغتيال في مدينة دالاس قريبين جدًا من التصالح. ويبدو أن بعض هؤلاء قد استنتج بأن التقارب أمر أكيد تقريبًا وحتمي في ولاية الرئيس الثانية. وفي هذا السياق نجد روبرت دالك Robert Dallek كاتب سيرة كينيدي – والذي لا يدعي بأنه خبير في شؤون كوبا أو فيدل كاسترو – يطرح السؤال: "من ذا الذي يشك بأن تسوية كوبية أمريكية قد تكون واحدة من إنجازات سنوات كينيدي الأربعة التالية؟"[58]

وبالمثل، نجد تيد سورنسون مستشار كينيدي المقرب وكاتب خطبه يذكر فيما كتبه عام 2008 بأنه تكوّن لدى كينيدي شيئًا فشيئًا "احترام حاقد لكاسترو"، وهو يعتقد أن الاثنين في يوم ما "سيمتعان نفسيهما بحوار شخصي يكون الإعجاب الخاص المتبادل قد لعب دورًا رئيسيًا فيه". وذكر موضوع الاحتمال الخاص بتيتو. سورنسون يعرف كينيدي معرفة جيدة، إنما لا يعرف كاسترو ولم يستطع أن يفسر كيف يمكن إقناع فيدل بالتخلي عن كل شي يؤمن به. المؤسف أن سورنسون انخدع بحملة تضليل إعلامي كوبية استمرت لعقود من الزمن. لكن سام هالبرن وصف احتمال حصول تقارب بين كينيدي وكاسترو عام 1963 بأنه "مجرد هراء بالمطلق"[59].

إن الاعتقاد بحصول تصالح بين كينيدي وكاسترو نجح وانتشر بسبب قوة وبراعة الإعلام والاستخبارات الكوبية التي لا تعرف اليأس. بعد 22 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1963 لم يتحدث فيدل أو يكتب عن كينيدي دون أن يؤكد أنهما كانا على حافة التقارب. وعلى الرغم من كل الدلائل المشيرة إلى عكس ذلك، فهو يدعي أنه معجب بالرئيس ويحترمه. وقد تم الدفع بهذه المواقف بفعل عملاء اختراق كوبيين وكذلك بسبب إجراءات ناشطة تستهدف الأمريكيين تولتها المخابرات العامة.

ففي مقابلة حول سيرته الذاتية أطنب فيدل في مدح كينيدي، قائلًا إن موته "أثّر بي وأحزنني". ودون خجل حدّث جون كينيدي الابن عندما زاره في هافانا عن إعجابه بالرئيس، ممتدحًا "شجاعته" ومؤكدًا بأن العلاقات قد تنصلح لو أن الرئيس بقي على قيد الحياة. ظلت هذه الأفكار تتكرر في خطابات كاسترو وعبر الإعلام الكوبي وبرامج الاستخبارات لما يقرب من خمسين عامًا. وهدفها هو دومًا تبرئة فيدل ورؤساء أجهزة استخباراته من أي مسؤولية عن مقتل كينيدي[60].

ولكن وأثناء أحاديثه الكثيرة مع دانييل كانت مؤامرات السي آي إيه لاغتياله لا تفارق تفكيره. ويبدو أنه دونما سبب ظاهر وأثناء جلسة لهما في وقت متأخر من الليل في فندق Havana Libre، قال للصحفي بأنه ليس خائفًا على حياته. والخطر "بيئته الطبيعية". وقال بأنه لو قتل فإن قتله سوف يعزز قضايا ثورته ويقوي حلفاءه في أمريكا اللاتينية. وفي مرحلة أخرى من حديثهما، وحين تكلم عن كينيدي، قال فيدل: "أما أنا شخصيًا فأعتبره المسؤول عن كل شيء"[61].

ثم أضاف دون أن يُسأل وبلغة أكثر إقناعًا في محاولته إظهار معرفته الكاملة بالمؤامرات ضده قال لمحدثه: "جربوا كل شيء ضدنا، كل شيء، كل شيء بالمطلق، لكننا لا نزال صامدين". وحين التقيت بدانييل في نيسان/أبريل عام 2010 سألته عن رأيه فيما يقصده فيدل بملاحظته الأخيرة. فأجاب دون تردد "إنها واضحة كل الوضوح. فيدل أراد لي أن أعرف أن الأمريكيين قد حاولوا اغتياله. نعم، وحيث إنني صحفي فقد عرفت ما الذي يقصده"[62].

كان دانييل في التسعين من عمره حين تحدثنا معًا، مع أنه يبدو ويتصرف كما لو أنه أصغر من عمره الحقيقي بخمس عشرة سنة. جاء إلى نيويورك من باريس خصيصًا ليكون المتحدث الرئيسي تكريمًا لصديق عمره ألبير كامو Albert Camus. لكن ذكرياته عن وقت مضى ولقاءاته مع فيدل لا تزال حية في ذاكرته.

الفصل الحادي عشر

مؤامرة الصمت

يذكر ضباط السي آي إيه أنهم شعروا كما لو أنهم "أصيبوا برفسة من حمار في بطونهم". كان ذلك بعد انقضاء بضع ساعات من بدء الاجتماع الأول مع أسبلاغا في منزل آمن بفرجينيا في ربيع عام 1987. فقد كُشف أمر أكثر من خمسين عميلًا مزدوجًا للمخابرات الكوبية، واحدًا واحدًا، كانوا يعملون لسنوات ضد السي آي إيه التي لم تشتبه بأمر أحد منهم.

لقد مهد كوبيلا الطريق أمام ذلك الجيل الجديد من العملاء المزدوجين. كان خلفاؤه في هذه الخدع يتلقون مبالغ جيدة وتأتيهم الجوائز والهبات ويستمعون لعبارات التهنئة والاستحسان وفي بعض الحالات قد يعقدون صداقات مع الضباط المسؤولين عنهم، وفي كل الأوقات يفعلون ما يطلبه منهم فيدل. وتقدم حملات التضليل الإعلامي الذكي للتشويش على انتباه الوكالة وعملها وإبعادهما. ومن خلال ملاحقتهم لأنباء كاذبة كان ضباط السي آي إيه يهبّون في عمليات مطاردة الأوز البري ويصلون إلى طرق مسدودة. وكانت ثمة أمور تتعلق بمهنية الجاسوسية وبأشخاص متنكرين وينكشف أمرهم. استحوذت المخابرات العامة الكوبية على اتصالات أمريكية متطورة وغيرها من التكنولوجيا الحساسة، والتي كانت تتبادلها مع جهاز KGB. برامج السي آي إيه وأعمالها في التجنيد والتي كان مقدرًا لها أن تعطي فوائد عظيمة أُهملت لأن عددًا كبيرًا من الضباط

والموارد قد جرى تحويلها لإدارة عملاء كانوا يعتقدون أنهم جيدون. صحيح أنها لم تخسر أرواحًا لكن كبرياء السي آي إيه قد أصيب إصابة بالغة.

وقد يكون ثمة ما يطمئن عندما نعلم أنه لم توجد حادثة واحدة قط تدل على سلب أموال عملياتية أو أي ارتكابات ومخالفات قام بها ضباط أو أحد من العاملين. ولو كان هنالك شيء من هذا القبيل لتحدث عنه الكوبيون بصخب ومبالغات، لكن كل من شارك في هذه العمليات قام بواجبه بشرف ونبل وحرفية. هذه ملحوظة غريبة على أخلاق العمل الاستخباري في الصراع والذي لم يلجأ فيدل أو مخابراته لفبركة القصص عن إساءات ومخالفات مالية. كانوا يحترمون تقريبًا كل الرجال والنساء الذين كانوا ضحية تحريضهم. وكان الأمريكيون لامبالين، يغالون في الثقة بالنفس، وينخدعون بأساليب يظنون أنها بعيدة عن التصور، لكن أحدًا منهم لم يكن غير أمين أو غير شريف أو خائنًا.

ضابط رفيع المستوى في السي آي إيه يتذكر بحزن ورثاء قبل انشقاق أسبلاغا وفراره إلينا فيقول: "لقد خسرنا حرب الجاسوسية أمام الكوبيين". هو اعتراف لا يخلو من الشعور بالذل والضعف الذي تعاملت به الوكالة بمواجهة خصوم من صنف عالمي ممتاز كانت دومًا تقلل من قدرهم وأهميتهم. أعقبت تلك فترة إعادة تجميع ولعق الجراح عكف خلالها الأمريكيون على دراسة المهنية الفذة لكوبا وجرأتها غير المتوقعة. وفي هذه المرحلة فقط بدأ فهم وتقدير الدور التنسيقي الذي يقوم به فيدل في كونه أستاذ الجاسوسية المجلّي لبلاده.

عندما بدأ أسبلاغا يتحدث عن أسرار كوبا تأكدت قيمته غير العادية في كونه الحليف الذي عُثر عليه مؤخرًا. والاسم الحركي الذي خصص له كان عنوانًا لهذه القيمة. ومع أن هذا الاسم لا يزال سرًا لم يكشف عنه، فإن اختياره لم يكن عبثًا، إذ سحب من قاعدة البيانات ممن كانوا يعرفون آنذاك في الوكالة بضباط الإشارة الترميزية. لكن ما الذي يمكن أن يكشف النقاب عنه هو أن الاسم الرمزي المخصص له يشكل تفاخرًا داخليًا خاصًا بلانغلي حول مدى علو النقاط التي كسبتها السي آي إيه ضد المخابرات الكوبية. صدرت تقارير كثيرة

وبأرقام عالية ذات اهتمام عام عندما تواصل الاستجواب على مدى فترات طويلة، ووضعت مئات العناوين العملياتية الرئيسية.

وعرف منها أن المخابرات العامة في كوبا عدو قوي ومبدع لكنه ليس بالقوة الماحقة. تحدث تايني عن أخطاء وهفوات في مهنية العمل وعن قابلية الخطأ في ثقافتها العملياتية. عندما كان يعمل في هافانا علم بمصادر سرية عميقة كان ينبغي لها أن تكون محمية بشكل آمن. والتجزئة إلى أقسام داخل المقر العام ضعيفة وبعيدة عن الصرامة. وفي أفضل الممارسات لا يوجد ضابط واحد كان ينبغي له أن يكون مكلفًا بجميع قضايا المزدوجين الذين يراقبهم ثم فضح أمرهم. الأمن في معظم الأحوال متراخ. كان ينبغي أن يتعرض هو قبل إرساله إلى براتسلافا إلى الفحص والتدقيق، إن لم يكن للشبهة بسبب دعاباته التي يقولها في بعض المناسبات حول الانشقاق والفرار. فمثل هذه الملاحظات تشبه تفكيرًا بصوت عال حول الانتحار يتحدث به شخص مكتئب، ولا بد أن تؤخذ على محمل الجد.

ولا يزال أسبلاغا حتى هذا اليوم ضابط الاستخبارات الكوبي الأكثر قيمة وأهمية يغير مواقعه. صدر بحقه حكم بالإعدام لا يزال ساري المفعول، وعلى أن يتم تنفيذه من قبل زملاء سابقين له هم من أفضل من أصدروا حكمهم بموضوع الضرر الذي تسبب به. وبحسب علمي لا أحد في لانغلي ارتاب في اختلاقه للمعلومات أو المبالغة بها أو حتى التكتم عليها. سِجِلُه لا تشوبه شائبة، كل شيء قاله تقريبًا أمكن التأكد منه بطريقة أو بأخرى. وبعضه استطعت أن أتحقق منه تحديدًا من خلال مقابلات وحوارات أجريتها مع منشق آخر من المخابرات الكوبية. وقد أخبرني أحد ضباط السي آي إيه الذين تعاملوا مع تايني منذ البداية قائلًا: "أنا لم أشك قط بصحة معلوماته". ولا أحد غيره تعامل معه فعل ذلك.

ومع ذلك، ليس ثمة ما يدعو للدهشة بأن معلومتين اثنتين هامتين كشف لنا عنهما – وهما رسالة فيدل المعروفة بالرسالة الهرمجدونية والأوامر التي تلقاها أسبلاغا صبيحة يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر – قوبلتا بالمزيد من

الشك. فقد أخبرني تايني بأن الضباط الأمريكيين الذين استجوبوه ظنوا بأن قصة والده التي رواها من على سطح الدار بخصوص رسالة فيدل الرؤيوية المرسلة في وقت متأخر من الليل إلى خروتشيف أغرب من أن نصدق. هي مجرد إشاعة ولا يمكن التحقق منها. وليس ثمة من سبيل لتقييم مصداقية أسبلاغا الأب أو التأكد من سهولة وصوله إلى كاسترو. يبدو من غير المعقول أن يطالب زعيم معروف بحساباته الاستراتيجية الهادئة بمحرقة نووية. ففي عام 1987 كان من السهل عدم الاهتمام بهذه الرواية. ومع ذلك، بعد انقضاء بضعة أعوام ثبتت صحة أقوال الأب والابن أسبلاغا عندما أكد كاسترو نفسه هذه القصة الغريبة.

وأما حكاية تايني عن معرفة فيدل المسبقة بأن أوزوالد سيطلق النار على كينيدي في دالاس فتبدو في ظاهرها غير مقبولة. ومع ذلك يجب إجراء تقييم لها والعين على سجل المعلومات التي قدمها هذا المنشق والذي لا يطاله الشك. وبادئ ذي بدء تجدر مراجعة ما يتذكره.

كان قائمًا على رأس عمله في مركز خيمانيتاس القريب من مجمع عائلة فيدل في وقت مبكر من صباح اليوم الذي حصل فيه اغتيال كينيدي. وكانت أجهزة الاعتراض لديه كالعادة موجهة نحو اكتشاف عملاء السي آي إيه والفرق المتسللة. ولم يكن لديه أي مهمة أخرى، وحتى صباح ذلك اليوم لم ينحرف عن هذه الأولوية الدائمة. وعند الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف تقريبًا حسب توقيت شرق الولايات المتحدة تلقى رسالة مشفرة بالراديو تأمره بالسير نحو بناء صغير ثان حيث يعمل أيضًا ويبعد نحو مئة ياردة أو نحو ذلك ويستخدم الهاتف الآمن هناك ويتصل بالمقر العام.

جاءه الأمر من المقر العام بالكف عن متابعته رصد السي آي إيه. قال لي تايني: "أرادوني أن أوقف عملي بخصوص السي آي إيه، كله". وأن أغير توجيه الهوائيات "من لانغلي وميامي نحو تكساس". طلب إليه أن يستمع إلى راديو وغيره من وسائل البث يقوم بها بعض الهواة، ويصغي "لأي شيء هام قد يحدث" وإعلامنا فورًا. وبعد أربع ساعات سمعت أصوات أربع طلقات نارية في مدينة دالاس. وكان استنتاجه في ذلك الإخبار الأول – وفي كل مرة أخرى

ناقشنا الموضوع – هو نفسه: "كانوا يعرفون أن كينيدي سوف يُقتل ... فيدل كان يعرف".

لم يتحدث تايني عن هذه التجربة مع أي شخص وذلك إلى أن انشق وفر من البلاد. "أنا لم أقل ذلك حتى لوالدي"، كان على يقين بأن هذه المعلومات على جانب كبير من الخطورة ولا يمكن التحدث بها مع كوبيين آخرين. كان يخشى أن تصل معرفته هذه إلى فيدل، وعندئذ سوف يكون هدفًا للإعدام. كنت أسائل نفسي في كثير من الأحيان عما إذا كانت الرغبة بإيصال قصة خيمانيتاس بسلام إلى الرأي العام بعد كل تلك السنين هي من الأسباب التي دفعت بتايني لاتخاذ قراره بالفرار. هو لم يقل لي ذلك صراحة. بل قال بأنه فر بعد أن فقد إيمانه بكاسترو والشيوعية وبسبب إعجابه الشديد بـ "البينيستا Alpinista" ضابط السي آي إيه الذي عمل ضده في هافانا. ولكن ربما أراد تايني أن يعرف العالم كله ما عرفه صبيحة ذلك اليوم الذي اغتيل فيه كينيدي، مثل تلك القصص التي رويت على سطح الدار والتي تنعكس سلبًا على شخصية كاسترو.

وأخبرني أيضًا بأنه متأكد من إعطائه هذه المعلومات أثناء جولات الاستجواب الأولى مع ضباط السي آي إيه وكما رواها لي على وجه الدقة. ويتذكر أحد الضباط أن هذا صحيح. ولكن لا تخبرنا المصادر التي رُفعت عنها السرية ما الذي حدث بعدئذ. أخبرني ضابطان آخران من السي آي إيه تعامل معهما أنهما لا يتذكران شيئًا عن هذه المعلومات الهامة. ربما كان الاعتقاد أنها مثيرة جدًا – ومشكوك بأمرها – لدرجة أنها أخفيت بهدوء، لم تكتب، ولم تسجل، ولم تذكر ثانية لأي شخص خارج الدائرة الصغرى في مقر السي آي إيه العام. وفي هذه الظروف بدا لهما أن مسايرة الظرف هي الخيار الأفضل وأنه الطريقة الأكثر حصافة في التعامل مع أمر بمثل هذه الأهمية التاريخية. وأولًا وأخيرًا، إذا تسرب نبأ وصول منشق رفيع المستوى من المخابرات الكوبية، ولا يطاله الشك ولديه معلومات جديدة عن اغتيال كينيدي، عندئذ لا يمكن اجتناب احتجاج عام.

كان رونالد ريغان في البيت الأبيض. وكانت كوبا دولة منبوذة بنظره ونظر

الكثيرين في إدارته، وهدف سياسات عرض العضلات التي لم تشاهد منذ عهد كينيدي. اشتبك الجنود الأمريكيون والكوبيون - للمرة الأولى والوحيدة - في قتال في تشرين الأول/أكتوبر عام 1983 في غرينادا، ذلك البلد الكاريبي الصغير. قتل في هذا الاشتباك تسعة عشر أمريكيًا وأربعة وعشرون كوبيًا. كاسترو يقدم الدعم للمحاربين الماركسيين في السلفادور ونظام ساندينيستا في نيكاراغوا. وفي واشنطن لا يوجد أولويات في الأمن القومي أكثر استعجالاً وإلحاحًا في عام 1987 من تلك التهديدات الثورية للمصالح الأمريكية بوحي وتحفيز من كوبا. حتى الدلائل غير الأكيدة عن وجود يد كوبية في مقتل كينيدي قد تثير شرارة ضجيج يطالب بعمل عقابي. ويبدو أن قصة تايني الجديرة بالملاحظة استعيدت سريعًا. وهذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها هذه القصة إلى السجل العام.

* * *

عندما أخذت زمام المبادرة وعبر قنوات حكومية في صيف عام 2007 للالتقاء بتايني كانت الحساسيات البيروقراطية - وربما هي جميعًا في ذاكرة قصة خيمانيتاس - قد تلاشت منذ أمد بعيد. كان هدفي، كما أوضحت للجميع، أن أكتب عن المخابرات الكوبية، وبحيث يكون أسبلاغا المصدر الرئيسي للمعلومات. وكان ثمة سابقة، فقد علمت بأن مؤلفًا آخر ليس له صلة بالسي آي إيه أجرى مقابلات معه في الثمانينيات.

لم توضع قيود على عملي غير ذلك الالتزام العقدي الذي لدي - مثل جميع موظفي السي آي إيه السابقين - ذلك بأن أحصل على موافقة الوكالة بخصوص جميع المسائل الاستخبارية. وفيما عدا نحو بضع كلمات لا تتجاوز الاثنتي عشرة التي وافقتُ على حذفها، فإن معالجتي هنا لكل شيء أخبرني به لم تعترض عليها الرقابة. لا أحد من السي آي إيه أو من أي موقع آخر حاول بطريقة أو أخرى أن يؤثر أو يغير في هذه الرواية التي كان يجب نشرها منذ زمن بعيد بسبب شدة حساسية ما كشف عنه أسبلاغا.

لم تكن لدي أي معرفة عما يمكن أن يفصح عنه حتى جلسنا معًا في أول حوار لنا. لذلك، شعرت بالدهشة ... وكنت متشككًا. ففي جميع لقاءاتنا كنت أطلب إليه أن يعيد رواية القصة، وكان يفعل ذلك في المرة تلو المرة برحابة صدر، ودون تغيير أو تحريف. وبقيت متشككًا رغم ذلك، وأعيد طرح الأسئلة الثلاثة التالية وفي كل مرة بصيغة مختلفة، وهي هل هو متأكد بأنه يتذكر الحادثة على وجه الدقة وبخاصة زمن تلقيه تلك الأوامر من المقر العام؟ لماذا افترض أن فيدل نفسه يعلم بأن كينيدي سوف يُقتل؟ أليس ثمة تفسيرات أخرى لما يتذكره؟

من غريزة ضباط المخابرات أن يبحثوا عن خلل في الدلائل وأن يعثروا على تعزيز ودليل إضافي أو معلومات موازية، وأن يقوموا بدور محامي الشيطان. كان شعوري الغريزي الأول أن أرتاب في صدق القصة. كنت أعلم أن تايني كان حديث السن يوم قُتل كينيدي، وبأنه حديث العهد في العمل الاستخباري. حماسة المراهقة أو ضبابية ما يزيد عن ثلاثة وأربعين عامًا انقضت منذ تشرين الثاني/ نوفمبر 1963 وحتى آب/أغسطس 2007 قد تشوه صورة ما يتذكره عن ذلك الصباح. وربما تكون ذكرياته قد تطورت، ربما بتأثير كوبيين آخرين في المنفى يتلهفون لتوريط كاسترو في جريمة هي الأشد سوءًا في القرن العشرين. وربما حاك هو القصة بعد انشقاقه وهروبه. هنالك أسباب عديدة تدعوني للحذر برغم معرفتي ثبات الدقة في سِجِلِّ أقواله.

قد يوجد دون شك تفسيرات أخرى أكثر براءة لما يتذكره. قد تكون الأوامر التي تلقاها من المقر العام من بعض مقتضيات عمله الروتيني. وربما يكون بنييرو ذو اللحية الحمراء ينقل إلى كاسترو كل شي يقوله كينيدي عن كوبا إبان حملته في ولاية تكساس. وفيدل يتذكر ذلك الخطاب الاستفزازي الذي ألقي على "شاطئ ميامي" قبل بضعة أيام والذي كان يهدف إلى تعزيز قوة المتآمرين الوهميين للقيام بالانقلاب. وربما توجد رسائل خفية أخرى إلى رولاندو كوبيلا تجدر مراقبتها. كان كاسترو في اجتماع مع جان دانييل، وربما يكون شديد الاهتمام بأي مسار سياسي آخر قد يحاول كينيدي نقله.

أجريت مع تايني مراجعة لما يتذكره عما حدث ذلك الصباح في الماضي

البعيد مرة تلو مرة. وكان أملي أن يزودني بتفاصيل قد تشكل دعمًا لقصته - ربما أسماء أشخاص آخرين لديهم ذكريات مشابهة أو أشخاص يشاطرونه شكوكه. من جهة أخرى فكرت بأن القصة ربما تبدي حلولًا لبعض الألغاز عند الفحص والتدقيق. كنت أصغي علّي أجد أخطاء أو تناقضات، أي شيء قد يثبت خطأه. لكنني لم أسمع شيئًا يعزز أو يقلل من شأن روايته. وفي الوقت عينه تكوّن لديّ انطباع جيد بأنه لم يزد في القول حسنًا وزينة عندما كنت ألح عليه ليعطي المزيد من التفاصيل. ولم يكن راغبًا بالحديث عن أي شيء ليس لديه علم شخصي به أو من زملاء يثق بهم. قال: "لا أحب التكهن". سألته، مثلًا، إذا كان يعتقد بأن "فيدل أمر بقتل كينيدي". وكان جوابه سريعًا، ووجدته مطمئنًا: "لا أستطيع أن أقول ذلك، ولكن في الحد الأدنى كان كاسترو يعرف أنهم سوف يقتلونه".

كان لدي شيء من الفضول بخصوص فابيان إسكالانتي Fabian Escalante الجنرال البارز والدمث في الاستخبارات الكوبية المضادة والذي سرت شائعات حول سفره السري إلى مدينة دالاس يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر. ففي هذا السياق يذكر المؤلفون، الذين شاركوا في تأليف واحد من الكتب القليلة التي تتناول مؤامرة اغتيال كينيدي والذين يتهمون كاسترو والمخابرات الكوبية، نقلًا عن المصدر الذي قدم هذا الادعاء. وثمة آخرون أعرفهم ذكروا هذا الاحتمال عينه حتى إنهم ربطوا بين إسكالانتي وأوزوالد مباشرة. سألت اسبلاغا عما إذا كان ثمة هكذا صلة. فقال: "لا أستطيع أن أقول ذلك. أعتقد أن عليك أن تكون شديد الحرص إزاء هكذا معلومات. قد يكون كاسترو قد أرسل أناسًا لينشروا معلومات مضللة". وعلى سبيل التأكيد، أعاد قول عبارته "عليك أن تكون شديد الحرص". والمعنى الضمني واضح. عناصر المخابرات الكوبية يتقنون وهم ماهرون في ترويج الإشاعات التي تفضي إلى طريق مسدود، كما هذه الإشاعة، وجميعها يقصد به إرباك أي شخص يشير إلى تواطؤ كوبي في موت كينيدي[1].

أعرب تايني عن ثقته بأن تفسيره للأوامر الصادرة إليه عن المقر العام هو تفسير صحيح. وهو لم يرَ في ذلك تكهنات بالمطلق. وقد أسس استنتاجه هذا

على تجربته اللاحقة حين عمل في مواقع ذات مسؤولية أكبر في الاستخبارات العامة والاستخبارات المضادة. تعرّف على وزير الداخلية راميرو فالديز وتفهم أسلوبه في العمل. وعرف أن لفيدل ضلوعًا في كل أمر استخباراتي له أهميته ولذلك، حين يستعيد أمورًا في ذاكرته، يكون على ثقة أكيدة بأن الأوامر التي تلقاها ذلك الصباح المشؤوم قد صدرت عن فالديز وكاسترو. وقال لي: "عملي الرئيسي وهو الأكثر أهمية يذهب مباشرة إلى فيدل".

وحتى في ذلك الشهر الأول من عمله في خيمانيتاس كان أسبلاغا قادرًا على التمييز بين ما هو روتيني وما هو عمل غير مسبوق، وكان يقول لي مرارًا وتكرارًا "الشيء الأكثر أهمية عند كاسترو هو التصدي للسي آي إيه". ومع ذلك، في ذلك الصباح "قالوا لي أن أترك كل عمل بيدي بخصوص السي آي إيه وأوجه الهوائيات نحو تكساس. تستطيع السي آي إيه دخول كوبا ولن يحدث شيء". ولم يحدث ثانية خلال فترة عمله في هذه المحطة أن تلقى تعليمات مماثلة. فقد رفع أمر متابعة رصد السي آي إيه لذلك اليوم الوحيد فقط. رفض تايني التراجع عن استنتاجه بأن "كاسترو يعلم مئة بالمئة أنهم سوف يطلقون النار على كينيدي". وألححت بسؤالي: "أليس لديك شك؟" فأجاب: "لا، لا، لا".

وعلى نحو تدريجي وعلى الرغم من عدم رغبتي للانسياق نحو مؤثرات نظريات مؤامرات الاغتيال، حسمت أمري بأن ما يتذكره أسبلاغا عن يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر يجب أن يؤخذ على محمل الجد. فقد تأكد لي أن مقدرته على تذكر التفاصيل والأسماء شبيهة بالتصوير الضوئي. ولم أجد فائدة في التشكيك فيما يتذكره حول هذه الحادثة عندما كان كل شيء آخر ذكره عن كاسترو وعن المخابرات الكوبية حسب علمي ومعرفتي دقيقًا لا جدال فيه. ورواياته المتكررة لتلك القصة عن مكان عمله في خيمانيتاس لم تخبئ أي مبالغة أو تزوير. وهو لن يكسب شيئًا من محاولة إقناعي، وليس له أي مصلحة في هذا الكتاب، ولم يطلب مني شيئًا مقابل معلوماته هذه.

بعد انتهاء اجتماعنا الأول بدأت أقلب المئات من الصفحات من مذكراته

التي قدمها لي في وقت سابق من ذلك اليوم. كانت ترجمة إلى اللغة الانكليزية عن الأصل المكتوب باللغة الإسبانية عام 1990. وسألت نفسي هل سأجد قصة خيمانيتاس في هذه الصفحات؟ واعتبرت ذلك اختبارًا حرجًا، قد يكون على الأرجح طريقة يمكن التعويل عليها لاستبعاد احتمال أن يكون قد اخترع القصة بعد وصوله إلى الولايات المتحدة. قلّبت صفحات المخطوطة سريعًا. وتضمنت جوهريًا هذه الإحاطة نفسها، تقريرًا غير منمق أو مزين، كتبت قبل ستة عشر عامًا. وكانت نهايتها على هذا النحو: "إنني على قناعة أكيدة، كما كنت دومًا، بأنني تلقيت التعليمات بمراقبة [راديو هواة وغيره من وسائط البث في تكساس] قبل حدوث محاولة الاغتيال".

وقد استطعت بالنتيجة العثور على نسخة أصلية باللغة الإسبانية لهذا المخطوط من موظف حكومي متقاعد. كانت الترجمة الإنكليزية دقيقة. وكنت في الحد الأدنى متأكدًا نوعًا ما بأن أسبلاغا لم يخترع القصة لإرضائي.

وبينما كنت أواصل عملي في تقييم قصة خيمانيتاس، تولّد لدي انطباع بأن تايني كان دومًا حذرًا، يرفض اتهام كاسترو بالتورط فعلًا في عملية الاغتيال. وهو لم يحد عن التمييز الحرج بين كون فيدل قد علم مسبقًا وبين كونه متورطًا كما رشح من معلومات. وهو لم يدّع بأن فيدل أراد أن يرى كينيدي مقتولًا أو بأنه قد دبر المؤامرة ضد عدوه. قال إن الموضوع هو أن "فيدل أراد أن يعرف ما الذي سوف يحدث ... وما إذا كان [كينيدي] سوف يُقتل حقًا أم لا". لم يحاول تايني إقناعي بأن أوزوالد كان مصدر قوة لدى المخابرات العامة أو بأنه بقي على اتصال فقط مع المخابرات الكوبية بعد مغادرته مدينة مكسيكو واستقراراه في مدينة دالاس. كان يناقش هذه الأمور بهدوء، وليس بنبرة محمومة سريعة مثل تلك الاتهامات التي تسمع أحيانًا ضد كاسترو من منفيين كوبيين.

عندما جلسنا معًا في اجتماعنا الثالث بعد انقضاء عام على اجتماعنا الأول، وبعد أن أعاد لي رواية ما حدث يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1963 بدأت أؤمن بأنه يخبرني الحقيقة دون تلميع وتنميق. واعتقدت – مثلما ظننت

بخصوص تقريره عن الرسالة الهرمجدونية – بأنه يجب تبرئته. وما يذكره عن خيمانيتاس يجب أن يوضع أخيرًا وفي مختلف الأحوال أمام الرأي العام.

وكما اكتشفت لاحقًا هناك دليل مادي صلب آخر يبدو أنه يؤيد روايته. فقد تبين لي أن تقرير جاك تشايلدز عن عملية سولو Operation SOLO المقدم إلى مكتب التحقيقات الفدرالي، وتقريرًا آخر من الصحفي البريطاني، بخصوص تهديدات أطلقها أوزوالد بقتل كينيدي متداخلان في الظاهر مع ما يتذكره تايني. كنت أعلم أن روايته لم تكن توثيقًا كاذبًا لتلك التقارير السابقة. فهو لا يعلم شيئًا عن أي من هذين المصدرين، ولم يدرِ بالكتاب الذي ألفه جون بارون John Barron الذي يحكي قصة محادثات تشايلدز مع فيدل في هافانا. فإذا كان أسبلاغا على صواب بأن كاسترو يعرف أن كينيدي سيكون هدفًا لقاتل في مدينة دالاس يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر، فإنه من المنطقي الافتراض بأنه – كاسترو – يعرف أن القاتل ليس أي قاتل بل أن لي هارفي أوزوالد هو الذي سوف يضغط على الزناد. سيكون الرجل عينه الذي هدد بفعل ذلك في القنصلية الكوبية بمدينة مكسيكو.

يفترض أن بنييرو وفالديز قد أبلغا فيدل شيئًا بخصوص أوزوالد بعد تلقيهما التقارير من ضباط المخابرات العامة في القنصلية. فقد قال كاسترو فيما بعد إن ثمة مخاوف بأن أوزوالد يمكن أن يكون محرِّضًا، وبأنه إن منح تأشيرة الدخول إلى كوبا، "لكان قد كشف أمرنا". إن مجرد هذه الشبهة وحدها كانت تقتضي أن يقوم ضباط المخابرات العامة برفع تقرير إلى هافانا، وأن هكذا تقرير كان ينبغي أن يكون ذا جاذبية كافية ليصل فورًا إلى فيدل. لا بد أن يكون ثمة ملف قد فتح في المقر العام عن أوزوالد، وبدايته عندما اتصل بمسؤولين كوبيين في لوس أنجلس عام 1959 أثناء خدمته في فرقة مشاة البحرية. ولا بد أن يكون هذا الملف قد كبر حجمه في عام 1963 بما أضيف إليه من نسخ عن أدلة وإثباتات بخصوص موقفه المقاوم الذي جاء به إلى المكسيك وبسبب أنشطته البارزة المؤيدة لكاسترو في مدينة نيو أورليانز.

ومع ذلك، من خلال أحاديثه في مناسبات عدة عن لجنة وارن وعن

التحقيقات التي قامت بها لجنة مجلس النواب الخاصة بالاغتيالات قال فيدل: "لقد أعطيناهم كل المعلومات التي لدينا". وواقع الحال أن حكومته قدمت معلومات ضئيلة وليست بذات قيمة. قدم الكوبيون صورًا وثلاث وثائق، وكلها لا صلة لها بالتحقيقات، وكان ذلك إلى لجنة مجلس النواب عندما قام الأعضاء بزيارة هافانا في نيسان/أبريل عام 1978. إحدى هذه الوثائق مقالة منحازة مجهولة المؤلف بعنوان "مؤسسات الإمبريالية السياسية والاقتصادية والعسكرية والوكالات المتخصصة بالجرائم مثل السي آي إيه". ولم يقدم الكوبيون شيئًا بخصوص محادثات أوزوالد مع مسؤولين كوبيين في مدينة مكسيكو أو عن أنشطته السابقة في ثلاث ولايات أمريكية كانت بالتأكيد موضع اهتمام المخابرات العامة[2].

وعند لقائه مع موظفي اللجنة وثلاثة من أعضاء الكونغرس في مكتبه أنكر فيدل علمه بأي شيء يتعلق بتهديد أوزوالد في المكسيك. وقال مدعيًا بأنه لو علم بشيء، "لكان من واجبنا الأخلاقي أن نبلغ الولايات المتحدة". واللافت أيضًا، وبعد الأخذ بنظر الاعتبار تاريخه العنيف المليء بالمؤامرات وقدرته على السخرية والنفاق، قال لأعضاء الكونغرس، "أنا واحد من الأشخاص البسطاء الذين يظنون أن أشياء كهذه لا يمكن أن تحدث". هكذا أداؤه طوال حياته. هذه الميلودراما خدعت كريستوفر دود Christopher Dodd عضو الكونغرس عن ولاية كونكتيكت. فقال لكاسترو: "لقد أعجبت كثيرًا بما قلت. وأجد منطقك مقنعًا". وأصبحت وجهة نظره هذه رأي الأغلبية، إذ استنتجت اللجنة في تقريرها الختامي أن حكومة كاسترو "ليست متورطة في الاغتيال". غير أن أعضاء اللجنة لم يأخذوا في اعتبارهم احتمال أن يكون لدى فيدل علم مسبق، وكان يتعين عليه أن يُحَذِّر البيت الأبيض[3].

ولكن كان آخرون يشككون في المزاعم الكوبية. روبرت بليكي Robert Blakey مدير اللجنة وكبير مستشاريها القانونيين، ومعه ريتشارد بيلينغز Richard Billings، أحد كبار المحققين، اعترضا على ما توصل إليه زملاؤهما. لم يصدقا كاسترو. بل خلصا في مذكرة مشتركة أصدراها في عام 1981 إلى استنتاج أن تقرير جاك تشايلدز بشأن تهديدات أوزوالد أكثر مدعاة للتصديق من

رفض فيدل. "نحن نميل إلى الاعتقاد بأن أوزوالد قد أطلق تهديداته". وجاء في المذكرة قولهما. "خلافًا لأعضاء اللجنة [هما يعتقدان] بأن الحكومة الكوبية حجبت معلومات هامة. ... ونعتقد أيضًا [أن نظام كاسترو] ركز نظره على مصالحه الخاصة ... [التي] تسوغ عدم قول الحقيقة"[4].

تعاون الكوبيون مع تحقيقات اللجنة إلى مرحلة معينة، وفي الوقت عينه كانوا يعرقلون عملها. طلب بليكي الاجتماع مع بتييرو ووزير الخارجية راؤل روا Raul Roa والمرأة الغامضة من مدينة مكسيكو لويزا كالديرون. لم يحصل الاجتماع، إذ لم يكن أي منهم جاهزًا: هي مريضة على حد قولها، وروا لا تسمح له ظروفه، وبنييرو "خارج البلاد". وأما روغيليو رودريغز لوبيز Rogelio Rodriguez Lopez الذي وصفه لادي لاهيرا بأنه معاون رئيس المخابرات العامة في مدينة مكسيكو والذي رأى أوزوالد وتعامل معه، فقد نقل إلى ألمانيا الشرقية. ولم تمكن مقابلته أيضًا مع أن المسؤول الكوبي أخبر اللجنة بأن رودريغز يزعم بأنه لم يتصل بأوزوالد[5].

أما أوزيبيو أزكو Eusebio Azcue القنصل في المكسيك فقد سعى جاهدًا أثناء اجتماعه مع المحققين من مجلس النواب للترويج لنظرية مؤامرة كانت شائعة إنما هي منافية للعقل والمنطق: ذلك أن الشخص الذي التقاه في القنصلية هو دجال مدع بأنه أوزوالد. لكن أحدًا من الآخرين الذين تعاملوا مع القاتل في مدينة مكسيكو لم يوافقه الرأي، ومع ذلك تمسك أزكو بأقواله "عن يقين مطلق". وزعم قائلًا: "هذه هي الحقيقة عندي". وشهد فيدل بصحة أقواله، قائلًا: "هو شخص يمكنكم الوثوق به". ويبدو مريبًا أيضًا أنه بعدما قال موظفو اللجنة بأنه لا ضرورة للالتقاء مع كوبيلا، فإن الضباط المتعاملين معه من وزارة الداخلية الكوبية أصروا على هذا اللقاء. وخرج كوبيلا الذي لُقن ما يقول من السجن ليدلي بشهادته. أثناء جلسات اللجنة تلك، ومنذ ذلك التاريخ، عمل الكوبيون على تسويق معلومات مضللة: ذلك أن السي آي إيه توزع الأكاذيب للتغطية على دورها في اغتيال كينيدي، والقوى الرجعية القوية في الولايات المتحدة تآمرت لتحمي "القتلة الحقيقيين"[6].

غير أن أحد أعضاء لجنة تشرش التي تولت التحقيق ظل على اعتقاده طوال حياته بأن كاسترو هو الذي ارتكب أعمال التغطية. كان روبرت مورغان Robert B. Morgan الديمقراطي من ولاية كارولاينا الشمالية واحدًا من ثلاثة أعضاء في اللجنة الفرعية الخاصة بالاغتيالات التابعة للجنة تشرش وكان عملها يتركز على اغتيال كينيدي. حدثني في صيف عام 2009 من منزله في مدينة ليلنغتون في الأراضي المنخفضة الرملية في شرق الولاية. قال لي هذا السناتور السابق: "أعتقد أن وفاة كينيدي نجمت عن جهود إدارته الهادفة إلى قتل كاسترو ... كيف يمكن لكاسترو أن يقول ما قاله في سفارة البرازيل ويقصد شيئًا بريئًا؟ لا يمكن لهذا أن يكون مجرد مصادفة".

كان مورغان في الثالثة والثمانين من عمره عندما تحدثنا معًا. وهاتفته دون أي مقدمات أو تحذيرات وقد ترك في نفسي أثرًا طيبًا حين أجاب من فوره على أسئلتي مستذكرًا كل شيء. حينئذ وبعد انقضاء أكثر من أربعة عقود على انتهاء التحقيقات التي أجرتها لجنته الفرعية لا يزال يشعر بانزعاج لما توصلت إليه اللجنة من نتائج. قال تطوعًا: "كان كوبيلا، وكل هذا الذي جرى، هاجسًا يؤرقني ويستبد بي منذ تلك الأيام". ولما كان على قناعة أكيدة بأن كوبيلا عميل مزدوج فقد حاول مورغان الضغط بقوة لتمرير تلك الفكرة عندما جاء نستور سانشيز للإدلاء بشهادته عام 1975، ولكن دون جدوى. قال لي: "أنا مؤمن بقوة برأيي بأن كاسترو وكوبيلا متعاونان معًا كما أنا مؤمن بقوة بكل شيء فعلته في حياتي".

قبل انتخابه لعضوية مجلس الشيوخ كان مورغان محاميًا، وسناتورًا ووزيرًا للعدل في ولايته. وأخبرني بأنه تولى محاكمة قضايا عدة منها "جرائم عقوبتها الإعدام، وجرائم قتل، ورافع أيضًا أمام المحكمة العليا". وبسبب خبرته وتجاربه هذه فهو يعتقد أنه لو جرت محاكمة فيدل لأدانه بالتواطؤ في مقتل كينيدي – فيما لو شارك في محاكمة يتخيلها. "لو أنني حاكمت في هذه القضية أمام المحكمة، فإنها ستكون أقوى قضية ظرفية عرفتها في حياتي". لكن آراء هذا السناتور لم تذكر في التقرير الختامي للجنة تشرش. كان في المستشفى

عندما كُتبت نتائج اللجنة الفرعية. "تركت أمر الموافقة على الوثيقة إلى الموظفين. لكنني لم أوافق عليها".

كان ثمة شخصيات سياسية بارزة كثيرة، بدءًا بالرئيس ليندون جونسون، يعتقدون بوجود يد كوبية في جريمة قتل كينيدي. وزير الخارجية السابق ألكسندر هيغ Alexander Haig كتب يقول: جونسون "كان يعتقد حتى يوم وفاته بأن فيدل كان وراء هذا الاغتيال". وهيغ الذي عمل في البنتاغون برتبة مقدم في المكتب الداعم لعمليات ديز فتزجيرالد شبه العسكرية، أبدى ملاحظته القائلة أن مخاوف جونسون "لها ما يبررها". كان ثمة تغطية أكيدة. لجنة وارن بكامل أعضائها لم تبلغ عن أي مؤامرات أمريكية لقتل فيدل. وقد استنتج هيغ بأنه يجب حماية سمعة الرئيس المقتول بمواجهة "أيّ إيحاء مزعج بأن كاسترو قد تصرف دفاعًا عن نفسه"[7].

وفي هذا الصدد ينقل ماكس هولاند Max Holland المتخصص بشؤون لجنة وارن ما كان يقوله الرئيس جونسون. قبل مغادرته للمكتب البيضوي قال الرئيس لصحفي وقور: "سأخبرك بشيء [عن الاغتيال] سوف يصدمك. كان كينيدي يحاول النيل من كاسترو لكن كاسترو نال منه أولًا". وفيما بعد وفي حديث له مع اثنين من رؤساء تحرير مجلات أعاد الرئيس السابق آنذاك التأكيد على اعتقاده بوجود مؤامرة. "لا أعتقد أن أوزوالد تصرف من تلقاء ذاته، علمًا أنني موافق بأنه شد على الزناد". ويشير هولاند أيضًا إلى أنه في الساعات الأولى التي تلت اغتيال روبرت كينيدي في لوس انجلس في حزيران/يونيو عام 1968، تمثلت مشاعر جونسون الأولى في تساؤله عما إذا كان كاسترو وراء تلك الحادثة أيضًا، منفذًا انتقامًا مزدوجًا من الشقيقين اللذين كان يعرف أنهما يتآمران على حياته[8].

أما ريتشارد راسل Richard Russel عضو مجلس الشيوخ عن ولاية جورجيا والذي كان عضوًا في لجنة وارن فقد رفض التوقيع على تقرير اللجنة الختامي إذا استبعدت مؤامرة تكون كوبا متورطة فيها. فكان النص التوفيقي الذي تم التوافق عليه ينص على أنه استنادًا إلى "الأدلة المتوفرة لديها" فإن أوزوالد

لم يكن متورطًا في مؤامرة. وكذلك الأمر بالنسبة لريتشارد هلمز الذي هو أيضًا أعرب على فترات متقطعة عن بعض الشكوك. فقد قال في شهادته أمام لجنة وارن: "أفترض أن هذه القضية لن تغلق أبدًا". وفي عام 1978 كان أكثر وضوحًا عندما وقف يتكلم أمام لجنة الاغتيالات في مجلس النواب، إذ قال: "وإلى أن تكون المخابرات الكوبية في هافانا على استعداد لتسليم ملفاتها ... فسوف يكون من العسير وبشكل غير عادي إغلاق هذه القضية نهائيًا وقطعيًا"[9].

* * *

غير أن الحقيقة الكاملة عن وجود مشاركة كوبية في اغتيال كينيدي لن تُعرف أبدًا على أكثر الاحتمالات. فالستائر المزخرفة من الخداع والتضليل التي نُسجت على مدى عقود من السنين في هافانا قد حجبت معظم الحقائق المتعلقة بالقضية. حملات فيدل للتشويش والتعتيم والتلفيق تجد من يصدقها في كل مكان تقريبًا وعلى وجه الخصوص داخل كوبا. الدعاية الداخلية التي يقوم بها هذا النظام أكثر تأثيرًا وانتشارًا حتى ليمكن القول إن سكان البلاد جميعًا مقتنعون بأن كينيدي ضحية مؤامرة نظمها اليمينيون.

وإن بقي أي سجلات قيود ذات صلة في كوبا فمن المرجح أن تكون قد أتلفت منذ عهد بعيد. ميغيل مير Miguel Mir المنشق عن المخابرات العامة والذي كان واحدًا من نخبة المرافقين الشخصيين لفيدل أخبرني عن توجيه صادر من الأعلى يقضي بإتلاف الوثائق الحساسة التي قد تعرض القيادة للشبهة أو الخطر في يوم من الأيام. وقال لقد طُبّق هذا التوجيه بصرامة داخل وزارتي الداخلية والدفاع. يجري تدقيق الملفات شهريًا بحثًا عن مادة تشكل إدانة أو اتهامًا. وقال مير توجد أفران حرق خاصة في كل دائرة أو قسم داخل هاتين الوزارتين. وكان رأي أسبلاغا موافقًا في هذا الصدد إذ قال إن السجلات والوثائق الخاصة بأوزوالد اختفت، لكنه أعرب عن أمله بأن بعضًا منها لا يزال باقيًا، إذ ربما ظل في دائرة النسيان داخل زوايا يغطيها الغبار في أرشيف الحكومة.

قد يكون ثمة احتمال ضئيل جدًا بوجود عدد قليل من الكوبيين الذين يملكون معلومات أولية عن هذه الجريمة الواقعة في مدينة دالاس. بنييرو وخوزيه أبراهانتيز José Abrahantes، اللذين كانا في أواخر عام 1963 في موقعين يجعلهما يسمعان أو يشاهدان شيئًا ما قد توفيا. وفيما عدا الأخوين كاسترو، قد يكون وزير الداخلية السابق راميرو فالديز على علم بما جرى أكثر من أي شخص آخر في هذه الجزيرة، وهو في التاسعة والسبعين من عمره عند كتابتي لهذه السطور، فهو عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي ونائب الرئيس في مجلسي الدولة والوزراء. وهو واحد من القادة القلة الذين يعود تاريخهم الثوري إلى السادس والعشرين من تموز/يوليو عام 1953. لكنه من غير المتوقع أن يبوح بأسرار حساسة جدًا يعرفها هو وفيدل، حتى لو أن نفوذه قد ضعف الآن في ظل نظام منافسه القديم راؤل كاسترو.

واليوم، ولو كانت لويزا كالديرون لا تزال على قيد الحياة فسوف تكون في أواخر الستينيات من عمرها (فقد ولدت في آذار/مارس عام 1943). ولعلها تعيش الآن في عزلة مبتعدة عن الناس بعد تقاعدها عن العمل في مكان ما في هذه الجزيرة. عملت في هافانا في محطة إذاعة حكومية محررة باللغة الإنكليزية منذ آب/أغسطس عام 1978 وبعد مضي خمسة عشر عامًاعلى عودتها إلى أرض الوطن من مدينة مكسيكو. وبحسب قواعد العمل الكوبية من غير المحتمل أن يسمح لها بمغادرة وطنها. فقد كتب المنشق رودريغز منيير أن العملاء عندما يفتضح أمرهم "يعطون عملًا يؤمن لهم مستوى حياة راقية، ولكن لا يسمح لهم بحال من الأحوال بالسفر خارج البلاد". وكالديرون لم تتفوه قط بكلام مسجل عن تجربتها في مكسيكو عندما جاءها أوزوالد. وتبقى قضيتها واحدة من القضايا الأشد غموضًا في شأن أوزوالد[10].

يقول فلاديمير رودريغز لاهيرا – واسمه المستعار لدى السي آي إيه AMMUG – إنه سمع شُبُهات ذُكرت أمامه في مقر المخابرات العامة بأن كالديرون قد جندتها السي آي إيه، علمًا أنه عرف أيضًا أن بنييرو رفض هذا الاحتمال جملة وتفصيلًا. وتبين لاحقًا أن بنييرو كان محقًا، إذ يتبين من وثائق

السي آي إيه التي رُفعت عنها السرية والتي تعود بتاريخها إلى أواخر السبعينيات أنها لم تكن يومًا مصدر انتفاع لدى هذه الوكالة. لكنها كانت ضابطًا في المخابرات العامة الكوبية مخلصة ووفية وتحت غطاء شديد. فهل كان لها تعاملات مع أوزوالد خلال مدة مكوثه في العاصمة المكسيكية التي امتدت لخمسة أيام؟ وهل سمعت تهديداته بقتل كينيدي؟ وهل كانا على اتصال فيما بينهما بعدما عاد إلى مدينة دالاس؟ هل كان لديها معرفة مسبقة عن الاغتيال، كما يبدو أنها توحي بذلك أثناء حديثها الهاتفي المسجل؟ هذه أسئلة لن تطرح عليها، ذلك أن الحكومة الكوبية قد حظرت عليها الاتصال مع الآخرين لعقود من السنين[11].

لو أن حكومة تأتي بعد كاسترو وتكون على استعداد لمتابعة هذه المعلومات الأولية وتفتح أي سجلات باقية لم تتلف وتضمن حضور الشهود، فإنني أعتقد بأنه من الممكن إثبات معرفة الحكومة الكوبية المسبقة بموت جون كينيدي دون أي شك معقول. ولكن حتى يحدث هكذا اختراق تبقى الأدلة الإضافية المقدمة من اسبلاغا ولادي رودريغز لاهيرا، مضافًا إليها تقرير جاك تشايلدز أساسًا لتكهنات مقنعة. ويمكن بناء قضية على إجابات تقدم بخصوص سؤالين عامين: ما الذي حدث في القنصلية الكوبية وجعل أوزوالد يهدد بقتل كينيدي؟ كيف عرف فيدل والمخابرات العامة أن أوزوالد سوف يصوب بندقيته على كينيدي عندما يمر موكبه أمام مستودع كتب تكساس بمدينة دالاس؟

طرحتُ السؤال الأول على ضابط سابق في السي آي إيه، وهو من أفضل الضباط وقد عمل ضد المخابرات الكوبية لسنوات عدة. كان راغبًا بالتوقع والتكهن لكنه آثر أن يبقى مجهول الاسم. وهذا ما أخبرني به حرفيًا:

> "لا بد أن الكوبيين في السفارة قد ظنوا في بادئ الأمر أن أوزوالد عميل للسي آي إيه. لذلك، يتعين عليهم أن يقوموا بتدقيق شديد، مع المقر العام ومع الـ KGB، ومع المنظمات وأجهزة المخابرات الشقيقة، وحتى مع الجماعات الراديكالية التي لهم نفوذ فيها، وربما ليست تحت سيطرتهم. ولكن ربما أعطوه أيضًا جرعة جيدة من "التثقيف السياسي" أي دعاية كثيرة وتدريبًا عقائديًا حول سياسات كوبا الثورية

واهتماماتها ومخاوفها. وقد تضمن ذلك بكل تأكيد شجبًا وإدانة للسي آي إيه ومحاولات قتل كاسترو. ربما هم شجعوه على العودة إلى تكساس والعمل بجد ودأب لصالحهم، من خلال دعم وتأييد مواقفهم. لكنهم لم يجندوه في مؤامرة للاغتيال. إنما يُحتمل أن يكونوا قد زرعوا البذرة فيه. وهذا "التثقيف السياسي" قد يجعل منه ثائرًا ومهتاجًا، ويعطيه دفعًا جديدًا وحتى عنيفًا. هذا باعتقادي هو المكان الذي منه أخذ أوزوالد فكرة الاغتيال".

إذن هذا المعاون الشاب المنزعج لكاسترو كان هدفًا مثاليًا لابتزاز سيكولوجي. ففي بيان صحفي عام 1967 قال روبرت، شقيق أوزوالد: "بما أنه يسهل التأثير على 'لي'، فإن شخصًا ما قد يحرضه على القيام بجريمة"[12].

يعرف الجميع أنه حاول إعطاء الكوبيين الانطباع بأنه مخلص للثورة، وبتحركه النشيط دفاعًا عن قضاياهم وعن تلهفه لحمل السلاح من أجل فيدل. ولعله تباهى أمامهم بمحاولته في شهر نيسان/أبريل المنصرم قتل الجنرال ووكر المتقاعد. غير أن تهديد كاسترو الموجه ضد كينيدي كما ورد في مقابلة دانييل هاركر نشرت في صحيفة *Times Picayune* في مدينة نيو أورليانز قبل أقل من ثلاثة أسابيع من وصول أوزوالد إلى مكسيكو. هنالك احتمال بأنه قد قرأها وفهم لماذا وجه كاسترو تهديده لكينيدي، ووجد في نفسه صورة فيدل الذاتية بأنه الضحية البريئة للإمبريالية الأمريكية المتوحشة.

ففي هذه الظروف من المنطقي أن يكون واحد من مانويل فيغا، وروغيليو رودريغز وألفريدو ميرابال – وهم عناصر المخابرات العامة الثلاثة في مدينة مكسيكو – أو ثلاثتهم قد أذكوا أُوار حقد أوزوالد. ومن المحتمل أن يكون أزكو المنحرف الكاره لأمريكا قد شارك في ذلك أيضًا. فمثل هذه الدعايات المغرضة والمحاولات التحريضية ممارسات اعتيادية يقوم بها العملاء الكوبيون في الخارج، سواء في إغواء الشباب في أمريكا اللاتينية لحمل السلاح في بلدانهم وليحاربوا أو لإغرائهم للدخول في علاقات تعاون سري. وهم يتقنون ما يفعلون، وأوزوالد لا يحتاج للكثير من التحريض.

لذلك، عندما غادر القنصلية وصرخ بصوته العالي حول نيته في قتل

كينيدي، فذلك ليس أكثر من صرخة حرب يطلقها جندي معبأ ومشحون دفاعًا عن فيدل. فإن لم يستطع الحصول على تأشيرة سفر إلى كوبا، فسوف يكون إرضاؤه من خلال قيامه بعمل خاص بالثورة في تكساس، وحالما تتاح له الفرص الجيدة، فسوف يفعل ما هو أكثر من توزيع منشورات "عاش فيدل". وهنالك مصطلح آخر - يشبه التثقيف الثوري - تستخدمه كثيرًا المخابرات الكوبية. إنه يلخص ممارسة مفضلة في عملهم، ويستخدم مرارًا في عمليات الخداع والتضليل وهو مصطلح "dandole cuerda" أو "تصفيته".

عند وصوله إلى دالاس قادمًا من مدينة مكسيكو عصر يوم الثالث من تشرين الأول/أكتوبر قام أوزوالد باستئجار غرفة مفروشة في حي أوك كليف Oak Cli في المدينة، ثم انتقل بعد أسبوع واحد إلى غرفة ليست بعيدة تقع في شارع North Beckley. أما مارينا وابنتها جون June - ولدت لهما ابنتهما الثانية راشيل في وقت لاحق من ذلك الشهر - فكانا يقطنان في إحدى الضواحي مع صديق. كان أوزوالد يزورهما في نهاية كل أسبوع، ما عدا ذلك الأسبوع الذي سبق واقعة الاغتيال، فيما عدا ذلك، كان يعيش وحيدًا مثل الراهب. في غرفته هذه كان يحتفظ بمذياع يلتقط الموجة القصيرة اشتراه من الاتحاد السوفياتي، ويبدو أنه يستمع في المساء إلى راديو هافانا باللغة الإنكليزية وما يبثه من دعايات. يقول فنسنت بوغليوزي Vincent Bugliosi مؤلف دراسة عن الاغتيال تقع في نحو 1500 صفحة بأن "لي كان على الأعم الأغلب يستمع لكل شكوى من هافانا"[13].

وكما أوضحنا آنفًا، وصلوا إلى الذروة في الأسابيع التي سبقت موت كينيدي. بدأ الإعصار فلورا Flora يضرب الجزيرة بعد يوم واحد من وصول أوزوالد إلى تكساس. وفي 11 تشرين الاول/أكتوبر أعادت الصحافة والإذاعة في كوبا التأكيد على شجب فيدل للمساعدة الأمريكية الإنسانية التي وصفها بـ "النفاق". كما أن ظهور فيدل المتكرر والمتأجج على التلفزيون فيما بعد وخلال شهر تشرين الأول/أكتوبر وبداية تشرين الثاني/نوفمبر حيث أخذ يشجب بقوة هجمات كوماندوس السي آي إيه وأعمالهم التخريبية قوبل بتغطية واسعة في

الإعلام الرسمي الكوبي. وفي هذا السياق ينقل بوغليوزي عن إحدى الإذاعات يوم الخميس الواقع في 24 تشرين الأول/أكتوبر قولها التالي، وهنالك فرصة أكيدة لأن يكون أوزوالد قد سمع ذلك وهو في غرفته التي استأجرها مقابل ثمانية دولارات في الأسبوع[14].

"تعمل السي آي إيه بأوامر مباشرة من الرئيس ... عندما يشنون هجوم قرصان على الساحل الكوبي، ويقتلون أحد رجال الميليشيا أو معلمًا، وعندما يرتكبون أعمالًا تخريبية ... فهم يعملون بأوامر مباشرة من رئيس الولايات المتحدة".

وعندما يستمع أوزوالد إلى هذه الإذاعات ويقرأ صحيفتي *The Worker* و*The Militant* – وهما من المنشورات الماركسية التي تمجد كاسترو وتهاجم الإمبريالية الأمريكية – يكون قد تشرّب وتأثر كثيرًا بآخر ما تبثه الدعاية الكوبية. وقد لحظت لجنة وارن أنه أخبر أحد معارفه في مدينة دالاس، "وعلى ما يبدو بكل جدية أنك تعرف ما الذي يريدونك أن تفعله ... وذلك من قراءة ما بين السطور". صحيفة *The Militant*، الأسبوعية ذات التوجه التروتسكي من نيويورك، نشرت ترجمات لكامل نصوص خطب كاسترو الأكثر أهمية. وفي عددها الصادر في السابع من تشرين الأول/أكتوبر اقتبست خطاب فيدل الذي ألقاه في 28 أيلول/سبتمبر حيث قال: "نحن لا نستطيع أن نعتبر أنفسنا في حالة سلم مع إمبريالية تزيد من جهودها لخنقنا"[15].

في 16 تشرين الأول/أكتوبر بدأ أوزوالد عمله لدى مستودع كتب تكساس. وفي الحادي عشر منه نشرت صحيفة The Militant عرضًا مطولًا لغارات كوماندوس شُنَّت في تشرين الأول/أكتوبر من قبل السي آي إيه وتسليم قنابل الفاكهة وغيرها من المتفجرات المعلبة. وحيث إنه مشترك وفيٌّ في هذه الصحيفة، فمن المؤكد أن أوزوالد قد قرأ "ينبغي على كل أمريكي محترم أن يغضب ويثور على حقيقة أن الحكومة الأمريكية ردت على كارثة الإعصار ... من خلال رفع وتيرة غاراتها التخريبية". فكان غضبه، وهو دائمًا قريبًا من السطح، يتزايد ويشتد.

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر تحدثت صحيفة *Dallas Morning News* لتعلم قراءها بأن كينيدي سيأتي لزيارة المدينة يوم الثاني والعشرين من الشهر. ثم نشرت أول إشارة إلى أن الرئيس سيلقي خطابًا في مركز *Dallas Trade Mart* التجاري، وبالتالي فهنالك احتمال بأن يمر موكبه قرب مستودع الكتب يوم الخامس عشر من الشهر ذاته. لكن طريق الموكب الرئاسي بتفاصيله لم تنشر في الصحف المحلية حتى يوم الثلاثاء التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر. ومن خلال تغطيتها للحدث نشرت صحيفة *Dallas Tjmes Herald* نبذة عن خطاب الرئيس الذي ألقاه في موقع Miami Beach في اليوم السابق. كان العنوان الرئيسي على صدر صفحتها الأولى. "كينيدي يدعو فعليًا لانقلاب في كوبا". لذلك يمكن الافتراض بكل ثقة أن أوزوالد في هذا الوقت بات على علم ببعض البرامج الأمريكية السرية الأكثر تطرفًا وفتكًا إضافة إلى علمه بدعوة كينيدي لانتفاضة عسكرية تطيح بفيدل[16].

إذن في هذه الأيام الثلاثة التي سبقت الاغتيال بدأ أوزوالد يفكر بالفرصة التي نشأت. الرئيس سوف يمر مباشرة قبالة نوافذ المبنى حيث يعمل. وفي ليل الثلاثاء واصلت محطة إذاعة هافانا بث تفاصيل غارات أخرى لم تتوقف من قبل السي آي إيه على السواحل الكوبية. فإن كان أوزوالد لم يكره كينيدي حقًا قبل ذلك – كما قالت مارينا فيما بعد – فإنه في الأسابيع الأخيرة التي سبقت مصرعه بدأ يزدري الرئيس ويحتقره[17].

كانت بندقيته صنع Mannlicher - Carcano (التي أطلق بها النار في نيسان/أبريل على الجنرال ووكر) ملفوفة ببطانية داخل مرآب عائد لبيت الأسرة حيث تقيم مارينا. وهو أمضى ليلته قبل الاغتيال معها، وفي الصباح حمل معه البندقية إلى مستودع الكتب ملفوفة بورق، واصفًا هذه اللفافة بأنها تحتوي قضبانًا للستائر.

لكن أيًا من التحقيقات التي أجريت بخصوص مقتل كينيدي لم يقدم دليلًا واحدًا على أن أوزوالد بقي على اتصال مع المخابرات الكوبية بعد مغادرته لمدينة مكسيكو. إنما بافتراض أن رواية أسبلاغا يمكن الوثوق بها فإنه يصح القول بأنه

لا يوجد أي تفسير معقول آخر يبين كيف عرفت المخابرات الكوبية مسبقًا بنوايا القاتل.

إن إقامة علاقة سرية ليست بالأمر العسير في مدينة دالاس. هنالك العشرات من الكوبيين، ومعظمهم من اللاجئين الجدد، استقروا بهذه المدينة. وما إن حل شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1963 حتى كان ما لا يقل عن 125 منهم قد شكلوا جالية لها نسيجها المحكم من المهاجرين. وقد أخبرتني امرأة أمريكية من أصل كوبي، كانت عضوًا بارزًا ونشيطًا فيها، بأن أوزوالد كان يتصل مع بعض هؤلاء المهاجرين، وتزعم أنها التقته. وحدثني شخص آخر من المهاجرين، وهو الآن في الثمانين من عمره، عن أحوال المنفيين المقيمين في دالاس. كان في عام 1963 محاربًا لا يعرف الخوف ضمن فرقة (Commandos L)، وهي واحدة من الفرق الأكثر عداء في منظمات المنفيين المناوئين لكاسترو الموجودة في ميامي. قال لي: "لدينا جماعة في دالاس. كنا سبعة، و'روبرتو' هو الرئيس". وهكذا أفراد قد يكونون أهدافًا يانعة لعمليات اختراق تقوم بها المخابرات العامة. من أجل ذلك، قد تكون دالاس ندًا لميامي ونيو أورليانز حيث توجد الجاليات الكوبية الكبرى التي يسودها غليان لمكائد ضد كاسترو أو لصالحه.

ليس من الصعوبة في شيء أن يكون أوزوالد على اتصال مع شخص ينتمي إلى المخابرات العامة، سواء بصفة "لاشرعي" أو عميل كوبي موثوق. ولكن قد تكون ثمة طريقة أكثر سهولة له للتعبير عن نواياه. فقد احتفظ لديه برقم هاتف سيلفيا دوران Silvia Duran موظفة الاستقبال المكسيكية في قنصلية كوبا بمدينة مكسيكو، ورقمها مكتوب بخط واضح وبارز في دفتر العناوين لديه الذي صودر مع متعلقاته الأخرى بعد اعتقاله. قد يكون اتصل بهذا الرقم وتحدث مع دوران التي جمعتها به صداقة وربما تواعدا معًا خلال فترة زيارته في شهر أيلول/سبتمبر السابق. وكل ما يلزمه أن يتصل بهذا الرقم من خلال هاتف عمومي على قارعة الطريق لتعلم المخابرات العامة خطته لقتل الرئيس. وكل ما يلزمه قوله هو: "يوم الجمعة سوف أفعل ما قلته لكم"[18].

وقد تكون لويزا كالديرون هي التي تلقت مكالمته. المعروف أنها هي من

يرد على الهاتف حين تكون ديوران غائبة عن المكتب. توجد برقية أُرسلت من محطة مدينة مكسيكو إلى المقر في لانغلي تدل بوضوح على أنه في الثاني من كانون الأول/ديسمبر وردت مكالمة بصوت أمريكي ذكوري: "يسأل عن سيلفيا ديوران التي لم تكن موجودة". وتحدثت كالديرون مع الرجل بدلًا عنها. ولغتها الإنكليزية جيدة جدًا، فقد عاشت في ميامي مع والديها من عام 1951 وحتى 1960. وإذ إنها فعلًا تكلمت مع أوزوالد قبيل الاغتيال، فهذا يفسر سبب قولها للمتكلم المجهول على الهاتف بعد مقتل كينيدي مباشرة: "عرفت ذلك قبل أن يعرف كينيدي"[19].

على أية حال، كان ثمة اتصال، وربما ذهب أوزوالد إلى ما هو أبعد من ذلك. لعله أوضح أن فرصته المفضلة في طريق الموكب الرئاسي قد تتيح له رمية سهلة ونظيفة. ولعله، أحس بالتباهي إزاء أوراق اعتماده في فرقة مشاة البحرية بأنه رام ماهر. تشير رواية أسبلاغا الخاصة بخيمانيتاس أن المخابرات الكوبية قد أخذته على محمل الجد.

لا بد أن بنييرو وراميرو فالديز وفيدل قد علموا بنوايا أوزوالد فورًا. وعندئذ وفي صباح 22 تشرين الثاني/نوفمبر، ومن غير أن يعلم على وجه الدقة كيف هو جدول مواعيد كينيدي في دالاس أصدر المقر العام أوامره إلى تايني وقبيل ساعات معدودة من وصول كينيدي إلى دالاس من مدينة فورت وورث Fort Worth حيث أمضى ليلته. ولا بد أن يكون المسؤولون الكوبيون القلائل الذين يعرفون خطة أوزوالد قد تساءلوا عما إذا كان الشاب الأمريكي الغريب سينفذ تهديده، ربما عدوا ذلك غير محتمل الوقوع في أحسن الحالات إنما المراقبة واجبة. كانت المهمة المعهودة إلى أسبلاغا أن يستمع ويبلغ رؤساءه بأول إشارات عن إطلاق أعيرة نارية.

كان فيدل مجتمعًا مع جان دانييل في فاراديرو. وقد ذهبا بالسيارة إلى هناك من فندق هافانا ليبري Havana Libre في صباح 21 تشرين الثاني/ نوفمبر وبقيا حتى الصباح في منزل الشاطئ. أخبرني دانييل قائلًا: "في الليلة السابقة أمضينا ساعات وساعات مع فيدل" ومع أن رسائل كينيدي إلى فيدل قد

تم تسليمها ورفضها إلا أن الزيارة امتدت ليوم كامل آخر. عندما أخبرت أسبلاغا عن مكان فيدل حين تلقى نبأ الاغتيال كانت ردة فعله فورية. ورفع صوته قائلاً بالإسبانية: "*medida activa*" يقصد القول "إجراء نشيط أو عمل مقنّع"، مسرحية فيدلية متقنة. وقال: كان كاسترو "في مكان عام ومع شخص ليس كوبيًا. هذا مؤشر". يقصد أن يقول إن الغداء في منزل الشاطئ قد خُطِّط ليكون غطاء، وإثباتًا لعدم وجوده في مكان الجريمة، ذلك أن فيدل أراد أن يكون أمام شهود أجانب معروفين عندما يستمع إلى نشرة الأخبار من دالاس.

* * *

يشير فنسنت بوغليوزي وهو على حق في ذلك بأن "الأغلبية الساحقة من الأمريكيين وكذلك معظم أصحاب نظرية المؤامرة قد نبذت نظرية أن كوبا كانت وراء عملية الاغتيال". كما أن لجنة وارن "لم تجد دليلًا" لتورط كوبي. إضافة لذلك لم تجد لجنة تشرش في عام 1976 "أي دليل يثبت أن فيدل كاسترو أو غيره في الحكومة الكوبية قد تورط في التخطيط لاغتيال كينيدي. وكما أشرنا آنفًا توصلت لجنة مجلس النواب الخاصة بالاغتيالات بعد ثلاث سنوات إلى استنتاج مماثل. في التسعينيات رُفعت السرية عن زهاء خمسة ملايين صفحة لوثائق تعود إلى السي آي إيه والحكومة الأمريكية، ولم يظهر فيها دليل واحد يشير إلى مؤامرة كوبية في الاغتيال. وأما المؤلفون القلائل الذين يشكّون بوجود إصبع كوبي فلم يقدموا حججًا مقنعة بوجود مؤامرة ولم يقدموا دليلًا صلبًا على ذلك. لذلك، أُغلقت هذه القضية في نظر كل من لديه اهتمام بعملية الاغتيال[20].

من أجل ذلك فإنني أقترح احتمالاً أكثر دقة إنما من خلال ثقتي بحسن نية أسبلاغا وذاكرته، وهو احتمال ليس أقل مقتًا وبغضًا من أي شيء جرت مقاربته سابقًا. أعتقد أن كاسترو وعددًا قليلاً من ضباط المخابرات الكوبيين شاركوا في قتل كينيدي، لكن مشاركتهم هذه لم تصل إلى مرحلة مؤامرة اغتيال منظمة.

ضباط المخابرات الكوبيون في المكسيك من خلال قيامهم بإجراءاتهم

العملياتية المعتادة حرضوا أوزوالد. شجعوا واستحثوا مشاعره القتالية الضارية. وفيما بعد تولد لديهم اعتقاد بأنه قد يطلق النار على كينيدي. إنما الخطة خطته، والبندقية بندقيته، ولا دخل لهم بها. وتبين أن هذا الشاب المتهور الذي دخل إلى القنصلية مرشح جيد للانتقام ثأرًا لمؤامرة تحاك في الآن عينه من قبل الأخوين كينيدي ضد كاسترو. وبالقدر الذي كان كاسترو يخشى ويمقت الرئيس، وبالتأكيد أراد "أن يتخلص منه،" فإن تنظيم مؤامرة اغتيال بحقه يمكن نكران التورط بها كان بعيدًا عن قدرات كوبا عام 1963.

مهما كانت تلك الاتصالات التي قد يكون أوزوالد قد أجراها مع المخابرات الكوبية بعد مغادرته المكسيك فهذه يمكن إنكارها. وهي ليست من الاتصالات التي يمكن اقتفاء مصدرها للمخابرات العامة أو فيدل. ولو أنه ظل على قيد الحياة ليكون موضع استجواب مطول ثم حوكم بتهمة القتل فليس لديه ما يثبت شراكة كوبية معه. وليس ثمة ما يدعو للاعتقاد بوجود "لاشرعي" كوبي أو عميل اختراق كوبي - أو أي شخص في هذا الشأن - مسلح وعلى أتم الاستعداد لإطلاق النار على كينيدي من تلك الهضبة المعشوشبة القريبة من مستودع الكتب. لا أحد يستطيع القول بأن أوزوالد قد خطط لهجومه بالتعاون مع أحد، وكيف إذا كان كوبيًا. ولو كان لديه خطة للفرار إلى كوبا بعد جريمته فلا دليل على ذلك قد برز. كان شخصًا وحيدًا متوحدًا ومضطربًا طوال حياته، ربما ظن نفسه شهيدًا من أجل فيدل وبطلاً للقضايا الثورية العالمية. كان يريد لنفسه مكانًا خاصًا به في التاريخ.

لهذا، بالاعتماد على روايات كل من فلاديمير رودريغز لاهيرا وجاك تشايلدز وفلورنتينو أسبلاغا يمكن إقامة قضية مقبولة بأن الدور الكوبي كان مستترًا وانتهازيًا. ولكن بالرغم من ادعاءاته التي لا تخلو من نفاق وتظاهر بخصوص "التزامات أخلاقية"، فإن كاسترو لم يكلّف نفسه عناء تحذير السلطات الأمريكية في شأن خطة أوزوالد. لقد كذب هو ونظامه كثيرًا ودومًا بخصوص الاغتيال، يختلقان الخدع والتضليل الإعلامي منذ الواقعة نفسها. قرر فيدل الكذب ولما تمض 24 ساعة على مصرع الرئيس. ففي كلمتيه اللتين أذيعتا يومي 23

و24 تشرين الثاني/نوفمبر، كذب بشأن معرفته أو معرفة المخابرات العامة المسبقة بالقاتل والتي تبين أنها تعود لعام 1959. تغطيته الأولية توحي بأنه كان يعرف بوجود أشياء كثيرة يتعين التستر عليها.

وقد ضاعف فيدل من التغطية الكوبية عام 1978 عندما التقى مع وفد مجلس النواب. وكما سبق وذكرنا لم يستطع أعضاء الكونغرس أن يواجهوه بالتقرير الخاص بعملية Operation Solo عن حديثه مع جاك تشايلدز، ذلك أنه كان طي الكتمان ومصنفًا بسرية بالغة. لذلك كان سهلاً له أن ينكر ما جاء في التقرير الموازي الذي وضعه صحفي إنكليزي بخصوص صراخ أوزوالد وقوله بأنه سيقتل كينيدي. ونتيجة لذلك، كان من شأن إنكار فيدل القوي أن صمد مع مرور الزمن. وقد كذب أمام اللجنة بخصوص تهديداته التي أطلقها في سياق مقابلة أجراها معه دانييل هاركر. فقد تظاهر بالادعاء بأنه هو والرئيس كينيدي في طريقهما للتقارب وأنه معجب بالرئيس، وقد حزن كثيرًا لموته. ولكي يروج لهذه الخدع عمل على مدى سنوات للتودد لأفراد عائلة كينيدي ومساعديه، وفي عمله هذا كسب درجات من الحصانة الانعكاسية.

بيد أن الحقيقة التي لا جدال فيها أن فيدل كان يكره كينيدي ويخشاه وقد ابتهج كثيرًا لاغتياله. هذا العدو الذي وصفه لاحقًا بـ "عدو الثورة الأعظم والأشد خطرًا" قد قضى عليه. كان فيدل يعلم من خلال عميله المزدوج رولاندو كوبيلا كل شاردة وواردة عن مؤامرة وهمية تهدف إلى قتله وتكون خطوة أولى لانقلاب يعصف بالثورة ويطيح بها. أراد أن يكون على ثقة أكيدة بأن روبرت كينيدي كان يضغط على جميع الأزرار في هيئة الشؤون الخاصة SAS بقيادة ديز فتزجيرالد، وبأنه كان يرعى ويشجع مؤامرة القتل، وبدعم صامت من أخيه في المكتب البيضوي. ومن خلال جعل كوبيلا يطلب لقاء مع وزير العدل حصل فيدل على الجواب الذي يريده، ألا وهو إن الأخوين كينيدي كانا خفًا يتآمران عليه. إذن كانت دوافع فيدل متوافقة مع دوافع أوزوالد يوم 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1963.

قال كاسترو أمام وفد من مجلس النواب بأن تورطه في مؤامرة على حياة

كينيدي عمل جنوني. "لا أحد قد يفكر بهذا". ولكن لا أحد فكر أيضًا بأنه قادر على كتابة الرسالة الهرمجدونية إياها. لقد كان فيدل منذ أيامه الأولى في السلطة الزعيم والقائد صاحب المزاج الأكثر خصوصية في العالم. فكانت أكبر غلطة ارتكبتها السي آي إيه أنها لم تقدره حق قدره.

إن دور فيدل المستتر والعارف جيدًا في عملية اغتيال كينيدي يجب أن يدرس في سياق قصة حياته التي تخبر عن سلوك جسور على نحو لافت. وعلى سبيل المثال، أقر في نهاية المطاف بدور له في تدمير طائرة أمريكية طراز U-2 وطيارها أثناء أزمة الصواريخ. ومع ذلك أسقطت أهمية التقارير الأولى حول تلك الحادثة، بما فيها تقرير من جاسوس للسي آي إيه موثوق ويمكن الاعتماد عليه، والسبب أنها بدت بعيدة الاحتمال[21].

لقد كان من شأن التدخلات العسكرية وشبه العسكرية الكوبية في صراعات العالم الثالث بدءًا بالجزائر عام 1963 – وفيما بعد في أنغولا وإثيوبيا ونيكاراغوا – أن شكلت مفاجآت للمسؤولين في واشنطن كما لو أنها صواعق غير متوقعة. في عام 1966 أمر فيدل طياري الطائرات النفاثة المقاتلة بإسقاط طائرة مدنية تحمل على متنها مواطنين أمريكيين، وأفرادًا من جماعة من الكوبيين المقاتلين في المنفى، مع أن الطائرة كانت تحلق في الأجواء الدولية. ولقي في هذا الحادث أربعة رجال مصرعهم.

كما أنه حض على هجرات جماعية محمولة بحرًا لكوبيين متمردين إلى جنوب فلوريدا وذلك في ثلاث مناسبات. وفي كل مناسبة كان يحسب أن تصرفه هذا يفلت من العقاب. وقد عُرف عنه الآن أنه كان يشرف على فريق اغتيالات سري للغاية مؤلف من أربعة رجال وقد استهدف في عملياته هذه أعداء كُثُرًا منهم من هو بارز، ومن هو وضيع. وقد استفادت كوبا كثيرًا من تجارة المخدرات الدولية، ومن عمليات تزوير الدولارات الأمريكية بحسب أقوال المنشق جورج ماسيتي الذي كان على اطلاع جيد بهذين العملين. وبالنسبة لفيدل لا شيء يعد خطًا أحمر في حربه ضد الإمبريالية الأمريكية على مدى نصف قرن. وتبين أنه هو والمخابرات الكوبية أساتذة أذكياء في فن الإنكار الجدير بالتصديق،

وقلما قُبض عليهم متلبسين في خدعاتهم. وفي واشنطن كان الافتراض الكاذب على نحو مخادع في قضية إثر أخرى أن فيدل لا يمكنه أن يتصرف على نحو متهور[22].

توجد فقرة ربما لم يُراعَ الحذر فيها وتكشف الكثير من المعلومات في خطاب ألقاه فيدل في أمسية تلت اغتيال كينيدي. وهي واحدة من أوضح ما قدمه حول نظريته المطاطة في القتل المبرر. شمل قوله الفصل هذا كلًا من الحكام الطغاة رفائيل تروخيلو Rafael Trujillo وفلغنسيو باتيستا Flugencio Batista وأناستازيو سوموزا Anastasio Somoza وأوغستو بينوشيه Augusto Pinochet – وجميعهم كانوا أهدافًا في مؤامرات اغتيال. واعتبار جون كينيدي واحدًا منهم لا يحتاج للكثير من التفكير، فقد قال:

> "في بعض الأحيان، وفي خضم حرب أهلية، ووسط أعمال قمع شرسة يرى الثوار أنفسهم مجبرين على الدفاع عن أنفسهم، يجدون أنفسهم ملزمين بالقتل دفاعًا عن أنفسهم".

وفي مثال كينيدي، اختار فيدل أن يدافع عن نفسه من خلال مؤامرة الصمت. فمنذ حرب خليج الخنازير كان في حالة حرب مع كينيدي. وقد كسبت الحملات الأمريكية العدوانية للإطاحة به وقتله زخمًا قويًا في خريف عام 1963، وكانت تتجه نحو تصعيد متعاظم. وكان هو أشد قلقًا من أي وقت مضى. ومن خلال منطقه المعوج كان يتصرف دفاعًا عن النفس يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1963 عندما لم يتخذ أي إجراء لردع أوزوالد أو لتحذير السلطات الأمريكية.

كلمة أخيرة

لم يكن ثمة خط أحمر في عهد الرئيس كينيدي في الحروب الاستخبارية التي كانت تستعر عبر مضائق فلوريدا. وكانت لدى السي آي إيه السلطة الكاملة للتآمر بهدف اغتيال كاسترو، لذلك فإن وضع مخططات لأعمال خفية للكشف عن مسؤولين كوبيين وفضح أمرهم لم يلق اعتراضًا أخلاقيًا - حتى لو وصل الأمر لإعدام أهداف بريئة بتهمة الخيانة. وبدا هذا الاحتمال على صورة مبالغ فيها على مدى أكثر من ثلاث سنين لعملية ذات حساسية وخصوصية ومشكوك بها أخلاقيًا أشرفت عليها وأدارتها الوكالة تحت اسم AMROD. واستمرت بقوتها حتى آذار/مارس عام 1966 وهي تعمل بصورة خفية على توريط مسؤولين كوبيين بارزين بجرائم عقوبتها الإعدام.[1]

ويحسب ما جاء في خلاصة للقضية لدى السي آي إيه رفعت عنها السرية، كان المخطط تحريك النزاع والشقاق في صفوف القيادة الكوبية وزرع بذور الفرقة بين هافانا ومناصريها السوفيات. تمت الموافقة أصلًا على هذا المخطط من قبل لجنة تنسيق بين الوكالات في عام 1962 عندما كان بيل هارفي مسؤولًا عن قوة المهام الخاصة Task Force W، ووصلت أقصى سرعة لها بعد عام واحد بالتوازي مع جهود ديز فتزجيرالد المبذولة لخلق انقسام داخل القوات المسلحة التابعة لكاسترو. لقد كان مجهودًا عالي الشحنات وحساسًا جدًا حتى إنه لا يمكن ذكره حتى في اجتماعات موسعة للمجموعة يحضرها الرئيس. لم أجد في السجلات ما يدل على أن الرئيس أو وزير العدل قد استمع لإحاطة حول عملية AMROD، ولكن بالنظر لمداها ونجاحها وبسبب اهتمامها، فمن المؤكد أنها قد وضعت في إطلاعهما في اجتماع منفرد[2].

شخصان كوبيان بارزان – معاون وزير الدفاع ودبلوماسي في السفارة في المكسيك – لوثت هذه الإحاطة سمعتهما لكنهما كانا محظوظين إذ بقيا على قيد الحياة. فقد كان الهدف الرئيسي خواكين أوردوكي Joaqain Ordoqui البالغ الثانية والستين من عمره. وهو واحد من أربعة معاونين لوزير الدفاع، وكان أمين الإمداد والتموين في القوات المسلحة. وهو "شيوعي قديم" – أي كان عضوًا مؤسسًا للحزب الشيوعي ما قبل الثورة – وكان مقربًا على نحو خاص من الكرملين. ابتدأ التوتر في بداية عام 1962 عندما أقدم كاسترو وأتباعه "الشيوعيون الجدد" وجميعهم من قدامى المحاربين في حركة حرب العصابات، على إدانة الجيل القديم من الماركسيين لمشاركتهم في أعمال قمع سوفياتية. أطلق فيدل حملة تطهير ضد هؤلاء "المتعصبين" المخلصين لموسكو وليس له. طرد العشرات منهم وأبعدهم للمنفى. أما في الواقع فقد كان العرض الذي قام به كاسترو مجرد سحابة دخان يقصد به إظهار سلطته المطلقة وفي الوقت عينه يتخلص من بضعة منافسين. لكن المسألة كلها يمكن اقتفاء منشئها على شكل وثيق داخل لانغلي حيث أُعطيت فرصًا عملياتية جيدة[3].

كان الهدف إحداث خطوط تصدع داخل القيادة، مع الأمل بأن موسكو سوف تنحاز إلى قدامى الشيوعيين الكوبيين ضد فيدل. وتم تخصيص موارد سخية للوكالة في المقر وفي مدينة مكسيكو لتنفيذ العملية. وضع جميع العاملين في محطة المكسيك الكبرى – وعددهم نحو أربعين شخصًا من السي آي إيه في أواخر عام 1963 – على أتم الاستعداد لهذه المهمة. وأخذت تصور سرًا وخفية معظم الأشخاص الداخلين والخارجين من هذا المجمع الدبلوماسي الكوبي، وما لا يقل عن ستة خطوط هاتف وضعت تحت المراقبة بما فيها خط هاتف السفير. في أواخر عام 1963 جندت السي آي إيه نحو خمسين عميلًا في العاصمة المكسيكية للعمل ضد هدف كوبي، كان منهما اثنان داخل السفارة. تبين السجلات التي رفعت عنها السرية أن القائم بالأعمال الكوبي واسمه الرمزي AMRIFT قد لعب دورًا هامًا في عملية AMROD سواء كان ذلك بعلمه أم لا[4].

كانت واحدة من أكثر العمليات الخفية الرائعة التي دُبِّرت ضد قادة كوبيين.

في نيسان/أبريل عام 1963 تم تمرير وثائق مزورة تُنسب كذبًا إلى عميل للسي آي إيه في المكسيك أحس بالسخط والتمرد ووصلت إلى مسؤول في السفارة الكوبية، يحتمل أن يكون AMRIFT. قُصد بالوثائق أن تبدو بأن أوردوكي عميل للسي آي إيه وأنه قدم معلومات عسكرية حساسة قبيل أزمة الصواريخ. وبحسب سجل السي آي إيه لعملياتها، "قبل الكوبيون الأوراق المزورة ودفعوا ثمنها بحسب طلبنا". وتم تسليم وثائق مزورة أخرى خلال الصيف، ودفعت المخابرات العامة لقاءها بضعة آلاف من الدولارات زيادة على السابق. في بادئ الأمر لم يبد أن شيئًا قد حدث لأوردوكي، علمًا أنه قد وضع بكل تأكيد قيد المراقبة الصوتية والصورية على مدار الساعة[5].

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وحيث كانت مؤامرة كوبيلا آخذة بالنضج ومع أنه لم تظهر بعد إشارات لاضطراب سياسي جديد في هافانا، فقد تم استهداف ماريا تيريزا بروينزا Maria Teresa Proenza ذات الخمسين عامًا. فهي الملحق الثقافي الكوبي الوقور في المكسيك ومن الشيوعيين القدامى وكانت صديقة لأوردوكي. وهي من الشهيرات وبخاصة على الصعيد الاجتماعي، وكانت السكرتيرة الشخصية السابقة للرسام صاحب الجداريات الشهير دييغو ريفيرا Diego Rivera. كان من شأن تأثيرها الهائل في الأوساط الفنية والفكرية في المكسيك، وعقيدتها الشيوعية القوية ومواقفها الثابتة المناوئة لأمريكا أن صارت الضحية الجديدة للوكالة. وثيقة أخرى وضعت قيد البيع لمديرية المخابرات العامة أشارت إليها زورًا وبهتانًا بأنها عميل للسي آي إيه. وما هي إلا أسابيع قليلة حتى استدعيت إلى هافانا ووضعت قيد الإقامة الجبرية[6].

غير أن أول ردود فعل كوبية لعمليات الخداع هذه لم تتضح حتى شهر آذار/مارس التالي. اعتُقل شاب شيوعي من أتباع أوردوكي وحوكم في جرائم تستوجب عقوبة الإعدام فاعترف بها. غير أن الواقع مختلف، فعندما نُفِّذ الحكم بإعدامه اتضح أنه بديل لأوردوكي. وبحسب خلاصة السي آي إيه لهذه العملية، "كانت في الواقع محاكمة لهذا الأخير".

تعد هذه التمثيلية التحزيرية المهلكة أسلوبًا اعتياديًا ونموذجيًا لكاسترو،

ولم يكن ثمة أحد داخل النخبة السياسية في هذه الجزيرة ممن يسيئون فهمها. كان أوردوكي وثيق الصلة بالكرملين ما يستبعد وضعه أمام جدار الإعدام لا سيما بعدما عادت العلاقات إلى دفئها بُعَيْد زيارة فيدل الطويلة إلى الاتحاد السوفياتي في الربيع المنصرم وازدياد المعونات الاقتصادية والعسكرية. لهذا لم يكن لديه في العام 1964 ميل لإجراء حركة تطهير أخرى للكوبيين الذين يدينون بالولاء لموسكو(7).

لكن أوردوكي لم يُعْطَ جواز المرور الحر، فقد اعتُقل في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ذاته حيث استمر بيع الوثائق المزورة وبوتيرة متصاعدة داخل مدينة مكسيكو. اعتُقلت زوجته أيضًا وهي وزيرة في مجلس الوزراء. وهكذا استمرت عملية AMROD لمدة ستة عشر شهرًا أخرى، حيث تابع المزورون داخل السي آي إيه عملهم بتزوير الوثائق وإنتاج وثائق جديدة، وجميعها تبدو في ظاهرها حقيقية وأصلية وقابلة للتصديق لدى المخابرات الكوبية. وأخيرًا، وبحسب السجل الرسمي للعملية ولأسباب لم تُعرف "توقف الكوبيون عن الاهتمام بها".

لم تُرفع السرية إلا عن عدد ضئيل من الوثائق ذات الصلة، لذلك ليس ممكنًا معرفة عدد المسؤولين الكوبيين الآخرين الذين طالتهم. بعد عامين من بيع آخر الوثائق المزورة أطلق فيدل حملة تطهير ثانية للتخلص من قدامى الشيوعيين. وفي أعقاب هذه الحركة التي سُمِّيت بمشكلة الفئة الصغرى المنشقة لم يبق إلا حفنة صغيرة من ماركسيي الحرس القديم في المواقع الهامة. لعل لعملية AMROD دور حاسم في الإطاحة بهم جميعًا.

لكن المتهمين الثلاثة نجوا من الموت وفيما بعد أُطلق سراحهم بشروط. توفي أوردوكي وفاة طبيعية في كوبا عام 1973. وسُمح لزوجته بقضاء ما تبقى من عمرها في إسبانيا. وبقيت بروينزا في هافانا وقد قابلتها لجنة مجلس النواب الخاصة بالاغتيالات عام 1978. كانت تربطها صداقة حميمة مع جارتها في هافانا لويزا كالديرون، إذ قالت "أراها كثيرًا في هذه الأيام". غير أن بعض التقارير التي لا يمكن التحقق منها إنما قابلة للتصديق تتحدث عن وجود علاقة لها مع أوزوالد أثناء زيارته للمكسيك. لكنها أنكرت أي معرفة به قائلة بأنها لا

تعرف شيئًا عنه أو عن تهديداته بقتل كينيدي كما جاء في تقرير جاك تشايلدز. ولم تعطِ بروينزا أي دليل عن علمها بأنها كانت هدف تهمة لفقتها لها السي آي إيه[8].

وبحسب علمي لم تخرج هذه القصة للعلن من قبل. لكن ثمة بعض المراجع المطبوعة لاثنين من ضباط السي آي إيه تبدو بأنها تشير إلى عملية AMROD. ففي مذكراتهما يبدو أن كلًا من ديفيد آتلي فيليبس وتيد شاكلي يذكران ذلك بعبارات سريعة وغامضة. فيليبس الذي كان مسؤولًا عن العمليات السرية ضد كوبا في محطة مدينة مكسيكو بدءًا من منتصف عام 1963، كتب يقول إن مسؤول الشؤون الثقافية المستهدف كان "ناشطًا ونكيًا، ويزدري الأمريكيين، وقد دبر أعمالًا قذرة تستهدف السي آي إيه". ومع أنه لم يفصح عن طبيعة العملية ووصف بروينزا بأنها رجل إلا أن توصيفه ينطبق تمامًا عليها. وما لا يدعو للدهشة أنه لم يقل شيئًا عن مدى خطورتها أو عن احتمال أن تكون قد أُعدمت بسهولة بتهمة أنها جاسوسة للسي آي إيه[9].

أما شاكلي فقد كان أكثر نقدًا في إشارته الوجيزة إلى عملية تشبه كثيرًا عملية AMROD، غير أن ما كان يشتكي منه لم يكن بناء على أسس أخلاقية. فقد كتب يقول: "لقد كانت عملية ناجحة حقًا إنما بالمعنى الضيق، ذلك أنها سببت بعض الانشقاقات والانقسام في الرأي داخل بيروقراطية العدو". وبالمحصلة، فقد رأى أن القضية كلها كانت مداعبة لم تفعل شيئًا أكثر من إعطاء السي آي إيه "البهجة بأنها نخست عين فيدل". ولعله لم يدر بتلك المحاكمة الصورية وتنفيذ حكم الإعدام بحق تلميذ أوردوكي الشاب، كبش الفداء في هذه القصة. وربما رأى شاكلي الواقعي بدم بارد أن العملية كانت عادلة وروتينية مثل حملات الكوماندوس والأعمال التخريبية التي نظمها وأدارها والتي نجم عنها وفاة الكثيرين من الأفراد من كلا الجانبين في تلك الحرب السرية ضد كوبا[10].

لا يُعرف متى أدرك فيدل ورؤساء أجهزة استخباراته عظم حجم الخداع الذي أصابهم. لم يصدر أي تعليق عن هذه القضية من فيدل أو من أي جهة في الإعلام الرسمي. ليس من عادتهم أن يعترفوا بأي من المصائب المحرجة

وبخاصة حيث إنهم دفعوا أموالًا طائلة للحصول على وثائق مزورة. لكنهم فيما بين منتصف السبعينيات وحتى أواخرها يُحْتمل أنهم علموا بهذه الأكاذيب والخداع، وربما من فيليب آغي Philip Agee المنشق عن السي آي إيه الذي لديه بعض المعلومات عن هذه القضية. وقد توصلتُ إلى استنتاج بأن الكوبيين منذ تلك اللحظات عملوا جاهدين للثأر والانتقام واختاروا هدفًا واحدًا[11].

إذا كان ديف فيليبس، المدير المسؤول عن عملية AMROD في مدينة مكسيكو، كما يبدو مرجحًا، فإن حملة تضليل إعلامي مديدة ضده - وما زالت مستمرة حتى اليوم بعد وفاته بمدة طويلة - هي على الأغلب قضية ثأر وعمل انتقامي كوبي أُعِدّت بكل حقد وكراهية. وبحسب أصحاب نظرية مؤامرة اغتيال كينيدي الذين خدعتهم تلك المعلومات المغرضة استخدم فيليبس الاسم الحركي موريس Morris أو موريس بيشوب Maurice Bishop عندما التقى كما هو مفترض مع أوزوالد بصفته ضابط السي آي إيه المسؤول عنه.

لم تكن المخابرات الكوبية أول من روج للإشاعة، غير أن الجنرال في الاستخبارات المضادة فابيان إسكالانتي Fabian Escalante سرعان ما أصبح واحدًا من المروجين الأكثر نشاطًا لها. وقد أعاد تكرارها كثيرًا وباستمرار المعلقون الحكوميون الكوبيون وغيرهم. أنكرت السي آي إيه أي معرفة ببيشوب وبأي علاقة وتعامل مع أوزوالد، وقد رفع فيليبس دعوى ربحها في النهاية ضد منشورات في الولايات المتحدة وبريطانيا تزعم أنه استخدم ذلك الاسم الحركي للاجتماع بأوزوالد. وبالطبع لم يستطع أن يرفع دعوى ضد الإعلام الحكومي الكوبي، وهم دون رادع تابعوا إعلانهم لتلك الكذبة المشؤومة بأنه كان المتآمر في السي آي إيه في مؤامرة اغتيال كينيدي. حتى إن بعض الأمريكيين المشهود لهم بالعلم والمعرفة خدعوا بتلك الكذبة[12].

* * *

لا يوجد جهاز استخبارات معاد آخر تمتع بحقوق الشعور بالارتياح الماكر يشبه ما لدى كوبا منذ الثلاثينيات والأربعينيات عندما عمل أكثر من خمسمئة

أمريكي على مساعدة الاستخبارات السوفياتية. أولئك المسافرون الزملاء أغوتهم أساطير الفردوس الماركسي، أو ربما ذهبوا إلى هناك وخرجوا بسذاجة مفتونين وتواقين للمساعدة. وآخرون ولدوا في روسيا قبل الهجرة وأعجبوا بالكرملين بسبب عقيدة مشتركة. تآمر أمريكيون لصالح فيدل للأسباب نفسها وأيضًا لأنهم أعجبوا به كثيرًا مثل لي هارفي أوزوالد، وكان لديهم قناعة بأنه هو وكوبا الثورية ضحايا أبرياء لإمبريالية اليانكي الوحشية. وبالنسبة لكل هؤلاء المرتدّين تقريبًا كان العمل من أجل كاسترو عملًا تطوعيًا بسبب الحب[13].

في معظم السنين المنقضية منذ بداية الستينيات كان عدد الأمريكيين الذين ساعدوا المخابرات الكوبية - عملاء وجواسيس ومزدوجين وعملاء اختراق وتأثير ومتملقين ودعم - قد بلغ مجموعه ما بين ثلاثمئة إلى خمسمئة. وبعضهم، على سبيل المثال، وعند لقائهم مع عملاء كوبيين متخذين صفة دبلوماسيين أو مسؤولين للشؤون الثقافية ويقبلون مهام أو توجيهًا منهم - قد لا يكونون على علم بأنهم يساعدون فعليًا برامج سرية كوبية. لكن معظم الأمريكيين في هكذا أوضاع من الذين يتعاطفون مع أهداف وغايات الحكومة الكوبية لا يملكون أي تصور عمن يخدمونه.

في أيلول/سبتمبر 1963 ذكرت صحيفة "ميامي هيرالد" أن عملاء استخبارات كاسترو اخترقوا كل جانب من جوانب "حركة المتفيين الكوبيين". عميل المخابرات العامة جيراردو بيرازا Gerardo Peraza الذي انشق وفر في عام 1971 كان يعرف أكثر من ثلاثمئة عميل كوبي مجند ويعملون آنذاك لصالح فيدل في ميامي وحدها. واليوم، تبلغ أعداد العاملين في الولايات المتحدة قريبة من هذا الرقم، والبنية التحتية الخفية هي الآن أفضل من أي وقت مضى. ولعل هذا عائد في جزء منه إلى فقدان أولويات استخبارية أخرى. فمنذ تفكك الكتلة السوفياتية ضعف كثيرًا الدعم الكوبي للثوار الأجانب. وبالمثل صار الاستحواذ غير المشروع ما بين عقدي الستينيات والثمانينيات للتكنولوجيا والبضائع المصنعة الأمريكية أولوية استخبارية كوبية باهظة الثمن. وهذا أيضًا ضعف وتلاشى في السنين الأخيرة بعد أن تضاعفت وكثرت التجارة والاتصالات

المشروعة عبر مضائق فلوريدا. وهكذا باتت النتيجة أن جميع موارد الاستخبارات الكوبية قد وُجِّهت لتركز على واشنطن وميامي[14].

والمستفيد هو الجاسوسية والاستخبارات المضادة. تجنيد عملاء تسلل نائمين و"لاشرعيين" عمل سهل جدًا للمخابرات الكوبية. هنالك ما لا يقل عن ثلاثين ألف مهاجر يأتون إلى الولايات المتحدة من الجزيرة كل عام ويندمجون في المجتمع الأمريكي. عشرون ألفًا منهم يأتون بموجب اتفاقية الهجرة المبرمة مع هافانا إبان إدارة الرئيس كلنتون. ويأتي الباقون عن طريق بلدان ثالثة أو ربما على زورق صغير إلى فلوريدا، وهم لا يعودون إلى بلدهم حالما تطأ أقدامهم الأرض الأمريكية.

هؤلاء جميعًا يصبحون مؤهلين للبدء بعملية الحصول على الجنسية بموجب شروط "قانون التكييف الكوبي" الذي سنته السلطة التشريعية عام 1966 في أوج الحرب الباردة. إن هذه القوانين والأحكام القديمة الخاصة بالهجرة – والتي لا تنطبق إلا على الكوبيين دون جميع الجنسيات المهاجرة – تعمل لصالح وفائدة المخابرات الكوبية. ولهذا السبب، وأيضًا لأنها تمييزية وقديمة، لم يعد لها مبرر.

إن خطر المخابرات الكوبية يتزايد كثيرًا بسبب وجود اتفاقيات علاقات متبادلة وتشاركية أبرمتها مع أنظمة وجماعات معادية للمصالح الأمريكية. فالمعلومات الحساسة التي تحصل عليها من خلال التجسس تقدم مقابل فوائد وأرباح متبادلة أو مقابل تأكيد على تضامن إيديولوجي. وبهذه الطريقة تم الكشف عن تكنولوجيا مدنية وعسكرية وعلى معدات تجسس أمريكية. آنا مونتيز Ana Montes العميلة الكوبية والمندسة داخل استخبارات الدفاع، اعتُقلت قبل يوم واحد فقط من تمكنها من الدخول إلى بيانات استهداف سرية لأجل عمليات عسكرية في تشرين الأول/أكتوبر 2001 ضد تنظيم القاعدة وحركة طالبان في أفغانستان. فقد خشي البنتاغون أن تعمل على تمرير الخطط العسكرية الحساسة للمسؤولين عنها الكوبيين في وقت يمكنهم من تحذير العدو. يقال إنها أعطت الكوبيين تفاصيل كثيرة لأنظمة التنصت الإلكترونية الأمريكية السرية التي يمكن

أن تُنْقَل إلى بلدان أخرى. وحامت الشبهة أيضًا حول مونتيز بكونها قد أعطت معلومات عن عمليات عسكرية واستخبارية أمريكية في أمريكا الوسطى خلال مدة خدمتها الطويلة لصالح المخابرات الكوبية[15].

غير أن قدرات الاستخبارات المضادة الأمريكية تحسنت كثيرًا في السنوات الأخيرة. ففي الفترة الواقعة ما بين عامي 1959 و 1995 لم يعتقل إلا أربعة جواسيس كوبيين في الولايات المتحدة. بعدئذ، وبدءًا من أيلول/سبتمبر 1998 ولغاية عام 2011 تم الادعاء على أو تعطيل عمل ما يقرب من خمسين عميلًا كوبيًا، أكثر من ثلاثين منهم كانوا أعضاء في شبكة Avispa أو Wasp اللتين أُنهي عملهما في ذلك العام[16].

وهنالك ستة مواطنين أمريكيين آخرين عملوا لصالح كوبا وقد مثلوا أمام العدالة منذ اعتقالهم وحوكموا. كارلوس ألفاريز Carlos Alvarez أستاذ في الجامعة الدولية بفلوريدا وزوجته إلزا برييتو Elsa Prieto مستشارة جامعية، اعترفا بتهمة التآمر الموجهة إليهما في ميامي. وحوكم أيضًا ماريانو فاغيت Mariano Faget المولود في كوبا والأمريكي الجنسية، أدين في عام 2000 بتهمة التجسس عندما كان موظفًا مسؤولًا رفيع المستوى في إدارة الهجرة والجنسية. وقد تحدثنا آنفًا عن محاكمات آنا مونتيز وولتر كندال مايرز وزوجته غويندولين. وهنالك آخرون أيضًا هم شخصيات بارزة في الأوساط الأكاديمية ممن ساعدوا عن علم ودراية المخابرات الكوبية، وقد جرى تعطيل عملهم على أنهم مصادر قوة سرية ومفيدة ودون أن يحاكموا بتهم جرمية.

غير أن قضية مونتيز تبقى القضية الأكثر إزعاجًا. عملت بالتجسس لستة عشر عامًا، ارتقت خلال هذه المدة لتصبح في أكثر المواقع حساسية ومسؤولية في الأسرة المخابراتية. اشتُبه بها أول مرة في بداية عام 1996، ثم جرى استجوابها والتحقيق معها في تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام، ومن حقق معها كان ضابط أمن في وكالة استخبارات الدفاع بعد التشاور مع مكتب التحقيقات الفدرالي. ومع أنه اعتقد أنها تكذب عليه ووجدها مراوغة وتحسن التخلص فقد سمح لها بالعودة إلى عملها الحساس في قسم التحليل السياسي

والعسكري الخاص بكوبا. لكن الأفضل والأكثر حكمة أن تسند إليها مهام من اختصاص آخر أو مكتب بلد آخر وفي الوقت عينه يستمر التحقيق معها. وبهذه الحالة فقط يمكن تقليص منفعتها للمخابرات الكوبية(17).

وعلمت أيضًا أن مكتب التحقيقات الفدرالي أغفل فرصًا كان من شأنها أن تقوده إلى مونتيز في وقت أسرع كثيرًا مما حصل. في شهر أيار/مايو عام 1996 انشق ميغيل مير Miguel Mir ضابط الأمن والمخابرات الكوبي الذي عمل لستة أعوام في فريق الأمن الشخصي لفيدل وفر من عمله في البعثة الدبلوماسية الكوبية في الأمم المتحدة. وقد أخبرني بمعلومات نقلها إليه بالمصادفة اثنان من كبار الضباط في مركز الاستخبارات الكوبي الكبير في نيويورك. وهو يعتقد في استعادته لتلك المناسبة بأن زميليه الاثنين كانا يشيران بشكل غير مباشر إلى مونتيز(18).

فقد حدثت الواقعة الأولى في مطلع عام 1995. كان مير يقود السيارة من نيويورك إلى واشنطن بصفته المرافق الأمني للمقدم لويز كاريرا Luis Carrera التي كانت على ما يبدو نقطة الاتصال الرئيسية لمونتيز في الولايات المتحدة آنذاك. أثناء الطريق الطويل الذي يبعث على الملل والسأم تحدثت كاريرا متباهية وقالت: "لدي اتصال مع شخص مهم جدًا يعمل في المستويات العليا في الحكومة الأمريكية". ولم يقدم مزيدًا من التفاصيل، لكن مير يعتقد أن الغاية من الرحلة أن تلتقي كاريرا سرًا بمونتيز، أو، وهو الأرجح، أن تنفذ لقاء عابرًا معها في مكان ما داخل منظومة الأنفاق في واشنطن لتزودها في الخفاء أو تتلقى منها مواد حساسة. يذكر مير أن كاريرا قالت فيما بعد بأن عملية التبادل هذه احتاجت لمحاولتين أو ثلاث محاولات.

أما الجزء الثاني من المعلومات فمصدره حديث جرى مع هذا المنشق في نيويورك. ففي شباط/فبراير عام 1996 حصلت مواجهة هناك بين مير ووزير خارجية كوبي زائر. وفي اليوم التالي قام رئيس المركز خوزيه أودريوزولا José Odriozola باستدعاء مير ليحذره على انفراد داخل حجرة صغيرة في صالة كبيرة حيث يمكن إجراء أحاديث حساسة دون خوف من اعتراض صوتي يتداخل

فيما يقولان. قال لي مير بأن أودريوزولا أنّبه قائلًا: "من سخرية الأقدار فعلًا أنك مُنِحت ميدالية وزارة الداخلية بمناسبة الذكرى السنوية العشرين كما مُنِحت كثيرًا من الأوسمة الأخرى، فكيف تكون عديم الاحترام لوزير الخارجية؟"

كان أودريوزولا ضابط مخابرات له أقدميته وخبرته وقد عمل سابقًا رئيسًا لمركز باريس. وقد حدثني عنه منشقون آخرون وكان اسمه ضمن قائمة ضباط المخابرات العامة التي قدمها لي أسبلاغا. لكن هذا العميل المخضرم ارتكب أخطاء سياسية كبرى في العمل الاستخباري أثناء توبيخه لمير، منتهكًا بذلك القواعد الأساسية للتقسيمات الإدارية عندما أماط اللثام عن هذه المعلومة إذ قال متفاخرًا: "لقد اخترقنا كونغرس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ والبنتاغون، ولدينا شبكة عمل قوية جدًا ... وها أنت ذا تبدي قلة احترام لنا !! ينبغي علينا أن نعيدك إلى كوبا، إنما بسبب إنجازاتك، سوف ندعك تبقى هنا".

استنتج مير فيما بعد أن رئيسه هذا كان يشير إلى شبكة Wasp في ميامي وإلى مونتيز. بعد بضعة شهور انشق مير – وتحديدًا قبل يوم واحد من الموعد المقرر له ليعود إلى كوبا بعد انتهاء موعد إيفاده إلى نيويورك.

قال لي إنه قدّم هذه المعلومات الأولية إلى مكتب التحقيقات الفدرالي في شهر أيار/مايو عام 1996. ثمة احتمال أن تكون هذه المعلومات قد ساعدت المحققين في البحث الذي أجري بعد خمس سنوات والذي قاد بالتالي إلى مونتيز. ولكن لا يوجد سبب يدعو للاعتقاد بأنها أُخذت بعين الاعتبار عندما تم استجوابها بعد شهور قليلة في وكالة استخبارات الدفاع. الرواية التي نشرها ضابط الأمن الذي حقق معها لم ينكر شيئًا عن المعلومات التي قدمها منشق. فهل كانت المعلومات السرية التي حصل عليها مير من اثنين من كبار ضباط المخابرات الكوبية قد أهملت أو وجدت غامضة أو ملتبسة تصعب متابعتها؟[19]

لم تكشف السلطات الأمريكية الستر عن الطريقة التي من خلالها صارت مونتيز موضع شبهة كافية لتوضع تحت المراقبة وبالتالي يقبض عليها متلبسة بالتجسس. ضابط الأمن في وكالة استخبارات الدفاع الذي كتب تقريره بشأنها

لم ينكر إلا "نتفًا من المعلومات قد تساعد في التعرف على جاسوس كوبي ظهر إلى السطح داخل أسرة الاستخبارات المضادة".

لم يقدم مزيدًا من التفاصيل، ولا تفاصيل لدلائل متابعة ظهرت على السطح أثناء محاكمة مونتيز. تلك النتف الغامضة من المعلومات قد يكون مصدرها منشقاً آخر أو ربما اعتراضاً في الاتصالات الكوبية. وربما ارتكبت مونتيز أو الضباط المتعاملون معها خطأ أداثهم في الطريقة التي بها رتبوا الاتصالات. وربما راودت أحد أفراد العائلة شكوك وشبهات جعلته يشي بها إلى مكتب التحقيقات الفدرالي. لا سيما وأن معظم الجواسيس المخفيين ينكشف أمرهم بواحدة أو أخرى من هذه الطرق[20].

لكنني أظن أن الخبر الهام في قضيتها هذه جاء من خطأ فاضح ارتكبه فيدل كاسترو نفسه. فهو بالتأكيد الضابط الأساسي في قضيتها وكان يتتبعها بكل اهتمام. ربما التقى بها في هافانا. لكن صحته – وحدة ذهنه – كانت في حالة تَرَدٍّ وتراجع عام 2000 بعد عمليات جراحية سابقة كادت تودي بحياته. في حزيران/يونيو عام 2001 جرى تصويره للمرة الأولى أثناء إلقائه خطابه. بدا عاجزًا ومرتبكًا ومشوش الذهن، وعلى حافة الانهيار قبل أن يحمله مساعدوه بعيدًا. لم يحدث شيء من هذا القبيل في السابق، وقد ذكرت الصحافة الدولية أنه غاب عن الوعي لفترة وجيزة. في ذلك الصيف وفي ظهورين اثنين له، أبدى المستمعون شعورًا قويًا بالضيق والحرج حين صار مشوشًا وغير متماسك على نحو غريب ولنوبات قصيرة. إن شيئًا ما، فيزيائيًا وإدراكيًا، كان خطأ بالتأكيد.

لكنني لا أستطيع أن أؤيد تخميني هذا عن مسؤولية فيدل في اعتقال مونتيز بدلائل قوية وصلبة. فما أقوله يستند أساسًا على فهمي لطريقة عمله وعمل المخابرات الكوبية. أظن أن فيدل، وفي حالة من فقدان الحس بالمكان والزمان، أخذ يتباهى ويتفاخر عندما كان محاطًا بمسؤولين كوبيين وبمستوى تجسس رفيع المستوى واستثنائي يعملون لصالحه في واشنطن. وكان كل من أوديوزولا وكاريرا يتفاخران بطريقة مماثلة ودون حذر واحتراس أمام مير الذي لا يوجد سبب يدعو إلى أن يكون على علم بذلك.

عندما كان فيدل أصغر سنًا وأقوى بدنيًا لم يرتكب خطأً كبيرًا مثل هذا. وعندما هرم وشاخ بدأ يتراجع ذهنيًا، وصار مدفوعًا بقوة أكبر من السابق بدافع المغالاة النرجسية. صار يبحث عن التمجيد والتبريك بما يعمله. وأراد للآخرين أن يعرفوا منجزاته. وأظن، إذا كان قد تباهى بهذه العميلة المتفوقة، مونتين، فهو ربما أعطى بعض المعلومات التعريفية بها، على سبيل المثال، بأنها امرأة أمريكية من أصول بورتوريكية. وربما سمعه أحد الكوبيين الذين أعجبوا بذلك، ولعله انشق بعدئذ وقدم هذه المعلومات للسلطات الأمريكية. ولعلها كانت أكثر من تلك النتف من المعلومات التي ذكرها الضابط المحقق في وكالة استخبارات الدفاع، وبالتالي حركت شبكة الاستخبارات المضادة التي أوقعت مونتيز في المصيدة.

وإذا كان هذا القول صحيحًا، فإن من سخرية الأقدار أن فيدل كاسترو هذا الجاسوس المتفوق والشيخ العاجز، والرئيس الأكثر مهابة وذكاء في العالم الحديث هو الذي أماط اللثام عن واحدة من أكثر عملائه السريين قيمة وأهمية من الذين كان على اتصال مباشر بهم. هنالك عدالة غريبة في الافتراض بأن قائد كوبا الذي يبدو في الظاهر معصومًا من الخطأ وذا بصيرة نافذة والمكيافيلي على مدى عقود عدة من السنين قد أخفق في النهاية هذا الإخفاق الذريع، لكنني أعتقد أن هذا هو ما حدث على وجه الدقة.

* * *

ولما كان مريضًا لا يقوى على متابعة عمله كرئيس لبلاده فقد تنحى مؤقتًا في تموز/يوليو عام 2006، ونهائيًا في شباط/فبراير عام 2008. واليوم وقد بلغ الخامسة والثمانين من عمره، وقلما يظهر أمام الجماهير يمكن القول بأنه لا سبيل إلى تغيير تدهور صحته المتواصل. وفي هذه الأثناء نشاهد تفكك إرثه بحذر وحرص شديدين وإخفاقاته الهائلة على الجبهة الداخلية صارت موضع اعتراف ضمني لدى ورثته. ففي ظل رئاسة أخيه راؤل صار التأكيد على الخبز

بدلًا من المهرجانات الثورية، وعلى حل المشكلات الداخلية بدلًا من إلقاء الخطب والتأثير في الجماهير. لقد شكل راوْل فريقًا لقيادة جديدة أفراده جميعًا من محض اختياره.

لم يعد فيدل رئيس الجاسوسية الأعلى. فالعمليات المخابراتية هي اليوم في أيدي رجال أقل بروزًا وتميزًا وبيروقراطيين وضباط عسكريين لم تعد تعنيهم الحرب الطويلة الخفية مع الأمريكيين أو تحمل لهم ذات المعنى المثير كما كان الحال مع فيدل. كانت الحرب مع الإمبرياليين الأمريكيين حملة شخصية في نظره، وسبب وجود ثورته وبقائها. طالما ظل حيًا وأخوه يحكم كوبا، سيظل الصراع الذي أراده وكان بحاجة إليه أمرًا تحترمه الدعاية الكوبية، لكنه لن يظل الأمر الذي يحدد كل شيء في السياسة الوطنية.

ليس لدى راوْل خبرة مباشرة في عمليات ومؤامرات المخابرات مثل فيدل. فهو أكثر حذرًا وسياسي براغماتي، وقد فوض الآخرين ببعض مسؤولياته. لا تسيطر عليه تقاليد الثأر بل هو أقل ميلًا لإعطاء الأوامر بإعدام الأعداء أو الخونة. وعندما يتحدث أمام الملأ، يتحدث بهدوء وبعيدًا عن الأبهة والمهرجانات أو الاتهامات والانتقادات التي غالبًا ما كانت تصاحب أداء فيدل. ولا ينسى راوْل أن يتملق ويمالئ كراهية أخيه للولايات المتحدة ولضرورة التأهب المتواصل – كما لو أن الإدارات الأخيرة في واشنطن لا تزال تدبر المكائد لانقلابات عسكرية أو عمليات اغتيال – لكنه ودون أدنى شك لديه أولويات أعلى كثيرًا من مجرد كيل الاتهامات وعبارات الشجب للأمريكيين. وعندما يرحل فيدل عن هذه الدنيا فسوف تزول معه تلك الهواجس المناهضة للأمريكيين.

يبلغ راوْل الثمانين من عمره عند كتابة هذه السطور، وهو يحكم البلاد دون تحد من أحد ولعله سوف يظل في الحكم إلى أن يبلغ أرذل العمر حيث يضعف جسديًا وعقليًا. وهو مثل فيدل تظل أمور صحته سرًا من أسرار الدولة، لكن ثمة احتمال كبير بأنه هو أيضًا يعاني من ضعف وأمراض خطيرة، وبعضها له صلة دون شك بإدمانه على الكحول لعقود طويلة من السنين. لكن العبء الأكبر على قيادته للدولة يتمثل في بقاء فيدل على قيد الحياة، ولا يزال يصدر

"تأملاته" التي تنشرها وتتداولها وسائل الإعلام الكوبية. وهنالك احتمال كبير بأن من يكتبها اليوم أشخاص في حاشية فيدل، وهذا ما يشير إلى خط متشدد، هم فئة فيدل، لا يزال قويًا في صفوف القيادة. لكن هذه التعليقات والآراء قلما تنتقد قرارات راؤل. إنما الواضح أيضًا أن لدى الأخ الأصغر رقابة ذاتية بغية اجتناب ذلك النقد. ولعله هو نفسه يفضل ذلك، فإن من الاستحالة بمكان أن يعمل راؤل على التبرؤ من أي من سياسات فيدل المقدسة التي اتبعها في الماضي طالما بقي شقيقه على قيد الحياة.

وبما أنه مقيد بذلك فقد ركز راؤل على معالجة أزمات كوبا الاقتصادية المأساوية، غير أنه وبعد ما يزيد عن خمسة أعوام له في السلطة لم يستطع أن يفعل شيئًا. تعهد أمام الملأ بإجراء تغييرات جذرية - مثل تسريح ما يقرب من مليون عامل في القطاع العام - وما استطاع إلا أن يتراجع عن هكذا تعهدات، خوفًا من استياء عام دون أدنى شك. تحدث كثيرًا وفي كل مناسبة عن تطبيق الإصلاح الزراعي. ولكن في هذا المجال أيضًا كانت الإجراءات التي اتخذها حذرة تفتقر إلى الحماسة.

هو شديد وقاس - لكنه ليس عديم الرحمة مثل أخيه فيدل - عند التعامل مع المعارضة الداخلية الصغيرة العدد برغم أنها قوية وجريئة. الجماعات التي تنادي بالديمقراطية والصحفيون وأمناء المكتبات المستقلون وغيرهم كثيرون من الأصوات المتفرقة للمعارضة ما انفكوا يضغطون على النظام، وعلى وجه الخصوص مطالبين بتحقيق دولي في سجل حقوق الإنسان الرهيب.

سوف يعمل راؤل ويواصل العمل ووضع الخطط بحثًا عن الفاعلية وتقليص النفقات. فهو يعرف جيدًا مدى خطورة الكارثة الاقتصادية التي تنتظر كوبا. فإذا انتهت المساعدات الهائلة التي يقدمها الرئيس الفنزويلي المريض شافيز فإن الأضواء في هافانا سوف تعتم بالمعنى الحرفي للكلمة، وسوف يحصل كساد شديد شبيه بذلك الكساد الذي حدث بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ومساعداته، وسيكون ذلك أمرًا حتميًا.

في هذا المناخ من انعدام اليقين ومن العمل على تقليص النفقات فمما لا شك فيه أن تلك الموارد المفترض أنها غير محدودة والتي خصصها فيدل لأعمال الاستخبارات قد انخفضت، ولست أعلم ماهية التقديرات الدقيقة لعدد العاملين القائمين على رأس عملهم في وزارة الداخلية أو في المخابرات اليوم. لكن هنالك احتمالاً كبيرًا بأن الاستخبارات الخارجية، في الحد الأدنى، قد تعرضت لتخفيضات كثيرة من خلال التقاعد المبكر والندب إلى مهام وظيفية أخرى.

وكذلك الأمر، انخفضت القدرات كثيرًا وضعفت. أعوان راؤل ورفاقه، الضباط العسكريون الكهول الذين يتولون إدارة المخابرات هذه الأيام هم ورثة واهنون يتثاقلون في مشيتهم خلفوا "ذا اللحية الحمراء" الفخور المتهور وجيله المؤسس من عناصر وعملاء جسورين ومبدعين. فالقيادة الجديدة دفاعية، ذلك أنها اليوم بمواجهة جهود استخبارية أمريكية أكثر عزيمة وتصميمًا من السابق. كثيرون من العناصر الكوبيين باتوا يشكون بصفة الاستعجال في المهام الموكلة إليهم وهم يواجهون العدو الأمريكي الذي لا يمكن أن يبدو قوي التهديد كما كان في السابق. الروح المعنوية المتداعية والمتردية واحدة من العواقب الوخيمة لكل تلك التحديات والقيود الجديدة التي تواجه المخابرات الكوبية. وهذا ما يفسر أسباب احتفاظ النظام بقرع الطبول المصم للآذان لتلك الدعاية المغرضة الداعمة لجواسيس شبكة Wasp داخل السجون الأمريكية.

يعتقد بعض المنشقين الذين استشهدنا بأقوالهم على هذه الصفحات أن المهنيين في المخابرات، وحتى ما قبل حملة التطهير في وزارة الداخلية عام 1989، هم النخبة الأكثر تطورًا وتنويرًا وتقدمًا داخل الجهاز الحاكم في كوبا. عدد كبير من ضباط مديرية المخابرات العامة تأثروا وأعجبوا بحركة الإصلاح التي صدّعت الكتلة الشيوعية في الفترة ما بين عامي 1989 و 1991، وربما يكون بعض هؤلاء الضباط قد تآمروا على الأخوين كاسترو. وقد سألت بعض المصادر من المنشقين لديّ عما إذا كان الجهاز الذي صار يعرف الآن باسم "مديرية المخابرات" قد يكون في يوم ما المعين الذي منه تنبع حركة معارضة

إصلاحية تهيئ السبيل إلى كوبا ديمقراطية تعددية تشجع قطاع الأعمال الخاصة. وخلافًا لذلك، هل يخرج مخضرم ماكر ومخادع من هذا الجهاز ويستخدم مكره وخداعه، مع زملائه وما لديهم من خداع، ويرتقي إلى ذروة الكتلة السياسية؟ فقد حدث هذا في روسيا.

لكن الإجابات عن هذه التساؤلات متباينة، وعمومًا لدى مصادري عامة استنتاج بأن تلك الروح المبدعة المحطِّمة للتقاليد والتي يذكرونها عندما كان المدنيون يديرون المخابرات قد أُسكتت في ظل هيمنة العسكريين التي امتدت طوال السنوات العشرين الماضية. وفي المحصلة يميل المنشقون الذين تشاورت معهم إلى التكهن باحتمال مجيء زعيم متشدد وسلطوي يخرج من المؤسسة العسكرية الكوبية أو من جهاز المخابرات وليس مجيء مصلح ديمقراطي. وأظن أنهم مصيبون.

من الممارسات الأكثر تطرفًا لدى المخابرات العامة والتي كان فيدل يطلبها أثناء حكمه – مثل ضخ غاز منوم تحت أبواب مغلقة، وإدارة فريق شخصي من القتلة، وملاحقة أجانب بارزين – ربما لم تعد معمولاً بها في ظل رؤساء جدد في وزارة الداخلية يتصفون بشيء من الحذر. لكننا علينا أن ننتظر الزمان والجهود الاستخبارية الأمريكية المضادة لكي نعرف مدى عدوانية وحرفية وابتكار ما تبقى من الجاسوسية الكوبية. وإلى أن يحدث تطبيع شامل للعلاقات مع هافانا، فإنه سيكون من خطأ المسؤولين الأمريكيين أن يقللوا ثانية من قدرات الاستخبارات الخارجية الكوبية.

في مكان ما على ذلك الطريق الحتمي نحو المصالحة – والتي لا يمكن أن تكون في المستقبل البعيد – آمل أن يخرج كوبي يحمل دلائل تؤيد ما قاله لي تايني أسبلاغا في شأن ما يتذكره عما حدث صبيحة يوم 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1963. إن تأكيد معرفة فيدل بنوايا أوزوالد لقتل الرئيس كينيدي – ولم يفعل شيئًا للحيلولة دون حصول ذلك – لن تجمد تلك الحرب المشتعلة بين أصحاب نظريات الاغتيال المتضاربة أو تبني أولئك الذين يصرون على أن أوزوالد لم يتصرف من تلقاء نفسه في ذلك اليوم. لكن دليلاً إضافيًا من مكان ما في

الأرشيف الكوبي، من لويزا كالديرون أو من شاهد كوبي آخر، قد يؤيد ما أعتقده الآن بأن قرار فيدل كاسترو الأكثر جدارة بالازدراء إبان ما يقرب من خمسة عقود له في السلطة هو بأن ينأى بنفسه، ويبني لنفسه مكانًا بعيدًا عن موقع الجريمة، وأن يكذب وينافق، ويشن حملات إعلام مضلل موجهة إلى آخرين امتدت لعقود من السنين، وفي غضون ذلك كله يلتزم بمؤامرة الصمت بخصوص جريمة اغتيال الرئيس جون كينيدي.

الهوامش

الفصل الأول: أفضل كفاءة منا

1. CIA, "Clandestine Services Cuban Collection Program," NARA, 104-10310-10005.
2. Church Committee (testimony of James J. Angleton, June 19, 1975).
3. Juan Antonio Rodriguez Menier, *Cuba Por Dentro* (Miami: Ediciones Universal, 1994), p. 61.
4. Subcommittee on Security and Terrorism, Judiciary Committee (testimony of Gerardo Peraza, February 26, 1982).
5. Oleg Kalugin, *The First Chief Directorate* (New York: St. Martin's Press, 1994), p. 192.
6. *The CIA War Against Cuba,* Cuban government televised July-August 1987. Author interviews with Florentino Aspillaga.. C. Smith, *Inside: A Top G-Man Exposes Spies, Lies, and Bureaucratic Bungling Inside the FBI* (Nashville, TN: Nelson Current, 2004), p. 96.
7. David R. McLean, "Western Hemisphere Division, 1946-1965," Vol. 1, p. 234. NARA 104-10310-10001.
8. "Seven Men: One Fist and One Heart," *Granma Weekly Review,* August 2, 1987.
9. "Espionage and Counterespionage in Havaná," *Granma Weekly Review,* July 19, 1987.
10. "Our Man in the CIA" and "Angel Mateo," *Granma Weekly Review,* July 19, 1987.
11. J. C. Masterman, *The Double-Cross System in the War of 1939 to 1945* (New Haven, CT: Yale University Press, 1972), p. 15.
12. Zayda Gutierrez Perez, "The Improvement of Political-Operational Work Against the Intelligence Services of the USA Through the Intelligence Activity of Penetration Agents," Ministry of State Security, German Democratic epublic, 1987. I am grateful to Chuck Lane who provided me a copy he translated from the German.
13. Church Committee (testimony of Richard Helms, June 13, 1975).
14. Author interview with Miguel Mir.
15. Smith, *Inside,* pp. 95-96.
16. Ibid.
17. "The CIA War Against Cuba."
18. "Espionage and Counterespionage in Havana."
19. McLean, "Western Hemisphere Division, 1946- 1965."
20. Ibid., pp. 234-235.

21. Alan H. Flanigan interview, Foreign Aairs Oral History Collection of the Association for Diplomatic Studies and raining, National Foreign Aairs Training Center (NFATC) website, http://www.state.gov/m/fsi/tc/c16687.htm, June 6, 1997.

الفصل الثاني: بأوامر من فيدل

1. Florentino Aspillaga, unpublished manuscript.
2. Author interview with Florentino Aspillaga. *The CIA War Against Cuba*, televised by the Cuban government July-August 1987.
3. David Leppard, "The Men from Havana", *Sunday Times London*, September 18, 1988; *Time*, September 26, 1988
4. Ibid.
5. Author interview with Jose Maragon.
6. Aspillaga manuscript, p. 51.
7. Author interview with Lazaro Betancourt.
8. "Castro Speaks on Dominguez, del Pino Cases," FBIS, July 2, 1987.
9. Brian Latell, *After Fidel* (New York: Palgrave Macmillan, 2005).
10. Ibid. "Castro Speaks..."
11. Juan Antonio Rodriguez Menier, *Inside the Cuban Interior Ministry*, (Washington, D.C., Jamestown Foundation, 1994). p. 5.
12. *Granma* editorial, September 2, 1989.
13. Rodriguez Menier, *Inside the Cuban Interior Ministry*, p. 64; José Ramón Ponce Solozabal, *Al Final del Arco Iris: Un Psicologo en el Contraespionaje Cubano* (Miami, Grupo de Apoyo a la Democracia, 2005), p. 211.
14. Rodriguez Menier, *Inside the Cuban Interior Ministry*. Jorge Masetti, *In the Pirate's Den*, (San Francisco, Encounter Books, 1993) pp. 122, 136. Aspillaga manuscript.
15. Author interview with Roberto Hernández del Llano.
16. Aspillaga manuscript, p. 98.
17. Author interview with Hernández del Llano. Subcommittee on Security and Terrorism, Judiciary Committee (testimony of Gerardo Peraza, February 26, 1982).

الفصل الثالث: قصص من على سطح الدار

1. Rolando Bonachea and Nelson Valdes, *Revolutionary Struggle, 1947-1958, Selected Works of Fidel Castro* (Cambridge, MA: MIT Press, 1972), p. 23.
2. Ibid., p. 24; Robert E. Quirk, *Fidel Castro* (New York: Norton, 1993), p. 25. Georgie Anne Geyer, *Guerrilla Prince* (Boston: Little, Brown, 1991), p. 64.
3. Leycester Coltman, *The Real Fidel Castro* (New Haven, CT: Yale University Press, 2003), p. 38.
4. Tad Szulc, interview with Max Lesnick, CHC, August 10, 1984.
5. Memorandum for the Record, NARA 104-10308-10197.

6. Szulc, Lesnick interview.
7. Brian Latell, *After Fidel: The Inside Story of Castro's Regime and Cuba's Next Leader* (New York: Palgrave Macmillan, 2005), p. 87.
8. James Blight, Bruce J. Allyn, and David A. Welch, *Cuba on the Brink: Castro, the Missile Crisis and the Soviet Collapse* (New York: Pantheon Books, 1993), p. 109.
9. Ibid., p. 110.
10. CNN interview with Fidel Castro, for "Castro in His Own Words," 1998.
11. The text can be found in: Fidel Castro and Ignacio Ramonet, *Fidel Castro: My Life* (New York: Simon & Schuster, 2006), pp. 278-279.
12. Tad Szulc response to Peter Kornbluh, *Washington Post Book World,* November 15, 1992.
13. Laurence Chang and Peter Kornbluh, eds., *The Cuban Missile Crisis, 1962: A National Security Archive Reader* (New York: New Press, 1992), pp. 195-196.
14. William Taubman, *Khrushchev: The Man and His Era* (New York: Norton, 2003), pp. 150, 169.
15. Nikita Khrushchev, *Khrushchev Remembers: The Glasnost Tapes* (Boston: Little, Brown, 1990), p. 177.
16. FBIS, October 1, 1990.
17. Khrushchev, *Glasnost Tapes,* p. 183.
18. Oleg Troyanovsky, "The Caribbean Crisis: A View from the Kremlin," *International Affairs* (April-May 1992): 153.
19. Blight et al., *Cuba on the Brink* p. 107.
20. Fidel Castro interview with Robert McNeil, February 20, 1985.
21. Blight et al., *Cuba on the Brink,* pp, 106-134. Khrushchev, *Glasnost Tapes,* p. 178.
22. Memo for the Record, STEEL-1; NARA 104-10308-10197.
23. CNN interview with Castro.
24. Jorge Dominguez, "Foreword," in Blight et al., *Cuba on the Brink,* p. xiii.
25. Henry Kissinger, *Years of Renewal* (New York: Simon & Schuster, 1999), p. 816.
26. Fidel used that number in a fundraising speech at the Flagler Theater in Miami, November 20, 1955, in Bonachea and Valdes, *Revolutionary Struggle,* p. 286. in his authoritative volume, Antonio Rafael de la Cova, *The Moncada Attack* Columbia: University of South Carolina Press, 2007), p. 266, says that sixty-one of Castro's men were killed.
27. FBIS, April 22, 1963.
28. Fidel Castro interview with Julio Scherer, *Proceso,* September 21, 1981.
29. Brian Latell, National Intelligence Council Memorandum, "Castro Agonistes: The Mounting Dilemmas and Frustrations of Cuba's Caudillo," November 1981.
30. Author interview with Moncada survivor Jaime Costa.
31. Anatoly Dobrynin, *In Confidence: Moscow's Ambassador to America's Six Cold War Presidents* (New York: Times Books, 1995), p. 85.
32. Brian Latell, "The Dilemmas and Anxieties of Cuba's Aging Leader," in *Cuban Foreign Policy: The New Internationalism,* ed. Jaime Suchlicki and Damian Fernandez (Miami: University of Miami Press, 1985) pp. 30-55.
33. Fidel Castro, "Nuclear Winter," *Granma,* August 23, 2010.

34. Castro speech on inauguration as president, March 6, 2003, www.cuba.cu/gobierno/discursos/2003/ing/.

35. Bernard Collier, *New York Times,* July 1964.

الفصل الرابع: المجيء إلى كوبا

1. Orlando Castro Hidalgo, *Spy for Fidel* (Miami, E. E. Seaman, 1971), p. 37.

2. David A. Phillips, *The Night Watch* (New York: Athenaeum, 1977), p. 77. Author interview with a former CIA officer.

3. David A. Phillips, "Castro's Spies Are No Longer Teenagers," *Retired Officer,* January 13, 1982. David A. Phillips, *Secret Wars Diary* (Bethesda, MD: Stone Trail Press, 1989).

4. NARA 104-10072-10222.

5. Jorge Castaneda, *Utopia Unarmed* (New York: Knopf, 1993), p. 54.

6. Church Committee (testimony of Richard Helms, June 13, 1975).

7. *The Organization of the General Directorate of Intelligence,* CIA report CS-311/00115-64, NARA 104-10185-10149.

8. NARA 104-10239-10409.

9. John McCone, Statement to the House of Representatives Committee on Foreign Aairs, February 19, 1963.

10. Castro Hidalgo, *Spy for Fidel,* p. 39.

11. Ibid., p. 40. "Debriefing Report of Defector from Cuban Intelligence Service," NARA 104-10247-10389.

12. Christopher Andrew and Vasily Mitrokhin, *The World Was Going Our Way* (New York: Basic Books, 2005), p. 49.

13. Andrew and Mitrokhin, *World Was Going Our Way* p. 49. Testimony of Gerardo Peraza, Subcommittee on Security and Terrorism, Judiciary Committee, U.S. Senate, February 26, 1982.

14. "Debriefing Report."

15. McCone, Statement.

16. NARA 104-10239-10442.

17. NARA, 104-10239-10427. NARA 104-10185-10111.

18. McCone, Statement.

19. Statement of President of Venezuela to the (OAS) Investigating Committee, December 9, 1963.

20. McCone, Statement.

21. Luis Baez, *Secretos de Generales* (Barcelona: Editorial Lozada, 1996), p. 122.

22. Author interviews with Lazaro Betancourt, Juan Sanchez Crespo, and Norberto Fuentes.

23. Ibid.

24. Ibid.

25. Baez, *Secretos de Generales.*

26. Ibid. Castro Hidalgo, *Spy for Fidel,* p. 49.

27. Church Committee (testimony of Phillips).

28. Baez, *Secretos de Generales*, pp 27-28.
29. Jorge Castaneda, *Companero: The Life and Death of Che Guevara* (New York: Knopf, 1997), p. 342.
30. Castro Hidalgo, *Spy for Fidel*, p. 49.
31. Jon Lee Anderson, *Che: A Revolutionary Life* (New York: Grove Press, 1997), p. 701.
32. Ibid., pp. 698-699.
33. Castaneda, *Companero*, p. 379.
34. Markus Wolf, *Man Without a Face* (New York: Random House, 1997), p. 310.

الفصل الخامس: مرحلة سحب الخناجر

1. *Excerpts: Draft History: John A. McCone*, NARA 104-10301-10000; thanks to Keith Melton for technical advice.
2. Ted Shackley, *Spymaster: My Life in the CIA* (Dulles, VA: Potomac Books, 2005), p. 65.
3. Ibid. Robert Wallace and H. Keith Melton, *Spycraft: The Secret History of the CIA's Spytechs from Communism to Al-Qaeda* (New York: Dutton, 2008), p. 438; author interview with Keith Melton.
4. Shackley, *Spymaster*, p. 52.
5. Maragon, author interview.
6. Author interviews with captains of the covert navy.
7. Church Committee (testimony of Ted Shackley, August 19, 1975). Shackley quoted in Don Bohning, *The Castro Obsession* (Dulles, VA: Potomac Books, 2005), p. 130.
8. Church Committee (testimony of Tom Karamessines, April 14, 1976); Sam Halpern, interview by Ralph Weber, NARA 104-10324-10002.
9. Rockefeller Commission (testimony of Richard Helms 1975), NARA 157-10005- 10376, and Church Committee testimonies, April 23 and June 13, 1975.
10. Rockefeller Commission and Church Committee, (Helms testimony, April 23, 1975).
11. Regarding the Puerto Rico station, Rockefeller Commission (testimony of Bill Sturbitts, April 16, 1975), NARA 157-10011-10083.
12. Brian Latell and Michael Warner, interview with Sam Halpern, April 7, 1998, NARA 104-10324-10000. Regarding Houston and Robert Kennedy, Church Committee (testimony of Walt Elder, August 13, 1975); regarding JMWAVE opening, Rockefeller Commission (testimony of Sturbitts).
13. Church Committee (testimony of James Angleton, September 17, 1976).
14. Church Committee (testimony of James Angleton, September 19, 1976).
15. Church Committee (testimony of Sam Halpern, April 22, 1976).
16. David R. McLean, Excerpts History of WH Division, 1946-1965, NARA, 104-10301- 10001. Minutes of Special Group (Augmented) Meeting, July 12, 1962, NARA 157-10014-10082.
17. Clandestine Services Cuban Collection Program, NARA 104-10310-10005.
18. Excerpts, WH Division.
19. Church Commission (testimony of Helms, September 11, 1975); Evan Thomas, *Robert Kennedy: His Life* (New York: Simon & Schuster, 2000), pp. 119-120.

20. Bohning, *Castro Obsession,* pp. 84 and 130. Rockefeller Commission (testimony of Sturbitts).
21. David Corn, *The Blond Ghost* (New York: Simón & Schuster, 1994), p. 16.
22. Shackley, *Spymaster,* p. 69.
23. Church Committee (testimony of Shackley).
24. "Participacion Directa de la CIA en Ataques a Cuba," *Bohemia,* November 8, 1963. Corn, *Blond Ghost,* p. 105.
25. FRUS, *Cuban Missile Crisis and Aftermath, 1961-63,* Vol. 11, p. 886.
26. Church Committee (testimony of Helms, September 11 and July 17, 1975).
27. Church Committee (testimony of Helms, July 18, 1975). Interview with Samuel Halpern by Dr. Mary S. McAulie, January 15, 1988, p. 16, NARA 104-10324-10003.
28. Church Committee (testimony of Marshall Carter); Bohning, *Castro Obsession,* p. 153. Rockefeller Commission (testimony of Helms).
29. Garry Wills, *The Kennedy Imprisonment: A Meditation on Power* (Boston, Little, Brown, 1981), pp. 211, 234.
30. Church Committee, June 13, 1975.
31. Ibid.
32. Jack Bell, JFK Library OH.
33. Church Committee (testimony of Helms, June 13 and July 17, 1975).
34. "Report on the Plots to Assassinate Fidel Castro," May 23, 1967, NARA 104-10213-10101.
35. Max Holland, *The Kennedy Assassination Tapes* (New York: Knopf, 2004), p. 419.
36. Church Committee (testimony of Tom Parrott, July 10, 1975).
37. McAulie interview with Sam Halpern,
38. Regarding Soviet troops, see-The President's Intelligence Checklist, November 29, 1963, NARA 104-10302-10028.
39. Charles Bartlett, JFK Library, OH Regarding the poll, *Washington Post,* November 28, 1963.
40. Laura Bergquist interview, JFK Library, OH.
41. Allan Stewart interview, JFK Library, OH.
42. Church Committee (testimony of Helms, June 13, 1975); Special National Intelligence Estimate, "The Eects of Hurricane Flora on Cuba," November 5, 1963, FRUS Supplement 719.
43. The unredacted and most complete account of the meeting can be found in "Minutes of the Meeting to Review the Cuban Program," signed by Bruce Cheever, November 12, 1963, NARA 104-10306-10014. A shorter version is at FRUS, *Cuban Missile Crisis and Aftermath, 1961-63,* Vol. 11, p. 886.
44. Ibid.
45. Ibid.
46. Ibid.
47. 303 Committee Meetings (January-December 1963), NARA 104-10306-10024; "Minutes of the Meeting."
48. Shackley, *Spymaster,* pp. 74-75. Bohning, *Castro Obsession,* pp. 162-165.

49. Ibid.
50. Church Committee (testimony of Marshall Carter, September 19, 1975).
51. Ibid.
52. Rockefeller Commission (testimony of Sturbitts).
53. Ibid.
54. Bohning, *Castro Obsession*, p. 192.
55. "Minutes of Meeting." Shackley, *Spymaster*, p. 72. Castro speech, March 13, 1966, FBIS.
56. "Minutes of Meeting."
57. Shackley, *Spymaster*, p. 69. Clandestine Services Cuban Collection Program, NARA 104-10310-10005.
58. Wills, *Kennedy Imprisonment*, p. 255.

الفصل السادس: قتل الطغاة

1. Regarding passport: NARA 104-10186-10328.
2. CIA report, May 26 1965, NARA 104-10186-10046.
3. CIA debriefing report, May 26-27, 1965, NARA 104-10186-10046; 104-10183-10343.
4. NARA 104-10247-10399.
5. "Forwarding of Tapes," May 1, 1964, NARA 104-10183-10284.
6. Raymond G. Rocca, Memorandum for Deputy Director for Plans, May 11, 1964, NARA 104-10400-10105.
7. Author phone interview and correspondence with Sally Swenson Cascio.
8. Cable to Headquarters, April 24, 1964, NARA 104-10183-10280.
9. Dispatch from Ottawa to Chief, Special Aairs Sta, May 1, 1964. NARA 104-10185-10319. Hundreds of pages of Rodriguez Lahera's reporting are available at NARA 1994: 04.26.09.06:29:280005 and 104-10185-10398.
10. Church Committee (testimony of Harold Swenson, report, July 8, 1964), NARA 104-10185-10149.
11. "Debriefing Report of Defector from Cuban Intelligence Service," NARA 104-10247-10389.
12. NARA 104-10247-10218.
13. Ibid.
14. NARA 104-10183-10280.
15. NARA 104-10185-10290; NARA 104-10054-10014; NARA 1994.03.11.16:08:45:220 005.
16. NARA 104-10234-10322.
17. CIA Memorandum for the Record, October 18, 1976, NARA 104-10506-10022.
18. NARA 104-10234-10322.
19. NARA 104-10216-10175.
20. AMMUG Operational Target Analysis and Non-Surfaceable Leads, June 19, 1964, NARA 104-10183-10276.
21. Ibid.
22. Ibid.
23. Ibid. NARA 104-10183-10284.

24. AMMUG Operational Target Analysis.
25. NARA 104-10187-10354; 104-10187-10373; 104-10187-10365; and 104-10187-10113.
26. Note tk.
27. Roque Dalton, *Poemas Clandestinas* (Willimantic, CT: Curbstone Press, 1984), p.141.
28. Jorge Castaneda, *Utopia Unarmed* (New York: Knopf, 1993), p. 64.
29. Ibid., p. 352.
30. Ibid.
31. Juan Antonio Rodriguez Menier, *Inside the Cuban Interior Ministry* (Washington, DC: Jamestown Foundation, 1994), p. 52.
32. Castaneda, *Utopia Unarmed,* p. 356.
33. Javier Rojas, *Conversaciones con el Comandante Miguel Castellanos* (Santiago, Chile: Editorial Adelante, 1986), p. 29.
34. Robert Kagan, *A Twilight Struggle: American Power in Nicaragua, 1977-1990* (New York: Free Press, 1996), p. 160.
35. John Lee Anderson, *Che: A Revolutionary Life* (New York: Grove Press, 1997), p. 749.
36. Ibid.
37. Author interviews with Gustavo Villoldo and Felix Rodriguez; Gustavo Villoldo, *Che Guevara: The End of a Myth* (Miami: Rodes Printing, 1999), p. 84; Felix Rodriguez, *Shadow Warrior.*
38. Church Committee (testimony of William Harvey, June 25, 1975).
39. PBS, *American Experience;* Author interview with Rolando Martinez.
40. Rolando Bonachea and Nelson Valdes, *Revolutionary Struggle, 1947-1958, Selected Works of Fidel Castro* (Cambridge, MA: MIT Press, 1972), p. 283.
41. Castro on Death of President Kennedy, FBIS, November 26, 1963.
42. NARA 124-90135-10285 and 104-10073-10117.
43. Author's phone interview with Dariel Alarcón Ramirez.
44. Jorge Masetti, *In the Pirate's Den* (San Francisco: Encounter Books, 1993), pp. 66-67.
45. Ibid.
46. Maragon, author interview.

الفصل السابع: فم الأسد

1. "Selection and Training of Cuban Intelligence Agents Abroad," October 12, 1964, NARA 104-10186-10109.
2. "Debriefing of AMMUG: The Oswald Case," May 8, 1964, NARA 104-10088-10174; "Debriefing of Cuban Source," May 5, 1964, NARA 104-10054-10418.
3. Church Committee (testimony of Thomas Karamessines, April 14, 1976). Memo for the Record, October 18, 1976, NARA 104-10506-10022.
4. *Review of Selected Items in the Lee Harvey Oswald File Regarding Allegations of the Castro Cuban Involvement in the John F. Kennedy Assassination,* May 23, 1975, NARA 104-10103-10271.
5. "Debriefing of AMMUG: The Oswald Case," May 7, 1964, NARA 104-10054-10439.
6. HSCA (testimony of Silvia Duran, June 6, 1978).

7. HSCA (testimony of Alfredo Mirabal, September 18, 1978); Eusebio Azcue, HSCA testimony, September 18, 1978. Both can be found at http://jfkassassination.net/russ/ wit.htm#a.
8. Warren Commission (testimony of J. Edgar Hoover).
9. NARA 180-10117-10101.
10. Vincent Bugliosi, *Reclaiming History: The Assassination of President John F. Kennedy*, (New York: Norton, 2007), p. 562.
11. Jean Davison, *Oswald's Game* (New York: Norton, 1983), p. 96.
12. Bugliosi, *Reclaiming History*, p. 938.
13. Ibid., p. 940.
14. HSCA (testimony of Marina Oswald Porter, September 13-14, 1978).
15. Albert H. Newman, *The Assassination of John F. Kennedy: The Reasons Why* (New York: Clarkson Porter, 1970), p. 23.
16. Cited by Bugliosi, *Reclaiming History*, p. 937.
17. Patricia Johnson McMillan, *Marina and Lee* (New York: Harper & Row, 1977), p. 340. Warren Commission Document 82.no
18. HSCA (testimony of Marina Oswald Porter) *The Warren Commission Report, issued September 24, 1964t* (New York: St. Martin's Press, no date), p. 301.
19. Raymond G. Rocca memorandum to Deputy Director for Plans, "AMMUG Information on Lee Harvey Oswald," May 11, 1964, NARA 104-10400-10105. HSCA (testimony of Rocca, July 17, 1978).
20. HSCA (testimony of Howard Willens, July 28, 1978).
21. "Proposed Questions on Oswald Case," May 1, 1964, NARA 104-10052-10065.
22. "Debriefing of AMMUG: The Oswald Case," May 8, 1964, NARA 104-10088-10174.
23. Ibid; "Debriefing of Cuban Source," May 5, 1964, NARA 104-10054-10418.
24. CIA Oce of Current Intelligence, November 29, 1963, NARA 104-10302-10029.
25. Daily Summary, November 29, 1963, NARA 104-10302-10022.
26. Ibid. Memo for the Record, STEEL-1, NARA 104-10308-10197.
27. Daily Summary, November 25, 1963, NARA 104-10302-10021. Central Intelligence Bulletin, November 25, 1963, NARA 014-10302-10006. "Castro on Death of President Kennedy," FBIS, November 26, 1963.
28. "Havana's Response to the Death of President Kennedy and Comment on the New Administration," FBIS Radio Propaganda Report No 12, December 31, 1963; *Current Intelligence Weekly Summary*, November 29, 1963, NARA 104-10302-10005.
29. CIA Bulletin, November 25, 1963, NARA 014-10302-10006; George Lardner Jr., "Castro 'Frightened' After JFK Killing," *Washington Post*, August 20, 1997.
30. "Havana's Response to the Death of President Kennedy."
31. WAVE to DIR, November 27, 1963, NARA 104-10079-10310. "Cuban Government Activities in Mexico," November 1976, NARA 104-10308-10025.
32. Fidel Castro, "An Impressive Gesture," *Granma*, April 24, 2009.
33. "Castro on Death of President Kennedy," FBIS, November 26, 1963.
34. Daily Summary, November 29, 1963, NARA 104-10302-10022.

35. "Castro Talks to University Students," FBIS, November 29, 1963.
36. Ibid.
37. "Debriefing of Cuban Source," May 5, 1964, NARA 104-10054-10418.
38. NARA 1993.07.19.15:59:57:590280. HSCA Box 18, #506.
39. "Debriefing of AMMUG: The Oswald Case," May 8, 1964, NARA 104-10088-10174. HSCA (testimony of Ray Rocca, July 17, 1978).
40. Mirabal, HSCA testimony.
41. NARA 104-10054-10021.
42. NARA 104-10183-10284.
43. John Barron, *Operation SOLO: The FBI's Man in the Kremlin* (Washington, DC: Regnery, 1996), p. 113.
44. Ibid., pp. 43-44.
45. Letter from Jack Childs to Gus Hall, John Barron Collection, Box 1, Folder 17, Hoover Archives. Regarding CIA and Roa: "Interim Working Draft," February 10, 1977, NARA 104-10103-10072.
46. Letter from Jack Childs to Gus Hall; Memo from Jack Childs, John Barron Collection, Box 2, Folder 18.Hoover Archives.
47. John Barron Collection, Box 1, Folder 17 and Folder 1, Hoover Archives
48. Ibid.
49. Letter from Childs to Hall.
50. Hoover letter to Rankin, June 17, 1964, John Barron Collection, Box 2, Folder 5, Hoover Archives. Gerald Posner, *Case Closed* (New York: Doubleday, 1993), p. 103.
51. Letter from Childs to Hall.
52. "SAC New York to Director, FBI," June 12, 1964, NARA 124-10274-10338.
53. Ibid.
54. Davison, *Oswald's Game*, p. 211; re McCone- John Goshko, "Oswald Reportedly Told Cubans of Plan to Kill JFK," *Washington Post*, November 13, 1976.
55. Davison, pp. 213-14.
56. Castro interview, HSCA, April 3, 1978.
57. CIA report, "Cuban Activities in Mexico," NARA 104-10163-10332; re Mirabal, NARA 104-10187-10330.
58. Cuban Government Activities in Mexico," November 1976, NARA 104-10308-10025.
59. Respuesta al Cuestionario del Comite Selecto sobre Asesinato de la Camara del Congreso de los Estados Unidos a Luisa Calderon, NARA 180-10105-10341.
60. Cuban Government Activities in Mexico.

الفصل الثامن: ضربة السوط

1. "Report on Plots to Assassinate Fidel Castro," (*CIA Inspector General Report*, May 23, 1967 NARA 104-10213-10101) (hereafter IGR). "Rolando Cubela Secades, New Cuban Military Attache to Spain," April 29, 1959, NARA 104-10400-10200.
2. "Biographic Data: Cubela Secades, Lazaro Rolando," November 1963, NARA 104- 10215-

10216; "Handwriting Analysis-AMLASH-1," April 7, 1965, NARA 104-10216-10441. Church Committee (testimony of Nestor Sanchez, July 29, 1975); "Church Committee (testimony of "Mr. Weatherby," August 11, 1975).

3. Thomas, Hugh, *Cuba: The Pursuit of Freedom* (New York: Harper & Row, 1971).
4. IGR.
5. Rockefeller Commission (testimony of Edward Gunn, May 17, 1975), IGR.
6. Tad Szulc interview with Ramiro Valdes, CHC.
7. William Harvey, interview, Church Committee sta, April 10, 1975.
8. Church Committee (testimony of Lawrence Houston, June 2, 1975). Felix Rodriguez, *Shadow Warrior* (New York: Pocket Books, 1989), pp. 69-72. Church Committee (testimony of Scott Breckinridge, June 2, 1975).
9. Church Committee (testimony of William Harvey, June 25, 1975), IGR.
10. Mary McAulie, interview with Sam Halpem, January 15, 1988, NARA 104-10324-10003.
11. Church Committee (testimony of William Harvey, July 11, 1975). Richard Helms, *A Look Over My Shoulder* (New York: Random House, 2003), p. 152.
12. Regarding Harvey alias: NARA 104-10319-10013; also Bayard Stockton biography of Harvey.
13. "TO Director; FROM Paris," October 12, 1963, NARA 104-10215-10381.
14. IGR; Memo for the Record, March 27, 1961, NARA 104-10215-10122.
15. "Anti-Communist Leaders Driven into Hiding at University of Habana," American Embassy, Havana, May 24, 1960, NARA 104-10308-10155; CIA cable to JMWAVE, June 8, 1961, NARA 104-10216-10022.
16. Church Committee (testimony of "Mr. Weatherby," August 1, 1975).
17. IGR.
18. IGR. Church Committee (testimony of "Mr. Weatherby"). "Summary of Contacts with AMWHIP-1 and AMLASH-1," September 1962, NARA 1994.04.26.11.24:25:530007.
19. Church Committee (testimony of "Mr. Weatherby,") CIA cable, August 3, 1962, NARA 104-10215-10073.
20. Note tk.
21. Church Committee (testimony of "Mr. Weatherby"), NARA 104-10216-10034.
22. "Summary of S/W Training & Issuance of Materials," August 29, 1962, NARA 104-10295-10001;NARA 104-10215-10210.
23. Church Committee (testimony of "Mr. Weatherby"),Helms, *Look Over My Shoulder*, p. 229; "Castro Interview on Return from Soviet Trip," FBIS, June 6, 1963.
24. CIA Dispatch, December 7, 1962, NARA 104-10309-10006.
25. Church Committee (testimony of "Mr. Weatherby").
26. Ibid.
27. Church Committee (testimony of Halpern, June 18, 1975).
28. Church Committee (testimony of Helms, April 23, 1975). Donovan Papers, Box 39, Hoover Archives.
29. Cire doc title... FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 655.
30. NIE, pp. 85-63. FRUS, Cuba, Vol. 11, p. 834. Get source info

31. "Interview with Sam Halpern by Brian Latell and Michael Warner," April 7, 1998, NARA 104-10324-1000. Church Committee (testimony of Swenson, May 10, 1976).
32. Juanita Castro, *Fidel y Raul Mis Hermanos: La historia secreta* (Aguilar, 2009), pp. 275-276. Regarding Ramón: Hoover Archives, Stanford University, Georgie Anne Geyer Collection, Box 13, (17) and suggestive reference in Juanita Castro.
33. "Dispatch: Operational/TYPIC/MHAPRON/AMCROAK: Views of Bernardo Milanes Lopez," NARA 104-10309-10007. Regarding recruitment: NARA 104-10308-10020.
34. Ibid.
35. "Operations to Split the Castro Regime", February 10, 1977, NARA 104-10103-10072.
36. Two of the oral histories are cited here; the third is by Ralph Weber, October 1987, NARA 104-10324-10002.
37. Memo for the Record, November 12, 1963, NARA 104-10306-10014. Briefing of the Joint Chiefs of Sta, July 1963, NARA 104-10307-10010.
38. "Fidel Castro's Growing Military Power," December 13, 1963, FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 728; Piero Gleijeses, *Conflicting Missions: Havana, Washington and Africa, 1959-1976* (University of North Carolina Press, 2002), pp. 41-44.
39. Gleijeses, *Conflicting Missions*, p. 44.
40. ONE Draft Memo, May 7, 1963, NARA 104-10307-10023.
41. "Memo for the Director, New Covert Policy and Program toward Cuba," April 19, 1963, FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 656.
42. Ibid.
43. Memo for the Director, "Cuba a Year Hence," April 22, 1963, FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 665.
44. Memorandum to the DCI from Desmond FitzGerald, NARA 104-10103-10086. "Cuban Missile Crisis and Aftermath," FRUS, Vol. 11, Supplement 634.
45. Ibid. "Contingency Plan for Cuba," October 31, 1963, NARA 104-10307-10007.
46. "Advertencia a Los Mandos Militares," *Bohemia*, April 5, 1963.
47. Mary McAulie, interview with Sam Halpern, NARA 104-10324-10003.
48. FRUS.
49. Author interview with Nestor Sanchez.
50. Ops cable from Porto Alegre to Director, September 7, 1963, NARA 104-10309-10006.
51. Ibid. Regarding photo: *Bohemia*, May 10, 1963.
52. Ibid.
53. Rockefeller Commission (testimony of Sanchez, May 19, 1975), NARA 178-10002-10335.
54. Interview with Halpern by Brian Latell and Michael Warner.
55. Helms.
56. Church Committee (testimony of Helms, June 13, 1975).

الفصل التاسع: عمل عظيم الشأن

1. Author interview with Nestor Sanchez. HSCA (testimony of Rolando Cubela). Author interview with Cubela.

2. Extracts: AMLASH Comments on 13 Cubans, NARA 104-10215-10328.
3. Ibid.
4. Fidel Castro interview, HSCA, April 3, 1978.
5. Charles Porter, "An Interview with Fidel Castro," *Northwest Review* (Fall 1963).
6. "Castro Assails Kennedy Tactics," *New York Times*, September 9, 1963.
7. The most complete rendition of the original wire service story I have been able to find appeared in the *Spokesman-Review*, Spokane, Washington.
8. Review of Selected Items in the Lee Harvey Oswald File, May 12, 1975, NARA 104-10322-10001.
9. Church Committee (testimony of Sam Halpern, April 22, 1976).
10. Church Committee testimonies. IGR.
11. Fidel Castro interview, HSCA, April 3, 1978.
12. AMTURVY Operation, NARA 104-10506-10031.
13. Arkady N. Shevchenko, *Breaking with Moscow* (New York: Knopf, 1985), p. 124.
14. Jack Bell, JFK Library OH. *Granma*, April 11, 2009.
15. Brian Latell and Michael Warner, interview with Sam Halpern, NARA 104-10324- 10000; Evan Thomas, *The Very Best Men* (New York: Simon & Schuster, 1995), p.200.
16. Briefing of the Joint Chiefs of Sta, July 31, 1963, NARA 104-10307-10010; Briefing by Mr. Desmond FitzGerald on CIA Cuban Operations and Planning, September 25, 1963, NARA 202-10001-10028.
17. Church Committee (testimony of Ted Shackley, August 19, 1975).
18. Briefing by Desmond FitzGerald, September 25, 1963;FRUS Cuba, Vol. 11, p. 871. Church Commission (testimony of Shackley), Thomas, *Very Best Men*, pp. 324-325.
19. TITLE? NIE 85-2-62, August 1, 1962, FRUS, Cuba, Vol. 11 Supplement 288.
20. Briefing by FitzGerald.
21. Church Committee, (testimony of AMLASH case ocer, July 29, 1975); Richard Helms, *A Look Over My Shoulder* (New York: Random House, 2003), p. 230.
22. Mary McAulie interview with Sam Halpern, Church Commission (testimony of Halpern, June 18, 1975).
23. "A Contingency Plan for a Coup in Cuba," October 31, 1963, NARA 104-10307-10007.
24. "Possible Soviet Reactions to an Anti-Castro Coup," October 28, 1963, NARA 104-10307-10020.
25. Note tk.
26. Chronology of Significant Documents in AMTRUNK File, NARA 104-10213-10262.
27. IGR. AMTRUNK Operation, February 14, 1977, NARA 1993.08.13.13:59:45:430028.
28. AMTRUNK Operation, April 25, 1977, NARA 104-10308-10186.
29. David Corn, *The Blond Ghost* (New York: Simon & Schuster, 1994), pp. 102-103; Operations to Split the Regime, February 10, 1977, NARA 104-10103-10072.
30. Al Burt, "Defector Reveals Anti-Castro Conspiracy," *Miami Herald*, October 20, 1963; Corn, *Blond Ghost*, pp. 113-114.

31. Stent is identified by name in the latest declassified version of the IGR. Author interview with Dave Laux.
32. Author interview with Sanchez.
33. CIA ops cable Paris to DIR, October 7, 1963, NARA 104-10215-10372.
34. Ops cable from Paris, NARA 104-10215-10381.
35. Evan Thomas, *Robert Kennedy: His Life* (New York: Simon & Schuster, 2000), p. 271. Church Commission (testimony of Helms, September 11, 1975).
36. Interview with Sam Halpern by Brian Latell and Michael Warner, April 7, 1998, NARA 104-10324-10000. Church Committee (testimony of Helms, June 13, 1975). Senate Select Committee Request (Charles Ford), September 4, 1975, NARA 104-10309-10014.
37. Helms, *Look Over My Shoulder*, p. 230. Chronology of Significant Documents. IGR.
38. Author interview with Cubela. Dean Rusk, JFKL/OH, March 30, 1970
39. Helms note tk.
40. Ops cable, October 11, 1963, NARA 104-10215-10381.
41. Special National Intelligence Estimate, "The Eects of Hurricane Flora on Cuba," November 5, 1963, FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 719.
42. FBIS, October 9 and October 21, 1963. Also Fidel speech, January 21, 1964, at Kremlin reception: "Over a thousand workers and peasants perished."
43. Castro speech, October 20, FBIS, October 23, 1963. Castro communiqué, October 12, 1963, FBIS October 14, 1963.
44. Ibid.
45. Ibid.
46. "Participacion Directa de la CIA en Ataques a Cuba," *Bohemia*, November 8, 1963.
47. Minutes of the Special Meeting of the Special Group, November 5, 1963, NARA 104-10306-10024.
48. Ibid.
49 Piero Gleijeses, *Conflicting Missions: Havana, Washington and Africa, 1959-1976* (University of North Carolina Press, 2002), p. 43.
50. Regarding the doctor: Views of Bernardo Milanes Lopez, NARA 104-10309-10007. Regarding El Salvador and the Dominican Republic: NARA 104-10247-10389. Regarding Che: *Cuba Socialista* (September 1963), and *Bohemia*, September 20, 1963. Regarding Argentina: Jon Lee Anderson, *Che* pp. 576-579.
51. Report on Cuban Propaganda, No. 11, FBIS, 21 November 1963; Report of the Investigation... OAS, February 18, 1964.
52. Church Committee (testimony of Helms, September 11, 1975); Helms, *Look Over My Shoulder*, p. 226; Daily Summary, December 9, 1963, NARA 104-10302-10019; Daily Summary, November 29, 1963, NARA 104-10302-10022. Nonetheless, some authors-not unreasonably-have speculated that the cache was actually planted by the CIA. But evidence provided by Rodriguez Lahera and a report by the U.S. Army General Counsel, indisputably confirm Cuban responsibility. See Interim Report by US Military on Venezuelan Arms Cache,

Deceember 23, 1963, NARA 198- 10004-10089 and Debriefing of Defector from Cuban Intelligence, (no date), NARA 104-10247-10389.

53. Helms, *Look Over My Shoulder*, p. 227.
54. Herbert Matthews, interview with Fidel Castro, Butler Library, Columbia University.
55. Ibid.
56. Tad Szulc, interview with Ramiro Valdés by Cuba Heritage Collection, University of Miami.
57. Richard Mahoney, *Sons and Brothers* (New York: Arcade Publishing, 1999), p. 286.
58. "Subject: Tepedino, Carlos," September 22, 1965, NARA 104-10183-10410. I appreciate the help of archivist Mary Kay Schmidt who helped me locate this document. Te-pedino took a second CIA polygraph exam on January 5, 1966. Report dated January 19, 1966, NARA 104-10183-10271.
59. Church Committee, Book V-The Investigation of the Assassination of President John F. Kennedy: Performance of the Intelligence Agencies," pp 78-79.

الفصل العاشر: عقول العظماء

1. Church Committee (testimony of Ted Shackley), August 19, 1975. Church Committee (testimony of Harold Swenson, May 10, 1976).
2. Richard Helms, *A Look Over My Shoulder* (New York: Random House, 2003).
3. Contact Plan for Dainold Meeting with AMLASH, NARA 104-10215-10365.
4. Ibid.
5. Helms.
6. Author interview with David Laux. Evan Thomas, *The Very Best Men* (New York: Simon & Schuster, 1995), p. 302.
7. Author interview with Rolando Cubela. IGR.
8. Memo for the Record, November 13, 1963, NARA 104-10215-10364. Church Committee (testimony of Nestor Sanchez, July 29, 1975), IGR; Rolando Cubela, HSCA testimony, August 28, 1978.
9. IGR. Church Committee (testimony of Sanchez).
10. IGR. Letter to Robert Blakey with attachment, NARA 104-10400-10090.
11. Interview with Sam Halpern by Dr. Mary McAulie, January 15, 1988 NARA 104-10324-10003 Church Committee (testimony of Scott Breckinridge), Thomas, The Very Best Men.
12. Joseph Burkholder Smith, *Portrait of a Cold Warrior* (New York: Ballantine Books, 1976), pp. 377-378; Thomas, p. 303.
13. Entire AMLASH Group Insecure, June 23, 11965, NARA 104-10216-10403; Victor Dominador Esponosa, June 12, 1965, NARA 157-10004-10240; Castro University Speech, FBIS, March 14, 1966.
14. Operational AMLASH/AMOT, July 29, 1969, NARA 104-10216-10027; Operational lead/ Cuba, May 20, 1980, NARA104-10216-10003.
15. IGR.

16. Castro on US Subversion and Hurricane, FBIS, October 31, 1963.
17. Ibid; "Presento Fidel Las Pruebas de un Siniestro Complot de la CIA," *Bohemia*, November 8, 1963.
18. "Presento Fidel Las Pruebas..."
19. Ibid.
20. Participacion Directa de la CIA en Ataques a Cuba, *Bohemia*," November 8, 1963; Juan Antonio Rodriguez Menier, *Cuba Por Dentro* (Miami, Ediciones Universal, 1993).
21. Fidel Castro's Growing Military Power, CIA, December 13, 1963, FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 728.
22. Ibid. "Millon y Medio de Hombres al Servicio Militar Obligatorio: Texto Completo del Proyecto de Ley, *Bohemia*, November 15, 1963; WAVE 7356, NARA 104-10308-10017. Daily Summary, December 9, 1963, NARA 104-10302-10019.
23. Fidel Castro's Growing Military Power.
24. Regarding Cubela's position in regime: Church Committee (testimony of Sanchez).; Church Committee (testimonies of Weatherby).
25. AMWHIP meeting; New York, NARA 104-10295-10154. IGR.
26. Plans for AMLASH contact, November 19, 1963, NARA 104-10215-10360;
27. Ibid.; Church Committee (testimony of Sanchez).
28. Ibid.
29. Church Committee (testimony of Sam Halpern, June 18, 1975).
30. Contact Report, November 25, 1963, NARA 104-10215-10227. Author interview with Nestor Sanchez.
31. Ibid.
32. *Miami Herald*, November 19, 1963.
33. Ibid. Statement of Fact, November 12, 1963, NARA 104-10307-10008. McCone calendar, NARA 104-10306-1000; "Suggestions for Additional Administration Statements on Cuba," FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 723.
34. Church Committee (testimony of Sanchez). Author interview with Rolando Cubela; Cubela HSCA interview, August 28, 1978.
35. Cubela HSCA interview.
36 IGR.
37. Jean Daniel, "When Castro Heard the News," *New Republic*, December 7, 1963.
38. Ibid.
39. Ibid.
40. Tad Szulc, interview with Fidel Castro, January 28, 1984, UM CHC.
41. Jean Daniel, "Unocial Envoy: An Historic Report from Two Capitals," *New Republic*, December 14, 1963. Author interview with Jean Daniel.
42. Ibid.
43. Ibid.
44. James Reston, "Kennedy and His Critics on Cuba," *New York Times*, April 21, 1963; Author interview with Jean Daniel.

45. Box 40, Chrono, James Donovan papers, Hoover Archives, Stanford University. H. Keith Melton and Robert Wallace, *Spycraft* (New York, Dutton, 2008) numerous citations. Gertrude Samuels, "How Metadiplomacy Works," *New York Times Magazine*, April 13, 1963.
46. Richard Helms memo to McGeorge Bundy, August 27, 1963, NARA 104-10310-10244. Memo from Helms to McCone, June 5, 1963, FRUS, Cuba, Vol. 11, Supplement 685
47. Daniel, "Unocial Envoy." John Nolan, "Notes of April, 1963 visit to Cuba and meetings with Castro."
48. Daniel, "Unocial Envoy."
49. Author interview with Daniel.
50. Herbert Matthews papers, Box 27, Butler Library, Columbia University.
51. FRUS Cuba, Vol. 11, p. 780.
52. "The Situation and Prospects in Cuba," NIE, June 14, 1963, FRUS Vol. 11, Supplement68.
53. Matthews interview with Fidel Castro.
54. Graham Greene, "Return to Cuba, *New Republic*, November 2, 1963.
55. Arthur Schlesinger letter to Tad Szulc, March 3, 1986, Szulc collection, CHC, UM.
56. Castro's Fourth Anniversary Speech, FBIS, January 3, 1963.
57. Juan Antonio Rodriguez Menier, *Inside the Cuban Interior Ministry* (Washington, DC: Jamestown Foundation, 1994).
58. Robert Dallek, *An Unfinished Life* (Boston: Little, Brown, 2003), p. 664.
59. Ted Sorensen, *Counselor: A Life at the Edge of History* (New York: HarperCollins, 2008), p. 352; Interview with Sam Halpern by Dr. Mary McAuliffe.
60. Inigo Thomas, "A Night in Havana," *George* (October 1999). Fidel Castro and Ignacio Ramonet, *Fidel Castro: My Life* (New York: Scribner, 2006, p. 591).
61. Daniel, "When Castro Heard the News."
62. Daniel, "Unocial Envoy."

الفصل الحادي عشر: مؤامرة الصمت

1. Gus Russo and Stephen Molton, *Brothers in Arms: The Kennedys, the Castros, and the Politics of Murder* (New York: Bloomsbury USA, 2008), p. 457.
2. Fidel Castro and Ignacio Ramonet, *Fidel Castro: My Life* (New York: Scribner, 2006), p. 289. Fidel Castro, HSCA interview, April 3, 1978. Regarding the essay: HSCA report on Lee Harvey Oswald's trip to Mexico City, NARA 180-10110-10484.
3. Castro, HSCA interview.
4. G. Robert Blakey and Richard N. Billings, *The Plot to Kill the President* (New York: Times Books, 1981), p. 148.
5. HSCA report on Oswald.
6. Ibid. NARA 180-10117-10098.
7. Alexander Haig with Charles McCarry, *Inner Circles: How America Changed the World* (New York: Warner Books, 1992) pp. 115-116.
8. Max Holland, *The Kennedy Assassination Tapes* (New York: Knopf, 2004), p. 424-426.
9. HSCA (testimony of Richard Helms, September 22, 1978). Warren Commission (testimony of

Richard Helms, May 14, 1964). HSCA (testimony of Ray Rocca), NARA 180-10110-10004. Church Committee (testimony of James Angleton),

10. HSCA (testimony of Maria Teresa Proenza, August 28, 1978), NARA 180-10115-10106. Juan Antonio Rodriguez Menier, *Inside the Cuban Interior Ministry* (Washington, DC: Jamestown Foundation, 1994), p. 42.
11. Re Calderon not a CIA asset-CIA letter to Robert Blakey, HSCA, February 15, 1979, NARA 104-10079-10040.
12. Albert H. Newman, *The Assassination of John F. Kennedy*, (New York, Clarkson N. Potter, 1970), p. 27.
13. Vincent Bugliosi, *Reclaiming History* (New York: Norton, 2007), p. 770.
14. Ibid., pp. 765 and 771.
15. *Warren Commission Report*, September 24, 1964, reprinted, Saint Martin's Press. 414.
16. Bugliosi, *Reclaiming History*, p. 783
17. Ibid., p. 785.
18. Oswald Address Book, Warren Commission Exhibit 18, p. 47, NARA.
19. Respuesta al Cuestionario del Comite Selecto sobre Asesinato de la Camara del Congreso de los Estados Unidos a Luisa Calderon, NARA 180-10105-10341; Cable from Mexico City, December 3, 1963, NARA 104-10213-10367.
20. Ibid., pp. 1282, 1294.
21. Memo for the Record, STEEL-1, NARA 104-10308-10197.
22. Jorge Masetti, *In the Pirate's Den* (San Francisco: Encounter Books, 2002), pp. 126-127, 109.

كلمة أخيرة

1. Political Action Operation in Cuba, the Proenza Case, NARA 104-10145-10381. NARA 104-10276-10049, 104-10052-10096, 104-10079-10291, and 103-10074-10303.
2. Political Action Operation in Cuba.
3. Ibid.
4. CIA report, The Following List of Personnel were Stationed in Mexico City, NARA 104-10307-10067. Church Committee (testimony of John Scelso), David R. McLean, Western Hemisphere Division, 1946-1965, NARA 104-19391-10001; Request for Project Renewal, NARA 1104-10052-10208; Manuel Vega Perez, July 31, 1963, NARA 104-10276-10045; Cable Mexico City to Director, July 11, 1963, NARA 104-10276-10049.
5. Political Action Operation in Cuba.
6. Ibid.
7. Ibid; Teresa Proenza, "Homage to Diego Rivera," *Mainstream*, March 1958.
8. Maria Teresa Proenza, HSCA interview, NARA 180-10115-10106. Miguel Barroso, *Un asunto sensible* (New York: Random House Mondadori, 2010).
9. Vincent Bugliosi, *Reclaiming History* (New York: Norton, 2007), p. 1050. David A.Phillips, *The Night Watch* (New York: Athenaeum, 1977), p. 133.

10. Ted Shackley, *Spymaster: My Life in the CIA* (Dulles, VA: Potomac Books, 2005), p. 18.

11. Philip Agee, *Inside the Company* (New York: Penguin, 1975), p. 532.

12. S. D. Breckinridge Memo for the Record, September 20, 1978, NARA 104-10322- 10138. General Escalante on Kennedy Assassination, FBIS, December 28, 1993. Bugliosi, *Reclaiming History*, pp. 1200-1201.

13. John Earl Haynes, Harvey Klehr, and Alexander Vasiliev, *Spies* (New Haven, CT: Yale University Press, 2009), p. 541.

14. Dom Bonafede, "Castro's Spy Network Reaches Deep in U.S.," *Miami Herald*, September 8, 1963.

15. Bill Gertz, *Enemies: How America's Foes Steal Our Vital Secrets- and How We Let it Happen*, (New York, Crown Forum, 2006) p. 216; Scott W. Carmichael, *True Believer* (Annapolis, MD, Naval Institute Press, 2007), p. 29 & 157-158.

16. Juan Tamayo, "US Now has Zero Tolerance for Cuban Spies," *Miami Herald*, June 14, 2009.

17. Carmichael, *True Believer*, pp. 16-8-18.

18. Carmichael, *True Believer*.

19. Ibid., p. 32.

20. Ibid.